دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة



شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم

الجزء الأول



دور أهل البيت
في بناء الجماعة الصالحة

دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة

الجزء الأول

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره



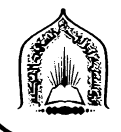
اسم الكتاب: دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة

الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

المطبعة: العترة الطاهرة

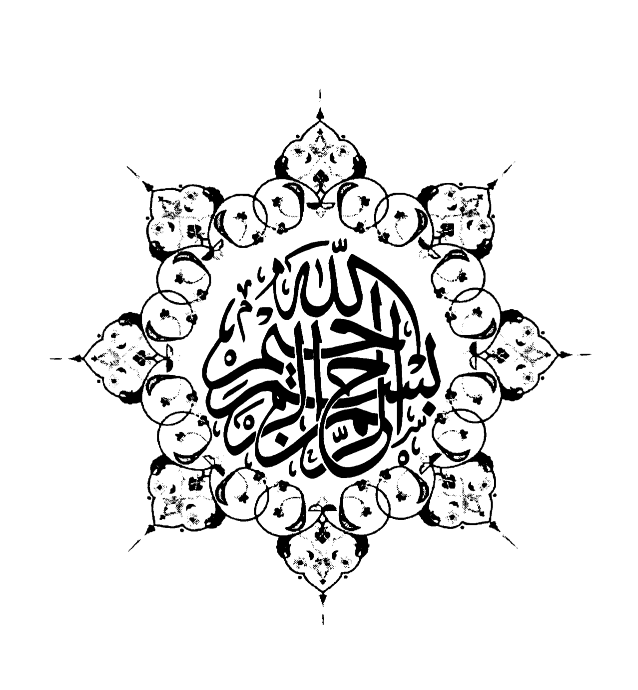
الطبعة: الرابعة

الكمية: ٥٠٠٠ نسخة



النجف الأشرف

ربيع سنة ٢٠٠٧م


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين.

حين تتعدد الآراء والأفكار والاتجاهات في الأمم والشعوب، وكإفراز ونتاج طبيعي لمثل هذه الحالة تتعدد القيادات ويفرز كل اتجاه قادته، الذين يحركون على مستوى الواقع الأهداف والشعارات التي ترفعها جماعتهم في محاولة لتعميمها أو إيجاد مساحة أوسع لها في المجتمع.

ويختلف الإسلام في عملية إفراز واصطفاء القادة لهذه الأمة الوسط؛ وذلك باعتبار واقعيته من جهة، والمنهج الإلهي في تسيير حياة المجتمع وفق أهداف تتعدى حدود الحياة القصيرة للإنسان على الأرض من جهة أخرى.

ففي الوقت الذي يعطي الإسلام منهجاً متكاملاً وراقياً في مسار الحياة، وفي مختلف الأبعاد، نراه يربط المجتمع والفرد ويشدّه نحو الخلود والتكامل، بما لا يوفره غيره في مسيرة السعي لتحقيق الأهداف؛ ولذا اصطفى الله تعالى قادة المجتمع من الأنبياء والرُسل والأئمة المعصومين الهداة ليكونوا حجته تعالى على الخلق، ويضطلعوا بدور إرشاد العقول، وتصحيح إدراكاتها على أسس العقيدة السليمة.

وكان أهل البيت عليهم السلام القادة الذين اختارهم الخالق عزّ وعلا للناس؛ ليقوموا بدور تبيان حقيقة التوحيد وآثاره، وتوضيح معايير الإيمان وقوانين

الفرقان في كل تشكيلات الحياة ببعديها المادي والقيمي.

ورغم إبعاد الأئمة المعصومين الهداة عليهم السلام عن مراتبهم الحقيقية من قبل أطراف النزاع على السلطة والحكم من مختلف اتجاهات المصالح الفاسدة، على مرّ العقود الزمنية التي عاشها المعصومون عليهم السلام، وما وقع عليهم من الظلم والقتل الذي أصبح عادة لهم ولأبنائهم، إلاّ أنهم عليهم السلام لم يتنحوا عن الطريق وبقوا على ميثاقهم مع الله تعالى، واضطلعوا بأدوارهم الرائدة في إرشاد الأمة وهدايتها.

ومن جملة ما عملوا عليه، هو بناء كتلة صالحة قويّةٍ قادرة على تغيير سلوكيات المجتمع الإسلامي نحو القيم القرآنية والاتجاه الصحيح في كل مسالك الحياة، فكانت هذه الجماعة ونسبتها للمجتمع الإسلامي كنسبة الملح إلى الطعام. فهم الحكماء العلماء الذين لا تذهب بهم المذاهب، وإذا غضبوا لم يظلموا، وإذا رضوا لم يسرفوا، بركةً على محيطهم، وسلم لمن جاورهم وعاش بينهم، ملتزمون بمبادئ القرآن الكريم في مجمل حركتهم في الحياة.

ولأهمية موضوع الجماعة الصالحة، ودور الأئمة المعصومين في بنائها داخل المجتمع انبرى شهيد المحراب آية الله السيد محمد باقر الحكيم قدس سره لتوضيح ذلك الدور الكبير لأئمة الهدى عليهم السلام، الذين هم امتداد لرسول الله المصطفى صلى الله عليه وآله. وقد ربط سماحته بين التاريخ الإسلامي والحاضر، وفق معطيات المنهج القرآني، واعتبارات ثبات الاتجاه الإلهي، وانطباق مبادئ وقيم المواصفات القرآنية على كل مقطع زمني وبشري يحلّ في الحياة ويتحرك على الأرض.

واستطاع قدس سره، وفق نظرةٍ قرآنية وعلمية، توضيح كل ما يتعلق بهذه الجماعة عبر أدوار التاريخ الإسلامي، وطرحها بشكل سهل يسير من

جانب، وعلمي رصين ودقيق من الجانب الآخر، ليكون في متناول الناس سهل يسير الفهم، ينمّي في ذات الوقت الرابط والولائية بالإسلام ورسوله الكريم والأئمة الأطهار، فكان جهداً مميّزاً.

نسأله تعالى أن يجعله عاملاً على إنماء المكتبة الإسلامية تعميماً للفائدة الكبيرة، باعتبار الحاجة إليه في عصرنا الراهن والأجيال اللاحقة.

ونظراً لنفاد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، بادرت مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره بمراجعته وإعادة طبعه من جديد. سائلين المولى عز وجل قبول الأعمال وزيادة أجر وثواب شهيد المحراب قدس سره.

دائرة التأليف والتحقيق

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره



كلمة المجلة

الإسلام هو دين الله الأكمل، الذي جاء ليستوعب بأصوله وتشريعاته كل جزئيات الحياة وتفاصيلها، وليصوغ بأنظمته الرائدة نسيجاً متكاملاً يغطّي جميع احتياجات الإنسان، ويهدي مسيرته في كل مجال من مجالات حركته في هذه الحياة، سواء ما كان منها مرتبطاً بكيانه المادي، أم ما هو متعلق بجانبه الروحي، وسواء كان ذلك ضمن إطار فرديته الخاصة، أم ضمن كونه جزءاً من كل كبير مترابط ترابطاً عضوياً متيناً.

وإنّ من أبرز القضايا التي أولاها الإسلام الحنيف كبير عنايته، وفائق اهتمامه، قضية بناء المجتمع الإسلامي الأمثل، وإقامته على أُسس محكمة قويمة، تضمن تماسكه وثبوته، وتديم سلامته من أي خلل أو وهن.

ولاشك أنّ الرسول الأكرمﷺ قد بذل كل ما يملك من وسع في سبيل تحقيق ذلك الهدف السامي، وتبدو هذه الحقيقة جلية من خلال نظرة متأملة إلى هيكلية المجتمع المسلم الذي أنشأهﷺ في تلك المدة من عمره الرسالي المبارك. حيث يلاحظ حجم ومضمون التحوّل الإيجابي الكبير الذي طرأ على ذلك البناء في ظرف عشرين من السنين (الشطر العلني من تأريخ الدعوة النبوية)، وهو البناء الذي كان يعيش قبل بدء هذه الدعوة حالة فاحشة من التخبّط في ظلام الشرك بالله سبحانه، والضلال عن سبيل الرشد والحق، بما أفرزته تلك الحالة من بعد شاسع عن قيم الأخلاق ومُثلها،

وتمزّق فاضح في أوصال ذلك المجتمع الغارق في أوحال العصبية وحمية الجاهلية.

ثم كان الدور الريادي الراشد الذي قام به أئمة أهل البيت المعصومون عليهم السلام في هذا المضمار الشائك، إذ لم يألوا صلوات الله عليهم جهداً في تقديم كل ما كانوا يستطيعون من أجل استمرار ذلك الخط، الذي تحملوا وظيفة مواصلته ضمن مهمة نهوضهم برسالة النبي صلى الله عليه وآله من بعده، وحفاظهم على شريعته من التحريف والتزييف.

ومما يلاحظ في هذا الباب أُمور:

١. الممارسة العملية الفذّة التي خاضها أولئك الأئمة الطاهرون عليهم السلام، ضمن أبعاد البناء الاجتماعي، حيث امتزجوا بالأُمة امتزاجاً واقعياً موجّهاً هادفاً، بما حملوا من إمامة هادية، ومسؤولية كبرى أدّوها أسمى أداء في سعيهم التغييري الشامل لهندسة هذا البناء.

٢. الكمّ الواسع من نصوص الروايات التي رسمت أدقّ تفاصيل العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم، ووضعت الأُسس المتينة لقيامه كتلة واحدة تحقق مبدأ الخيرية في قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[1]، وشخّصت نقاط الضعف والنقص التي تعترض سيره التكاملي، من أجل علاجها، وتلافي حدوثها.

٣. الجهود المضنية التي بذلوها عليهم السلام للحفاظ على سلامة تكوين هذه الأُمة، ودرء خطر التمزّق والتفرّق عن كيانها، وبقائها جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولبيان معالم هذه الأُطروحة الرسالية لأهل بيت النبوة والعصمة عليهم السلام في هذا المجال كان سعي مجلة رسالة الثقلين لإخراج وتقديم الجزء الأوّل من

---

(١) آل عمران: ١١٠.

كتاب فريد في هذا الباب تحت عنوان «دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة» ضمن سلسلة كتاب الثقلين المباركة.

إنّ هذا الكتاب هو في الواقع سفر جليل خطه قلم العلم والتحقيق، ويراع الفكر والإبداع لسماحة العَلَم السيد محمد باقر الحكيم، الذي بذل فيه جهداً كبيراً من أجل إبراز هذا الجانب الخصب من حياة أئمة الهدى عليهم السلام. حيث بحث فيه حركتهم الشاملة في إطار الدائرة الاجتماعية، وعرض النظرية الإسلامية المتكاملة التي خطّوا فصولها، وأحكموا ربط أجزائها، لتخرج بمنهاج واضح المعالم لإقامة صرح الأُمة الخَيِّرة، وتحصينه من الضعف والانهيار.

وختاماً نأمل أنْ نوفق في أقرب فرصة لتقديم الجزء الثاني من هذا الكتاب القيّم، الذي تمّ إعداده الأولي بتسديد الله وتوفيقه.

التحرير

مقدمة المؤلف

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة على سيد الأنبياء محمد وعلى آله الطاهرين.

أُطروحة أهل البيت عليهم السلام وأهميتها:

وبعد، فإنّ وجود أُطروحة أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية من أهم الأُطروحات الإسلامية ذات الأبعاد المتعددة، العقائدية والفكرية والثقافية والتأريخية والاجتماعية.

فهم عليهم السلام امتداد للنبوة في خط الإمامة، وولاة الأمر الذين أوجب الله طاعتهم وولايتهم ومودتهم[1].

كما أنهم عِدْلُ القرآن الكريم الذي هو الثقل الأكبر، وأهل البيت عليهم السلام الثقل الآخر الذي لن يفترق عن القرآن، بل هم علماء القرآن - أيضاً - يفسرونه ويوضحونه ويبينونه ويكشفون غرائبه ويستخرجون كنوزه.

وفي الوقت نفسه هم حملة السنّة النبوية في تفاصيلها ومصاديقها، ويعرفون ما تؤول إليه الآيات والأحاديث في حاضرها ومستقبلها.

كما أنّهم الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة في الاستقامة والصبر، وسعة الصدر وحُسن الخلق، والمنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والجهاد في سبيله بالنفس والمال، والاستعداد للتضحية

---

(١) لقد أوضحنا ذلك نظرياً وتطبيقياً مع الاستدلال عليه في كتابنا (الإمامة).

بالغالي والرخيص من أجل الدفاع عن الحق والعدل ونصرة المظلومين ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

ولذلك فقد تحمل أهل البيت عليهم السلام أعباء مسؤوليتهم الرسالية لا تأخذهم في سبيل النهوض بها لومة لائم، فسجلوا في التأريخ والمجتمع الإسلامي حضوراً قيادياً فاعلاً ومؤثراً وقاموا بالإنجازات العظيمة طيلة حياتهم في جميع الميادين: الروحية والسياسية والعلمية والأخلاقية، يدافعون عن الإسلام والمسلمين في مواجهة أعدائهم الداخليين والخارجيين من: الحكّام المنحرفين والمنافقين، والسياسيين الانتهازيين، والزنادقة الملحدين، وأصحاب البدع والضلالات، وعلماء السوء، واليهود والنصارى والمفسدين.

أهل البيت عليهم السلام الركن الأهم

إنَّ هذه الأبعاد والخصائص التي يرتبط بعضها بالآخر تؤكّد أهمية هذا الطرح الإسلامي، وفي الوقت نفسه توضّح ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام وغيرهم، وما أشار إليه القرآن الكريم من أنهم يمثلون أحد (الأركان الأساسية) التي بُني عليها الإسلام، بل هم (الركن الأهم) فيها.

وهذا الامتياز وذلك الموقع الخاص لأهل البيت عليهم السلام حقيقة يكاد أنْ يجمع عليها جميع المسلمين، وإنْ اختلفوا بعد هذا في الكثير من التفاصيل، سواء في عمقها أم سعتها أم وضوحها.

ويكشف عن هذه الحقيقة - مضافاً إلى نصوص الآيات والروايات الصحيحة المتواترة والكثيرة - مشاعر التقدير والاحترام والتسليم والحب والولاء التي يكنها جميع المسلمين - عدا النواصب - لأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) الأحزاب:٣٣.

مع أنّ مجرى الأحداث التأريخية التي عاشها أهل البيت عليهم السلام كانت بالاتجاه المعاكس لنفوذهم السياسي والمعنوي والمضاد، لوضوح هذه الأُطروحة والاعتراف بها، لأنّ ما تعرَّض له أهل البيت عليهم السلام من قتل وتشريد ومحاصرة مادية ومعنوية، وبشكل متواصل طيلة قرون من الزمن على يد الأمويين والعباسيين والعثمانيين، كان يفرض القضاء - أو فرض العزلة على الأقل - عليهم وعلى مدرستهم في المجتمع الإسلامي.

ولكن نلاحظ - مع ذلك كله - هذا الواقع المعنوي الواسع الذي يتمتع به أهل البيت عليهم السلام في صفوف المسلمين، وليس ذلك إلاّ بسبب وجود هذه الحقيقة الإلهية لأهل البيت عليهم السلام في أصل النظرية الإسلامية، ثمَّ تأكيدها من خلال القرآن الكريم والسنّة النبوية، وإدراك المسلمين لها من ناحية، والجهود والخدمات العظيمة التي قام بها أهل البيت عليهم السلام للإسلام والمسلمين، بحيث فرضت نفسها على الواقع التأريخي لهم على رغم كل العوامل المضادة.

كما أنّ هذا الواقع الإيجابي من المسلمين تجاه أهل البيت عليهم السلام، هو الذي يفسّر لنا هذا العدد الكبير من الدراسات والكتب والأبحاث الخاصة بهم، التي تناولت هذا الموضوع الإسلامي من قبل علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم، أو وجود الاعتراف بهذه الحقيقة في مطاوي كتب المعارف الإسلامية في الفقه والتفسير والحديث والتأريخ وغيرها، بحيث لا نكاد نستثني منها أي كتاب.

ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة التأريخية - ظاهرة الاعتراف بهم بكل ملابساتها - بصورة منطقية ومقبولة إلاّ على أساس العقيدة الإمامية الاثني عشرية في أهل البيت عليهم السلام، حيث يرون فيهم (الركن الأساس) الذي يقوم عليه بناء الإسلام - الرسالة الخاتمة - الذي تعهّد الله سبحانه وتعالى بحفظه

وبقائه، وأهل البيت عليهم السلام يمثلون الامتداد الطبيعي والاستمرار والبقاء لهذه الرسالة في مضمونها ومسؤوليتها، وإنْ لم يتصف هذا الامتداد بالنبوة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: ((**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي**))[١].

فأهل البيت عليهم السلام امتداد للمضمون، لأنهم عدل القرآن ومفسروه، ولأنهم حملة السنَة النبوية بكل تفاصيلها، وأهل البيت عليهم السلام امتداد للمسؤوليات؛ لأنهم أئمة الهدى وأعلام التقى، والمبلغون عن رسول الله وولاة الأمر من بعده.

فكما قدّر لهذه الرسالة الخاتمة أن تبقى وتستمر، فلابد أن يبقى أهل البيت عليهم السلام حقيقة قائمة ومؤثرة في المجتمع الإسلامي، وهذا هو الواقع الذي لا يمكن لأي باحث أن ينكره مهما تمادى في المكابرة والهروب من الحقيقة والواقع.

حقيقة دور أهل البيت عليهم السلام

ولكن - مع كل ذلك - يبقى سؤال مهم وهو: ما هي حقيقة الدور الذي قام به أهل البيت فعلاً في الحياة الإسلامية؛ مع وجود هذا الموقع المتميَز الخاص لهم عليهم السلام في النظرية الإسلامية وفي الواقع الروحي والاجتماعي عند المسلمين؟

ويكون الجواب - عادة - بذكر دورين رئيسيين:

الأوّل: الخلافة وولاية الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثاني: المرجعية الفكرية والدينية في كل الشؤون ذات العلاقة بفهم الرسالة وتفاصيلها.

---

(١) الكافي٨: ١٠٧، ح٨٠.

ولذلك نجد أنّ غالبية الأبحاث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع بصورة وأُخرى ركّزت على هذين الأمرين الرئيسيين.

ولكن حصر دور أهل البيت عليهم السلام بهذين الأمرين الرئيسيين - على أهميتهما العظمى من الناحية النظرية والتصور العام للرسالة الإسلامية - يثير إشكالاً كبيراً من الناحية العملية الخارجية، وهو أنَ هذا الحصر - خارجياً وواقعياً - يعني أنَ هذا (الركن الأهم) في الإسلام - وهم أهل البيت - قد تم تعطيله وتقليصه - حتى الآن - إلى حدٍّ كبير في الحياة الإسلامية، حيث أُبعد أهل البيت عليهم السلام عن دور الخلافة وولاية الأمر خارجياً باستثناء السنوات القليلة لخلافة الإمام علي وولده الإمام الحسن عليهما السلام، وكذلك نرى أنّ هذه (المرجعية) الفكرية والدينية لا يأخذ بها المسلمون - باستثناء الإمامية الاثني عشرية - إلاّ أخذاً محدوداً جداً.

ويزيد هذا الإشكال أنّ هذه الدراسات التي تناولت هذين الأمرين الرئيسيين - وهي أبحاث قيمة وجديرة بالاحترام والتقدير - اقتصرت في غالبيتها على عنصر إثبات هذه الولاية والمرجعية تقريباً، دون أنْ تولي أهمية خاصة لتفسير هذه النظرية، أو لبيان الدور المهم الذي كان من الممكن أنْ تؤديه هذه الإمامة وهذه المرجعية في الحياة الإسلامية، وعلاقتهما النظرية بالرسالة الخاتمة وسائر الرسالات الإلهية وأهدافها المقدسة، مع أنّ أهل البيت عليهم السلام أنفسهم - في أحاديثهم - عندما تناولوا هذا الموضوع أكّدوا هذا الدور المهم وهذه العلاقة النظرية تأكيداً واسعاً.

التطوير في الدراسة عن أهل البيت عليهم السلام

ولذلك فنحن بحاجة - من أجل تفسير هذا الواقع المتميز لأهل البيت عليهم السلام من النظرية الإسلامية ولدى المسلمين - إلى تطوير نوعي في

الأبحاث والدراسات حول أهل البيت عليهم السلام يهتم اهتماماً خاصاً باكتشاف وتفسير جميع أبعاد دورهم عليهم السلام في الحياة الإسلامية من ناحية، والتركيز على جانب علاقة هذه الأبعاد بالنظرية الإسلامية من ناحية أُخرى.

وهنا يحسن بنا أنْ نشير إلى بعض هذه الأبعاد في الدراسات المتطورة:

الأوّل: تفسير وتوضيح جميع الأهداف الإسلامية من وراء إرساء فكرة أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية، بحيث تؤكد من خلالها مبدأ خاتمية الرسالة الإسلامية، ومبدأ تحقيق هذه الرسالة لأهدافها عملياً، ولو تحقيقاً إجمالياً.

الثاني: توضيح جانب الارتباط بين هذا (الركن الأهم) للإسلام والأركان الأُخرى، بحيث يظهر التكامل في أركان النظرية الإسلامية، والانسجام في البناء والأهداف والنتائج.

الثالث: إيضاح الارتباط بين المواصفات الخاصة، ونقاط الامتياز العقائدية والفكرية التي يختص بها مذهب أهل البيت عليهم السلام دون بقية المذاهب الإسلامية، وبين هذا الفهم للنظرية الإسلامية الذي يقوم على أساس فكرة إمامة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في الحياة الإسلامية.

فمثلاً ما هو الارتباط بين مثل هذه الأُمور: (العصمة) و(التقية) و(الشفاعة) و(التأويل) و(البداء) و(الخمس في أرباح المكاسب) و(زواج المتعة)، وغيرها من الأفكار والتشريعات الإسلامية التي اختص بها مذهب أهل البيت عليهم السلام وبين (الإمامة) هذا الركن الأساس في النظرية الإسلامية؟

وهل الاختلاف هو مجرّد اختلاف في رأي عقائدي أو فقهي، ثم تحول إلى صراع سياسي عقائدي، أم لهذه القضايا والأفكار ارتباط وثيق بأصل النظرية فانعكس ذلك على صراع في المجتمع الإسلامي؟

الرابع: بحث الارتباط العملي والنظري - على أساس المصالح الإسلامية

والأهداف العالية - بين المواقف والنشاطات المتعددة الأشكال، والظواهر التي قام بها أئمة أهل البيت عليهم السلام في العهود المختلفة للمجتمع الإسلامي.

فإنّ أهل البيت عليهم السلام لما كانوا فكرة وأُطروحة إلهية للرسالة الخاتمة، فلابدّ أنْ نفترض - والأمر كذلك - أنّهم يتحركون من رؤية واحدة للأفكار والأحداث والحقائق الاجتماعية (المصالح والمفاسد الواقعية) التي تترتب عليها المواقف، فهم في هذا الجانب كالأنبياء الذين نفترض فيهم أنهم لو اجتمعوا في زمان واحد، لما اختلفوا في رؤاهم ولا في أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم.

ولكن مع ذلك نجد أنّ هناك اختلافاً واضحاً بيناً - في بعض الأحيان - في شكل وصورة هذه المواقف، وأحياناً في الأقوال والسلوك والمنهاج والأُسلوب، كما هو الحال في الأنبياء أنفسهم.

إذن فما هو الرابط الواحد الذي يمكن أنْ نستنبطه من أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم وسلوكهم، بحيث يكوّن النظرية التي يمكن أنْ يفسّر كل ذلك الاختلاف على أساسها؟ كما نلاحظ ذلك في القرآن الكريم عندما يتحدث عن الأنبياء.

ولاشك أنّ ما قام به علماء الإسلام من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فضلاً عن النصوص التي صدرت عن أهل البيت عليهم السلام لمعالجة كل هذه القضايا، يمكن أنْ يشكّل أساساً وتراثاً مهماً لمثل هذه الدراسات المتطورة.

ولعلّ أحد أهم عناصر التجديد و(التطوير) في البحث حول أهل البيت عليهم السلام، الذي يصب في هذا الاتجاه، هو ما بدأه أُستاذنا المفكر الإسلامي الكبير آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضي الله عنه، فيما كتبه أو ألقاه من دروس عن أهل البيت عليهم السلام، ولكن هذه الأبحاث لم يكتب لها - مع الأسف الشديد - الكمال في الكم والكيف، بعد أنْ اغتالت يد الإجرام

الوحشي والفساد في الأرض هذا العالم الرباني العظيم[1].

وهذه الدراسات تحتاج بطبيعة الحال إلى بحوث تمهيدية واسعة ومهمة، تشكل بمجموعها (موسوعة أهل البيت عليهم السلام الكبيرة) تتناول فيما تتناول بحث (التراث الفكري والتأريخي والأخلاقي والعقائدي) الموروث عن أهل البيت عليهم السلام، والمبثوث في كتب الحديث والتفسير والأخلاق والدعاء والزيارة.

إنه بالرغم من تكامل وتطور البحث في القواعد والأُصول التي يقوم عليها البحث في هذه الموضوعات من ناحية، وكذلك تطور البحث فعلاً في مجالات الفقه والأصول والرجال والتفسير من ناحية أُخرى، أصاب البحث في الموروث عن أهل البيت عليهم السلام في المجالات المذكورة أعلاه كثير من الركود والجمود، ولم يتطور بالقدر الذي تطورت به الأبحاث الفقهية والأُصولية والرجالية.

وبدون ذلك سوف يعتمد البحث النظري على المادة الأولية التي يختلط فيها الغث بالسمين، والمطلق بالمقيد، والعام بالخاص، والمحكم بالمتشابه، والمجمل بالمبين ...وهكذا.

أو أنْ يعتمد البحث على النتائج العلمية (التقليدية) التي توصل إليها العلماء السابقون، وهي نتائج - على أهميتها وقيمتها العلمية - حدسية، تم استنباطها في ظروفها وبرؤية تجزيئية.

---

(١) لقد قامت حكومة صدام العفلقي التكريتي في سنة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) بقتل الشهيد الصدر، وأخته الفاضلة العلوية بنت الهدى، صبراً دون ذنب ارتكباه إلاّ أنْ قالا ربنا الله ثم استقاما، كما قتل قبلهما وبعدهما عشرات الآلاف من المؤمنين الصالحين، في عملية تصفية واسعة للوجود الإسلامي في العراق استمرت أكثر من سبعة عشر عاماً حتى الآن. منه قدس سره.

أو أنْ يقوم الباحث بجهد استثنائي - لا يتيسر عادة لشخص واحد - يستأنف فيه البحث في التراث من أجل تكوين النظرية حول هذه الأطروحة.

آفاق البحث في أطروحة أهل البيت عليهم السلام

ولكن وجدت نفسي - مع كل هذه الصعوبات الحقيقية العلمية والموضوعية - قبل عدة سنوات أمام محاولة بسيطة للكتابة في هذا الجانب النظري، وذلك عندما قام (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام) بعقد المؤتمر التأسيسي العالمي له، حيث كتبت مقالاً حاولت فيه طرح بعض الأفكار العامة للنظرية، فوجدت إزاءها بعض التشجيع المشكور من بعض المساهمين في المؤتمر.

ورأيت أنَّ من المهم هو أنْ نبدأ أو نستمر في طرح هذا الجانب النظري، ثم يمكن أنْ يتكامل من خلال الباحثين والعلماء الآخرين.

وعلى رغم كثرة المشاغل والمحن والأعمال التي ابتليت بها في هذا المقطع الزمني من حياتي، والتي تختلف بطبيعتها عن الأعمال الثقافية والفكرية اختلافاً بيناً، بل هي عوامل مضادة للعمل العلمي عادة، وكذلك ابتعادي النسبي عن مركز النشاط العلمي وهو الحوزة العلمية وعن أجوائها وخدماتها، حاولت أنْ أقوم بمراجعة تلك المحاضرة وتحليلها، فانفتحت أمامي مجموعة من الآفاق للبحث:

الأوّل: بيان الأهداف الرئيسة لوجود أُطروحة أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الخاتمة (نظرياً وتطبيقياً)، بحيث تعبّر عن حقيقة هذا الركن الأهم من الرسالة الإسلامية.

وهذا ما يمثل الجانب المشترك بين أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الثاني: بيان وتفسير المواقف التي قام بها كل واحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي يتميز بها في عصره ومرحلته، والارتباط بين هذه المواقف بعضها بالآخر، وعلاقتها بالأهداف الرئيسة؛ كل ذلك مع تقسيم تأريخ أهل البيت عليهم السلام إلى مراحل متميزة، وبيان خصائص تلك المراحل.

الثالث: تناول القضايا الفكرية والعقائدية والشرعية التي تميّز بها مذهب أهل البيت عليهم السلام من ناحية ارتباطها بالنظرية الإسلامية، علماً بأنّ البحث في هذه القضايا من الناحية الكلامية والفقهية هو من الأبحاث التي تناولها علماؤنا بصورة متكاملة.

الرابع: مسيرة أتباع أهل البيت عليهم السلام بعد غيبة الإمام الحجة عجل الله فرجه، والمراحل الرئيسية التي مرّت بها، ودورهم في تحمل المسؤوليات الكبرى ذات العلاقة بالنظرية، وهو بحث (المرجعية الدينية الصالحة).

دور أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية

ووجدت أنّ البحث الأوّل - الذي يمثل البحث الرئيس والأساس - يشتمل على عدّة بحوث مهمة نظرية وتطبيقية، بحيث قد يحتاج كل واحد من الأهداف إلى كتاب مستقل، حيث يمكن تلخيص (الأهداف) الاجتماعية من أُطروحة أهل البيت عليهم السلام بالأُمور التالية:

١. إقامة الحجة على الناس والشهادة على حركة الإنسان.

٢. الخلافة الإلهية، أو ولاية الأمر، أو قيادة الحكم الإسلامي.

٣. المرجعية الفكرية والدينية للمسلمين.

٤. تجسيد القدوة في الكمالات الإنسانية في الحركة الفردية والاجتماعية البشرية.

٥. الدفاع عن الإسلام (العقيدة الإسلامية، الكيان السياسي للإسلام).

٦. الدفاع عن الأُمة الإسلامية، والمحافظة على وجودها وخصائصها

ووحدتها.

٧. بناء الجماعة الصالحة والصفوة المنتخبة التي تتحمل المسؤوليات الخاصة.

ونحتاج قبل ذلك إلى توضيح وتفسير نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية التي تجمع كل هذه الأدوار والمهمات، وما هو السبب في اختصاص هذه الظاهرة في الرسالة الإسلامية؟

ولاشك أنّ هذا العمل بهذه السعة يحتاج إلى وقت واسع وتفرّغ مناسب وعدد من المساعدين الأكفاء.

ولكني وجدت نفسي مندفعاً لأنْ أبدأ هذا العمل الصالح متوكّلا على الله تعالى فيه ومستمداً العون منه، راجياً التوفيق في إخلاص النية والصدق والهداية في العمل ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾[1].

كما وجدت نفسي مسوقاً للكتابة ابتداءً في الهدف السابع، وهو(الجماعة الصالحة)، ولعلّ السبب في هذا الاختيار للبداية هو إحساسي بالحاجة الفعلية - من خلال الممارسة العملية - لوجود تصور كامل (نظري وتطبيقي) للجماعة الصالحة؛ ليكون مثالاً واقعياً ويقدّم للعاملين في ميادين العمل السياسي والاجتماعي يتأسون به ويقتدون بهداه.

كما وجدت هذا البحث يملأ فراغاً في المناهج الدراسية لطلاب العلوم الدينية، كما ينفع الخطباء والمبلغين، والأوساط المثقفة المؤمنة في الوطن الإسلامي، أو في المهجر أو في بلاد الغربة، الذين لا تتيسر لهم عادة القدرة على معرفة تفاصيل هذا التصور.

---

(١) الطلاق:٣.

ويشهد عالمنا الإسلامي - في هذا العصر - تطوراً واسعاً في هذه المجالات (الحوزة، والتبليغ وإقبال المثقفين بالثقافة العامة على الإسلام، والهجرة إلى بلاد الغرب).

حيث يهيئ لهم مثل هذا الكتاب أكثر المعلومات العامة التي يحتاجونها في الأحاديث العامة والمذاكرة حول أهل البيت عليهم السلام والجماعة الصالحة.

وقبل كل ذلك كنت أشعر شخصياً أننا بحاجة ماسة إلى أنْ نقدّم المثال الواقعي الخارجي للجماعة الصالحة التي ندعو إلى وجودها وتطبيقها، لتصبح النظرية الإسلامية واقعية وليست افتراضية في خضم دنيا الشهوات، وتضارب المصالح المادية والتناقضات السياسية والضغوط النفسية والخارجية التي يعيشها عصرنا الحاضر.

بعض الصعوبات

وقد بدأت في الكتاب أولاً بتكوين التصور العام له ثم شرعت بالكتابة، حيث واجهت عدة صعوبات أذكر اثنتين منها:

الأولى: الوقت، فقد كنت أقتطعه بصعوبة من زحمة الأعمال المتضادة أحياناً، ولذلك كنت أضطر في بضع الأحيان أنْ أبدأ بكتابة فكرة، ثم أنقطع عنها قبل إكمالها فترة تطول عدة أشهر، أو ما يقارب السنة في بعض المرات، فأرجع إلى ما يشبه نقطة الصفر، ولاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَ البحث ذو طبيعة تركيبية نظرية.

أو كنت أكتفي بذكر الإشارة إلى مصادر النصوص دون كتابتها اقتصاداً في الوقت، مما سبب إشكالاً في الإعداد للطبع، وعبئاً إضافياً لاستخراجها على الأخوة في مجلة رسالة الثقلين الناطقة باسم (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام)، الذين يستحقون كل شكر وتقدير عليه.

الثانية: أنَ هذا البحث يعتمد بصورة أساسية على المواد الأولية كأخبار

أهل البيت عليهم السلام والنصوص التأريخية أو الفقهية، أو المعلومات الرجالية، وهي تحتاج إلى البحث عنها ثم استيعابها ثم الفحص عن مستوى الاعتبار لها، ثم المقارنة بينها لاستنباط النظرية، وكان ذلك يحتاج إلى وقت كبير وعناء خاص.

وقد كان الفضل الكبير في تسهيل هذه الصعوبات - بعد الله تعالى - للموسوعات الحديثية والمعاجم التي كتبها علماؤنا السابقون جزاهم الله خير الجزاء.

ثمَّ وجدت أنَّ هذه الطريقة غير كافية وفعالة، فعمدت إلى الاستعانة بإلقاء المحاضرات ولو بصورة متقطعة، وتصحيحها بعد ذلك وإرجاعها إلى مصادرها، وهي بذلك وإنْ لم تكن محكمة كما هو الحال في الكتابة، ولكنها نافعة في الإثارة والمحافظة على أصل الأفكار.

خطة هذا الكتاب

وقد تابعت في هذا الكتاب الخطوات والأُمور التالية:

الأوّل: تقسيم الكتاب إلى سبعة أبواب، وتقسيم الأبواب إلى فصول مستقلة تتضمن عناوين رئيسة، أو أقسام تتضمن فصولاً كما هو في البابين السادس والسابع.

وقد تضمن الباب الأوّل، فصلي: (الأهداف) و(الخصائص).

وتضمن الباب الثاني (القواعد والأُسس) فصول: (الفكرية)، و(الأخلاقية)، و(الثقافية) و(الروحية المعنوية)، و(السياسية الاجتماعية).

وتضمن الباب الثالث (نظام الجماعة العام) فصول: (المرجعية الدينية)، و(الهوية)، و(علاقات الأُمة مع المرجع)، و(العلاقات الداخلية والخارجية).

وتضمن الباب الرابع (نظام أمن الجماعة) فصلي: (الخطوط الأمنية)،

و(السياسات الأمنية).

وتضمن الباب الخامس (النظام الاقتصادي) فصول: (التشريعات الاقتصادية العامة)، و(التشريعات الاقتصادية الخاصة)، و(النشاطات الاقتصادية).

وتضمن الباب السادس (نظام العلاقات الاجتماعية) قسمي: (النظرية، أبعادها وأُسسها)، و(البناء الفوقي للنظرية).

كما تضمن القسم الأوّل فصلين هما: (أبعاد النظرية)، و(أُسس النظرية).

وتضمن القسم الثاني فصلي: (البناء الفوقي وأبعاد النظرية)، و(البناء الفوقي والأُسس).

وأمّا الباب السابع (الشعائر والعبادات) - وهو أوسع الأبواب - فقد تضمن قسمي: (الشعائر)، و(العبادات).

وأمّا القسم الأوّل، فقد تضمن: فصول (شعائر أهل البيت)، و(الأيام والليالي)، و(المساجد والأماكن المقدسة).

وأمّا القسم الثاني، فقد تضمن: صنف العبادات المؤقتة، وهي: (اليومية)، و(الأُسبوعية)، و(الشهرية)، و(السنوية).

وصنف العبادات غير المؤقتة: وهي (الصلاة غير المؤقتة)، و(الصوم غير المؤقت)، و(الدعاء)، و(الذكر)، و(الجهاد).

وقد تضمنت هذه الأبواب والفصول والأقسام في كثير من الأحيان تمهيداً للبحث للتعريف بالموضوع وبيان أهميته، أو خاتمة في استنتاج النظرية أو تلخيص الأفكار حسب أهمية الموضوع وسعة دائرة البحث أو الحاجة.

وقد يبدو أنّ هذا الترتيب في الأبواب والفصول يتسم بالغرابة، لأنه لم يأتِ وفق الترتيب المعروف في الكتب التي تتناول مثل هذه العناوين، مضافاً

إلى وجود عناوين غير معروفة.

ولكن يخفّ هذا الاستغراب عند قراءة الكتاب إذا التفتنا إلى الأُمور الآتية، والتي سوف نذكرها.

الثاني: أنّ الهدف من وراء هذا الكتاب هو بيان دور أهل البيت عليهم السلام عملياً في تكوين وبناء الجماعة الصالحة، وتكوين النظرية حولها، ثم بيان معالم وتفاصيل هذه الجماعة الصالحة.

وهذا أمر ينفع الجماعة الصالحة نفسها، كما ينفع سائر المسلمين الذين يريدون أنْ يعرفوا الحقيقة، ويلتزموا أو يتأسوا بها، وفي الوقت نفسه ينفع كل الباحثين عن الحقيقة من سائر الناس.

الثالث: الاهتمام والتمركز في الكتاب بنقاط الاختصاص والامتياز لمذهب أهل البيت عليهم السلام بعد توضيح النظرية، دون الاستغراق في النقاط المشتركة أو شرحها وتفصيل مبرراتها وعللها، بل أكتفي بالإشارة إليها، فإنّ تلك النقاط المشتركة - على أهميتها البالغة أحياناً - مما تناولته الأبحاث العامة لجميع المسلمين، ويسهل الحصول عليها نسبياً، كما أنها تُخرج الكتاب عن هدفه الخاص.

الرابع: الاهتمام باستنباط معالم النظرية بالاستناد إلى المصادر الأساسية (القرآن الكريم، والسنة النبوية، والنصوص المعتبرة التي وردت عن أهل البيت في نقل السنّة النبوية أو شرحها أو بيانها)، مضافاً إلى النصوص المعتبرة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في بيان تفاصيل السياسات والمناهج والأساليب والمواقف.

الخامس: أنّ استنباط النظرية لّما كان بحاجة إلى اجتهاد صحيح يعتمد على المصادر والقواعد الصحيحة للاجتهاد، ومن أجل أنْ تكون النسبة إلى أهل البيت عليهم السلام وجماعتهم نسبة صحيحة، التزمنا في استنباط أُصول

النظرية والأفكار الرئيسة والمركزية بالنصوص المعتبرة، أو الآراء الاجتهادية المعروفة في أوساط علماء شيعة أهل البيت عليهم السلام، مع ذكر الشواهد والنصوص التي تؤيد هذا الاجتهاد، أو التي يستند إليها أصحابه.

وأمّا في التفاصيل فقد سعيت إلى الاستناد فيها إلى النصوص المعتبرة أيضاً، أو النصوص المتعددة التي يوجد في النفس الوثوق بها، باستثناء بعض الموارد الجزئية التي لا تؤثر على أصل النظرية، بل توضحها وتشرحها، وبهذا يمكن أنْ نفسّر ذكر بعض النصوص المتشابهة بمضمونها، أو الإشارة إلى تعددها أو اعتبارها.

وأمّا تفاصيل المستحبات لاسيما الشعائر والعبادات، وإنْ كنا اعتمدنا فيها أساساً على القاعدة المعروفة التي يسميها الفقهاء بـ (قاعدة التسامح في أدلة السنن)، فإنَّ ذكرها بهذا التفصيل يوضح النظرية وأبعادها من جهة، وفي الوقت نفسه حاولت قدر المستطاع أنْ أُشير إلى صحة الرواية أو اعتبارها عندما أجد ذلك مناسباً لتثبيت الفكرة.

كما أني حاولت أنْ أستثني الأفكار الغريبة التي لا أجد لها مصدراً معتبراً.

وفي الختام أؤكّد مرة أُخرى أنَّ هذه المحاولة هي بداية، وتقترن - عادة - بالكثير من الأخطاء والزلاّت والعيوب.

أسأله تعالى أنْ يتجاوز عنّا ذلك، كما أساله تعالى القبول والتوفيق لإكمال هذا (المشروع)، وأنْ يكون موضع الرضا والقبول من الله تعالى ورسوله والأئمة والأطهار، ومن سيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف.

كما أرجو من القراء الأعزاء والباحثين الأفاضل الكرام أنْ يغضوا النظر عن هذه الأخطاء، ويتفضلوا عليَّ بإهدائها لي أو بملاحظاتهم القيّمة في

تحقيق هذا الهدف.

والله ولي التوفيق والسداد والقبول.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١].

١٤ ذي القعدة ١٤١٧

محمد باقر الحكيم

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

الباب الأوّل

الأهداف والخصائص

الفصل الأوّل:

الأهداف العامة للجماعة الصالحة

الفصل الثاني:

الخصائص العامة للجماعة الصالحة

تمهيد

لقد عمل أهل البيت عليهم السلام في المجتمع الإسلامي على خطين رئيسيين وفي دائرتين متداخلتين، هما:

أولاً: العمل في الخط العام للأمة، وفي الدائرة الواسعة لها، حيث كانوا يتفاعلون مع عموم الأُمة وأطرافها الواسعة. وفي مجال هذه الدائرة لم يكن يتميز الموالون والمؤمنون بأهل البيت عليهم السلام من أبناء الأُمة عن غيرهم إلاّ بمقدار الاقتراب العقائدي، والروحي، والعاطفي المتمثل بالولاء العقائدي والسياسي والحب العاطفي، والالتزام الأخلاقي تجاههم والطاعة لأوامرهم.

ثانياً: العمل في الخطّ الخاصّ وفي دائرة النّخبة من المسلمين الذين كانوا يتفاعلون مع أهل البيت عليهم السلام بمستوىً عالٍ، ويؤمنون بفلسفة دورهم الخاص في النظريّة الإسلامية القائمة على أساس الإمامة للمسلمين والخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله المنصوص عليها من قبل الله تعالى.

ونلاحظ أنّ الدائرة الثانية - التي أصبحت جماعة صالحة لها هويتها وكتلة فاضلة لها معالمها الخاصة، وعرفت في الأوساط الإسلامية بشيعة أهل البيت عليهم السلام - لم يتمّ فرزها ونموها وتطورها ومن ثم تميّزها عن الجماعات الأُخرى ضمن الدائرة الأُولى، بمجرّد تفاعل الأمّة العام مع حركة أهل البيت، بل تمّ ذلك بجهد وتخطيط من أئمة أهل البيت عليهم السلام لإيجاد تلك الجماعة والكتلة.

وبعبارة مختصرة لم يتم وجود هذه الكتلة بصورة عفوية ونتيجة لعمل الأئمة في الخط العام للأمة، بحيث أفرزَ هذه النخبة المؤمنة فحسب، بل كان ذلك أيضاً بصورة هادفة ومقصودة ونتيجة للتخطيط الذي رسمه ونفذه

الأئمة عليهم السلام لبناء تلك (الجماعة) وإيجادها.

ذلك أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يدركون أنَّ أهدافهم العامة - ومنها الدفاع عن كيان الإسلام وحفظ وجود الأُمّة الإسلامية - لا يمكن أنْ تتحقق بمجرد العمل على المستوى العام والدائرة الواسعة، لأنَّ تحقيق هذا الهدف وبأبعاده المختلفة إنّما يمكن أنْ يستمر إذا توافرت شروط الوعي الدائم، والزخم العاطفي المستمر، والعنصر القيادي في الأُمّة الذي يقوم بمهمة التوعية وإدامة الزخم.

ولذلك نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يتوجّهون - مضافاً إلى نشاطهم العام - إلى هذا الخطّ من النشاط في الدائرة الخاصة منذ البداية. فقد أولى رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الموضوع أهمية خاصة في أيامه، وبذلك أسس التشيّع لعلي عليه السلام كخط فكري وسياسي في حياته، ولم يكتف بذلك حتى وجه نخبة من أصحابه لذلك، فكانوا البذرة الصالحة لذلك[1]، ثمّ يقوم الإمام علي عليه السلام بهذه المهمة، فيبني الجماعة الصالحة في المدينة المنوّرة، ويوسّع من قاعدتها بعد ذلك في الكوفة على يد حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر، وفي لبنان على يد أبي ذر الغفاري، وفي اليمن خلال المدّة التي قضاها متولّياً لشؤون هذا الإقليم، وكذلك في مصر والبصرة وغيرها.

وسوف يتبين ذلك بوضوح من خلال استعراض معالم عملية البناء التي قام بها أهل البيت عليهم السلام عندما نستعرض ذلك في هذا الكتاب.

---

(١) يراجع كتابنا (الشيعة والتشيع)، لمعرفة هذه الحقيقة والدليل عليها.



الأهداف العامة للجماعة الصالحة

يمكن تلخيص الأهداف الأساسيّة من وراء بناء الجماعة الصالحة في الأهداف نفسها التي عرفناها لدور الأئمة عموماً، وهي: مبادئ إقامة الحجّة، وقيادة التجربة الإسلامية، والمرجعية العامة الفكرية والدينية للمسلمين، والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية، وحفظ الوجود السياسي الإسلامي من خلال المحافظة على الحكم الإسلامي، والمجتمع الإسلامي، والكتلة البشريّة التي تنتمي للإسلام وتجسيد القدوة الصالحة: وسوف تتبين الكثير من معالم هذه الأهداف في تفاصيل الحديث عن بناء الجماعة الصالحة، ولكن لتوضيح ذلك نشير هنا إلى النقاط التالية:

أ) المساهمة في قيادة التجربة الإسلامية (تسلّم الحكم الإسلامي)

لاشك أنّ أحد الأهداف المهمة من وجود الأئمة عليهم السلام وأُطروحتهم في الرسالة الخاتمة هو قيادة التجربة الإسلامية والوصول بها إلى الدرجة العالية من التكامل. حيث كان التخطيط الربّاني للرسالة الخاتمة يقضي أنْ تبلغ التجربة الإسلامية الدرجة التكامليّة المناسبة لها خلال المدّة التي تتولّى فيها الحكم القيادة المتمثّلة بالأئمة المعصومين الاثني عشر عليهم السلام، والتي يمكن تقديرها بثلاثة قرون من الزمن على أقل تقدير، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أقل فرضية للعمر الطبيعي للأئمة الاثني عشر.

وهذا التكامل يمكن أنْ نفترضه على جميع المستويات، المعنوي والعلمي والخلقي، ومستوى الحكم والعلاقات والتنظيم، والمستوى المادي في التنمية الاقتصادية، والضمان والتكافل الاجتماعيين، والقوة العسكرية، وانتشار الدعوة الإسلامية وثقافة الإسلام في مختلف أرجاء العالم، وغير ذلك من شؤون الحياة الإنسانية، بحيث يكون ذلك مصداقاً عملياً وواقعياً لقوله

تعالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[١].

وكان إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن هذا الدور الأساسي - بفعل الانحراف، وسوء الاختيار أو الاجتهادات الخاطئة، والأهواء الشخصية والسياسية - السبب في هذا التخلّف والإحباط، والأوضاع السيئة التي يعيشها المسلمون، بل تعيشها البشريّة الآن وفي العهود السابقة. ويتحمل (الإنسان) المسؤولية في هذا الأمر، كما يتحمّلها في جميع الأدوار والمواجهات وقضايا الإحباط الأُخرى عبر التأريخ البشري، منذ خلق الله تعالى آدم وجعله وزوجه في الجنة، إلى المواقف الأُخرى تجاه رسالات الأنبياء عليهم السلام، عندما تخلّفت البشرية عن الاستجابة لرسالاتهم ونداءاتهم الربانية ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٢].

وقد حاول الأئمة عليهم السلام أنْ يعيدوا الحق إلى نصابه، وخططوا لتسلّم التجربة الإسلاميّة بعد إقصائهم عنها عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وآله. وكان أحد معالم هذا التخطيط بناء الجماعة الصالحة التي يمكن أنْ يكون لها دور المساهمة في قيادة التجربة الإسلامية.

ويمكن أنْ نلاحظ ذلك بوضوح من خلال دراسة المرحلة التي عاشها الأئمة الثلاثة الأوائل علي، والحسن، والحسين عليهم السلام[٣]، حيث كانت محاولة

---

(١) التوبة:٣٣.

(٢) البقرة:٢١٣.

(٣) لاشك في أنّ الإمام الحسين عليه السلام - كما سنذكر في تحليلنا لحركته - كان يعلم بأنه ←

تسلّم هذه القيادة قائمة كهدفٍ مطروح في الأُمة على مستوى تلك المرحلة، وذلك من خلال الخطاب السياسي في الأُمة.

وقد تمكّن الإمام عليّ عليه السلام بالفعل من الوصول إلى هذا الموقع القيادي، واستمر هذا الأمر مدة قصيرة من حياة الإمام الحسن عليه السلام. ثم كان المسلمون يأملون أنْ ترجع التجربة إلى سابق عهدها في زمان الإمام الحسين عليه السلام، فطلبوا منه القيام بهذه المهمة إلى أنْ حدثت المأساة المروّعة في كربلاء.

ولاشك أنّ النخبة الصالحة التي تمكّن الإمام علي عليه السلام من تربيتها وبناء الوضع الروحي والتنظيمي لها وقاتلت إلى جانبه، وقدمت التضحيات العظيمة في خدمة الإسلام وتثبيت المثل والقيم التي دعا إليها عليه السلام. وكذلك ما قام به الإمام الحسن عليه السلام من المحافظة عليها حيث كان أحد الأهداف المهمة لاتفاقية الهدنة مع معاوية هو المحافظة على هذه الجماعة.

إنّ هذه النخبة كان لها دور مهم ورائد في زمن الإمام الحسين عليه السلام؛ إذ تمكّنت أنْ تكسر الجمود في الأُمة وحالة الاستسلام للحكم الأموي، وتعطي المبرر الموضوعي والاجتماعي لحركة الإمام الحسين عليه السلام، التي رفعت شعار إسقاط الحكم الأموي، واستهدفت الإطاحة به وتهيئة الأرضيّة لتأخذ ثورة الحسين عليه السلام مداها الواسع في أوساط الأُمة الإسلاميّة، ويكون لها تأثيرها في مسار التأريخ الإسلامي، وقد تحقق الكثير من أهدافها، ومنها إسقاط الحكم الأموي في نهاية المطاف.

لا يصل إلى تسلّم قيادة التجربة، ولكن الهدف المعلن والمطروح له وخطابه السياسي وكذلك نشاطه السياسي إنما كان يصب في هذا الاتجاه، وهو ما تقتضيه وظيفته الشرعية ومسؤوليته الإنسانيّة، وتفرضه الظروف الموضوعيّة، وإنْ كان هدفه الواقعي من هذا التحرك تحقيق أمور أُخرى نذكرها عند الحديث عن تأريخ ومواقف الأئمة (الكتاب الخامس). منه قدس سره.

ففـي مرحلـة الأئمـة الثلاثـة الأوائـل يمكـن أنْ نقـول: إنّ الهـدف الأوّل والأهم من بناء الجماعة الصالحة هو المساهمة في عملية تسلّم قيادة التجربة الإسلامية، وهو هدف يأتي منسجماً مع الأعمال التي قام بها الأئمة عليهم السلام علـى مستوى الحفـاظ علـى الأُمّـة الإسـلامية في بُعـدها الأوّل، وهـو إقامـة الحكم الإسلامي الأصيل سواء على مستوى الوجود الخارجي لهذا الحكم الـذي تحقـق علـى يـد الأئمـة عليهم السلام مـدة قـصيرة، أم علـى المستوى النظـري والطموح؛ إذ أوجد الأئمة تياراً في الأُمّة يدعو لإقامة هذا الحكم بحيث كان أحد عوامل الضغط لتصحيح مسار الحكم على مرّ التأريخ الإسلامي.

دور النخبة في عهد الخلفاء الثلاثة

لقـد تـبين أنّ هـذه النخبـة الـصالحة كـان لهـا دور عظـيم في قيـادة التيـار الإسلامي الجماهيري، الـذي كـان يـدعو لخلافـة الإمـام علـيّ عليه السلام منـذ زمـن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ويضغط خلال ذلك الزمن باتجاه أنْ يكـون الخليفة بعده هو الإمام علي عليه السلام. ولكـنّ ترشـيح الخليفـة عمر للخليفـة بعـده علـى أسـاس تقلـيص دور الـشورى وجعلـها محـصورة في سـتة أشـخاص، وكـذلك جعلـه الخيـار بيـد عبـد الـرحمن بـن عـوف؛ إذا انحصر الأمـر بـين شخصين، إنما كان محاولة لامتصاص هذا التيار الجماهيري بطريقـة محسوبة ودقيقة.

ومع ذلك فقد وجدنا أنّ الضغط الجماهيري يفـرض علـى ابـن عـوف أنْ يطلب في البداية من عليّ عليه السلام أنْ يتصدى للخلافة. ولكنّه يـضع شـرطاً لهـذه البيعة - وهو يعرف مسبقاً أنّ علياً عليه السلام سوف يرفضه - وهـو أنْ يتقيـد الإمـام علي عليه السلام بسيرة الشيخين، مضافاً إلى الكتاب الكريم والسنّة النبوية[1].

(١) لقد وضع هذا الشرط أساساً وقاعدة جديدة في المجتمع الإسلامي، وهو تحويل ←

وتتوضح فاعلية هذا التيار الجماهيري بشكل واضح بعد ذلك عندما تحدث (فتنة) قتل الخليفة عثمان، حيث تنهال الجماهير بصورة فريدة على بيعة الإمام علي عليه السلام بحيث كان هذا الشيء مما اختص به عليه السلام، وامتاز به من بين جميع الخلفاء الذين سبقوه أو الذين جاءوا بعده. حيث كانت بيعة أبي بكر من خلال الاجتماع المحدود في سقيفة بني ساعدة، الذي اختلف فيه المسلمون، وغاب عنه بعضهم من ذوي الحل والعقد، وكانت بيعة عمر بنص من أبي بكر، وسكوت من المسلمين، بعد أنْ لم يقبل أبو بكر اعتراض بعضهم، كطلحة وكانت بيعة عثمان من خلال عملية الشورى السداسية التي مرت الإشارة إليها[1]. وأمّا الخلفاء بعده فكانوا يحكمون بالنص والوراثة، وقوة السلاح والقهر، ولم يبق للشورى أي دور في الحياة السياسية، كما هو معروف في التأريخ.

دور النخبة في عهد الإمام علي عليه السلام

وكذلك كان لهذه النخبة الدور المتميز في الصراع الذي خاضه الإمام علي عليه السلام مع مناوئيه (عائشة، وطلحة والزبير، والأمويين وعلى رأسهم معاوية)، حيث كانت الموازنة التي يعتمدها الإمام علي عليه السلام في هذا الصراع هي قضية (المبادئ، والقيم الإسلامية)، في مقابل قيم الموازنة التي اعتمد عليها مناوئوه وهي (المصالح والمنافع الدنيوية المنظورة، والمكاسب الملموسة

سيرة الشيخين إلى مستوى من القدسية يشبه مستوى قدسية سيرة النبي صلى الله عليه وآله نفسه. وهذا ما لا يقبله الإمام علي عليه السلام، وكذلك أهل بيته والتيار الذي يؤمن بولايته. منه قدس سره.

(١) راجع: معالم المدرستين ١: ٤٧٧ - ٤٨٤، وهو ينقله عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٨ - ٩. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

التي يحس بها الإنسان).

وفي هذه الموازنة لم يكن من الممكن للإمام علي عليه السلام - بسبب الظروف النفسية والتأريخية القائمة - أنْ يستمر في الصراع أو أنْ يحقق نجاحاً نسبياً فيه لولا وجود هذه النخبة الصالحة، التي كان قد بناها في أوساط الأُمّة.

نماذج من الرجال المتميزين

ولذلك وجدنا الوضع المتميز في هذا المجال لأشخاص أمثال: مالك الأشتر، وهاشم المرقال، ومحمد بن أبي بكر، وقيس بن سعد بن عبادة، وحجر بن عدي، وصعصعة بن صوحان، وأخيه زيد، وأويس القرني، وسليمان بن صرد الخزاعي، وأبي الأسود الدؤلي، وعبد الله بن طلحة، وعبد الله بن جعفر، وخباب بن الأرت وابنه عبد الله، وعدي بن حاتم الطائي، وعقيل بن أبي طالب، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وقنبر مولى عليّ عليه السلام، ومحمد بن أبي حذيفة، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري، والأصبغ بن نباتة، وميثم التمّار، وكميل بن زياد، والحارث الهمداني، ورشيد الهجري، وعبد الله بن العباس، وغيرهم، فضلاً عن بقايا متقدمي الصحابة أمثال: عمار بن ياسر، وابن التيهان، وعثمان بن حنيف، وأخيه سهل، وجابر بن عبد الله وابنه عبد الله بن جابر الأنصاري، وغيرهم من أمثالهم. أولئك الذين كان يحزن الإمام علي عليه السلام لفقدهم أحياناً، ويبكي عليهم ويحس بالفراغ الكبير الذي تركوه في التحرك الإسلامي الكامل، أو يخلو بهم ويناجيهم أحيانا أُخرى.

واستمر هذا الدور بشكل فاعل لهذه النخبة حتى زمن الإمام الحسين عليه السلام، حيث كانت تضحيتهم آخر محاولة واضحة ومكشوفة لمساهمة

هذه النخبة في استلام قيادة التجربة الإسلامية[1].

ب) المحافظة على المجتمع الإسلامي

تأتي مهمّة المحافظة على المجتمع الإسلامي هدفاً ثانياً لبناء الكتلة الصالحة في نظر الأئمة عليهم السلام.

لقد كان للجماعة الصالحة دور متميز في المحافظة على المجتمع الإسلامي سواء في أيام حضور الأئمة عليهم السلام، أم بعد الغيبة الكبرى للإمام المهدي عجل الله فرجه؛ وذلك أنّ بناء الجماعة الصالحة لم يكن لمجرد تكثير الأنصار والمهتدين، أو توسعة دائرة الأفراد الصالحين والاستعانة بهم في العمل السياسي الذي كان يمارسه هؤلاء الأئمة فحسب، وإنما كانت هناك أهداف أُخرى أعمق ترتبط بالأهداف العامة للأئمة عليهم السلام على جميع المستويات والأبعاد، بحيث تؤديها هذه الجماعة الصالحة من خلال وجودها وتماسكها أمةً وجماعةً أو أفراداً، ومنها المحافظة على وجود المجتمع الإسلامي.

ويمكن أنْ يتضح ذلك بملاحظة النقاط والظواهر التالية:

١. الدفاع عن المجتمع الإسلامي

قيام النخبة الصالحة بالمحافظة على قوة المجتمع الإسلامي وتماسكه من خلال الدفاع عنه أمام أعدائه الخارجيين والداخليين؛ فقد كان لشيعة أهل البيت عليهم السلام ومواليهم دور كبير في صد عمليات الغزو الأجنبي، التي واجهها العالم الإسلامي في المرحلة المتأخرة من زمن العباسيين في الحروب الصليبية من خلال (الحمدانيين) في بلاد الشام وسوريا، أو (الأدارسة) في شمال

---

(١) يمكن أنْ نفهم دور الجماعة الصالحة في تسلّم الحكم من خلال فهم نظرية أهل البيت عليهم السلام في قضية تسلم الحكم. منه قدس سره.

أفريقيا، أو مقاومة الغزو المغولي في الشرق الإسلامي وامتصاص زخمه العدواني ثم تحويله بعد ذلك إلى جانب الإسلام، وكذلك القضاء على حركات التمرّد للكفار والوثنيين في مناطق طبرستان والترك والديلم في مناطق بحر قزوين، وكذلك في بلاد ما وراء النهر وغيرها.

وكان الأهم من ذلك هو الدفاع الذي قام به رجالات الشيعة بتوجيه من أئمة أهل البيت عليهم السلام في مواجهة حركات الإلحاد والزندقة، أو موجات التفسّخ الأخلاقي التي عمّت حواضر العالم الإسلامي في المدينة المنورة ومكة المكرمة والكوفة والبصرة والشام وبغداد وغيرها، حيث يظهر ذلك واضحاً من خلال المطارحات والمناقشات والمدارس التي أسّسها أتباع أهل البيت عليهم السلام، والأخلاق التي كانوا يتّصفون بها، ومقاومتهم لمظاهر الانحلال والفساد والظلم[1].

٢. إيجاد القدوة الصالحة

تقديم القدوة الصالحة من خلال (الجماعة الصالحة) في المجتمع الإسلامي في عصر كادت أنْ تطغى فيه المنافع الذاتية على منافع الأُمّة والجماعة، والمصالح الخاصة على مصالح الإسلام وأهله، وتُشترى فيه ضمائر الناس وألسنتهم ويتاجر بالدين والحديث عن النبي صلى الله عليه وآله؛ لتبرير مختلف التصرّفات والسلوكيات المنحرفة، التي يقوم بها الحكام والطغاة والولاة والقادة العسكريون أو الوزراء المنحرفون خصوصاً في زمن الحكم الأموي.

وقد أهتم أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر اهتماماً بالغاً حتى دعا الإمام الصادق عليه السلام شيعته إلى أنْ يكونوا القدوة الصالحة والأُسوة في السلوك بين

(١) سوف نخصص كتاباً مستقلاً إنْ شاء الله لمعرفة هذه التفاصيل.

المسلمين، للمحافظة على المجتمع الإسلامي من ناحية، وهداية الناس إلى طريق الحق من ناحية أُخرى.

فقد روى الكليني بسند صحيح عن صفوان بن يحيى عن أبي أُسامة، زيد الشَحام قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: اقرأ على من ترى أنّه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله، وأدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.**

صِلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم؛ فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصَدق الحديث وأدّى الأمانة وحَسن خلقُه مع النّاس قيل هذا جعفريّ، فيسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر. والله لحدثني أبي عليه السلام أنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تُسأل العشيرة عنه فتقول: من مثلُ فلان؟! إنّه آدانا للأمانة، وأصدقنا للحديث))[1].

إنّ الفقرة الأخيرة من الحديث تشهد شهادة واضحة على هذا الدور الذي حققه أتباع أهل البيت عليهم السلام، فيما يرويه الصادق عن أبيه الإمام أبي جعفر الباقر عليهما السلام[2].

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٣٩٩، ح١.

(٢) سوف يأتي مزيد من التوضيح لهذا الدور في الجانب الأخلاقي، وكذلك في نظام العلاقات الاجتماعية.

٣. الوحدة الإسلامية

دور شيعة أهل البيت عليهم السلام في قضية الانسجام والوحدة مع بقية أطراف المجتمع الإسلامي والمسلمين من بقية المذاهب الإسلامية، حيث كانوا يمارسون التقية مع هذه الأطراف تحقيقاً للانسجام، وترسيخاً لروح التعايش بين المسلمين، وتأكيداً للتماسك بين الجماعات الإسلامية.

والتقيّة وإنْ كانت في أحد أبعادها، قد حققت لشيعة أهل البيت عنصراً من عناصر الحماية لوجودهم والوقاية من عمليات القمع التي كان يمارسها أعداؤهم المتسلطون ضدهم، ولكنها لم تطرح في مدرسة أهل البيت عليهم السلام من خلال هذا البعد فقط، بل طُرحت في بعد آخر، وهو تحقيق الوحدة والانسجام في المجتمع الإسلامي؛ ولذا نجدهم يحرِّضون شيعتهم على إيجاد روح التضامن والتكافل والوفاء بالعهود والمواثيق مع بقية أطراف المجتمع، ويحثّونهم على حسن المعاشرة والجوار والحضور في الجنائز والمساجد وعيادة المرضى مع تأكيد عدم إمكان الاستغناء عن الناس والحاجة إليهم.

وقد التزم أتباع أهل البيت عليهم السلام بهذه التوصيات، ومارسوها من موقع القوة والقدرة، كما التزموا بها في مواضع الضعف والمطاردة. ولذلك لم يعرف عن شيعة أهل البيت عليهم السلام أنهم مارسوا عمليات القمع والاستئصال ضد أتباع المذاهب الإسلامية الأُخرى، حتى في الحالات التي كانوا يمسكون فيها بأزمّة الأُمور، وإنما كانوا دائماً يتمسّكون بنهج الدفاع عن النفس عندما يتعرضون للعدوان في أشد الحالات، وقد يتمسّكون بالصبر والسكوت وتحمّل ألوان الأذى والهضم لحقوقهم الطبيعية تأثّراً بهذا النهج.

كما أنهم لم ينهجوا منهج العنف والإرهاب وأساليب الاغتيال واختطاف الرهائن واحتجازها أو القتل عطشاً وجوعاً، وإنما تعرضوا لكل هذه الأساليب الوحشية التي تطال الأبرياء والضعفاء من الناس كالنساء

والأطفال والشيوخ.

وسيأتي مزيد من التوضيح لمنهج التقية في نظام أمن الجماعة، ولكن لننظر إلى النص التالي الذي يحدّد فيه الإمام الصادق عليه السلام أحد خلفيّات منهج التقية، فقد روى الكليني في الأُصول بسند صحيح عن مرازم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز. إنه لابدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض**))[1].

٤. المبدئية والمثل العليا

ظاهرة الالتزام بالروح المبدئية والمثل العليا وجانب الحق والعناوين الأولية للأحكام الشرعية في الأوساط الشيعيّة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، حيث أصبح هذا الالتزام ظاهرة يتسم بها شيعة أهل البيت، وانتهى بهم إلى أنْ يعيشوا دائماً في صف المعارضة للحكم، الأمر الذي جعلهم يفقدون الكثير من المكاسب الماديّة وعرّضهم للطغيان. ولكن هذه الروح وهذا النهج كان سبباً مهماً في احتفاظ المجتمع الإسلامي بقيمه ومثله، من خلال حركة الإنسان الصالح الذي يتمسك بالحق ويزهد في الدنيا ويطمح إلى تحقيق المثل والأهداف السامية.

وقد كانت هناك فرص كثيرة أمام أتباع أهل البيت عليهم السلام أنْ ينحدروا مع التيار العام الفاسد ليحققوا المكاسب الآنية الضيّقة، كما حصل في بداية عهد العباسيين الذين كانوا يشتركون معهم في معارضة الحكم الأموي، وكانت تربطهم بشيعة أهل البيت أفضل العلاقات، خصوصاً وأنّ أئمة أهل البيت لم يتخذوا موقف المقاومة المسلحة للحكم العباسي في البداية.

---

(١) الكافي٢: ٦٣٥، ح١.

وكذلك فرص الإغراءات التي تعرضوا لها في مختلف أدوارهم بعد ذلك، كما في بعض أدوار المغول أو الغزو الأجنبي الأوربي للبلاد الإسلامية مثل: العراق ولبنان وبعض دول الخليج، وشبه القارة الهندية وأفغانستان وغيرها، فضلاً عن إيران. حيث تهيأت لهم فرص التعاون مع التطور السياسي الجديد في الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، وذلك من أجل الخلاص من الظلم والحصول على مواقع سياسية واجتماعية جديدة كما صنع غيرهم.

ولكنهم اختاروا المقاومة والالتزام بالمبدئية، وتحملوا الحرمان والاضطهاد من أجل ذلك، مع أنهم أصبحوا أكثرية مطلقة أو نسبية في بعض التقسيمات الجديدة للعالم الإسلامي.

إلاّ أنهم أبوا لأنفسهم هذا المصير والسلوك بسبب تلك الروح المبدئية العالية التي كانوا يتصفون بها.

وكان لمواقفهم هذه الأثر الكبير في صمود المجتمع الإسلامي أمام هذه التيارات الغازية، والمحافظة عليه وبقاء روح الرفض والتعالي على الأوضاع الدنيوية.

٥. الإنسانية والعالمية

إطفاء نار الروح العنصرية أو الطائفية أو الإقليمية بين المسلمين، ولاسيما في أوساط الشعب العربي، حيث كان لها جذور من العهد الجاهلي، وتحركت بسبب الفتح الإسلامي الواسع واختلاط المسلمين بالموالي، وبرزت هذه الروح في العصر الأموي بصورة واضحة، وكانت سبباً للصراع بين المسلمين وتقسيمهم إلى العرب والموالي، ثم امتدت إلى العصر العباسي والعثماني.

وقد كان شيعة أهل البيت عليهم السلام بسلوكهم الإيماني يجسّدون روح الأخوّة

بين المسلمين، ولا يستشعرون بالامتيازات القومية أو العنصرية، وذلك تأثراً بسلوك أئمتهم في هذا المجال الذين عرف عنهم رعايتهم لهذه الأوساط المستضعفة التي دخلت الإسلام بعد الفتوحات الإسلامية، وكانت تعاني من سياسة التمييز العنصري والقومي والاجتماعي، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية.

ومن هنا نجد هذا الاتهام الذي واجهه شيعة أهل البيت عليهم السلام ولا زالوا يواجهونه حتى الآن من رميهم بأنّهم من الأعاجم، لأنهم كانوا يتعايشون مع الجميع بروح الأُخوّة الكاملة. كما كانوا يجدون التعاطف من أوساط الموالي والأعاجم بسبب هذه الروح المنفتحة.

٦. التضحية والشهادة

إذكاء روح التضحية والفداء والاحتفاظ بها في أوساط الأُمة الإسلامية، وكذلك روح الرفض للظلم والطغيان، ولذلك كان دور هذه الجماعة الصالحة واضحاً عبر التأريخ الإسلامي في مختلف عصوره في تأجيج الانتفاضات والثورات التحريرية والتصحيحية للأوضاع الفاسدة في المجتمع الإسلامي.

حيث كانوا يقومون بها قياماً مباشراً أو من خلال تأثير هذه الروح في الأوساط الإسلامية العامة[1].

وبقيت هذه الظاهرة تحكم مسيرة أتباع أهل البيت وعلاقتهم بأوساط الأُمة الإسلامية حتى عصرنا الحاضر الذي تميز تميزاً واضحاً في هذا التأثير

---

(١) لقد كانت هذه الممارسة طبق الضوابط العامة ورؤية أهل البيت عليهم السلام للمقاومة الصحيحة، التي نتعرف عليها عند استعراض السياسات العامة لهم في هذا الجزء. منه قدس سره.

المتبادل.

وكان من أهم المميزات التي اختص بها أتباع أهل البيت هي التزامهم بالحرمة المطلقة للتعاون مع الظالمين وحكام الجور إلاّ في حالات استثنائية[١].

ج) حفظ الشريعة الإسلامية من التحريف

لقد كان هدف حفظ الشريعة الإسلامية من أهم الأهداف التي استهدفها الأئمة عليهم السلام من بناء الجماعة الصالحة؛ حيث كانوا عليهم السلام يسعون إلى تحقيق هذا الهدف في زمن حضورهم كي لا تبتلى الشريعة بعد غيابهم عليهم السلام بالتحريف والضياع، بسبب الأوضاع السياسية والأهواء والعوامل الأُخرى التي كانت السبب في تحريف الديانات الأُخرى وضياعها، الأمر الذي يفرض ضرورة وجود الجماعة الصالحة التي لابدّ أنْ تتحمل هذه المسؤولية بعد ذلك، خصوصاً وأنّ الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة التي يجب أنْ تحفظ من الضياع، ليس بمنطق المحافظة على المصالح البشرية وتطورها ورقيها الذي يتحقق بالالتزام بالحدود الواقعية للرسالة فحسب، بل بمنطق ضرورة إقامة الحجة من قبل الله تعالى على الأُمة في كل العصور والأزمنة: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[٢].

ومن أجل أنْ يتضح الدور الذي قام به أتباع أهل البيت في حفظ الشريعة الإسلامية والخط الإسلامي الأصيل نشير - باختصار - إلى المعالم التالية في الجماعة الصالحة المتمثلة بأتباع أهل البيت عليهم السلام:

---

(١) سوف نتبين ذلك في بحث نظام أمن الجماعة. منه قدس سره.

(٢) النساء:١٦٥.

وقد تعرضنا لموضوع إقامة الحجّة وتفسيرها وضرورتها في كتاب الحجّة من هذه والولاية.

١. مبدأ المقاومة

الالتزام العقائدي والفكري بالمبدأ السياسي في مقاومة الظالمين ومواجهتهم، الذي كان يتصف به أتباع أهل البيت عليهم السلام، حيث تعرض هذا الأصل الإسلامي إلى محاولات الطمس والإخماد، إمّا بطريقة القمع والمطاردة، أو بطريقة التضليل والتحريف. فقد كانت النصوص والأحاديث توضع على لسان النبي لتبرير الاستسلام للظالمين والقبول بحكمهم وسلطانهم، بحيث تأثرت بذلك الأوساط العامة للمسلمين، وبقيت الجماعة الصالحة من أتباع أهل البيت تلتزم بهذا الخط السياسي، ونقلته لنا عبر الأجيال المتعاقبة لا على مستوى الشعار والنظرية فحسب، بل على مستوى التطبيق والموقف السياسي الفعلي.

مضافاً إلى أنّ هذا الموقف السياسي كان يتعالى بمدرسة أهل البيت والجماعة الصالحة عن أنْ تجعل عملية استنباط الحكم الشرعي والإفتاء به خاضعة للتأثّر بأهواء الظالمين ومتبنّياتهم، بحيث تجسّد عنصر الاستقلال في موقف الجماعة الصالحة من الحاكمين على المستويين العملي والنظري، وفصل قضية الاجتهاد عن الأوضاع السياسية الحاكمة المنحرفة، وهذا مما يتميز به أتباع أهل البيت عليهم السلام.

٢. الاجتهاد في إطار الكتاب والسنة

بقاء باب الاجتهاد والاستنباط مفتوحاً، ولكن ضمن الأُسس والضوابط التي تعتمد بشكل أساسي على المصادر الصحيحة التي أهمها (الكتاب والسنة)، في حين أنّ الجماعات الإسلامية الأُخرى التي اعتمدت مصادر أُخرى - لأسباب عديدة - كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وقول الصحابي وغيرها، اضطرّت بعد ذلك إلى إغلاق باب الاجتهاد للأضرار

البالغة التي لحقت بالشريعة وعملية الاستنباط وتطبيق الحكم الشرعي على موارده ومصاديقه المتجددة، الأمر الذي وضع الشريعة في خطر التحريف الكبير.

وهذا الإغلاق أو الحد من عملية الاجتهاد كانت له آثار سلبية كبيرة على عملية الاستنباط، وقدرة الشريعة الإسلامية على معالجة التطورات الجديدة التي واجهت المجتمع الإنساني، وأصبح الفقه في الأوساط العامة يعيش حالة من الجدب والعسر، الأمر الذي جعل الكثير من العلماء في مختلف العصور يطمحون إلى فتح باب الاجتهاد خصوصاً في هذا العصر.

وهذا بخلاف المزيّة التي تفرّدت بها الجماعة الصالحة من أتباع أهل البيت في إثراء عملية الاستنباط مع ضبطها، بحيث أصبحت مواكبة باستمرار للتطورات دون وجود خطر الانحراف أو الوقوع تحت تأثيرات الأفكار الغربية والحضارة المادية، وبقيت معطاءً مع الاحتفاظ بالأصالة في مصادرها وينابيعها الصافية، وقادرة بذلك على المحافظة على الشريعة والتراث الإسلاميين.

٣. الحرية الفكرية

القدرة على حرية التفكير والتأمل والتدبر والفحص لمختلف القضايا الفلسفية والكلامية والسياسية بعيداً عن الأُطر الجامدة أو القيود الفكرية المفروضة سياسياً أو مذهبياً. الأمر الذي جعل هذه الكتلة قادرة على نقد التأريخ الإسلامي، والإبداع والتطور في فهم القضايا الفلسفية والكلامية، والتصدي لمواجهة التيارات الفكرية والفلسفية في مختلف العصور.

وبالرغم من وجود محاولات مهمة بهذا الاتجاه في التأريخ الإسلامي، مثل محاولة المعتزلة وإخوان الصفا، إلاّ أنها باءت بالفشل، بسبب انفصالها عن الجذر الفكري الأصيل ومحاصرتها من قبل الفكر المذهبي السائد.

٤. التقوى والعدالة

إعطاء التقوى والعدالة والوثاقة في الشخصية الإنسانية وفي الممارسة الاجتماعية دوراً كبيراً ومهماً وأساسياً في الحياة الاجتماعية يتسم بالواقعية والأخلاق، فلا تقبل ولاية غير العادل ولا شهادته، وهي شرط في إمام الجماعة، وفي شهود الطلاق والقضاء وفي القاضي، ولابدّ في الراوي من الوثاقة، مع قطع النظر عن انتمائه السياسي، فتقبل رواية المخالف في المذهب والعقيدة إذا كان ثقة، وترفض رواية الكاذب والضعيف مهما كان متعصباً في ولائه لأهل البيت عليهم السلام، ولا يقبل الحديث إلاّ إذا كان عن ثقة أو كانت هناك وثاقة بصدوره.

وقد كان لذلك دور مهم في حفظ النصوص وتميّزها، ولذا أصبح جميع ما ورد من الحديث خاضعاً للنقد والتمييز والتدقيق على مستوى السند والمتن معاً.

ولا نجد كتاباً من كتب الحديث مقبولاً بصورة مطلقة لدى الجماعة الصالحة[١]، على خلاف الأوساط الإسلامية الأُخرى التي تلتزم بمجموعة من الكتب على أساس أنها صحيحة مطلقاً، بالرغم من وجود رواة معروفين بالانحراف والكذب في إسناد أحاديثها.

كما أنّ هناك أحاديث كثيرة لم تتناولها كتب الحديث المعروفة لدى جمهور المسلمين، لمجرد أنّ رواتها لهم انتماء مذهبي مخالف، بحيث أصبحت القضية السياسية هي الأساس في القبول.

---

(١) هناك اتجاه بين أتباع أهل البيت يلتزم بصحة بعض الكتب الحديثية مطلقاً معروف بـ (الأخباريين)، ولكنه ظهر مدة من الزمن ثم تضاءل وجوده إلى حد كبير. منه قدس سره.

٥. التدوين والحفظ

الاهتمام بالتدوين والحفظ والضبط للأحاديث والنصوص، بحيث تمكّنت هذه الجماعة أنْ تحفظ ثروة كبيرة من الأحاديث في مختلف الموضوعات الشرعية والحيوية، وكذلك في التفسير والأدعية والوصايا والخطب والتأريخ، بالرغم من الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها في مختلف العصور، وبالرغم من قلّة الإمكانيات والفرص المواتية، بحيث إنّ ما يملكه أبناء الجماعة الصالحة من هذا التراث الإسلامي أوسع وأشمل من مجموع ما تملكه المجموعات الإسلامية الأُخرى، الأمر الذي يسّر المحافظة على الشريعة والخط الإسلامي الأصيل بعيداً عن الأهواء والتحريف أو خدمة الحاكمين.

د) التمهيد للظهور

لقد بشّرت جميع الأديان السماوية، ومنها الإسلام، بظهور المصلح المنقذ في آخر الزمان ونهاية التأريخ الإنساني ((**ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**))[1].

وجاءت هذه الفكرة والبشارة تأكيداً للحقيقة القرآنية التي تؤكد على وراثة الصالحين والمستضعفين للأرض، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**

---

(١) الخصال: ٣٩٦، ح١٠٢.

(٢) الأنبياء:١٠٥.

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1].

كما أنّ هذا ينسجم مع الحقيقة الأُخرى التي أشار إليها القرآن الكريم - أيضاً - من غلبة الحق على الباطل في مجمل الصراعات التي تحدث في التأريخ الإنساني، الذي يعني أنّ حركة التأريخ - ومن خلال العناية والتدخل الإلهي بإرسال الأنبياء والمرسلين وإنزال الكتب السماوية - هي حركة تكاملية لابدّ أنْ تصل في نهايتها إلى المجتمع الكامل الذي بشّر به الأنبياء والصالحون.

وجاءت الرسالة الخاتمة - رسالة الإسلام - معبرة عن التكامل الإنساني في هذه المرحلة على مستوى الوعي والإدراك، وعلى التكامل النظري لتنظيم الحياة الإنسانية، والتطور الكامل للعلاقات المختلفة في المجتمع، إلاّ أنَ التكامل على مستوى التطبيق والممارسة والتجسيد والالتزام العملي لم يتحقق تحققاً كاملاً، لأنّ هذا المستوى من التكامل يحتاج إلى فترة طويلة من المعاناة والآلام والتجارب والامتحان.

وهنا يأتي دور أئمة أهل البيت عليهم السلام والجماعة الصالحة التي أعدّوها للقيام بدور التمهيد لتلك المرحلة التأريخية، ولظهور ذلك المنقذ المصلح للبشرية.

فقد كان أهل البيت يطرحون - أكثر من كل أحد من الناس - فكرة المهدي المنتظر والقائم بالأمر لإنقاذ البشرية من الظلم والطغيان والفساد، حتى كان الكثير من المسلمين في مختلف عصور أهل البيت وحتى بعض أتباعهم يتصور أنّ أحدهم هو القائم المهدي.

ونحن هنا لا نريد أنْ نتحدث عن الأبعاد والتأثيرات الروحية والسياسية

---

(١) النور:٥٥.

التي أوجدها هذا الطرح المستمر لفكرة الظهور وقيام القائم بالأمر، فإنَّ لذلك مجالاً آخر سوف نتناوله بالبحث، ولكن المقصود هو الإشارة إلى دورهم في عملية التمهيد.

وقد وضع الأئمة عليهم السلام في منظورهم عند بناء الكتلة والجماعة الصالحة أنْ تقوم بهذا الدور في عصر الغيبة، ليس على المستوى الفكري والعقائدي فحسب، بل على المستوى العملي أيضاً، فكان أحد أهداف وجود هذه الكتلة الصالحة هذا الدور الخاص بالتمهيد للظهور.

ويمكن أنْ نتبين ذلك بوضوح في هذه الجماعة الصالحة من خلال ملاحظة النقاط التالية:

١. الظهور فكرة حية

بقاء فكرة الظهور حية في وسط هذه الجماعة من المسلمين مع الارتباط الحقيقي بها والإحساس بالانتظار[1]، وجعله شعاراً مطروحاً في وجودها الثقافي ووعيها السياسي.

ولكن من الواضح - بالرغم من أنَّ جميع المسلمين يؤمنون بهذه الفكرة - نجد الجماعة الصالحة تتميز عن بقية المسلمين في مقدار تبنّيها وإحساسها بهذه الفكرة والتزامها بتفاصيل معالمها. فالقائم المنتظر لديهم ليس مجرد حالة مستقبلية يطمح إليها الإنسان، بل هو موجود حيٌ يعيش مع الفرد المسلم، ويتحسس آلام الإنسان ومشاكل المجتمع الإنساني، وهو ينتظر إلى جانب جميع المؤمنين ذلك اليوم الموعود، فهو غائب ولكنه يشهد كل الأوضاع التي يعيشها الحاضرون.

---

(١) لقد وردت فكرة الانتظار وأهميته على لسان النبي صلى الله عليه وآله، ورواها عامة المسلمين، ولكن التأكيد العملي والوجداني لها خاصة بجماعة أهل البيت عليهم السلام. منه قدس سره.

٢. مسؤولية وإرادة التغيير

إنّ التمهيد الذي تمارسه هذه الجماعة الصالحة ليس مجرد طرح نظري أو التزام عقائدي كما نشاهده عند جميع المسلمين، بل عند معتنقي الأديان أيضاً، وإنْ كان ذلك بتفاوت، كما أنه ليس - أيضاً - مجرد حالة نفسية وروحية وإنْ كان كل من هذين البعدين له دور في التمهيد.

بل هذا التمهيد - وهو الأهم - حركة سياسية جهادية في الأُمة تتميز بالشعور بالمسؤولية تجاه ما يجري من أحداث، وتملك الإرادة في العمل على تحقيق هذا الهدف، وفي نفس الوقت تعمل للمنع من استسلامها أمام الطغاة أو الضغوط الحضارية أو الثقافية التي تواجهها عبر عصور التأريخ.

وهذا ما تميزت به هذه الجماعة الصالحة على مرّ الأزمنة والأعصار.

٣. العودة إلى الإسلام

المساهمة الفعالة في عملية الظهور وإنجاحها في مواجهة الحضارات المادية واللادينية التي تتحكم الآن في رقاب العالم الغربي، وهذا مما سوف يكشف عنه المستقبل كما تشير إلى ذلك النصوص المؤكدة. ولكن على مستوى الحاضر يمكن أنْ نشاهد واضحاً الدور الذي تقوم به هذه الجماعة الصالحة في العودة إلى الإسلام في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية بعد المحاولات التي جرت للقضاء عليه، أو إبعاده عن الحياة خصوصاً في هذا العصر.

وبهذا الاستعراض للأهداف من بناء الجماعة الصالحة، يمكن أنْ نقول: إنّ حصيلة الهدف هي المساهمة مع الأئمة عليهم السلام في تحقيق الهدف من وجودهم، ونصرتهم في ذلك من جانب، ومن جانب آخر بقاء واستمرار دور الأئمة عليهم السلام في المجتمع الإسلامي بواسطة الجماعة الصالحة، بعد فرض

حصول الغيبة الكبرى للإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف.

ولذا كان من الضروري وجود هذه الكتلة والجماعة الصالحة بتخطيط مقصود، ولم يكن وجودها هو مجرد نتيجة طبيعية لقضية هداية الناس وإقامة الحجة عليهم، وإنْ كان ذلك له تأثير طبيعي في تكوّن هذه الجماعة الصالحة التي تؤمن بولاية الأئمة الاثني عشر وموقعهم الطبيعي في الأُمّة الإسلامية.

ولعل في النص التالي الذي رواه الكليني في الكافي عن الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام عن آبائه، عن أمير المؤمنين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما يلقي الضوء على طبيعة الهدف من بناء هذه الجماعة الصالحة، الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله خلق الإسلام، فجعل له عرصة، وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً.**

فأمّا عرصته فالقرآن، وأمّا نوره فالحكمة، وأمّا حصنه فالمعروف، وأمّا أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا، فأحبوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم؛ فإنّه لّما أُسري بي إلى السماء الدنيا فنسبني جبرائيل عليه السلام لأهل السماء استودع الله حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة، ثمّ هبط بي إلى أهل الأرض فنسبني إلى أهل الأرض فاستودع الله عزّ وجلّ حبّي وحبّ أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمّتي، فمؤمنو أُمّتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة. ألا فلو أنّ الرجل من أُمّتي عبد الله عزّ وجلّ عمره أيام الدنيا ثمّ لقي الله عزّ وجلّ مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي ما فرج الله صدره إلاّ عن النفاق))[1].

---

(١) الكافي٢: ٤٦، ح٣.



الخصائص العامة للجماعة الصالحة

لاشك أنَ الأهداف العامة تنعكس بطبيعة الحال على الخصائص والصفات المطلوبة في الجماعة الصالحة، كما أنّ الأهداف والخصائص تنعكس بطبيعة الحال على تفاصيل البناء المطلوب في الجماعة الصالحة.

وهذا هو الذي يفسر لنا وجود التشابه بين بعض النقاط في هذه الأبعاد الثلاثة مع الاختلاف في الإجمال والتفصيل، أو الاختلاف في البعد المنظور من النقطة المطروحة.

ولابدّ لنا بعد بيان بعض الأهداف العامة من وراء بناء الجماعة الصالحة أنْ نتعرّف على الخصائص والصفات الرئيسية، التي لابدّ أنْ تتميّز بها هذه الجماعة الصالحة وتتصف بها لتقوم بدورها الطبيعي في التأريخ الإسلامي، وفي أداء دور الأئمة في الدفاع عن الإسلام وحفظ الأُمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

وقد تعرّفنا على مجموعة من هذه الخصائص عند استعراضنا للأهداف الرئيسية من وراء وجود هذه الكتلة الصالحة.

ونحاول هنا أنْ نلخّص ونفهرس هذه الخصائص سواء التي تمت الإشارة إليها في استعراض الأهداف، أم غيرها من الخصائص الأُخرى:

١. العقيدة السليمة

لقد اهتّم أهل البيت عليهم السلام بالبناء العقائدي لهذه الكتلة، والحفاظ على معالم العقيدة الإسلامية الأصيلة، بحيث تكون بعيدة عن الانفعال بالمؤثّرات الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية، التي كانت تواجهها الأُمة في القرون الأُولى للإسلام، مثل المحتوى الفكري والثقافي للحضارة الرومانية والفارسية واليونانية التي قادت بعض الجماعات إلى الزندقة والإلحاد والتحلل.

وكذلك تكون سليمة عن التأثر بمرض الخدر الحضاري الذي أُصيبت به

الأمة الإسلامية بسبب انفتاحها على حياة المجتمعات الجديدة في العالم الإسلامي، والثروات الهائلة وأساليب الترف والاستمتاع بالشهوات.

وبعيدة أيضاً عن التأثر بردود الفعل النفسية والروحية التي انتهت ببعض الجماعات إلى العزلة عن الحياة والانكفاء على النفس، كما يلاحظ ذلك في بعض مذاهب التصوّف أو الباطنية، أو الوقوع في هاوية الفوضى والتمرد على المجتمع والنظام الإسلاميين بحيث يلغي كل الالتزامات، ويحكم بالخطأ والبطلان على جميع المظاهر والأوضاع السائدة، كما نشاهده في بعض حركات الخوارج أو في حركة القرامطة وغيرها، أو التعصب الأعمى والغلو في العواطف لتتحول إلى عقائد ومذاهب، كما نلاحظه في مذاهب الغلاة والنواصب والقدرية والمفوضة.

وبذلك تمكّن الأئمة أنْ يحافظوا في هذا الجانب على الموقف المتوازن والعقيدة السليمة لأتباعهم، بحيث يحفظوا الإسلام الصحيح والأصيل في الوجود العقائدي لهذه الكتلة من ناحية، ويهيئوا لهم القدرة على الاستمرار والتعايش والحيوية في النشاط والحركة والتأثير على الآخرين من ناحية أُخرى.

ولذلك عندما نريد أنْ نراقب الخط البياني لحركة هذه الجماعة ومسيرتها عبر التأريخ الإسلامي نجد ظاهرة الأصالة والتجذر من ناحية، والتوسّع والانتشار من ناحية أُخرى، والصلابة والصمود من ناحية ثالثة، بالرغم من عمليّات القمع ومحاولات الاستئصال التي تعرضت لها هذه الجماعة والكتلة، دون أنْ تضطر إلى الاستبطان أو الهروب من الواقع الاجتماعي أو الانزواء في مجاهل البلاد، بل بقيت تعيش في الحواضر الإسلامية وفي مراكز الإشعاع العلمي والديني والثقافي للعالم الإسلامي مثل: العراق، وإيران، وتركيا، ولبنان، وسوريا، والخليج، وشبه القارة الهندية، وآسيا الوسطى، وأفغانستان، وآذربيجان، وبعض مناطق أفريقيا المهمّة. كما

ضمّت قوميات متعددة مثل: العرب، والفرس، والترك، والكرد، والهنود بكل قوميّاتهم، والبربر، فضلاً عن أفريقيا السوداء، وغيرهم من القوميات المعروفة.

ولعل الأئمة عليهم السلام كانوا يشعرون من هذا المنطلق أنه لم تكن هناك حاجة ملحّة لأتباعهم أنْ يقوموا بالمزيد من الدعوة والعمل التبليغي في أوساط الناس من المسلمين، لأنّ العقيدة الصحيحة بنفسها يمكنها أنْ تؤدّي هذا الدور بمجرد طرحها وعرضها على الأُمة.

فقد روى الكليني بسنده عن ثابت بن سعيد قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا ثابت، ما لكم وللناس. كفّوا عن الناس، ولا تدعوا أحداً إلى أمركم، فوالله لو أنّ أهل السماء وأهل الأرض اجتمعوا على أنْ يُضلوا عبداً يريد الله هداه ما استطاعوا. كفّوا عن الناس ولا يقول أحدكم أخي وابن عمي وجاري، فإنّ الله عزّ وجل إذا أراد بعبد خيراً طيّب روحه، فلا يسمع بمعروف إلاّ عرفه، ولا بمنكر إلاّ أنكره، ثم يقذف الله في قلبه كلمة يجمع بها أمره**))[1].

ولاشك أنّ الأمر بالكفّ والنهي عن الدعوة إنّما يراد به النهي عن الوصول بالدعوة إلى حد المخاصمة والإلحاح، كما ورد ذلك في حديث آخر للكليني: ((**ولا تخاصموا بدينكم الناس، فإنّ المخاصمة ممرضة للقلب، إنّ الله عزّ وجل قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**))[2].

كما أنه ورد في بعض الروايات الحث على الدعوة عندما تتوفر لها

---

(١) الكافي٢: ٢١٣، ح٢.

(٢) الكافي٢: ٢١٣ - ٢١٤، ح٤.

فرصة لا تؤدي إلى المخاصمة، لأنّ الدعوة إلى الحق تمثل واجباً شرعياً[١].

وبهذا الاتجاه يمكن أنْ نفهم تأكيد أهل البيت عليهم السلام - كما جاء في الروايات - على تشخيص دعائم الدين وبالخصوص النص على الولاية، وكذلك على التمييز بين الإسلام والكفر، والإسلام والإيمان، فإنّ كل ذلك وأمثاله إنما جاء لتحديد معالم هذه العقيدة الصحيحة.

وقد كان الخط الذي يميز هذه العقيدة السليمة في الكتلة الصالحة هو موضوع حب علي والأئمة المعصومين من ولده - الأئمة الاثني عشر عليهم السلام - والإيمان بولايتهم، حيث رُبطت العقيدة السليمة بهذه الولاية في بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

فقد جاء بسند معتبر عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية.**

قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهنّ والولي هو الدليل عليهن، قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة، قلت: فثم الذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة؛ لأنه قرنها بها، وبدأ بالصلاة قبلها، قلت: فالذي يليها في الفضل؟ قال: الحج، قلت ماذا يتبعه؟ قال: الصوم))[٢].

وفي رواية أُخرى رواها الصدوق في أماليه عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ((**قال سلمان الفارسي رحمه الله: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: يا علي ألا**

---

(١) سوف نتناول هذا الموضوع بأبعاده المختلفة في موضوع نظام أمن الجماعة (السياسات الأمنية). منه قدس سره.

(٢) الكافي ٢: ١٨ - ١٩، ح٥.

أبشّرك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هذا حبيبي جبرئيل يخبرني عن الله جل جلاله أنه قد أعطى محبّيك وشيعتك سبع خصال: الرفق عند الموت، والأُنس عند الوحشة، والنور عند الظلمة، والأمن عند الفزع، والقسط عند الميزان، والجواز على الصراط، ودخول الجنة قبل سائر الناس من الأمم بثمانين عاماً))[1].

وقد وضع أهل البيت عدّة معالم ومؤشرات على هذا الحب والولاء، كان من أبرزها التقوى والاجتهاد والصبر على المكاره والتضحية التي تعبّر عنها زيارة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء على ما تنص عليه الروايات.

٢. الرجوع إلى أهل البيت في معرفة الدين

إنَّ قضية الالتزام بالوصول إلى الحكم الشرعي من مصادره الأصيلة الصحيحة، وكذلك الحصول على الموقف الشرعي للفصل في الحكم والخصومات والقضايا المستجدّة - من خلال الإنسان الصالح (الإمام المعصوم)، أو (الفقيه العادل) - من القضايا الأساسية التي تميّزت بها الكتلة الصالحة.

فإنّه بالرغم من اتفاق المسلمين جميعاً على أنّ القرآن الكريم والسنّة النبويّة هما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية، امتاز أتباع أهل البيت عليهم السلام على بقيّة المسلمين في هذا المجال بعدّة نقاط مهمّة:

أ) فهم القرآن

الرّجوع إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم وفهم حقائق الدين والإسلام منه، وذلك من خلال معرفة الناسخ والمنسوخ منه، والمحكم

---

(١) أمالي الصدوق: ٤١٦، ح١٥.

والمتشابه، والخاص والعام، والمجمل والمبيّن، وأسباب النزول، وغير ذلك مما له علاقة بفهم القرآن وشرحه وتفسيره. وقد أجمع المسلمون على أنَ علياً وأهل بيته عليهم السلام هم أعلم الناس بالقرآن من غيرهم من علماء الإسلام، ودلت على ذلك النصوص الصحيحة في كتب الفريقين.

فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله قوله: ((**كيف تخلفوني في الثقلين؟**

فقام رجل، فقال: يا رسول الله وما الثقلان؟

فقال رسول الله: الأكبر: كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزلوا ولا تضلوا، والأصغر: عترتي، وإنّهم لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت لهما ذلك ربي، ولا تقدموهما فتهلكوا ولا تعلموهما فإنّهما أعلم منكم))[١].

ب) معرفة السنة

الرّجوع إلى أهل البيت في التعرّف على السنّة النبوية، ذلك أنّ السنّة النبوية تعرّضت لمشاكل وتزوير وغموض بسبب عمليات النقل والتفسير غير الأمينة، أو بسبب الفصل بين النص وظروف مجيئه، أو بسبب عمليات الوضع والاختلاق والكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، أو بسبب الاجتهاد في تجميد النص وعدم الأخذ به بتصور وجود مصالح تفرض هذا التجميد والتنازل عن النص. الأمر الذي أدّى إلى تشويش واضطراب واسع في فهم الشريعة الإسلامية.

وقد امتاز أتباع أهل البيت عليهم السلام - عملياً - على غيرهم من المسلمين بالرجوع إلى أئمة الهدى وحدهم[٢] في أخذ السنّة النبوية، وكذلك شرحها

---

(١) المعجم الكبير٣: ٦٦، ح٢٦٨١، راجع الصواعق المحرقة: ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢) يأخذ أتباع أهل البيت عن كل ثقة يروي عن المعصوم، سواء كان ذلك المعصوم ←

وفهمها ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها، والمطلق والمقيّد، والخاص والعام، كما يعتقد أتباع أهل البيت بأنّ أهل البيت عليهم السلام قد حفظوا السنة النبوية بصورتها الشاملة، دون أنْ تكون هناك حاجة للرجوع إلى أدلة ظنية أخرى للوصول إلى الحكم الشرعي.

ج) تقليد المجتهد العادل الحي

الانضباط في عملية الأخذ للحكم الشرعي في حدود المجتهد العادل الذي يعرفه الناس بالاجتهاد والعدالة العالية والتقوى والورع، ومن خلال الفحص عنه والشعور بالمسؤولية تجاهه. وليس من خلال طرح الحكام أو الطغاة لهذا الاسم أو ذلك.

ويكون الرجوع إلى هذا المجتهد في الفتوى أو في القضاء وتحديد الموقف الشرعي من القضايا والخصومات. والالتزام بفتوى المجتهد الحي[1] الذي يمكنه أنْ يعيش الحدث من ناحية، ويمكن للناس أنْ يتعرّفوا على خصائصه وميزاته من ناحية أُخرى.

وهذه النقاط هيّأت فرصة لأتباع أهل البيت عليهم السلام أنْ يكون تحرّكهم ضمن الإطار التشريعي الصحيح، ولا يتعرّضوا لمشاكل الفتاوى التي تعرض لها

هو النبي صلى الله عليه وآله أو أحد الأئمة الأطهار عليهم السلام، ولذلك يأخذون الرواية عن الثقة حتى لو كان على مذهب آخر غير مذهب أهل البيت، ولكنهم واقعياً يأخذون عن أهل البيت وحدهم؛ باعتبار أنه لم يتم لديهم صحة روايات أُخرى إلاّ ضمن عدد محدود جداً، وذلك في الروايات المعروفة بـــ (النبوي) والتي اشتهرت بين المسلمين، وتداولوها جيلاً بعد جيل عن النبي صلى الله عليه وآله. وإنّ بعض العلماء يتوقف أيضاً في مثل هذه الروايات لعدم وضوح صحّة سندها. منه قدس سره.

(١) هذا الأمر وإنْ كان موضع خلاف في مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلاّ أنّ الغالبية العظمى من المجتهدين في العصور المتأخّرة على الأقل تلتزم بهذا الأمر. منه قدس سره.

جمهور المسلمين بحيث أدّت إلى تباين واختلاف كبيرين، ومن ثم نزاعات في الفتاوى والأحكام والمواقف.

ولعل هذا هو السر الذي جعل النبي صلى الله عليه وآله يؤكّد على أهمية مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام في قضايا الشريعة، إلى جانب أهمية ولاية الأمر والخلافة، حيث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله متواتراً التأكيد على ذلك، كما هو مضمون حديث الثقلين: ((**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**))[1].

وكذلك تأكيد أهل البيت عليهم السلام لهذه المرجعية في أحاديث كثيرة وواضحة، بحيث ربّوا شيعتهم على هذا الالتزام، وحذّروهم من الوقوع في الانحرافات أو الاعتماد على الظنون والاستحسانات في معرفة الحكم الشرعي.

٣. الاتصاف بالدرجة العالية من الكمالات الإنسانية

إنّ هذه المزيّة - مضافاً إلى كونها هدفاً إسلامياً للإنسان المسلم - تمثّل في نظر أهل البيت عليهم السلام شرطاً ضرورياً لابدّ لهذه الجماعة الصالحة أنْ تتّصف به حتى تتمكّن من القيام بدورها في التأريخ الإنساني؛ حيث إنّ هذه الدرجة العالية هي التي تكون قادرة على التأثير في حركة التأريخ الإنساني، وعلى استنزال النصر والخيرات والبركات الإلهية على المجتمع: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2].

---

(١) الصواعق المحرقة: ٣٤١، باب وصية النبي صلى الله عليه وآله بهم، وكنز العمال١: ١٨٥ - ١٨٩.

(٢) الأعراف:٩٦.

ولذا نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون هذه المزيّة ليس في مقام تربيتهم لشيعتهم فحسب، وإنما في مقام التعريف بهويّة هؤلاء الشيعة وشخصيتهم أيضاً.

فقد ورد عن الإمام الرضا، عن أمير المؤمنين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **((يا علي، طوبى لمن أحبّك وصدّق بك، وويل لمن أبغضك وكذّب بك. محبّوك معروفون في السماء السابعة، والأرض السابعة السفلى، وما بين ذلك، هم أهل الدين والورع والسمت الحسن والتواضع لله عزّ وجلّ، خاشعة أبصارهم، وجلة قلوبهم لذكر الله عزّ وجلّ، وقد عرفوا حق ولايتك))**[1].

وفي هذا المجال تمّ التأكيد في الروايات على عدّة خصوصيات ومعالم أساسية:

أ) العبادة والزهد

الزهد والمواظبة على العبادة بجميع أبعادها، فقد ورد في عدّة روايات تصوير النموذج الرائع لذلك، منها عن أبي جعفر عليه السلام في رواية أبي المقداد قال: **((يا أبا المقداد، إنما شيعة علي عليه السلام الشاحبون الناحلون الذابلون. ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم، متغيّرة ألوانهم، مصفرّة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتّخذوا الأرض فراشاً واستقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس وهم محزونون))**[2].

ومنها رواية الإرشاد للمفيد والأمالي للطوسي: **((روي أنّ أمير**

---

(١) عيون اخبار الرضا٢: ٢٣٦، ح٢١.

(٢) الخصال: ٤٤٤، ح٤٠.

المؤمنين عليه السلام خرج ذات ليلة من المسجد، وكانت ليلة قمراء فأمّ الجبّانة، ولحقه جماعة يقفون أثره، فوقف عليهم ثم قال: من أنتم؟ قالوا: شيعتك يا أمير المؤمنين. فتفرّس في وجوههم ثم قال: فمالي لا أرى عليكم سيماء الشيعة؟! قالوا: وما سيماء الشيعة يا أمير المؤمنين؟ فقال: صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من البكاء، حدب الظهور من القيام، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، عليهم غبرة الخاشعين))[1].

ويمكن أنْ نفهم هذه المناقبية الرائعة في تصوير هذا النموذج الحي الذي وضعه الإمام علي عليه السلام للفرد الشيعي، في الصورة المعبرة التي يقدّمها الإمام عليه السلام في حديثه مع الأحنف بن قيس، فيما رواه الصدوق في كتابه صفات الشيعة، قال: ((**لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام البصرة بعد قتال أهل الجمل دعاه الأحنف بن قيس واتخذ له طعاماً، فبعث إليه صلوات الله عليه وإلى أصحابه، فأقبل ثم قال: يا أحنف، ادعُ لي أصحابي، فدخل عليه قوم متخشّعون كأنهم شنان بوالٍ، فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، ما هذا الذي نزل بهم؟ أمن قلة الطعام؟ أو من هول الحرب؟ فقال صلوات الله عليه: لا يا أحنف، إنّ الله سبحانه أحب أقواماً تنسّكوا له في دار الدنيا تنسّك من هجم على ما علم من قربهم من يوم القيامة من قبل أنْ يشاهدوها فحملوا أنفسهم على مجهودها، وكانوا إذا ذكروا صباح يوم العرض على الله سبحانه توهموا خروج عنق يخرج من النار يحشر الخلائق إلى ربهم تبارك وتعالى، وكتاب يبدو فيه على رؤوس الأشهاد فضائح ذنوبهم، فكادت أنفسهم تسيل سيلاناً أو تطير قلوبهم بأجنحة الخوف طيراناً، وتفارقهم عقولهم إذا غلت بهم من أجل التجرد إلى الله سبحانه غلياناً. فكانوا يحنّون حنين الواله في دجى الظلم، وكانوا يفجعون من خوف**

---

(١) الإرشاد ١: ٢٣٧، والأمالي للطوسي: ٢١٦، ح٢٧.

ما أوقفوا عليه أنفسهم فمضوا ذبل الأجسام، حزينة قلوبهم، كالحة وجوههم، ذابلة شفاههم، خامصة بطونهم، تراهم سكارى، سمّار وحشة الليل. متخشعون كأنهم شنان بوالٍ، قد أخلصوا لله أعمالهم سراً وعلانية، فلم تأمن من فزعه قلوبهم، بل كانوا كمن حرسوا قباب خراجهم.

فلو رأيتهم في ليلتهم، وقد نامت العيون، وهدأت الأصوات، وسكنت الحركات من الطير في الوكور، وقد نهنههم هول يوم القيامة بالوعيد عن الرقاد كما قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فاستيقظوا إليها فزعين، وقاموا إلى صلاتهم معولين باكين تارة وأخرى مسبّحين، يبكون في محاريبهم ويرنّون، يصطفون ليلة مظلمة بهماء يبكون.

فلو رأيتهم يا أحنف في ليلتهم قياماً على أطرافهم، منحنية ظهورهم يتلون أجزاء القرآن لصلاتهم، قد اشتدت أعوالهم ونحيبهم وزفيرهم، إذا زفروا خِلتَ النار قد أخذت منهم إلى حلاقيمهم، وإذا أعولوا حسبت السلاسل قد صفّدت في أعناقهم، فلو رأيتهم في نهارهم إذاً لرأيت قوماً يمشون على الأرض هوناً ويقولون للناس حسناً فإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً، قد قيدوا أقدامهم من التهمات، وأبكموا ألسنتهم أنْ يتكلّموا في أعراض الناس، وسجموا أسماعهم أنْ يلجها خوض خائض، وكحّلوا أبصارهم بغض البصر عن المعاصي، وانتحوا دار السلام التي من دخلها كان آمناً من الريب والأحزان.

فلعلك يا أحنف شغلك نظرك في وجه واحدة تبدي الأسقام بغاضرة وجهها، ودار قد أشغلت بنقش رواقها وستور قد علقتها، والريح والآجام موكّلة بثمرها، وليست دارك هذه دار البقاء، فأحمتك الدار التي خلقها الله سبحانه من لؤلؤة بيضاء، فشقق فيها أنهارها، وغرس فيها أشجارها،

وظلّل عليها بالنضج من أثمارها وكبسها بالعواتق من حورها، ثم أسكنها أولياءه وأهل طاعته.

فلو رأيتهم يا أحنف وقد قدموا على زيادات ربّهم سبحانه، فإذا ضربت جنائبهم صوّتت رواحلهم بأصوات لم يسمع السامعون بأحسن منها، وأظلتهم غمامة فأمطرت عليهم المسك والرادن، وصهلت خيولها بين أغراس تلك الجنان، وتخلّلت بهم نوقهم بين كثب الزعفران، ويتّطئ من تحت أقدامهم اللؤلؤ والمرجان، واستقبلتهم قهارمتها بمنابر الريحان، وهاجت لهم ريح من قبل العرش فنثرت عليهم الياسمين والأقحوان، وذهبوا إلى بابها فيفتح لهم الباب رضوان ثم يسجدون لله في فناء الجنان، فقال لهم الجبار: ارفعوا رؤوسكم، فإنّي قد رفعت عنكم مؤنة العبادة وأسكنتكم جنّة الرضوان.

فإنْ فاتك يا أحنف ما ذكرت لك في صدر كلامي، لتتركنّ في سرابيل القطران ولتطوفنّ بينها وبين حميم آن، ولتسقين شراباً حار الغليان في إنضاجه، فكم يومئذ في النار من صلب محطوم ووجه مهشوم، ومشوّه مضروب على الخرطوم، قد أكلت الجامعة كفّه، والتحم الطوق بعنقه، فلو رأيتم يا أحنف ينحدرون في أوديتها، ويصعدون جبالها، وقد ألبسوا المقطّعات من القطران، واقرنوا مع فجّارها وشياطينها، فإذا استغاثوا بأسوأ أخذ من حريق شدّت عليهم عقاربها وحيّاتها، ولو رأيت منادياً ينادي وهو يقول: يا أهل الجنّة ونعيمها، ويا أهل حليّها وحللها خلود فلا موت. فعندها ينقطع رجاؤهم، وتغلق الأبواب، وتنقطع بهم الأسباب فكم يومئذ من شيخ ينادي: وا شيبتاه! وكم من شباب ينادي: وا شباباه! وكم من امرأة تنادي: وا فضيحتاه! هتكت عنهم الستور، فكم يومئذ من مغموس، بين أطباقها محبوس، يا لك غمسة ألبستك بعد لباس الكتان، والماء المبرّد على الجدران، وأكل الطعام ألواناً بعد ألوان لباساً لم يدع لك شعراً ناعماً كنت

مطعمه إلاّ بيّضه، ولا عيناً كنت تبصر بها إلى حبيب إلاّ فقأها، هذا ما أعدّ الله للمجرمين وذلك ما أعدّ الله للمتّقين))[١].

وكذلك الصورة الأُخرى التي رواها الكراجكي في كتابه (الكنز)[٢] في رواية نوف البكالي[٣] عن علي عليه السلام في حديث له مع جماعة من أصحابه منهم همام بن عبادة بن خثيم، والتي ذكر جانباً منها الشريف الرضي في نهج البلاغة[٤].

ب) الإيمان بالولاية والعمل

التطابق بين ادّعاء التشيّع والولاء لأهل البيت عليهم السلام والمتابعة العملية لهم والتأسّي بهم، فإنّ هذا المبدأ من أهم المبادئ التي جاء بها الإسلام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[٥]، وأكده أهل البيت عليهم السلام حيث ربطوا بين الإيمان والعمل مبينين أنّ تكامل الإيمان لا يكون إلاّ بالعمل، كما سوف نشير إلى ذلك في الأبحاث الآتية.

فقد ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال: ((**ينبغي لمن ادّعى هذا الأمر في السر أنْ يأتي عليه ببرهان في العلانية. قلت: وما هذا البرهان الذي يأتي في العلانية؟ قال: يحلّ حلال الله ويحرّم حرام الله، ويكون له ظاهر يصدّق**

---

(١) صفات الشيعة: ٣٩.

(٢) كنز الفوائد١: ٨٧ - ٨٨، وعنه البحار٦٨: ١٩١، ح٤٧.

(٣) كنز الفوائد١: ٨٨ - ٩٢، وعنه البحار٦٨: ١٩٢ - ١٩٦، ح٤٨.

(٤) نهج البلاغة، الصالح، الخطبة: ١٩٣.

(٥) الصف:٢ - ٣.

باطنه))[١].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: ((**ليس من شيعتنا من قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا، ولكن شيعتنا من وافقنا بلسانه وقلبه، واتّبع آثارنا وعمل أعمالنا، أولئك شيعتنا**))[٢].

وروى الكشّي بسند صحيح عن داود بن فرقد قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ أصحابي أولو النُهى والتقى، فمن لم يكن من أهل النُهى والتُقى فليس من أصحابي**))[٣].

ج) الإخلاص لله في القلب والعمل

الإخلاص لله تعالى في العمل والسلوك، أو العواطف والإحساسات، وكذلك - سواء في الحركة الفردية الشخصية أم في العلاقات الاجتماعية - الالتزام بمبدأ الحب في الله والبغض في الله، بعيداً عن المؤثرات الأُخرى الدنيوية، أو الميول النفسية.

فقد أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا الجانب الذي يعبّر عن التديّن والإيمان الحقيقي في الالتزامات العقائدية للإنسان المسلم، ووضعوا هذه الصفة أمام شيعتهم هدفاً وغاية لابدّ لهم من السعي إليها من خلال مجموعة كبيرة من الأحاديث، التي تصرّح بذلك أو تشير إليه بالالتزامات العملية.

فقد روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**من أحبّ لله وأبغض لله وأعطى لله فهو ممن كمل**

---

(١) غيبة النعماني: ١١٤، ح٧.

(٢) تفسير الإمام الحسن العسكري: ٣٣٠.

(٣) اختيار معرفة الرجال٢: ٥٢٥، وعنه البحار٦٥: ١٦٦، ح١٧.

إيمانه))[١].

وفي رواية أُخرى عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: ((**ودّ المؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحبّ في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله**))[٢].

كما ورد التعبير عن الإيمان والدين بهذا الحب، فعن فضيل بن يسار قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض؟! ثم تأوّل هذه الآية: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾**))[٣].

وعن أبي عبيدة زياد الحذّاء عن أبي جعفر في حديث له قال: ((**يا زياد، ويحك وهل الدين إلاّ الحبّ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**))[٤].

د) تجسيد القدوة الحسنة

تجسيد القدوة والأُسوة الحسنة بين الناس في السلوك الفردي والاجتماعي العام؛ فإنّ هذه المزيّة من أهم الخصائص التي أكّد أهل البيت عليهم السلام على ضرورة اتصاف شيعتهم بها؛ ولذلك جعلوها أيضاً أحد الأهداف من بناء الجماعة الصالحة كما عرفنا سابقاً.

ولعل التأكيد على اتصاف شيعتهم بصفة الورع والتقوى والإخلاص

---

(١) الكافي٢: ١٢٤، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٣١، ح٣.

(٣) المحاسن١: ٢٦٣، ح٣٢٧.

(٤) المحاسن١: ٣٦٢، ح٣٢٧.

والعبادة - التي أشرنا إليها سابقاً - يمثل جانباً من جوانب هذه المزيّة. ولكن مضافاً إلى ذلك نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون على شيعتهم الاهتمام بهذه الصفات والالتزامات تأكيداً يجسد جانب الاقتداء والأسوة في الأُمة وبين الناس، باعتباره قضية ذات علاقة خاصة بدور هذه الجماعة الصالحة في المجتمع الإسلامي، وما يمكن أنْ يكون لهم من تأثير في تحقيق الأهداف العامة من وراء إيجاد هذه الجماعة انطلاقاً من الدور العظيم المؤثّر الذي تؤديه القدوة الحسنة في المجتمع الإنساني، على ما سوف نشير إليه مستقبلاً.

ومن هنا جاءت القدوة والأُسوة بعنوانها الخاص - إلى جانب الصفات الأُخرى - صفة لابدّ لشيعتهم من الاتّصاف بها، بل قرنوا هذه المزيّة ببعض الأحاديث بما يتّصفون به أنفسهم من ميزة القدوة.

ففي الحديث عن عمر بن يحيى قال: ((**سمعت أبا عبد الله يقول: إنّ أحق الناس بالورع آل محمد وشيعتهم كي تقتدي الرعيّة بهم**))[1].

وقد تقدم الحديث الصحيح عن زيد الشحام الذي جاء به عن الإمام الصادق: ((**إنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تُسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان؟! إنّه آدانا للأمانة وأصدقنا للحديث**))[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إنّ أصحاب علي عليه السلام كانوا المنظور إليهم في القبائل، وكانوا أصحاب الودائع، مرضيّين عند الناس**))[3].

وفي رواية أُخرى عن سليمان بن مهران قال: ((**دخلت على الصادق**

---

(١) بشارة المصطفى: ٢٢٢، ح٤٧.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٣٥، ح١٨.

(٣) مشكاة الأنوار: ١٢٧.

جعفر بن محمد ﷺ وعنده نفر من الشيعة وهو يقول: معاشر الشيعة، كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً. قولوا للناس حسناً واحفظوا ألسنتكم، وكفّوها عن الفضول وقبيح القول))[1].

ومضافاً إلى هذه الصفات يمكن أنْ نلاحظ اهتمام الأئمة بضرورة توفر صفات الإنسان المؤمن الكامل، التي تتحدث عنها الروايات الواردة عنهم ﷺ في بحوث جهاد النفس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبواب أحكام العشرة، وغيرها، كما سنشير إليه في مواطن عديدة من هذا الكتاب خصوصاً في نظام العلاقات الاجتماعية، إلا أنه يأتي في مقدمة ذلك اليقين بالله تعالى والثقة وحسن الظن به والتوكل عليه والالتزام بأوامره ونواهيه.

هـ) القدرة على الصمود

القدرة على الصمود وتحمّل المسؤولية التأريخية الكبيرة في المساهمة والاستمرار لتحقيق الأهداف الكبرى لأطروحة الإمامة، وذلك من خلال تكامل الشخصية الإنسانية لأبناء الجماعة الصالحة في الالتزام، وضبط النفس، وحفظ الأسرار والكتمان، والصبر والثقة بالله والتوكل عليه وروح التضحية والفداء وحسن المعاشرة مع الناس، والوفاء بالعهود وأداء الأمانة، والتخلّق بالأخلاق الإسلامية العالية، والوعي والفهم الصحيح للأوضاع والأحداث الإسلامية.

وهذه المزيّة من الصفات المهمة التي تحتاج إليها الجماعة الصالحة في بقائها واستمرار وجودها في مواجهة التصفيات الجسدية، والضغوط الروحية والنفسية التي يمارسها الأعداء ضدها، وكذلك في مواجهة التلاطم

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٤٠، ح٤٥.

الاجتماعي والمتغيرات السياسية والمشاكل الأخلاقية والاجتماعية، والاستمرار في حمل الرسالة عبر الأجيال الإسلامية في مختلف أدوار التأريخ.

ومن هنا نجد أنَ أهل البيت عليهم السلام يضعون لشيعتهم أنظمة وقوانين وخصوصيات للتقيّة وأمن الجماعة بمختلف أبعادها، التي سوف نتحدث عنها، كما وضعوا أنظمة للمعاشرة، ويهتمون اهتماماً خاصاً بالجانب الروحي والأخلاقي والثقافي، ويضعون إلى جانبها منهجاً للضوابط والأخلاق والخصائص الضرورية التي يجب أنْ يلتزم بها المنتسبون لهذه الجماعة من شيعتهم، ويرون أنّ المحافظة على هذه الضوابط أحد معالم امتحان الإنسان الشيعي وتمييزه.

فمن النماذج التي تشير إلى هذه الصفة - والتي سوف يأتي المزيد منها - الروايات التالية:

فقد روى ابن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وإلى أسرارنا كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها**))[1].

وفي رواية أُخرى عن أبي الربيع الشامي قال: ((**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاصّ بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله عليه السلام وكان متكئاً ثم قال: يا شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله، اعلموا أنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره**))[2].

---

(١) قرب الإسناد: ٧٨، ح٢٥٣، وعنه بحار الأنوار٦٥: ١٤٩، ح١.

(٢) الكافي٢: ٦٣٧، ح٢، وعنه البحار٧٨: ٢٦٦، ح١٧٨.

وفي رواية أخرى عن ميسر قال: ((**قال أبو جعفر**عليه السلام**: يا ميسر، ألا أخبرك بشيعتنا؟ قلت: بلى جعلت فداك، قال: إنهم حصون حصينة، وصدور أمينة، وأحلام رزينة، ليسوا بالمذاييع البذر، ولا بالجفاة المرائين. رهبان الليل، أسد النهار**))[١].

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام: ((**شيعتنا المتباذلون في ولايتنا، المتحابّون في مودّتنا، المتزاورون في إحياء أمرنا، الذين إذا غضبوا لم يظلموا، وإنْ رضوا لم يسرفوا، بركةٌ على من جاوروا، سلمٌ لمن خالطوا**))[٢].

وقد تقدم في حديث سابق - كما هو في أحاديث عديدة - التأكيد على أداء الأمانة. ويتّضح هذا النهج وضوحاً رائعاً من خلال الأحاديث الكثيرة جداً التي وردت عنهم في تأديب شيعتهم وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، كما نجده في الموسوعات الحديثية، خصوصاً في أبواب العشرة والأمر بالمعروف. وقد أُلِّفت فيه الكتب المستقلة. وسوف يأتي مزيد من التوضيح لذلك في الجانب الروحي ونظام العلاقات الاجتماعية.

و) الكيان المتكامل المحكم

إيجاد الكيان الاجتماعي القوي المحكم لهذه الجماعة، والمستقل روحياً ومعنوياً عن الهيمنة التي كان يفرضها الطواغيت في المجتمعات الإسلامية، وكذلك عن الانفعال بالأوضاع الاجتماعية المتقلّبة، والاعتماد في ذلك على التأييد والنصر الإلهيين والإمكانيات الذاتية للجماعة الصالحة.

ويمكن أنْ نلاحظ هذه الخصوصية عبر التأريخ الإسلامي من خلال

---

(١) مشكاة الأنوار: ١٢٣، ح٣.

(٢) الكافي٢: ٢٣٦، ح٢٤.

بعض المعالم التي سوف نتحدث عنها أكثر تفصيلاً في الآتي من البحث:

١. النظام السياسي المتمثل بنظام الولاية، والقضاء، والفتيا، حيث يتحمّل المجتهدون مسؤولية هذا النظام بإرشاد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم في هذا الجانب، فقد قام الأئمة عليهم السلام بصياغته صياغة دقيقة تتناسب مع النظام السياسي العام للأُمّة، وتحفظ للجماعة الصالحة في نفس الوقت استقلالها وقدرتها على القيام بدورها المطلوب، وعدم السقوط في الأوضاع السياسية الفاسدة والرجوع إلى الحكام والتحاكم إلى الطاغوت. وسيأتي الحديث عن هذا النظام إنْ شاء الله.

٢. النظام المالي للجماعة الذي يؤمّن مصاريف الأعمال الدينية العامة في وسطها، والذي يعتمد بصورة أساسية على الحقوق الشرعية، وفي مقدمتها (الخمس والزكاة)، حيث كان لهذا النظام دور عظيم في حفظ هذه الجماعة واستمرارها. وهذا ما سوف نتناوله في النظام الاقتصادي للجماعة.

٣. وجود المؤسسات الثقافية كالمدارس والحوزات العلمية التي يتخرج منها المجتهدون والمبلّغون وذوو الاختصاص بالعلوم الشرعية، والتي كانت الحصون المنيعة لتربية هذه الجماعة وحفظها من الانهيار. وقد أكد أهل البيت وجوب طلب العلم وضرورة بذل العلماء لعلمهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: ((**أيها الناس، اعلموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به. ألا وإنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال. إنّ المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله، وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه**))[1].

كما ورد في عدة روايات أنّ ((**طلب العلم فريضة**))[2]، ((**ألا إنّ الله**

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٢، ح١٢.

(٢) الكافي١: ٣٠، ح٢.

يحب بغاة العلم))[١]، **((وإنّ الشاخص في طلب العلم كالمجاهد في سبيل الله))**[٢].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **((تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب. إنّ القلوب لترين كما يرين السيف جلاؤها الحديث))**[٣].

وكذلك إيجاد المجالس والاجتماعات التي يُتذاكر فيها فضائل أهل البيت عليهم السلام وتراثهم العلمي والثقافي والأخلاقي والشؤون الحيوية واليومية للجماعة. وهذا ما سوف نتناوله في الجانب الثقافي.

٤. الاهتمام بتأمين الموارد المالية لمجتمع الجماعة من خلال خطّي التجارة والزراعة، اللذين يؤمّنان شيئاً من الحماية الاقتصادية بعيداً عن تأثير الطاغوت وقوانينه وممارساته ومطاردته لأفراد الجماعة ومحاصرتهم.

حيث جاءت النصوص الكثيرة التي تحث على سلوك طريقي التجارة والزراعة، وقد ورد أنّ تسعة أعشار الرزق في التجارة. وهذا ما سوف نتناوله في النظام الاقتصادي أيضاً.

ز) الولاء للمؤمنين

الاتصاف بروح الإنصاف والتناصر والتعاضد والتكافل والمواساة للإخوان، باعتبارها تعبّر عن عقد ولاء المؤمن للمؤمن، وهو القاعدة القوية التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد الجماعة، وتحقيق وحدتها وتلاحمها، ومعالجة نقاط الضعف والخلل فيها حيث قد يصاب الأفراد - بسبب

---

(١) المحاسن ١: ٢٢٥، ح١٤٦.

(٢) روضة الواعظين: ١٠.

(٣) الكافي ١: ٤١، ح٨.

الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - بالشعور بالعزلة أو المحاصرة أو الضعف.

وقد وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات كثيرة تؤكد أهمية هذا المبدأ وهذه المزيّة، وأنَ ذلك حق من حقوق المؤمنين بعضهم على البعض الآخر كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهو ما سوف نتناوله في النظام الاقتصادي وفي نظام العلاقات الاجتماعية للجماعة.

ومن هذه النصوص، عن أبي جعفر عليه السلام: ((**إنّ من حق المؤمن على أخيه المؤمن أنْ يشبع جوعته ويواري عورته، ويفرّج عن كربته ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده**))[1].

ح) الشعور بالمسؤولية العامة

الشعور بالمسؤولية وتحملها تجاه الأُمة الإسلامية جمعاء، وذلك من خلال تأكيد أئمة أهل البيت عليهم السلام لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لمقاومة الظلم والبغي والانحراف، ومبدأ النصرة للمسلمين، وكذلك مبدأ التعاون بينهم ومبدأ الاهتمام بأمورهم، ومبدأ النصيحة لهم ومبدأ الأُخوة بينهم وحرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومبدأ التعايش مع الناس من المسلمين، وغيرها من المبادئ التي تشكل بمجموعها قاعدة قوية ومنهجاً متكاملاً لهذا الشعور والإحساس، وسوف يأتي توضيح كل هذه الأُمور في تفاصيل الأبحاث الآتية.

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٥٤٢، ح٥. وفي الباب أحاديث كثيرة تتناول هذا الموضوع.

الباب الثاني

القواعد والأُسس العامة

الفصل الأوّل:

الفكر والعقيدة

الفصل الثاني:

الجانب الأخلاقي

الفصل الثالث:

الجانب الثقافي

الفصل الرابع:

الجانب الروحي والمعنوي

تمهيد

عندما بدأ أئمة أهل البيت عليهم السلام بناء الجماعة الصالحة وضعوا مجموعة من القواعد والأُسس القوية والمحكمة لإرساء هذا البناء عليها، وقد تم استنباط هذه القواعد والأُسس من الرسالة الإسلامية الخاتمة بحيث تمثل الفهم الصحيح من ناحية، وتحقق الأهداف والخصائص - سالفة الذكر - من ناحية أُخرى.

ولذلك نجد أنّ هذه القواعد والأُسس اتصفت بالشمولية والأصالة والإحكام والانسجام، فكانت مزيجاً من الأبعاد والجوانب تتوافر فيه جميع مستلزمات البناء المرصوص المحكم، الذي يؤهّله للقيام بهذا الدور التأريخي، وهو حفظ الإسلام والأمة الإسلامية والدفاع عنهما من ناحية، وتحقيق المثل الصالح للجماعة الإنسانية في مسيرة البشرية من ناحية أُخرى.

وتمثل هذه القواعد والأُسس الجانب العقائدي والأخلاقي والثقافي والمعنوي والروح المعنوية العالية والخطوط السياسية العامة.

وبذلك يكون أمامنا أربعة من فصول البحث في هذا الباب، وسوف نتناول كلّ واحد منها بالإشارة والحديث المختصر، وسوف يتبين بعض التفصيل لها من خلال القسم الثاني عندما نتناول البناء الفوقي والأنظمة للجماعة الصالحة.

علماً بأنّ كل واحد منها يصلح لدراسة مستقلة وثائقية وتأريخية وتحليلية.



الفكر والعقيدة

لقد اهتم أهل البيت عليهم السلام اهتماماً خاصاً ومتميّزاً بجانب الفكر والعقيدة؛ لأنه يعتبر الأساس الذي يمكن أنْ يقوم عليه بناء أي جماعة بشرية. وبمقدار ما يكون هذا الجانب قوياً وواضحاً ومنسجماً وشمولياً، تكون الجماعة قوية وقادرة على مواجهة المصاعب والمشكلات والظروف المختلفة التي تفرزها حركة التأريخ.

ومن خلال هذه الرؤية لدور الجانب العقائدي والفكري نجد أنّ القرآن الكريم يهتم به أكبر اهتمام، ويعالج - في المجتمع الجاهلي - القضية العقائدية والفكرية، قبل كل شيء، ويرسّخ في المجتمع (الجماعة الإسلامية) هذه القضية.

ويمكن أنْ نلاحظ في بناء الكتلة الصالحة والجماعة الصالحة الذي أقامه أهل البيت عليهم السلام من خلال هذا الجانب (الفكري والعقائدي)، الأُمور التالية:

١. القرآن والسنة مصدرا العقيدة

الالتزام بطرح الأفكار والعقائد التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، حيث كانوا دائماً يستشهدون على هذه العقائد بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، مضافاً إلى الالتزام بأنْ يكون الطرح منسجماً مع الفطرة الإنسانية السليمة.

ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح من خلال النصوص التي وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في توضيح هذه الأفكار والعقائد، وكذلك في أساليب الاحتجاج والمناقشة للأفكار الأُخرى[1].

---

(١) يمكن مراجعة البحار ج١٠، وكذلك كتاب الاحتجاج للطبرسي وأُصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر. وكذلك تراجم أئمة أهل البيت عليهم السلام في مظانها، فإنّ هذه الكتب ←

مملوءة بالاحتجاجات التي تستند إلى القرآن والسنة والعقل. وعلى سبيل المثال نذكر النموذجين التاليين:

١. احتجاج فاطمة عليها السلام: ((**أيها المسلمون، أأُغلب على إرثي؟ يابن أبي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾، وقال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وقال:**
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، وزعمتم أنْ لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا. أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّ أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ...)) (الاحتجاج: ١٠٢).

٢. احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على قتال أهل البصرة:

عن الأصبغ بن نباتة قال: ((**كنت واقفا مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل فجاء رجل حتى وقف بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين، كبَّر القوم وكبّرنا وهلّل القوم وهلَّلنا، وصلَّى القوم وصلَّينا، فعلام تقاتلهم؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: على ما أنزل الله جل ذكره في كتابه. فقال: يا أمير المؤمنين، ليس كل ما أنزل الله في كتابه أعلمه فعلِّمنيه، فقال علي عليه السلام: ما أنزل الله في سورة البقرة. فقال: يا أمير المؤمنين، ليس كل ما أنزل الله في سورة البقرة أعلمه فعلِّمنيه، فقال علي عليه السلام هذه الآية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا**

←

وقد أعطى أهل البيت عليهم السلام أهمية خاصة للعقل في فهم العقيدة، ولكن إنما كان ذلك من أجل ترسيخ المنهج الصحيح في إدراك الأُمور - كما سوف نعرف في النقطة الرابعة - وإيجاد القناعة واليقين بالأفكار العقائدية التي لا يصح الاكتفاء فيها بالظن. ومع ذلك لم يُغفل أهل البيت عليهم السلام موضوع تأكيد أنّ جميع العقائد الصحيحة قد جاء بها الكتاب الكريم والسنة النبوية، وأكدها العقل البشري والفطرة الإنسانية السليمة.

٢. التكامل بين العقيدة والمذهب

مراعاة التكامل المذهبي والعقائدي بين أُصول العقائد والفطرة الكليّة للكون والحياة وعالم الغيب والشهادة من ناحية، والفروع التي تتفرَع عن هذه العقائد من ناحية أُخرى، أي التكامل بين النظرية والتطبيق، وبين العقيدة والسلوك، وبين الأُصول والفروع. فالمذهب الإمامي يقوم على أساس العقيدة التي ترى أنّ أهل البيت عليهم السلام يمثلون دوراً يرتبط بالعقيدة في النظرة الكلية للإسلام، وأنّ الإمامة لها بُعد إلهي يشبه بُعد الرسالة ومسؤولياتها باستثناء الوحي، لأنّ الإمام منصوب من قبل الله تعالى كما أنّ الرسول مبعوث ومرسل منه تعالى.

إنّ السلوك الإنساني يتأثّر بهذا الفهم العقائدي حيث يشاهد الربط بين الإيمان (بالولاية) وتكامل (الأعمال والسلوك).

فقد روى الكليني في الصحيح عن أحدهما عليهما السلام قال: ((**الإيمان إقرار**

اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، فنحن الذين آمنا وهم الذين كفروا. فقال الرجل: كفر القوم وربِّ الكعبة. ثم حمل فقاتل حتى قتل رحمه الله)). الاحتجاج: ١٦٩ - ١٧٠.

وعمل والإسلام إقرار بلا عمل))[١].

وأيضاً عن الإمام الرضا عليه السلام قال: ((**من أحب عاصياً فهو عاصٍ، ومن أحب مطيعاً فهو مطيع، ومن أعان ظالماً فهو ظالم، ومن خذل ظالماً فهو عادل. إنه ليس بين الله وبين أحد قرابة، ولا تنال ولاية الله إلاّ بالطاعة**))[٢].

وفي عيون الأخبار عن إبراهيم بن محمد الهمداني: ((**من خذل عادلاً فهو ظالم**))[٣] وفي ذيله: ((**لا ينال أحد ولاية الله إلاّ بالطاعة، ولقد قال رسول الله عليه السلام لبني عبد المطلب: ائتوني بأعمالكم لا بأحسابكم وأنسابكم. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ۞ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾**)).

والأخذ عن (أئمة أهل البيت عليهم السلام) - سواء في الأُصول أم الفروع - إنّما هو أخذ عن الإنسان الذي يتّصف (بالعلم الكامل) ولكن في المدى الإنساني، و(بالعصمة) عن الذنب والخطأ في البيان، و(بحق الولاية)، والأمر والنهي في المصاديق والتفاصيل.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**إنّ العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عليه السلام عالم هذه الأمّة، وإنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلاّ خلفه من أهله من عَلِمَ مثل علمه، أو ما شاء الله**))[٤].

وعنه عليه السلام: ((**إنّ العلم يتوارث، ولا يموت عالم إلاّ وترك من يعلم مثل**

---

(١) الكافي٢: ٢٤، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٤٦، ح٦.

(٣) عيون أخبار الرضا١: ٢٦٠، ح٧.

(٤) الكافي١: ٢٢٢، ح٢.

علمه، أو ما شاء الله))[1].

وعن ضريس الكناسيّ قال: ((**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ داود ورث علم الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمداً صلى الله عليه وآله ورث سليمان، وإنا ورثنا محمداً صلى الله عليه وآله وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى، فقال أبو بصير: إنّ هذا لهو العلم، فقال: يا أبا محمد، ليس هذا هو العلم، إنّما العلم ما يحدث بالليل والنهار، يوماً بيوم وساعة بساعة))**[2].

فلا يكون الأخذ عنهم من قبيل الأخذ عن (الرواة) أو (المجتهدين) الذين يكون دورهم النقل والفتوى، ويرجع إليهم الناس في حدود معرفة الحكم الشرعي من خلال النقل والفتوى دون أنْ يكون لهم حق الولاية والتشريع في منطقة الفراغ، وعلى ذلك تدل أخبار التفويض في الدين المعتبرة التي سوف نشير إلى بعضها، كما أنّ المجتهدين يعتمدون على الحدس ويتعرضون إلى الاشتباه والنسيان في الفهم، أو في حفظ النص أو الاستنباط منه، وهذا بخلاف أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام فإنّ لهم الولاية وعلمهم يقيني قطعي.

عن محمد بن الحسن الميثمي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**سمعته يقول: إنّ الله عزّ وجلّ أدّب رسوله حتى قوّمه على ما أراد، ثمّ فوّض إليه فقال عزّ ذكره: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فما فوّض الله إلى رسوله صلى الله عليه وآله فقد فوّضه إلينا))**[3].

ولذلك لم تتعرّض هذه الجماعة إلى حالة الانفصام والتأرجح بين

---

(١) الكافي ١: ٢٢٢، ح٣.

(٢) الكافي ١: ٢٢٥، ح٤.

(٣) الكافي ١: ٢٦٨، ح٩.

الأوامر التي كان يصدرها الحكّام والولاة للمجتمع الإسلامي العام، والتي كان يراها العامة والجمهور ذات صيغة شرعية، وقد تكون من منطلقات الانفعال والتأثر بالأهواء والعواطف - أحياناً - أو الظروف السياسية التي كانت تحيط بهم، أو يتعرضون أحياناً أُخرى إلى الاشتباه والخطأ، وبين الفتاوى التي كان يصدرها المجتهدون من منطلقات الفهم الخاص للنص القرآني والسنّة النبوية، أو الرجوع إلى الظنون مثل قواعد (القياس) و(الاستحسان) و(المصالح المرسلة) وغيرها، عندما يعجزون عن الوصول إلى النص الشرعي، أو يصدرون فتواهم - أحياناً - في مقابل هذا النص، كما في موارد الاجتهاد في مقابل النص، حيث كانوا يرونه بعيداً عن مواقع الاستحسان أو المصالح الاجتماعية المرسلة التي كانوا يرونها من خلال فهمهم لحركة المجتمع.

وقد تعرض بعض هؤلاء الفقهاء للأذى والملاحقة من قبل هؤلاء الولاة في بعض الأحيان بسبب هذا التناقض، كما حصل ذلك لأبي حنيفة الذي تعرض للسجن والاعتقال من قبل المنصور بسبب موقفه السياسي في تأييد يحيى بن زيد، وتأييد محمد وإبراهيم ولدي عبد الله المحض، وكذلك أحمد بن حنبل بسبب موقفه من قضية خلق القرآن واختلافه مع المأمون في ذلك.

كما أنّ هذه الجماعة الصالحة لم تتعرّض إلى حالة الانفصام بين الكلاميّين والفلاسفة المسلمين أصحاب النظريات والمتبنّيات العقائدية، التي اختلفوا فيها أشدّ الاختلاف، وبين الفتاوى التي أفتى بها فقهاء قد لا يلتزمون هذه النظرية أو تلك، بحيث واجهت بعض الجماعات الإسلامية حالة الرجوع إلى فقيه يلتزم متبنّيات عقائدية وفكرية معينة فيكون أشعرياً أو معتزلياً أو مفوضاً أو غير ذلك من العقائد، التي قد يختلف فيها مع مقلّده الذي أخذ بالنظريات العقائدية والفكرية من رجال آخرين.

ولذلك لا نجد بين علماء ومجتهدي الشيعة وأتباع أهل البيت هذا الاختلاف العقائدي والفكري الذي نراه في علماء المذاهب الإسلامية.

٣. الشمول في العقائد

الشمولية في الحالة المذهبية العقائدية، حيث تناول أهل البيت عليهم السلام الجانب العقائدي بالشرح والتوضيح والتفصيل، فكان شاملاً لمختلف القضايا العقائدية، ولم يتركوا فراغاً في هذا الجانب يتصرّف فيه المجتهدون بآرائهم واجتهاداتهم واستنباطهم؛ وذلك لأنّ القضية العقائدية - بخلاف القضية السلوكية الفرعية - خطيرة وتترتّب عليها آثار ونتائج حساسة وحادّة، وتنعكس على كل تفاصيل البناء الروحي والاجتماعي والسياسي والمستقبلي للحياة الإنسانية.

ومن هذا نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام لم يقتصروا في طرحهم للجانب العقائدي على أُصول العقائد الإسلامية كالتوحيد، والنبوة، والمعاد فحسب، بل شمل المجالات المختلفة مثل: قضايا العدل، والإمامة، والجبر والاختيار، والقدر، والكفر والإيمان وعلاقتهما بالعمل، والعصمة، والعدالة، والموت والحياة، وسنن التأريخ، والابتلاء، والولاء، والحب والبغض، والأخلاق، وظهور المهدي في آخر الزمان، ومعالم الدار الآخرة: كالبرزخ، والبعث، والنشور، والحوض، والصراط، والرؤية، والحساب، والشفاعة، والجنة والنار، والعذاب والراحة، والخلود في النار والجنة، والحسن والقبح، والوحي الإلهي، والعقل.

إنّ هذه التفاصيل وغيرها - التي تناولها الأئمة، وعالجوا فيها الجانب الفكري والعقائدي، وقدموا فيها الموقف الناجز - كان لها دور عظيم في قوة القاعدة العقائدية واستحكام بناء هذه الجماعة الصالحة وتراصّ صفوفها.

ويمكن أنْ نلاحظ هذه الشمولية عندما نرجع إلى كتاب عقائد الصدوق وشرحه للشيخ المفيد، حيث يعتمدان أساساً في التفاصيل على روايات أهل البيت عليهم السلام.

ولعل من أفضل الشواهد على أهمية هذا التأسيس لهذه القاعدة أننا نلاحظ أنّ تأريخ فترة الحضور - أي حياة الأئمة الأحد عشر - شهد اختلافات واسعة في أوساط جماعة أتباع أهل البيت عليهم السلام بسبب هذه العقائد، تفرعت عنه مذاهب وجماعات. ولكن عندما تمكّن الأئمة من تحقيق هذه السعة والشمول في الطرح العقائدي بدأت تتناقص وتتضاءل هذه الاختلافات حتى أصبحت محدودة إلى حدّ بعيد في زمن (الغيبة الكبرى)، مع أنّ ظروف الغيبة هي أشدّ صعوبة من فترة وجود الأئمة بسبب غيبة الإمام وعدم القدرة على الاتصال به. ولم يكن ذلك إلاّ بسبب هذا الإنجاز الكبير الذي قام به الأئمة في فترة وجودهم، وكان ضمانة عقائدية وفكرية لهذه الجماعة الصالحة. كما أنّ التأريخ الإسلامي شهد اختلافات عقائدية واسعة، ولا زال بين الجماعات الإسلامية الأُخرى بسبب عدم الاتفاق على مرجع واحد غير القرآن الكريم ليكون مآلاً للمسلمين في هذه التفاصيل، بل يمكن أنْ نقول بعدم وجوده.

والقرآن الكريم وإنْ كان موضع اتفاق بين المسلمين ولكنه قابل للتأويل، ولذا أكد أهل البيت أهمية وجود الإمام المفسر للقرآن الكريم، وأكد النبي صلى الله عليه وآله أهمية الثقل الآخر المتمثل بأهل البيت عليهم السلام في حديث الثقلين وحديث السفينة[1].

---

(١) **((إني تارك فيكم الثقلين أو الخليفتين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))**. كنز العمال ١: ١٨٥ - ١٨٩.

٤. حرية الفكر والمنطق السليم

إرساء قواعد المنهج الصحيح في معالجة قضايا الفكر والعقيدة، وذلك من خلال التأكيد للحرية الفكرية والعقائدية في المجتمع الإسلامي، التي تقوم على أساس:

أ) المنطق السليم وتحكيم العقل والوجدان والفطرة الإنسانية الصافية.

ب) الالتزام بمرجعية القرآن الكريم، والنص النبوي الصحيح، بعيداً عن الأهواء والاتجاهات السياسية الخاصة، وبعيداً عن استخدام الذوق والمزاج والميول والظنون الشخصية أو النوعية، التي يكثر فيها الخطأ كالقياس والاستحسان، الشيء الذي يسميه أهل البيت والنص النبوي بـ «الرأي»، وورد فيه: ((**من فسّرَ القرآن برأيه فقد كفر**)) أو ((**إنّ دين الله لا يدرك بالعقول**))[1].

فقد ورد في تأكيد مرجعية (القرآن الكريم) المطلقة والسنّة الصحيحة عدة روايات، منها: عن أيوب بن الحر قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كلُّ شيء مردود إلى كتاب الله والسنّة، وكلُّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**))[2].

وعنه عليه السلام قال: ((**ما أتاكم عنّا من حديث لا يصدّقه كتاب الله فهو باطل**))[3].

و((**إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق**)). كنز العمال ١: ١٨٦.

(١) راجع بحث التفسير والتأويل، وكذلك بحث التفسير عند أهل البيت من كتابنا محاضرات في علوم القرآن.

(٢) الكافي ١: ٦٩، ح٣، المحاسن ١: ٣٤٧، ح١٢٧.

(٣) المحاسن ١: ٢٢١، ح١٢٩.

ج) فتح باب الاجتهاد والاستنباط ضمن القواعد والأُصول الصحيحة، والعمل على استنطاق القرآن تجاه كل الظواهر والأحداث، التي تواجهها البشرية بروح موضوعية ومنفتحة على جميع الاحتمالات والظروف التي يواجهها الإنسان.

وقد كانت هذه الحرية الفكرية، وهذا الالتزام بالضوابط والحدود الإسلامية للاستنباط من النص القرآني والسنّة النبوية، وهذا الانفتاح والتجديد في الفهم والاستنباط والنظر في معالجة القضايا، وهذا الانسجام مع متطلّبات الفطرة الإنسانية والعقل والوجدان من الخصائص التي اتّصفت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهذه الجماعة الصالحة كما أشرنا إلى ذلك.

وهذه الخصائص - في الوقت التي تمكّنت من أنْ تبني هذه الجماعة بناءً فكرياً وعقائدياً قوياً ومتطوراً له القدرة على مواجهة جميع الظروف والأوضاع - مكّنت هذه الجماعة الصالحة من القيام بمسؤولياتها في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي الأصيل، ليس في مواجهة الاجتهادات الفكرية والعقائدية الأُخرى داخل المجتمع الإسلامي والإطار الإسلامي فحسب، بل في مواجهة التيارات الفكرية والعقائدية التي هي خارج الإطار الإسلامي مطلقاً.



الجانب الأخلاقي

وتأتي الأخلاق في المرتبة الثانية من الأهمية في بناء الجماعة الإنسانية؛ حيث إنها تمثل الأساس الثاني الذي يجب أنْ يقوم عليه البناء الاجتماعي، وتعبّر الأخلاق عن الجانب الوجداني والمعنوي للسلوك الإنساني والعلاقات الإنسانية، التي ترتبط بالعدل والظلم والحسن والقبح والتكامل والتسافل الروحي والمعنوي في المسيرة البشرية، وهو ما يعبّر عنه الفلاسفة بالعقل العملي في مقابل العقل النظري الذي يعتمد عليه الجانب العقائدي والفكري كما أشرنا.

ويمكن أنْ نلاحظ معالم هذا الجانب في بناء الجماعة الصالحة في الأُمور التالية:

١. دور الأخلاق في صياغة الحكم الشرعي

التأكيد لدور الأخلاق في صياغة النظام والحكم الشرعي للمجتمع الإنساني من جانب، وعلاقتها بالإرادة الإنسانية وتكاملها من خلال مسؤولية الإنسان تجاهها من جانب آخر؛ حيث إنّ هذين الجانبين كانا من نقاط الاختلاف الحادّة في الفكر الإسلامي. وذهب عدد كبير من المفكرين الإسلاميين إلى فكرة الجبر، وهي دعوى عدم تحمّل الإنسان واقعياً المسؤولية تجاه الانحرافات السلوكية والأخلاقية وفصلها عن إرادته، فهو خاضع بكل وجوده للإرادة الإلهية وأفعاله هي من صنع الله وخلقه، ولا معنى لافتراض أنّ عقاب الإنسان على مخالفته للحكم الشرعي هو خلاف العدل الإلهي أو أنه قبيح على الله، ذلك لأنّ الإنسان ليس لديه مدركات أخلاقية مستقلة تصحح له الحكم بالقبح أو الحسن، وإنما عليه الالتزام بالحكم الشرعي لأنّ الحكم الشرعي هو أمر الله وإرادته، والإنسان مملوك لله تعالى في كل شؤونه، ولا يسأل الله عن شيء من تلك الشؤون ﴿**لا يُسْأَلُ**

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(١).

هـذا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أُخـرى يكـون الحكـم الـشرعي مجـرداً عـن خلفيّته الأخلاقية الإنسانية، فهو مجرد تعبير عن الإرادة التشريعية الإلهية.

ولكننا في مقابل ذلك، نجد أنّ مدرسة أهـل البيت عليهم السلام أكّدت مفهـومين في هذا المجال:

الأوّل: قضية إدراك الإنسان الأخلاقي للحسن والقبح في الأشياء بصورة إجمالية، كما أنّه يدرك قبح عقاب الإنسان المكره والمجبور، بـل قـبح تكليفه وهو مسلوب الإرادة، وأنّ هذا الإدراك الأخلاقي هو الذي يهـدي الإنـسان إلى الكثير من الحقائق الإلهية.

الثاني: إنّ الحكـم الـشرعي جـاء مـن أجـل أنْ يكـشف ويحـدّد للإنسان - تفـصيلاً - هـذا الإدراك الإجمـالي، ويـنير لـه الطريـق للوصـول إلى هـذه الحقائق الـتي فطره الله تعـالى عليهـا، بحيث أصـبح الحكـم الـشرعي الإلهي ليس مجرّد إلزام أو قرار يمارس فيـه الله تعـالى ولايتـه المطلقـة علـى الإنسان، بـل هـو إلى جانـب ذلـك يمثّـل العـدل والحكمـة الإلهيين والغنـى المطلـق منه تعالى عن أفعال هذا الإنسان، فهو يعبر عن المصالح والمفاسـد المرتبطة بحياة الإنسان ومسيرته التكاملية في الحياة، فهو ذو بعد ومحتوى أخلاقي.

وبهذا يمكن أنْ نفهم أهميّة المعركة الكلامية التي خاضها أهـل البيت عليهم السلام وحدّدوا فيها البُعد الأخلاقي في الأحكام الـشرعية مـن خـلال قـضية الحُسن والقبح في الإرادة الإنسانية، وطرح فكرة ((**لا جبر ولا تفويض بـل أمرٌ بـين أمرين**)) في علاقة الإرادة الإنسانية بالإرادة الإلهية.

فأفعـال الإنـسان - الـتي هـي موضـوع الحكـم الـشرعي - معلولـة لإرادة

(١) الأنبياء:٢٣.

الإنسان وهو يتحمل مسؤوليتها، ولكن الإنسان بكل وجوده مخلوق لله تعالى وقد خلقه مريداً، وهو خاضع في وجوده وبقائه وقدرته للإرادة والقدرة الإلهيتين، ولا يمكنه أنْ يتصرف مستقلاً عن هذا الإمداد الإلهي لوجوده وقدرته.

وقد استفاد أهل البيت عليهم السلام هذا الدور للأخلاق من القرآن الكريم، حيث نجد القرآن حينما يضرب للإنسان الأمثال التي يؤكّد فيها (الحرية) في الإرادة الإنسانية، كما في مثل قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ**﴾[1]، أو يطرح أمامه التساؤلات العقلية مثل: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[2]، أو يطرح أمامه مفاهيم (الحسنة والسيئة) مثل: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ**﴾[3]، أو العدل والظلم، أو الصدق والكذب، أو البخل والإيثار، وغيرها من المفاهيم، إنَّ القرآن حين يتناول كل ذلك يريد أنْ يخاطب في الإنسان تلك الإدراكات الفطرية الوجدانية، التي تمثّل الأساس للسلوك الأخلاقي الذي حدّده القرآن ورسمه تفصيلياً، والتي نسمّيها بالحسن والقبح العقليّين.

ولا نريد هنا أنْ نتناول هذا البحث الكلامي الأخلاقي بقدر ما نريد أنْ ننبّه إلى أنّ أهل البيت عندما وجّهوا أتباعهم إلى التزام هذا الاعتقاد، وأصبح أحد أُصول مذهبهم هو الالتزام (بالعدل الإلهي)، أرادوا بذلك أنْ يؤسّسوا القاعدة الأخلاقية في البناء الروحي والمعنوي لأتباعهم، ويوجدوا نوعاً من الحصانة النفسية والروحية عن الوقوع في الانحرافات الأخلاقية الكبرى، كالظلم والعدوان أو مناصرتهما أو السكوت عنهما على الأقل.

---

(١) النحل: ٧٥.

(٢) الزمر: ٣٩.

(٣) فصلت: ٤١.

٢. التمييز بين الإسلام والإيمان

تأكيد قضية التمييز بين الإسلام والإيمان أخلاقياً، كما جاء ذلك في القرآن الكريم: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[1].

وبذلك يكون الإسلام والقبول بالشهادتين واليوم الآخر والالتزام بالصلاة والصيام والحج والزكاة يمثل الدرجة الأُولى في سلّم العقيدة الإسلامية، وبه تحقن الدماء، وتُصان الأموال والأعراض، وتجري عليه الحياة الاجتماعية الإسلامية العامة. ولكن من الناحية الأخلاقية فإنّ هذا يختلف في واقعه عن الالتزام الحقيقي بالإسلام ومترتباته.

وأمّا الإيمان فهو يمثل درجة عالية من رسوخ العقيدة واستقرارها والالتزام بمقتضياتها وتبعاتها.

ولعل خير ما يصور ويشرح هذا المفهوم ويوضح الفرق بينهما النص الذي رواه الكليني بطريق معتبر عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: ((**الإيمان ما استقرّ في القلب، وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها، وبه حُقنت الدماء وعليه جرت المواريث وجاز النكاح واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الإيمان. والإسلام**

---

(١) الحجرات: ١٤ - ١٥.

لا يشرك الإيمان والإيمان يشرك الإسلام، وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد والمسجد ليس في الكعبة، وكذلك الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فقول الله عزّ وجلّ أصدق القول.

قلتُ: فهل للمؤمن فضل على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام والحدود وغير ذلك؟ فقال: لا، هما يجريان في ذلك مجرى واحداً، ولكن للمؤمن فضل على المسلم في أعمالهما وما يتقرّبان به إلى الله عزّ وجلّ.

قلتُ: أليس الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وزعمت أنّهم مجتمعون على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ مع المؤمنين؟

قال: أليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً؟﴾ فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عزّ وجلّ لهم حسناتهم لكل حسنة سبعون ضعفاً، فهذا فضل المؤمن، ويزيده الله على قدر صحة إيمانه أضعافاً كثيرة ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير.

قلت: أرأيت من دخل في الإسلام، أليس هو داخلاً في الإيمان؟.

فقال: لا، ولكنّه قد أضيف إلى الإيمان وخرج من الكفر. وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الإيمان على الإسلام: أرأيتَ لو بصرت رجلاً في المسجد، أكنت تشهد أنك رأيته في الكعبة؟ قلت: لا يجوز لي ذلك. قال: لو بصرت رجلاً في الكعبة، أكنت شاهداً أنه قد دخل المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قلت: إنه لا يصل إلى دخول الكعبة حتى يدخل المسجد، فقال: قد أصبتَ وأحسنتَ، ثم قال: كذلك الإيمان والإسلام))[١].

---

(١) الكافي٢: ٢٦ - ٢٧، ح٥.

٣. الإيمان والعمل

إعطاء الإيمان بالله تعالى - الذي يمثل أهم وأفضل صفة أخلاقية تكامليّة في الإنسان - بُعداً عملياً، وإخراجه من الحالة العقائدية المجرّدة والالتزامات النفسية المحضة إلى الممارسة السلوكية والعملية والتطبيقية، وذلك بتفسير الإيمان على أساس أنه حقيقة وماهيّة تكاملية وذات مراتب ودرجات تتكامل وتتصاعد عن طريق العمل والتطبيق.

ويبدو أنّ هذا الموضوع كان من الموضوعات المثيرة للجدل والخلاف في زمن الأئمة، بحيث إنّ بعض العلماء كان يذهب إلى أنه لا يتفاوت إيمان الأنبياء مع إيمان إبليس؛ لأنّ الإيمان حقيقة مطلقة، وهو مجرد الالتزام بوجود الله تعالى. وهذه الحقيقة، إمّا أنْ تكون موجودة أو لا تكون، وإنّما يختلف الأنبياء عن إبليس في السلوك والعمل لا في وجود أصل هذا الالتزام.

وكان مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي تربّى عليه أتباعهم، هو اختلاف درجات الإيمان بالله في المؤمنين، حيث يتأثّر الإيمان إلى حدٍّ كبير - صعوداً ونزولاً - بالممارسات العمليّة. فكلما مارس العبد هذا الالتزام القلبي عملياً وجسده في سلوكه خارجياً، تصاعدت درجة هذا الإيمان والالتزام من ناحية وثبت في قلبه ووجدانه من ناحية أُخرى، فقد روى الكليني في الكافي بطريق معتبر عن جميل بن دراج قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان فقال: شهادة أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله. قال: قلت: أليس هذا عملاً؟ قال: بلى. قلت: فالعمل من الإيمان؟ قال: لا يثبت له الإيمان إلاّ بالعمل والعمل منه**))[1].

---

(١) الكافي٢: ٣٨، ح٦.

وتشرح بعض النصوص هذا المفهوم بأساليب مختلفة، ومنها هذا النص الذي رواه الكليني في الكافي عن حماد بن عمرو النصيبي، قال: ((**سأل رجل العالم عليه السلام فقال: أيها العالم، أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل عمل إلاّ به، فقال: وما ذلك؟ قال: الإيمان بالله، الذي هو أعلى الأعمال درجة وأسناها حظاً وأشرفها منزلة.**

قلت: أخبرني عن الإيمان أقولٌ وعملٌ أم قولٌ بلا عمل؟.

قال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّنه في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد به الكتاب ويدعو إليه.

قلت: صف لي ذلك حتى أفهمه.

فقال: إنّ الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص المنتهي نقصانه ومنه الزائد الراجح زيادته.

قلت: وإنّ الإيمان ليتم ويزيد وينقص؟.

قال: نعم، قلت: وكيف ذلك؟.

قال: إنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بني آدم وقسّمه عليها وفرّقه عليها، فليس من جوارحهم جارحة إلاّ وهي موكّلة من الإيمان بغير ما وكّلت به أختها، فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا تورد الجوارح ولا تصدر إلاّ عن رأيه وأمره؛ ومنها يداه اللتان يبطش بهما ورجلاه اللتان يمشي بهما، وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به الكتاب ويشهد به عليها، وعيناه اللتان يبصر بهما، وأذناه اللتان يسمع بهما. وفرض على القلب غير ما فرض على اللسان، وفرض على اللسان غير ما فرض على العينين، وفرض على العينين غير ما فرض على السمع، وفرض على السمع غير ما فرض على اليدين، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج، وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه، فأما ما فرض

على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والتصديق والتسليم والعقد والرضا بأنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أحداً، صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنّ محمداًﷺ عبده ورسوله))[١].

ومن هذا المنطلق نجد أئمة أهل البيتعليهم السلام يقسمون الإيمان على الصفات التي يتصف بها المؤمن أيضاً، ويرون أنّ التكليف يجب أنْ يكون على قدر وسع الإنسان وطاقته.

عن عمار بن الأحوص، عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: ((**إنّ الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم، على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، وقسم لبعض الناس السهم، ولبعض السهمين، ولبعض الثلاثة، حتى انتهوا إلى السبعة. ثم قال: لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم، ثم قال: كذلك حتى تنتهي إلى السبعة**))[٢].

وعن سدير في حديث معتبر قال: ((**قال لي أبو جعفر الباقرعليه السلام: إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقوَ، وعلى صاحب الثلاثة أربعاً لم يقوَ، وعلى صاحب الأربعة خمساً لم يقوَ، وعلى صاحب الخمسة ستّاً لم يقوَ، وعلى صاحب الستّة سبعاً لم يقوَ، وعلى هذه الدرجات**[٣]))[١].

---

(١) الكافي٢: ٣٨، ح٧.

(٢) الكافي٢: ٤٢، ح١.

(٣) أي درجات الإيمان، أو هي الدرجات التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ ←

وبذلك يصبح إيمان الإنسان مهدّداً عندما ينحرف في سلوكه العملي، ويتخلّى عن السلوك الأخلاقي، وكذلك يتصاعد ويتكامل إيمانه من خلال الالتزامات السلوكية الأخلاقية.

كما أنّ هذا يفتح أمامنا منهجاً في التربية والإدارة، فكلما كان إيمان الإنسان أكمل كان مؤهلاً لدرجات عالية من التكاليف والمسؤوليات، وكلما كان إيمانه أقل كان لابدّ من رعايته وتحديد تكاليفه، كما نصت على ذلك الروايات السابقة.

ولاشكّ أنّ هذا الفهم للإيمان ولدور الأخلاق فيه، له تأثير كبير وانعكاسات إيجابيّة على الالتزامات السلوكية والأخلاقية، وعلى تحمل المسؤوليات والمهام.

٤. القدوة والأخلاق

التأكيد على أصحابهم وأتباعهم أنْ يأخذوا دور القدوة في المجتمع الإسلامي وبين أفراد الجماعة المسلمة، والعمل للوصول إلى المثل الأعلى ضمن الجماعة؛ بحيث يكون هؤلاء الأفراد موضع الثقة والطمأنينة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

ولاشكّ أنّ الأخلاق والمثل والقيم والالتزامات السلوكيّة المنسجمة معها هي التي يمكنها أنْ تعطي هذا الدور في المجتمع الإسلامي.

ففي فلسفة التأريخ التي تحدّث عنها القرآن الكريم يشير إلى نوعين من القدوة والاقتداء.

الأوّل: النوع الحسن (الأُسوة الحسنة)، وهي الأُسوة التي تقوم على

عِندَ اللَّه﴾.

(١) الكافي٢: ٤٥، ح٣.

المثل والقيم والالتزامات الأخلاقية، مثل الأُسوة بإبراهيم عليه السلام والذين معه، ومحمد صلى الله عليه وآله والأنبياء والرسل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[4].

الثاني: النوع السيّئ (الأُسوة السيّئة)، وهي التي تقوم على أساس القوة والقدرة والهيمنة الخارجية، وهي الأُسوة بالجبابرة والطغاة وأئمة السوء وأصحاب الجاه والمال. قال تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾[5]. وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾[6].

حيث إنّ الإنسان يقع عادة تحت تأثير أحد هذين العاملين الأساسيين في قضية (الأُسوة) أو (القدوة) وهما: عامل الفطرة الإنسانية السليمة، ومنابع

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) الممتحنة: ٦.

(٤) الأنعام: ٨٩ - ٩٠.

(٥) الزخرف: ٢٢.

(٦) الأحزاب: ٦٧.

الحق والعدل والوجدان في النفس الإنسانية، وعامل الهوى والشهوات والخوف والطمع، ومواضع الضعف والنقصان في النفس الإنسانية.

وقد حث أهل البيت عليهم السلام أتباعهم على استنفار العامل الأوّل والاستفادة منه في الوصول إلى هذا الموضع الاجتماعي والإنساني.

عن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد والصّدق والورع**))[١].

وفي المجالس عن ابن عباس قال: ((**قيل يا رسول الله، أي الجلساء خير؟ قال: من يذكركم الله برؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله**))[٢].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: ((**إنّ أبغض الناس إلى الله عزّ وجلّ من يقتدي بسنّة إمام ولا يقتدي بأعماله**))[٣].

٥. العدالة والأخلاق

منح العدالة[٤] دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية العملية، حيث يشترط مذهب أهل البيت عليهم السلام حصول صفة العدالة في الأشخاص الذين يتصدّون إلى الكثير من المناصب والأعمال، مثل: الحكّام، والولاة، والقضاة، والمفتين، وأئمة الجماعة، والشهود في الخصومات، والشهادة على الطلاق،

(١) وسائل الشيعة٨: ٥١٣، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤١٢، ح٤.

(٣) الخصال: ٢١، ح٦٢.

(٤) التي هي درجة عالية من الاستقامة على جادة الشرع، أو الملكة النفسية التي تمنع الإنسان من الوقوع في المحرمات أو ترك الواجبات، أو تدفعه إلى التوبة من ذلك عند الوقوع في الذنب.

وغيرها من الموارد التي يجدها المتتبّع في الكتب الفقهية. الأمر الذي يدل على إعطاء الأهمية وهذا الدور لهذه الصفة، حتى أصبحت العدالة من حيث الأهمية مقدمة على (العلم) و(المعرفة).

حيث لا قيمة للعالم بدون عمل وتقوى، بل يتحول العلم إلى شيء مضر بدون التقوى، ولذا جاء التحذير الشديد من أئمة أهل البيت عليهم السلام من علماء السوء.

فقد أصبح للعدالة في ذهنيّة أتباع أهل البيت وأوضاعهم النفسية والروحية موقع خاص، ولها تأثير عميق على موقفهم من المجتهدين والقضاة والمتصدّين للأعمال السياسية، والنشاطات العامة.

وهذا الموقف والفهم للعدالة لا نجده في المذاهب الإسلامية الأُخرى، ولا في الأوساط الدينية التي تنتسب إليها، حيث تقبل المذاهب الإسلامية - على اختلاف فيما بينها - إمامة الفاسق لصلاة الجماعة، وولايته للحكم، وتتسامح في الشهود.

ولاشك أنّ للعدالة مفهوماً أوسع من مفهوم الثقة والاعتماد، ولذلك تأخذ بُعداً أخلاقياً واسعاً.

كما أنّ العدالة التي تُشترط في الشهود تختلف في مستواها - بطبيعة الحال - عن العدالة التي لابدّ من حصولها في الحكّام والولاة والقضاة والمفتين؛ حيث يجب أنْ تكون في الصنف الثاني بمستوىً عالٍ يتناسب مع أهمية الموقع، ومستوى الضغوط النفسية والاجتماعية التي يتعرض لها هذا الموقع.

٦. منهج التزكية

وضع الخطط والمناهج والأساليب للوصول بالجماعة والكتلة الصالحة

إلى تزكية النفس والمستوى الأخلاقي الرفيع المطلوب.

فلم يترك الأئمة عليهم السلام هذا الخط بصفته مطلباً عاماً يحثّون أتباعهم على الوصول إليه، ويطلبون منهم الالتزام به، وإنما وضعوا أمامهم مجموعة من الخطوط العملية التي تمكّنهم - عند الالتزام بها - من الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية والمستوى الأخلاقي الرفيع ومنها منهج (جهاد النفس).

جهاد النفس: النظرية والمنهج

أ) النظرية

ولابدّ في البداية أنْ نتصور أبعاد الرؤية الإسلامية لموضوع جهاد النفس ونظريته، حيث يمكن الإشارة مختصراً إلى الأبعاد التالية:

الأوّل: أن الحياة الإنسانية هي حياة ممتدة وطويلة وليست مقتصرة على الحياة الدنيا، بل هي مرحلة قصيرة ومحدودة بالنسبة إلى الحياة الإنسانية الكاملة، ولذلك فقد جعلت الحياة الدنيا حياة الاختبار والابتلاء، كما أنها لقصرها حياة لهو ولعب وزينة وتفاخر. وأمّا الحياة الطويلة الحقيقية فهي الحياة الآخرة التي تتحقق فيها النتائج والآثار وتوزن بميزان العدل والحق.

الثاني: أنّ محور التكامل في الحياة الإنسانية هو النفس الإنسانية لا الحياة المادية ولا بدن الإنسان وجسده؛ لأنّ النفس هي الباقية والمستمرة والمتطورة، وأمّا بدن الإنسان فيفنى وينتكس في الخلق ويتغير ويتبدل؛ ولذلك كان جهاد النفس تكاملاً لهذه النفس الإنسانية.

الثالث: أنّ الله تعالى قد خلق في الإنسان وأودع فيه العقل والعلم والمعرفة لله، والهداية العامة ومعرفة الحقائق والمصالح والمفاسد بصورة إجمالية، كما أودع فيه الهوى والشهوة وزين له الحياة الدنيا لاختباره

وامتحانه من ناحية، ولتكون الشهوة طاقة محركة من ناحية أُخرى، فهما عاملان متوازيان ومتضادان في حركة الإنسان. ومنحه القدرة على خلق الأفعال والنشاطات وتصور المستقبل والتركيب بين الصور، فكانت الإرادة الإنسانية هي العامل الحاسم في حركة الإنسان واختياره لهذا الفعل أو ذلك.

فكلما جعل الإنسان العقل هو الهادي لإرادته ولاختياره والمسيطر عليها كان سائراً في طريق التكامل، وكلما جعل الهوى والشهوة هما المسيطران على إرادته والموجهان لحركته كان سائراً في طريق النزول والسقوط والتسافل.

وفي الفرضية الأُولى تتحول الشهوة الموجهة من قبل العقل والمعرفة إلى طاقة تدفعه للتكامل، ولكنها في الفرضية الثانية تتحول إلى طاقة مدمرة ومهلكة للإنسان.

الرابع: أنّ الله تعالى بلطفه ورحمته وجوده وحكمته وعلمه أرسل الأنبياء بالكتب والرسالات، وأنزل عليهم الوحي والهدى ليرشدوا الإنسانية إلى طريق الحق والصواب عندما تختلط الصور ويشتبه الحق بالباطل، أو عندما يتحير أو يعجز الإنسان عن إدراكه ومعرفته للحقائق والمصالح والمفاسد، لأنَّ المصالح والمفاسد في تفاصيلها أو عندما تتزاحم بينها لا يكون الإنسان قادراً على معرفتها، فيقوم هؤلاء الأنبياء والرسل بإبلاغ الرسالة وتزكية الإنسانية وتعليمها الكتاب والحكمة، والحكم بالحق بين الناس فيما اختلفوا فيه والشهادة على سلوكهم وتجربتهم.

الخامس: أنَّ الإرادة الإنسانية إذا تطابقت مع الإرادة التشريعية الإلهية المتمثلة بالشريعة والأحكام والحدود الشرعية تكاملت النفس الإنسانية، لأنَّها سوف تتطابق مع الحق والمصالح. وهذا يحتاج من الإنسان أنْ يجاهد هواه ويهيمن على شهواته وغرائزه ليجعلها تتطابق مع هذه الأحكام

الشرعية.

بل إنَّ جهاد النفس للهوى والشهوات في حد ذاته يؤدي بالإنسان إلى تكامل نفسه التي هي محور التكامل الإنساني، كما يتكامل الإنسان في بدنه من خلال المجاهدة الجسمية والرياضة البدنية. وقد وضع الإسلام منهجاً لهذه المجاهدة النفسية ليتكامل الإنسان من خلاله.

ولهذا المنهج أركان وأسس وأساليب وصيغ عملية، وهنا نشير إلى خلاصة الأركان والأُسس والعناوين العامة ذات العلاقة بالصيغ والأساليب العملية إجمالاً ونترك التفصيل إلى مجال آخر[١].

ب) المنهج

ويمكن أنْ نلخص الأركان والأُسس لمنهج الإسلام وأهل البيت عليهم السلام في جهاد النفس ضمن الخطوط التالية، التي يمكن أنْ نجد معالمها في أبحاث جهاد النفس من الكتب الأخلاقية الحديثية أو التحليلية[٢]:

الأوّل: تقوية الارتباط بالله تعالى من خلال شدة اليقين به والتوكل عليه وحسن الظن به، والإخلاص في العمل والنية والحب لله تعالى والخوف منه والرجاء له.

---

(١) تناولنا في بحث تفسير سورة الجمعة منهج التزكية والتربية في الإسلام، وسوف نتعرف على جانب من ذلك في بحث نظام العلاقات الاجتماعية، وبحث نظام العبادات والشعائر من هذا الكتاب.

(٢) تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في محاضراتنا الرمضانية لسنة ١٤١٣ - ١٤١٤، وقد تركنا الاستشهاد بالروايات على هذه الأركان للاختصار. ويمكن الحصول عليها في الجزء١١ من كتاب الوسائل أبواب جهاد النفس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها.

الثاني: استخدام العقل الذي يهدي إلى الحق والحقيقة وطاعته، ومنه العلم والمعرفة في مقابل الجهل والهوى والوقوع تحت تأثيرهما. ومن هنا كان العقاب والثواب على قدر العقل، وكان الحث على مشورة العاقل والترجيح لجانب العقل على جانب الشهوة في الأُمور التي يواجهها الإنسان في حياته.

الثالث: التقوى والعفة وإصلاح النفس عند ميلها للشر والشهوات، واجتناب المعاصي والخطايا والذنوب، ومن ثم تحديد وتشخيص مسير الإنسان وحركته في جهاده لنفسه وضبط ميولها وتوظيف طاقاتها في إطار الحدود الشرعية. وإنّ انعكاس الآثار النفسية والروحية إيجاباً وسلباً على حياة الإنسان يرتبط بهذا الالتزام.

الرابع: الصبر على الطاعة والالتزام بالواجبات، والصبر عن المعصية واجتناب المحرمات، وتحمل الضغوط النفسية والخارجية وعدم الاستسلام لها أو القبول والرضوخ لها، والاستمرار في طريق الطاعة واجتناب المعصية وتربية عامل الصبر وتنمية الإرادة والقدرة على التحمّل والسيطرة على العواطف والانفعالات من خلال قوة الإرادة.

الخامس: محاسبة النفس ومراقبة الأعمال والنشاطات التي تقوم بها، بل مراقبة العواطف والمشاعر والإحساسات، ومعرفة مدى التطابق بين عمله وسلوكه وعواطفه ومشاعره مع الأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية والصفات الكمالية، والأهداف النبيلة التي وضعها الله سبحانه وتعالى أمام الإنسان في حركته التكاملية.

السادس: التوبة والإنابة لله تعالى عند الخروج عن جادة الصواب وطريق الاستقامة والعدل، والوقوع في الذنب والإثم وارتكاب اللمم من الإثم، والمبادرة إليها من خلال الإحساس بالندم، والاعتراف بالذنب والعزم على الالتزام بالوظيفة الشرعية، ورد المظالم المالية أو المعنوية التي

ارتكبها في حق الآخرين.

السابع: تشخيص مواضع ضغوط الهوى، مثل حب النفس والشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة، والاتجاهات النفسية في الإنسان، كالغضب والحسد وحب الرئاسة والكبر والاختيال والطمع والكسل والعصبية القبلية أو القومية والحمية الجاهلية وغيرها، أو الظلم والاتجاه للعدوان وتجاوز حقوق الآخرين وغيرها، ثم معالجة هذه الضغوط بعد تشخيصها والتنبيه عليها.

الثامن: إيجاد حصانة ومقاومة ومناعة في النفس الإنسانية، وحريم له امتدادات ومستويات متعددة لحركة التكامل الإنساني في جهاد النفس؛ وذلك من خلال مجموعة من الالتزامات والآداب المستحبة أو المكروهة، بحيث تكوّن سياجاً وحصناً يمنع النفس من الوقوع تحت تأثيرات الهوى، ويوجد فيها المزيد من التكامل الإنساني.

ويمكن أنْ نلاحظ ذلك أيضاً - مضافاً إلى هذا المنهج - في المناهج الإسلامية العامة، وفي مناهج الدعاء والذكر التي وضعها الأئمة عليهم السلام وتشمل اليوم والليلة بتمامهما، مضافاً إلى الاهتمام بإحياء الليل وخصوصاً الليالي الخاصة، مثل ليالي القدر والجمعة، والأعياد، والمناسبات الإسلامية (المولد النبوي الشريف، والمبعث النبوي، وعيد الغدير، وليلة النصف من شعبان، ...إلخ)، وكذلك إحياء بعض الأيام الخاصة، مثل التسع الأوائل من ذي الحجة، وأيام التشريق والعيدين ويوم الغدير ويوم المولد والمبعث الشريفين ويوم عاشوراء وغيرها.

وكذلك منهج الصلوات المستحبّة الخاصة، مثل الصلاة المنتسبة إلى المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام واحداً بعد آخر وصلاة جعفر وغيرها، أو الصلوات العامة في ليالي الإحياء، وليالي شهر رمضان، والمناسبات

الإسلامية الأُخرى.

ومنهج العبادات الأُخرى كالصوم المستحب والاعتكاف والحج المستحب، والعمرة، وزيارات النبيﷺ، والأئمةعليهم السلام، والصالحين من عباد الله، والأذكار، والإنفاق في سبيل الله، وصلة الأرحام والجيران والمؤمنين، حتى صلة عامة المسلمين.

كل ذلك في تفاصيل دقيقة يمكن أنْ نشاهدها في الكتب الحديثيّة، كأبواب جهاد النفس والعشرة، والإخوان، والسلوك الأخلاقي؛ بحيث تكون الحصيلة هي تصعيد الجانب الأخلاقي والالتزامات السلوكية وقوة الشخصية على المستوى الفردي وفي المجتمع الإنساني.

وسوف نتناولها إنْ شاء الله في نظام الشعائر والعبادات.



الجانب الثقافي

تمهيد

تأتي الثقافة في المرتبة الثالثة من الأهمية في بناء الكتلة الصالحة؛ لأنها هي التي يمكنها أنْ ترسم المعالم الصحيحة للجماعة الصالحة، وتمثل الخطوط التفصيلية نسبياً للمضمون العقائدي والأخلاقي والأرضية للبناء الفوقي للجماعة الصالحة. كما يمكن لمؤسساتها ومناهجها وآثارها أنْ تحافظ على بقاء واستمرار هذا البناء بمقدار ارتباطها بالجانب العقائدي والأخلاقي، حيث يصبح هذا الجانب جزءاً من الثقافة التي تلتزم بها الأُمة.

فالثقافة هي الحصن الحصين الذي يمكنه أنْ يحفظ للأمة والجماعة عقائدها وأخلاقها من جانب، ويمدها بالروح المعنوية العالية من جانب آخر، ويمسك جميع أطرافها، ويوحدها في مسارها ومواقفها وأهدافها من جانب ثالث، لأنها تُعنى بتفاصيل البناء الاجتماعي، وتمد جميع جوانبه وأبعاده بالتصورات والأُطر التي يحتاجها سواء على المستوى السياسي أم الاقتصادي أم الاجتماعي أم التنظيمي أم الأمني، وعلى مستوى الشكل والمضمون والمحتوى.

ومن هنا نجد هذا الامتياز الخاص لمدرسة أهل البيت عليهم السلام في الجانب الثقافي، وإعطائه الأهمية الخاصة في وجودهم وحركتهم، وكذلك في بناء الكتلة الصالحة والجماعة المؤمنة.

ولاشك أنّ القرآن الكريم أغنى مصدر للثقافة الإسلامية لدى أهل البيت عليهم السلام؛ ولذا كان موضع اهتمام من قبلهم، فبادر الإمام علي عليه السلام إلى جمعه تنزيلاً وتأويلاً:

فقد روى عمرو بن أبي المقدام، عن جابر قال: ((**سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ما ادّعى أحدٌ من الناس أنه جمع القرآن كلّه كما أنزل إلاّ كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلاّ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام والأئمة**

من بعده عليهم السلام **))**[١].

كما أنه عليه السلام كان أول من بادر إلى جمع السنة النبوية، المصدر الثاني للثقافة الإسلامية، وكذلك تدوينها وحفظها، فكانت الصحيفة الجامعة. ثم تداول ذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام:

وروي عن أبي بصير في حديث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**يا أبا محمد، وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟ قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله** صلى الله عليه وآله **وإملائه من فلق فيه، وخط عليّ بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش...**)) الحديث[٢].

وعنه أيضاً، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**سمعته يقول - وذكر ابن شبرمة في فتياه - فقال: أين هو من الجامعة؟ أملى رسول الله** صلى الله عليه وآله **وخطه علي بيده، فيها جميع الحلال والحرام، حتى أرش الخدش فيه**))[٣].

مضافاً إلى ذلك، نجد أنّ الإمام علياً عليه السلام كان أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأقضاهم، وأعرفهم بالحلال والحرام وبتفسير القرآن، وكان باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله.

كما أنّه كان على مستوى الممارسة أكثر الناس عطاءً في الجانب الثقافي

---

(١) الكافي١: ٢٢٨، ح١. ولاشك أنَّ المقصود من الجمع هنا هو جمعه بكل خصوصياته المقارنة له من أسباب النزول، إلى القرائن الحالية والمقالية فيه، وإلى ما ورد فيه من تفسير عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) الكافي١: ٢٣٩، ح١، بصائر الدرجات: ١٤٣، ح٤، و١٥١ - ١٥٢، ح٣، وعنه البحار٢٦: ٢٢، ح١١.

(٣) بصائر الدرجات: ١٤٥، ح١٥.

والتربوي بعد الرسول ﷺ، وأول من بادر لوضع المناهج وابتكار العلوم ذات البعد الثقافي، وهو المؤسس لجملة منها: كعلم الفقه والحديث والتفسير والنحو... وغيرها[١].

وعلى هذه السيرة سار أئمة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وشيعتهم وكانوا المبادرين لتأسيس علوم الإسلام تبعاً لأئمتهم أو أخذاً عنهم[٢].

وقد عمل الأئمة على مستوى الاهتمام بالجانب الثقافي لبناء الكتلة الصالحة والجماعة المؤمنة على تشخيص وبناء مشروعين مهمين:

المشروع الأوّل: المناهج الثقافية والتعليمية

لاشك أنّ للمنهج الثقافي دوراً مهماً في ترسيخ الجانب الثقافي ونجاحه في الجماعة، بحيث يكون قادراً على الوفاء بمتطلباتها وملء الفراغ في حاجاتها الثقافية.

وقد اعتمد أهل البيت عليهم السلام في بناء الكتلة الصالحة والجماعة المؤمنة ثقافياً أربعة خطوط من المناهج الثقافية يكمّل بعضها بعضاً:

الخط الأوّل: حرية الفكر ومصادر الثقافة الإسلامية

خط حرية الفكر والاجتهاد المضبوط، وهو يرتبط بالإطار العام للمناهج والقاعدة التي ترتكز عليها المناهج الثقافية، وقد أشرنا إلى ذلك عندما تحدثنا عن الجانب الفكري والعقائدي. وكانت إحدى المميزات الأساسية

---

(١) سوف نتناول هذا الموضوع بالشرح والاستدلال عند الحديث عن مرجعية أهل البيت عليهم السلام الفكرية والدينية في هذه الموسوعة عن أهل البيت عليهم السلام إنْ شاء الله.

(٢) راجع: كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، للسيد حسن الصدر. ومختصره: الشيعة وفنون الإسلام، ومؤلفو الشيعة في الإسلام، للسيد عبد الحسين شرف الدين.

التي امتاز بها الفقه الإمامي الاثنا عشري عن فقه المذاهب الأُخرى.

وفي هذا المجال يمكن أنْ نلاحظ أنّ الأئمة الأطهار كان لهم هدف واضح ومنهج صحيح تكوّنت على أساسه مدرستهم الثقافية، وتأطّرت به مؤسساتهم العلمية.

وقد اعتمد هذا الإطار العام على الأسس التالية:

أولاً: أنْ يكون مصدر الثقافة الإسلامية سواء في فلسفة التأريخ والمجتمع، أم في الفقه الإسلامي أم في الأخلاق أم علم العقائد، أم فهم الكون والحياة أم الآداب واللغة، هو القرآن الكريم، والسنّة النبوية الصحيحة.

ثانياً: مبدأ مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام في معرفة الإسلام ونظريته والشريعة الإسلامية، حيث واجه النص الإسلامي وكذلك التأريخ الإسلامي والسيرة النبويّة تأويلات وتفسيرات، وتعددت المواقف والاتجاهات تجاه ذلك.

وبالرغم من أنّ أهل البيت عليهم السلام هم ولاة الأُمة وحكّامها وخلفاء الرسول في التصوّر المذهبي لأتباعهم، إلاّ أنّ هناك قضية أُخرى غير الولاية في هذا المجال هي قضية (المرجعية) في الشؤون الدينية وفي فهم الإسلام والشريعة. ومنهج أهل البيت يعتمد على الحقيقة التي تقول أنهم هم المرجع في فهم الإسلام، حتى لو صرفنا النظر عن الولاية والخلافة. وهذا ما يشير إليه (حديث الثقلين) الذي أشرنا إليه في الحديث السابق[1].

ثالثاً: استنباط مجموعة من القواعد الفقهية والأُصول الشرعية من القرآن الكريم والسنّة النبويّة، التي يرجع إليها الفقيه والمجتهد لمواجهة الاحتمالات المستجدة، أو ملء منطقة الفراغ التي تركها الشارع المقدّس ليملأها الولي

---

(١) سوف نتناول هذا البحث وأدلته في بحث مرجعية أهل البيت عليهم السلام من هذه السلسلة إنْ شاء الله.

وهو الإمام، أو الفقيه المجتهد الجامع للشروط، حسب الظروف وطبق القواعد العامة والأحكام الكليّة.

حيث إنّ الشريعة الإسلامية الخاتمة وضعت لكل عصر وزمان، فلابدّ للفقهاء والمجتهدين أنْ يقوموا بدور استنباط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة والتفصيلية لمواجهة الظروف المستجدة، وطبق الأحكام الكليّة العامة، كما أنّ عليهم أنْ يشخّصوا الموقف والتكليف تجاه كل حدث وظرف.

ومن ذلك تطبيق المعلومات القرآنية المرتبطة بتفاصيل الشريعة الإسلامية على موضوعاتها من الأُمور المستجدة والمستحدثة في الحياة الإسلامية.

وكذلك تطبيق المفاهيم والسنن التأريخية على مصاديقها ومفرداتها الخارجية، التي تؤول لها الأوضاع الاجتماعية والسياسية في حركة المجتمع الإسلامي.

رابعاً: الاهتمام بتعليم أتباعهم طريقة الاستنباط والاستفادة من النصوص الإسلامية - القرآن والسنّة - والجمع بينهما عند اختلافها، وإيجاد النسب والارتباط بينها، أو اختيار بعضها على أساس ضوابط وموازين خاصّة، مذكورة في علم الأُصول.

ولذلك اهتم أهل البيت عليهم السلام بتأكيد أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والعام والخاص، والمجمل والمبيّن في عملية الاستنباط، وكيفية التعامل معها وفهم بعضها على ضوء البعض الآخر. وكان هذا الأمر مما يمتاز ويفتخر به الإمام علي عليه السلام على الصحابة.

الاجتهاد وحيوية الشريعة

وقد كان الهدف من وراء هذه الحرية الفكرية الملتزمة تحقيق أمرين مهمين:

١. إيجاد طبقة من المجتهدين - في كلّ جيل - القادرين على استنباط

الحكم الشرعي من مصادره وينابيعه الأصلية، دون الوقوع في محذور (الانفلات) بالاعتماد على (الرأي) كما صنع أصحاب اتجاه الرأي، ودون الوقوع في محذور (الجمود) بالاعتماد على النص الواحد - كما صنع أهل الحديث - بعدم إخضاعه للفهم الكامل من خلال النصوص الأُخرى؛ حيث إنّ مجموع كلام الله تعالى - القرآن - وكلام النبي صلى الله عليه وآله - السنّة النبوية - وكلام الأئمة الأطهار عليهم السلام - الأحاديث -المروية عنهم عليهم السلام - هو كلام واحد يفسّر بعضه بعضاً، شأنه شأن كلام المتحدث الذي لم ينقطع، بحيث يمكن أنْ يكون أوله أو وسطه أو آخره قرينة على بقية الكلام.

٢. المحافظة على حيويّة الشريعة الإسلامية وقدرتها على مواكبة الظروف والتطورات، دون الوقوع في أخطار التحريف والتزييف، أو الاستجداء من المذاهب الأُخرى أو تأويلها، أو ضياعها أو التمرد بسبب الفوضى السياسية والثقافية التي مرّ بها العالم الإسلامي جرّاء الفتن والحوادث المؤلمة.

الخطّ الثاني: العلم والتعليم

الحث على طلب العلم وخصوصاً علم الشريعة، بحيث أصبح واجباً شرعياً في مذهب أهل البيت، يتحمّل الإنسان مسؤولية الإخلال به. وقد وردت عنهم عليهم السلام أحاديث كثيرة في تأكيد هذا الجانب، بحيث خصّص لها أصحاب كتب الحديث باباً مستقلاً ومنها:

روى الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: طلب العلم فريضة على كل مسلم ... به يطاع الرب، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام. العلم إمام العمل والعمل تابعه،**

يلهم به السعداء ويحرمه الأشقياء))[١].

وعن الصادق عليه السلام: ((**لو علم الناس ما في العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج**))[٢].

وعن زيد الزرّاد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**قال أبو جعفر عليه السلام: يا بني، اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإنّ المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، إني نظرت في كتاب لعلي عليه السلام فوجدت في الكتاب: إنّ قيمة كل امرئ وقدره معرفته**))[٣].

وعن الصادق عليه السلام: ((**اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا، فإنا لا نعدّ الفقيه منهم فقيها حتى يكون محدّثاً، فقيل له: أوَ يكون المؤمن محدّثاً؟ قال: يكون مفهّماً، والمفهّم محدّث**))[٤].

وفي هذا المجال لم يكتف أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر العام، بل رسموا خطوات لذلك:

أ) العلم والرأي

تأكيد المنهج العلمي القرآني في البحث، ودور العلم واليقين في المعرفة مقابل اعتماد الظنون والأوهام في الحصول عليها.

وقد ربط أهل البيت عليهم السلام العلم واليقين بالحكم الشرعي بالمصادر الصحيحة كما ذكرنا سابقاً، ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل أكّدوا أنَ

---

(١) الأمالي للطوسي: ٤٨٧ - ٤٨٨، ح١٠٦٩.

(٢) عوالي اللئالي ٤: ٦١، ح٩.

(٣) معاني الأخبار: ١، ح٢.

(٤) اختيار معرفة الرجال ١: ٦، ح٢.

الاستفادة من هذه المصادر لابدّ أنْ تكون وفق المنهج العلمي الذي يعتمد على الدرس والتعليم والأخذ من العلماء، وهم أهل البيت عليهم السلام.

وبذلك أغلقوا الطريق أمام الاعتماد على الحدس أو الهوى أو الرأي وحتى الظنون مثل: الاستحسان والقياس والمصالح المرسلة وأمثالها؛ حيث إنّ الحقيقة الإلهية والأحكام الشرعية وتفاصيل المصالح والمفاسد المرتبطة بها، لا يمكن إدراكها إلاّ عن طريق الوحي والإلهام، كما هو حاصل بالنسبة إلى الأنبياء والصفوة المختارة من الناس، أو عن طريق التعلّم والحفظ والكتابة والضبط والأخذ من العلماء الحقيقيين، الذين هم أهل بيت الرسول الأمناء على الوحي الإلهي.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح**))[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ((**إنّ الناس آلوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ثلاثة: آلوا إلى عالم هدىً من الله قد أغناه الله بما علم عن غيره**[٢]**، وجاهل مدّع للعلم لا علم له، معجب بما عنده، قد فتنته الدنيا وفتن غيره، ومتعلّم من عالم على سبيل هدىً من الله ونجاة، ثم هلك من ادّعى وخاب من افترى**))[٣].

وقال أبو جعفر عليه السلام: ((**من أفتى بغير علم ولا هدىً من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه**))[٤].

وعن أحدهم قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حق الله على خلقه؟**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٢، ح١٣.

(٢) ويقصد أهل البيت عليهم السلام.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ٧، ح٤.

(٤) وسائل الشيعة١٨: ٩، ح١، ١١، ١٤.

قال: أنْ يقولوا ما يعلمون، ويَكفّوا عما لا يعلمون، فإذا فعلوا فقد أدّوا إلى الله حقّه))[١].

ب) تدوين الحديث

رواية الحديث وحفظه وتدوينه فضلاً عن حفظ القرآن والتأمّل فيه وفهمه.

وقد سجل التأريخ في هذا المجال سابقة لأهل البيت وأتباعهم، حيث كانوا أوّل من دوّن الحديث واهتم بحفظه وتداوله، وذلك بعد أنْ واجهت السنّة النبويّة خطر الانقراض بسبب الموقف السلبي تجاه تدوينها في صدر الإسلام من قبل الخليفة الثاني، الذي طرحت عليه الفكرة فرفضها بادّعاء أنّ ذلك له تأثير سلبي على حفظ القرآن، وأنه يشغل الناس عن القرآن[٢].

ولذلك نجد أنّ أصحاب الأئمة قد بلغوا درجة عالية في الفقه والمعرفة، بحيث أصبحوا متميزين على الناس بسبب هذا التوجيه[٣].

وعلى هذا الأساس نجد أنّ أصحاب الأئمة في عصر متقدم يعمدون إلى كتابة الأحاديث وتدوينها بحيث تحولت إلى الأُصول الأربعمائة المعروفة. ونجد إشارات إلى ذلك من بعض أصحاب الأئمة أمثال أبان بن تغلب، وعبيد الله بن علي الحلبي[٤].

ونجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يمجّدون أولئك الرجال من أصحابهم

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٢، ح١٠.

(٢) يراجع طبقات ابن سعد٥: ١٤٠، وجامع بيان العلم لابن عبد البر٢: ١٤٧، وتذكرة الحفاظ١: ٤ - ٥، وكنز العمال٥: ٢٣٩ ح٤٨٦٥.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ٦١، ح٣٥.

(٤) وسائل الشيعة١٨: ٧٢ - ٧٣، ح٨٠ - ٨١.

الذين تحمّلوا هذه المسؤولية الكبيرة في بداية الطريق أمثال: بريد بن معاوية العجلي، وأبي بصير ليث الراوي، ومحمد بن مسلم، وزرارة بن أعين[1].

ج) بذل العلم والتعليم

بذل الحديث وتعليمه، فإنه بمقدار ما يكون الحديث وكتابته مهماً، نجد التأكيد لبذل الحديث وتعليمه، بحيث يصبح موازياً في درجة الأهمية لذلك. وبهذا تمكن أهل البيت عليهم السلام أنْ يخطّوا الطريق لجعل العلم ميسّراً وسهلاً في أوساط هذه الجماعة الصالحة بالرغم من الظروف الصعبة السياسية والحيوية؛ حيث كان أتباعهم يواجهون عمليات المطاردة والحصار الاقتصادي والثقافي.

روى الكليني في الكافي، عن معاوية بن عمار قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل راوية لحديثكم يبث ذلك في الناس ويشدده في قلوبهم وقلوب شيعتكم، ولعل عابداً من شيعتكم ليست له هذه الرواية أيهما أفضل؟ قال: الراوية لحديثنا يشدّ به قلوب شيعتنا أفضل من ألف عابد**))[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((**تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا؛ فإنّ الحديث جلاء للقلوب، إنّ القلوب لترين كما يرين السيف، جلاؤه الحديد**))[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ٥٩ - ٥٧، ح١٤، ١٦، ٢١.

(٢) الكافي١: ٣٣، ح٩.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ٥٣، ح٣.

والآخرة))[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من حفظ من أحاديثنا أربعين حديثاً بعثه الله يوم القيامة عالماً فقيهاً**))[2].

وعن محمد بن مسلم قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص، قال: إنْ كنت تريد معانيه فلا بأس**))[3].

وهذا المنهج هو الذي يفسّر لنا استمرار الزخم الثقافي، وبقاء مراكز العلم والثقافة، بالرغم من الظروف الصعبة التي أشرنا إليها. وكذلك مجانية التعليم في مدارس أهل البيت عليهم السلام العلمية، الذي يعتبر أحد المعالم والميزات الواضحة التي تتصف بها هذه المدارس، والتي تمكنت بها من الثبات أمام جميع الضغوط والمشكلات.

ففي الوقت الذي كانت الدولة تدعم بقوة وبإمكانيات واسعة المدارس الرسمية للمذاهب الإسلامية الأُخرى، كانت تطارد مدارس أتباع أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن عدم إمدادها بأي إمكانيات ومساعدات، ومع ذلك استمرت مدارس أهل البيت عليهم السلام بوتيرة عالية، فاقت في بعض الأحيان المدارس الرسمية الأُخرى التي كانت تتعرّض للانهيار والضمور عند انقطاع المساعدات عنها.

وكان أحد الأسباب المهمّة وراء ذلك هو أُسلوب مجانية التعليم وبذله، واعتماد القربة إلى الله تعالى في التدريس، ولا زال ذلك هو الطابع العام لهذه المدارس، وطريقة التعامل مع عموم العمل الثقافي في هذه الأوساط سواء على مستوى التدريس أم التبليغ أم تعليم الحكم الشرعي، أم تأليف

---

(١) الكافي ١: ٤٦، ح٢.

(٢) الكافي ١: ٤٩، ح٧.

(٣) الكافي ١: ٥١، ح٢.

للكتب، أم غير ذلك من القضايا الثقافية.

الخط الثالث: التنوع في أساليب الثقافة

التنوّع في أساليب التثقيف والتعليم، حيث نجد - مضافاً إلى أساليب الخطابة والسماع والشعر المعروفة في الصدر الأوّل للإسلام - أنّ الأئمة عليهم السلام يهتمّون بأساليب أُخرى لم تكن معروفة على مستوى التثقيف العام، بل كانت موجودة بهيئة ممارسات فردية محدودة أو سلوكية خاصة.

ومن هذه الأساليب: الدعاء، والوصيّة، والرسائل والبيانات، مضافاً إلى أسلوب الزيارة والمجالس والاجتماعات ومنها المجالس الحسينية.

الدعاء

لقد تحوّل الدعاء إلى مدرسة كاملة لثقافة أهل البيت عليهم السلام تدرس فيه العقائد والأخلاق والمفاهيم الإسلامية والاجتماعية والعلاقات الإنسانية، والأدب العالي، مضافاً إلى التزكية والتربية العالية، والتعبير عن العلاقة بالله تعالى.

وقد أسس هذا الأُسلوب أهل البيت عليهم السلام وعرّف به الإمام علي عليه السلام في أدعيته ومناجاته المشهورة، ومنها دعاؤه المعروف الذي يرويه عنه كميل بن زياد النخعي.

ومن الأدعية المشهورة المتميزة لأهل البيت هو دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

وقد استفاد من هذا الأسلوب - أيضاً - ولكن بصورة واسعة الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، وكان نتاجه في هذا المجال واسعاً ومتميّزاً، وتأثيره ودوره في المنهج الثقافي كبيراً، وذلك لأنّ هذا الأسلوب كان أنجح الأساليب في معالجة التدهور الثقافي والأخلاقي في المجتمع الإسلامي من

ناحية، وفي التغلّب على الظروف السياسية الصعبة، التي كان يواجهها بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام، والحصار الذي ضربه الأمويون عليه من ناحية أُخرى[1].

الوصية

كما أنّ الوصية ذات الأبعاد الشاملة التي بدأها رسول الله صلى الله عليه وآله في وصاياه السياسية الثقافية التربويّة لعلي عليه السلام، ثم استمر عليها الإمام علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام ولأولاده الآخرين، وأصبحت بعد ذلك منهجاً متميزاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام، بحيث يمكن أنْ نجمع كتاباً كبيراً كاملاً لوصاياهم التي تشتمل على مختلف المعالم الثقافية[2].

الرسائل

وهكذا يمكن أنْ نلاحظ الأمر في الرسائل والبيانات ذات الطابع التوجيهي التعليمي التي يتضمنها نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، وكذلك في الرسائل التي يبعثها الأئمة، كالإمام الباقر والإمام الصادق والإمام

---

(١) تعتبر الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام أحد النماذج الواضحة في هذا المجال.

(٢) من الأمثلة على ذلك وصية النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، (تحف العقول: ١٣)، ووصية أمير المؤمنين إلى ولده الحسن عليهما السلام، (تحف العقول: ٤٦) و(نهج البلاغة ٣: ٤٢)، من ذلك وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي، (تحف العقول: ٢٠٦)، ووصية الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر محمد بن النعمان، (تحف العقول: ٢٢٧)، ووصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم، (تحف العقول: ٢٨٦).

الكاظم عليهم السلام وغيرهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وأتباعهم. التي كانت تتضمن تفاصيل كثيرة ودقيقة ومتنوعة في التوجيه الثقافي[1].

أساليب أُخرى

وسوف نتناول في بحوث آتية - بشيء من التفصيل - الحديث عن أساليب الزيارة في (الشعائر) و(المجالس الحسينية) في المؤسسات الثقافية و(الاجتماعات) في نظام العلاقات. ونرى عندئذ العمل المتطور العظيم الذي قام به أهل البيت في مجال التنوع في أساليب الثقافة، بحيث تحولت بعض هذه الأساليب إلى مؤسسات عظيمة ومشاريع مهمة ومتميزة.

الخط الرابع: التنوع في الموضوعات الثقافية

الثقافة المتنوعة والتخصص العلمي، حيث اهتم أهل البيت عليهم السلام في مجال المناهج الثقافية والتعليمية بتنوع الثقافة والتخصص العلمي، الأمر الذي لابدّ لأتباعهم من أنْ يحصلوا عليه في مختلف المجالات الإنسانية والطبيعية.

ولم يكتفوا بمجرد التعددية والتنوع في المعلومات الثقافية، بل حثّوا أتباعهم على فكرة الاختصاص بحيث يتمكنون من الوصول إلى المستوى العالي في مختلف القضايا الثقافية، فإنّ أهل البيت كانوا قد أدركوا منذ البداية أهمية التوسع في مجالات العلوم الإنسانية والطبيعية، وما سوف

---

(١) من الأمثلة على ذلك رسالة الإمام الصادق عليه السلام إلى شيعته، (الكافي٨: ٣٩٧)، ورسالة الإمام الباقر عليه السلام إلى جماعة الشيعة وأصحابه، (الكافي٨: ٢٣٠)، ورسالة الإمام علي الهادي عليه السلام في الرد على أهل الجبر والتفويض، (تحف العقول: ٣٤١)، وآداب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه، وهي أربعمائة باب، (تحف العقول: ٦٦ - ٨٣ ط. النجف).

يشهده العالم الإسلامي من آفاق المعرفة، أو يواجهه من الصراعات الفكرية والانحرافات العقائدية، كما حصل من قبل تيارات الإلحاد والزندقة والغلوّ والتعصب وأتباع الرأي والهوى، والاختلاط بالحضارات اليونانية والهندية والفارسية والبيزنطية.

ولذلك نجد المختصين في هذه العلوم ليس في العصور المتأخرة من التأريخ الإسلامي فحسب حيث تشعّبت الأُمور الثقافية واتّسعت، بل نشاهد هذا النوع من التخصص والتفكير فيه في بداية القرن الثاني الهجري وبتوجيه خاص من الأئمة عليهم السلام أنفسهم، حيث نشاهد مختصين بعلم الكلام مثل هشام بن الحكم، وفي الإفتاء مثل زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم، وفي القرآن مثل أبان بن تغلب، وفي التأريخ مثل أبان الأحمر البجلي، وسليم بن قيس، ولوط بن يحيى، وفي العلوم الطبيعية مثل جابر بن حيّان الذي علّمه الإمام جعفر الصادق عليه السلام علم الكيمياء، وكان واضع أسس هذا العلم، والمفضل بن عمر، وغيرهم من كبار العلماء المختصين[1].

إنّ هذه الشمولية من ناحية، والاختصاص من ناحية أُخرى، كانت منهجاً في البناء الثقافي لهذه الكتلة من أجل مواجهة المتطلبات، وملء الفراغات وسد الحاجات التي تحتاجها الجماعة من ناحية، وإعطاء الجماعة استقلاليتها في البناء والحركة والاعتماد على الذات من ناحية أُخرى، ومن أجل أنْ تأخذ موقعها الطبيعي من الأُمة الإسلامية بوصفها جماعة رائدة تتحمل مسؤوليتها في حفظ الإسلام وإعزازه والدفاع عنه من ناحية ثالثة.

ولا يعني هذا التخصص - بطبيعة الحال - الانصراف عن تعلّم بقيّة العلوم الأُخرى، بل كانوا يتناولونها بالبحث والمعرفة إلى جانب الاهتمام

---

(١) للمزيد من الاطلاع راجع كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للعلامة السيد حسن الصدر.

الأكبر بأحد العلوم والموضوعات، لتصبح الحركة الثقافية ذات طبيعة شمولية تتسم بالعمق والقوة.

المشروع الثاني: المؤسسات الثقافية والعلمية[١]

لقد اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام - بعد أنْ شخصوا مصادر الثقافة الإسلامية والمناهج العامة لضبطها وتعليمها - ببناء المؤسسات الثقافية والعلمية، والتشجيع على إيجادها وتأسيسها وتنشيطها، سواء المؤسسات الثقافية التي كانت معروفة ومتداولة بين المسلمين، مثل (المسجد) الذي يعتبر أول مؤسسة ثقافية عبادية عرفها المسلمون في مجتمعاتهم، أم المؤسسات الثقافية التي لم تكن معروفة بين المسلمين مثل المجالس الخاصة التي أسسها أهل البيت لتداول ثقافتهم، والمعلومات الخاصة بالجماعة المؤمنة التي كانوا يعملون لبنائها، هذه المجالس التي تحوّلت فيما بعد إلى مؤسسة ثقافية واسعة، من ضمنها ما يعرف الآن بـ (المجالس الحسينية).

وكان هذا الاهتمام بالمؤسسات الثقافية لسببين رئيسين يرتبطان بالجانب الثقافي:

الأوّل: تطبيق هذه المناهج الثقافية؛ لأن وضع المناهج دون تطبيقها يجعل تحقيق الغرض منها مرهوناً بالصدفة والظروف المتقلبة.

الثاني: أنّ هذه المناهج المتميزة بمحتواها ومضمونها وسعتها وشموليتها لا يمكن أنْ تستوعبها المؤسسات العامة مهما كانت كفوءةً، عدا أنّ فرصة استفادة أتباع أهل البيت عليهم السلام من هذه المؤسسات هي فرصة محددة، ولذلك اهتموا بتأسيس هذه المؤسسات الخاصة.

---

(١) يمكن أن تخصّص دراسة كاملة وواسعة لكل واحدة من هذه المؤسسات، ولكن نشير هنا إلى بعض المعالم الأساسية على سبيل الاختصار. منه قدس سره.

ويمكن أنْ نشير في هذا المجال إلى مؤسسات عرفها أتباع أهل البيت عليهم السلام، وكان لها تأثير كبير في الجانب الثقافي لحياتهم الإنسانية:

الحوزات العلمية

لقد كان للمسلمين منذ اليوم الأوّل لحياتهم حلقات يتداولون فيها علومهم المختلفة، وقد تحوّلت هذه الحلقات إلى مدارس في التأريخ الإسلامي فكانت مدرسة الكوفة، والمدينة، والبصرة، ومكة، والقاهرة، والأندلس، وغيرها. وتسمى هذه المدارس في عرف أتباع أهل البيت عليهم السلام بـ (الحوزات العلمية).

وانسياقاً مع هذا النهج العام المعروف بين المسلمين، اهتم أهل البيت بتأسيس المدارس ليس على الصعيد الإسلامي العام فحسب، حيث كان لهم دور متميِّز في تنشيط المدارس العامة والعلوم الإسلامية في جميع حواضر العالم الإسلامي، وأصبح ذلك واضحاً في زمان الصادقين - الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام - وكان لهم تأثير كبير في الثقافة والمعرفة في جميع أنحاء مجتمع المسلمين، وقد تتلمذ على أيديهم كبار علماء الإسلام كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

بل كان لهم دور متميز في تأسيس المدارس الخاصة بأتباعهم وشيعتهم، ضمن نهج خاص وضعوه لبناء هذه الجماعة الصالحة، إيماناً منهم بأهمية الثقافة، وينبع ذلك من الإيمان بأهمية دور المؤسسة الثقافية في ترسيخ دعائم الثقافة.

مدرسة الكوفة وقم

كانت مدرسة (الكوفة) من المدارس المتميزة في تأريخ حياة أهل البيت عليهم السلام باعتبار أنّ التشيع دخل العراق مع النخبة الأُولى من أصحاب

النبيﷺ، وفي أول الفتح الإسلامي، أمثال حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي اللذين رافقا الفتح الإسلامي للعراق، وكانا أول من تولى العراق للخلافة الإسلامية في المدائن، ثم عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم.

ثم كانت مدرسة (قم) التي تفرعت عن مدرسة الكوفة وتحولت إلى مدرسة خاصة بشيعة أهل البيت(عليهم السلام)، لأنّ تأسيسها كان على أيدي المخلصين من أتباع أهل البيت الذين تعرضوا للمطاردة، كما تأثرت بمدرسة الكوفة وقم مدارس أُخرى في الشرق الإسلامي في ري، وخراسان، واصفهان، وأفغانستان، وجبل عامل ...

وتطورت مدرسة الكوفة بعد ذلك - التي كانت تضم في بعض أدوارها الأُولى أيام الإمام الصادق(عليه السلام) زهاء أربعة آلاف محدّث كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد الصادق - لتمتد إلى بغداد في عصر الإمام الحسن العسكري(عليه السلام) والنواب الأربعة في الغيبة الصغرى، حتى تطورت في عهد الشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والشيخ الطوسي بشكل متميز، وتحولت إلى النجف الأشرف في عهد الشيخ الطوسي، ثم إلى الحلة وكربلاء، واستقرت بعد ذلك استقراراً أساسياً في النجف في القرنين الأخيرين.

وبقيت مدرسة قم تتأرجح في أدوارها وتتوسع أو تضمر حتى أصبحت في العصر الحديث ثاني أكبر مدرستين مهمتين في العالم الشيعي أجمع، هما النجف الأشرف، وقم[1].

---

(١) الحديث عن تأريخ هذه المدارس حديث واسع، قد نوفق لدراسته في كتاب المرجعية الصالحة، الذي يتناول الجانب التطبيقي والتأريخ للجماعة الصالحة بعد الغيبة من خلال هذه المؤسسة.

تخريج المجتهدين

وقد اهتم الأئمة الأطهار عليهم السلام بتأسيس هذه المدارس من خلال حثّهم لأتباعهم على التصدّي إلى التدريس والفتيا، وعقد المجالس والحلقات الخاصة بذلك. وقد تم وضع نظام قوي ومتين لهذه المدارس من أجل أنْ تحقق مجموعة من الأهداف العلمية والتربويّة والروحية، فضلاً عن مساهمتها في المجالات الأُخرى، الاجتماعية والسياسية والتنظيمية على ما سوف نشير إليه.

وكان أهم أهدافها إدامة زخم حركة (الاجتهاد) وتخريج المجتهدين، حيث كان أهم منظور لعموم النظام الدراسي الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام من هذه المدارس - والذي بقي ثابتاً مدة طويلة حتى برزت الحاجة في العصر الحديث لإدخال بعض التغييرات عليه - هو تخريج المجتهدين والمحققين في الفقه والأُصول ومقدماتهما والعلوم الإسلامية الأُخرى، مضافاً إلى تخريج المبلغين من علماء البلاد التي يسكنها أتباع أهل البيت عليهم السلام.

ولذلك نراها تزخر بعدد كبير من المجتهدين في كل عصر، بل في كل جيل وطبقة، وتتمايز المدارس بينها في هذا الجانب وفي عمق الدراسات الفقهية والأُصولية والإسلامية التي تشتمل عليها.

وبالرغم من أنّ هذا الاهتمام المتزايد في تحقيق هذا الهدف كانت له آثار سلبية على طبيعة الإنتاج العلمي لهذه المدارس، وقدرتها على تحقيق بقية أهدافها، حيث يلاحظ - أحياناً - وجود فراغات واسعة أو محدودة في نتاج العلوم الإسلامية الأُخرى، كالتفسير والعقيدة والفلسفة والأخلاق والحديث والتأريخ والأدب؛ بسبب الشعور بالحاجة الملحة إلى الاجتهاد في خصوص الفقه والأصول، وعدم وقوع بعض هذه العلوم في سلسلة

الاجتهاد فيهما[1]، بالرغم من كل ذلك إلاّ أنها تمكنت من أنْ تحقّق قفزة كبيرة في مجال فتح باب الاجتهاد والمحافظة على إدامة تخريج المجتهدين في مختلف العلوم الإسلامية، حتى في أشد الظروف الحالكة التي مرّ بها العالم الإسلامي.

وتمكنت أيضاً أنْ تصمد أمام محاولات التحريف والمسخ التي واجهتها المدارس الأُخرى في العالم الإسلامي، كما حصل (للأزهر) و(الزيتونة) ومدارس شبه القارة الهنديّة، فضلاً عمّا تعرضت له مدارس مكة والمدينة وبغداد وغيرها.

تخريج المبلغين

كما أنّ من جملة الأهداف الأُخرى لهذه المدارس هو تخريج الخطباء والمبلّغين والمعتمدين من العلماء في البلاد الأُخرى والمدرسين للحوزات العلميّة الفرعية.

وفي هذا المجال واجهت هذه المدارس مشكلة كبيرة، وهي عدم وجود أو تطور المنهج الدراسي المناسب في الشكل والمضمون القادر على تحقيق هذه الأهداف تحقيقاً مباشراً، وبوتيرة زمنية كفيلة بالاستجابة لمتطلبات الحاجات الجديدة والمراحل المختلفة، خصوصاً في المناطق والمساحات الجديدة لأتباع أهل البيت عليهم السلام، كما أشرنا إليه في الهدف الأوّل.

---

(١) لقد كانت هناك محاولات لتصحيح مسار نظام الدراسة وملء الفراغات العلمية في هذه المدارس في عهد مرجعية الإمام الحكيم في النجف، ومرجعية الإمام البروجردي في قم. وأخذت تتطور هذه المحاولات حتى انتصرت الثورة الإسلامية في إيران، فظهرت حركة إصلاحية كبيرة وواسعة بدأت تعطي ثمارها هذه الأيام. منه قدس سره.

ذلك أنّ مستوى المعرفة في الأُمة وكذلك نوع المعرفة والمشكلات الحضارية والثقافية أصبح مختلفاً عن السابق ومتطوراً، كما أنّ تعدد المعرفة وتشعبها وتبادلها ووجود الوسائل العلمية والفنية الجديدة وغير ذلك من التطورات، يحتاج إلى معالجة جديدة للمناهج على مستوى الشكل والمضمون يوفر على الطالب الوقت، ويلخص له المعرفة ويقدم له ما ينفعه في عمله الميداني الفعلي.

وبذلك تصبح فكرة التخصص في المجالات المتعددة فكرة عملية وواقعية تلبي المتطلبات الفعلية.

التغلب على المشكلات الجديدة

ومع ذلك كله تمكنت هذه المدارس أنْ تتغلب على هذه المشكلة ولو جزئياً عن طريق تصعيد الكفاءة العلمية الذاتية، بحيث تجعل الطالب قادراً على تحصيل الإمكانيات العلمية والقدرات الفنية بجهده الشخصي، ومن خلال فتح آفاق المعرفة وتناول الخبرات أمام قدراته وإمكانياته.

وقد ساعد على ذلك النظام القوي لهذه المدارس الذي يتسم بحرية الفكر والبحث أولاً، وحرية اختيار الدروس والأُستاذ ثانياً، وحرية التحكم في الأوقات واستثمارها بطريقة ملائمة ثالثاً، والنظام المالي الذي تتحكم فيه - إلى حدٍّ بعيد - الحاجات الاجتماعية والثقافية للجماعة رابعاً، ونظام العلاقات الاجتماعية الطبيعية التي تفرض على الطالب الاستجابة إلى هذه المتطلبات الثقافية للأُمة لسد حاجاتها المتنامية من ناحية، والوفاء بتعهداته وعلاقاته الاجتماعية تجاه مواطنيه الأصليين من ناحية أُخرى.

وكذلك ساعد على حل هذه المشكلة المنهج المتبع في الحوزات العلمية في تصعيد روح الشعور بالمسؤولية الشرعية، والدرجة العالية من التقوى والزهد والتربية الروحية والنفسية، التي تجعل الطالب يندفع ذاتياً لملء هذه

الفراغات والصمود أمام المغريات.

المحافظة على التراث الإسلامي

ومن جملة أهداف هذه الحوزات المحافظة على التراث الإسلامي، وخصوصاً تراث أهل البيت عليهم السلام وثقافتهم، ومدّ الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية والتأريخ وغيرها من الأبحاث ذات العلاقة بالعلوم الإسلامية، بالفكر الجديد الأصيل الصافي الذي يعتمد على المصادر الإسلامية النقية من ناحية، ويواجه التيارات الفكرية الأُخرى من ناحية ثانية؛ ولذا نجد في هذه المدارس استمرار البحوث العميقة، والمشاريع الثقافية الواسعة التي يكون هدفها المحافظة على هذا التراث، مثل أبحاث علم الرجال، والموسوعات الإسلامية، سواء على مستوى الحديث، أم البحث الفقهي.

لهذه الأسباب وغيرها كانت هذه المدارس قادرة على إنتاج المجددين والعلماء الكبار في التأريخ الإسلامي، وعلى شتى الأصعدة العلمية أمثال: ابن سينا، والشيخ المفيد، والسيد المرتضى، وأخيه السيد الرضي، والشيخ الطوسي، والشيخ نصير الدين الطوسي، والمحقق الحلي، والعلامة الحلّي، والشيخ الطبرسي، والشهيدين الأوّل والثاني، وابن طاووس، والشيخ البهائي، والسيد الداماد، والملا صدرا، والمجلسيين الأوّل والثاني، والفيض الكاشاني، والمحقق الكركي، والوحيد البهبهاني، والسيد بحر العلوم، والشيخ كاشف الغطاء، وصاحب الجواهر، والشيخ الأنصاري، والمجدد الشيرازي.

وفي القرن الأخير: جمال الدين الأفغاني، والشيخ الآخوند الخراساني، والشيخ المامقاني، والشيخ النائيني، والمحقق العراقي، والسيد البروجردي، والعلاّمة كاشف الغطاء، والعلاّمة شرف الدين، والعلاّمة السيد محسن الأمين، والعلاّمة الشيخ البلاغي، والإمام الحكيم، والعلاّمة الطباطبائي،

والإمام الخميني، والشهيد المطهري، والشهيد الصدر، والإمام الخوئي، وغيرهم كثيرون ممن كان له دور مهم ليس على مستوى العالم الشيعي فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي أجمع. حيث أغنوا المدارس العلمية بالنظريات الجديدة، وكتبوا الموسوعات العلمية، والدراسات الفقهية، والقرآنية والإسلامية العامة، والتأريخية والعقائدية. مضافاً إلى مواقفهم العظيمة في خدمة الإسلام ونهضته المباركة ومواجهة الاستكبار والكفر العالمي والطغيان المحلي.

المسجد والحسينية

لقد كان المسجد منذ الصدر الأوّل للإسلام مؤسسة ثقافية مضافاً إلى الأبعاد الدينية والإدارية لهذه المؤسسة؛ فقد كانت الخطب والدروس والمحاضرات تُلقى في المساجد على الناس، وكان الناس ولا زالوا يترددون عليها المساجد من أجل أنْ يرتووا من منهل الثقافة الإسلامية.

وقد جرى أتباع أهل البيت على هذا المنوال انسجاماً مع الطرح الإسلامي لدور المسجد الذي يربط الثقافة العامة بالالتزامات الدينية، وينطلق فيها من العقيدة والإيمان بالله تعالى، ويمنحها القدسية فتصبح واجباً من الواجبات الشرعية كما ورد في الحديث الشريف: ((**طلب العلم فريضة على كل مسلم**))[١].

وهم يتأسّون في ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه الكرام، وفي مقدمتهم سيد الأوصياء الإمام علي عليه السلام الذي حوّل المسجد طيلة خلافته إلى مؤسسة إسلامية متكاملة في الحكم والقضاء والجهاد والاجتماع، وأصبحت الثقافة

---

(١) الكافي ١: ٣٠ - ٣١.

أحد معالمها الأساسية.

الجماعة الصالحة والمسجد

إلاّ أنَّ أتباع أهل البيت عليهم السلام كانوا يواجهون مشكلة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وهي مشكلة العدوان والمطاردة لهم ولثقافتهم وأفكارهم وعقائدهم من قبل الطغاة والظالمين، كما كان يتعرض أئمتهم إلى ذلك أيضاً. حيث سوف نشير إنْ شاء الله في بحث (نظام أمن الجماعة) وغيره إلى أسباب ذلك.

ومن هنا لم يكونوا يجدون الفرصة دائماً للاستفادة في الجانب الثقافي من المسجد باعتباره مؤسسة تخضع - عادة - لإدارة السلطان ونظامه، فكانوا يضطرون أحياناً إلى اختيار أماكن أُخرى بعيدة عن عيون الطغاة وأعوانهم، من أجل أنْ يتعلموا ويعلموا الآخرين، ويتدارسوا ويتحادثوا في مختلف الشؤون الحيوية والثقافية.

ولكنهم مع ذلك لم يكونوا ليتخلوا عن المسجد والارتباط به في إقامة الشعائر الإسلامية حتى في أشد الظروف قسوة؛ لأنَّ المسجد بالنسبة لهم لم يكن مجرد مكان للدرس والمعرفة، بل كان قبل ذلك محلاً للعبادة والدعاء والمناجاة لله تعالى، كما أنّه كان يمثل وسيلة الارتباط مع بقية أجزاء الأُمة وأوساطها.

وقد حرص أئمة أهل البيت عليهم السلام على إبقاء هذا الارتباط والمحافظة عليه حرصاً شديداً، وسوف نشير إلى ذلك في بحث نظام العلاقات ونظام أمن الجماعة.

ولذلك كان أتباع أهل البيت عليهم السلام كلما وجدوا الفرصة مواتية لأنْ يكون المسجد منطلقاً للعمل الثقافي توجهوا إلى ذلك. وقد عرفنا أنَ مسجد الكوفة كان مركزاً مهماً لمدرسة أهل البيت طيلة عهود من الزمن.

وكذلك كانت المساجد في المناطق التي يجد فيها أتباع أهل البيت عليهم السلام شيئاً من الحرية والأمن مراكز للثقافة الإسلامية لا يستبدلون بها شيئاً آخر، كما في إيران والعراق واليمن ولبنان وغيرها، كما أنهم اهتموا ببناء المساجد وتشييدها والاعتناء بها، كما تشهد بذلك جميع حواضر البلدان التي يسكنها أتباع أهل البيت عليهم السلام.

الجماعة الصالحة والحسينية

وأمّا في المناطق التي لم يجدوا فيها الحرية والأمن، فقد كانوا يتخذون أماكن أُخرى للمحافظة على ثقافتهم وعقائدهم وتأريخهم، فنشأت بذلك فكرة تأسيس ما يسمى الآن بـ (الحسينية)[1]؛ حيث كانت البداية تنطلق من فكرة اتخاذ مركز يتحدثون فيه بحرية وأمان، كما تحدثت بذلك روايات أهل البيت عليهم السلام وكان أكثر ما يجري فيه هو حديث الحسين عليه السلام ومظلوميته، فتطورت هذه الفكرة حتى أصبح أتباع أهل البيت عليهم السلام يؤسسون (الحسينيات) ويبنونها ويتخذونها مراكز ثقافية واجتماعية.

ولكنهم يجعلون - أحيانا - قسماً من البناء مسجداً حرصاً على البُعد الديني والشعائري للمسجد، وقسماً من البناء حسينية تمجيداً لذكرى أبي عبد الله الحسين عليه السلام من ناحية، ولضمان المزيد من الحرية في العمل والنشاط من ناحية أُخرى. وتنزيهاً للمسجد مما يمكن أنْ تتعرض له هذه الأماكن من مكروهات ومحظورات شرعية من ناحية ثالثة، خصوصاً أنَ جمهور فقهاء مذهب أهل البيت عليهم السلام يعتقدون بوجوب تنزيه المساجد من النجاسات والأقذار، وحرمة استقرار الحائض والجنب في المساجد،

---

(١) نُسب المكان إلى الإمام الحسين عليه السلام باعتباره محلاً لذكر مصيبته والحديث عن نهضته وأبعادها الروحية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والعقائدية. منه قدس سره.

وكذلك كراهة الأكل والنوم وحضور الأطفال فيها. وهذه الأحكام لا تجري بطبيعة الحال على الحسينيات، كما أنه يكره القيام ببعض الأعمال في المساجد مما لا يسري إلى الحسينيات.

مضافاً إلى ممارسة بعض النشاطات الاجتماعية والثقافية فيها، مثل مجالس العزاء والأفراح الخاصة أو الاحتفالات العامة التي قد تضايق المصلين، أو تأسيس صناديق القرض أو المكتبات العامة فيها.

وبذلك تحولت الحسينية إلى مؤسسة ثقافية أُخرى اعتمد عليها أتباع أهل البيت عليهم السلام لنشر الثقافة الإسلامية، وأصبحت منطلقاً لمشروع مؤسسة ثقافية واسعة ثالثة اختص بها أهل البيت عليهم السلام وهي الشعائر الحسينية، ولكن مؤسسة الحسينية إنما هي في الحقيقة امتداد لمؤسسة المسجد الإسلامية.

الشعائر الحسينية

لقد كانت إحدى المؤسسات الهامّة التي أسسها أهل البيت للعمل الثقافي، والتي اختص بها أتباعهم ومحبوهم هي مؤسسة (الشعائر الحسينية) كالمجالس الحسينية، والزيارات وغيرها مما سوف نشير إليه في هذا الحديث.

إنّ الشعائر الحسينية - في الحقيقة - هي أحد الخطوط الهامّة التي اعتمدها أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة عموماً، كما أنها كانت القاعدة الهامّة التي يرتكز عليها تحركهم في الأُمة؛ لأنها تستلهم من ثورة الحسين عليه السلام وتمجدها وتؤكد أهدافها، وهي أهداف ذات جوانب متعددة سياسية وثقافية وعقائدية وروحية.

وقد وضع الأئمة عليهم السلام التصميم العام لهذه الشعائر، وأعطوها أبعادها الدينية الكاملة، وحددوا الشكل والمضمون الذي يتناسب مع الدور المهم الذي لابدّ لها أنْ تؤديه؛ بحيث تنسجم من ناحية الشكل مع ظروف المأساة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، ومن ناحية المضمون مع الأبعاد السياسية والروحية

والثقافية والعقائدية.

ولاشكّ أنّ نهضة الحسين عليه السلام كان لها تأثير بالغ وكبير في حركة التأريخ الإسلامي وحياة المسلمين عامة، بحيث أدت تفاعلاتها الواقعية في حركة الأُمة إلى حفظ الإسلام والأمة الإسلامية من كثير من مخاطر الانحراف.

والشعائر الحسينية كان لها دور آخر مكمِّل لدور الثورة نفسها ويكاد يختص هذا الدور بالكتلة الصالحة وأبنائها، وإنْ كان له بعض التأثير في أوساط المسلمين عامة أيضاً.

ولما كانت الشعائر الحسينية ذات أهداف متعددة الجوانب، وكان الجانب الثقافي أحد الأهداف الأساسية والمهمة منها، رأينا أنْ نفرد للشعائر الحسينية حديثاً فيه شيء من الشمول لبقية الجوانب في هذا الباب إكمالاً للفائدة. وسوف نحاول أنْ نحيل عليه عند الحديث عن الجوانب الأُخرى.

الشعائر الحسينية والجماعة الصالحة

يمكن تقسيم الشعائر الحسينية من الناحية الواقعية بحسب الشكل والمضمون إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأوّل: الشعائر المسنونة

وهي الشعائر الحسينية المنصوصة، أي التي ورد فيها نص ثابت وصريح عن أهل البيت عليهم السلام، وهذه الشعائر هي التي تتصف بالثبات بحسب الأداء، وهي:

أ) الحزن والبكاء

إنّ شعار البكاء وكذلك جميع مظاهر التعبير عن الحزن والأسى والتظلّم المعقول وردت فيها أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تذكر أهميتها

والآثار المترتبة عليها، وذلك لما فيها من التعبير عن التفاعل العاطفي والروحي مع مأساة الإمام الحسين عليه السلام، والتعريف بمظلوميته عليه السلام والجريمة الوحشية التي ارتكبت في حقه، وكذلك وردت النصوص الكثيرة عن قيام أئمة أهل البيت عليهم السلام بالبكاء على الحسين عليه السلام، خصوصاً وقد وضع أسس هذا الشعار ورفعه في مداه الواسع الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام.

فقد روى ابن قولويه: أنَّ مولىً للإمام علي بن الحسين عليه السلام أشرف عليه وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: ((**يا علي بن الحسين، أما آن لحزنك أنْ ينقضي؟ فرفع رأسه إليه وقال: ويلك - أو ثكلتك أمك - والله لقد شكا يعقوب إلى ربه في أقل مما رأيت حين قال: يا أسَفى على يوسف، وإنّه فقد ابناً واحداً، وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبّحون حولي**))[1].

وروي أيضاً عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة - أو أربعين سنة - وما وضع بين يديه طعام إلاّ بكى حتى قال له مولىً له: جعلت فداك، إني أخاف عليك أنْ تكون من الهالكين! قال: إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك العبرة**))[2].

ولا يمكن أنْ نحمل هذه الممارسة الواسعة والممتدة للإمام زين العابدين عليه السلام على أنها مجرد انفعال عاطفي بالمشاهد التي عاشها أيام محرم الحرام، بحيث لم يكن قادراً على ضبط أحاسيسه وعواطفه طيلة هذه الفترة من الزمن، وإنّما ينبئ هذا - بالإضافة إلى ذلك - عن تصميم وتخطيط محكم

---

(١) بحار الأنوار ٤٦: ١١٠، ح٤.

(٢) وسائل الشيعة ٢: ٩٢٢، ح٧.

كان يمارسه الإمام زين العابدين عليه السلام يعتمد على الحقيقة المأساوية التي عاشها عليه السلام شخصياً، ويؤكد عمقها وهولها لتبقى قضية تعيشها الأُمة الإسلامية، وتتحرك على أساسها الجماعة الصالحة.

وقد أعطى أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد الإمام زين العابدين عمقاً آخر لهذا الشعار عندما طرحوه مصداقاً ثالثاً من مصاديق تعظيم شعائر الله، وأُسلوباً للتعبير عن استنكار الظلم، والتفاعل الذاتي مع قضية كربلاء وأهدافها، ومنهجاً لتزكية النفس وتهذيبها، بحيث تحول إلى عبادة يمارسها الإنسان بطريقة فردية أو جماعية.

فقد ورد التأكيد عن أهل البيت على أهمية البكاء أو التباكي على الحسين عليه السلام والثواب المترتب عليه، بحيث أصبح مصداقاً آخر من مصاديق البكاء المحبوب لله تعالى، يشبه البكاء من خشيته سبحانه وتعالى.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لفضيل: ((**تجلسون وتحدّثون؟ قال: نعم جعلت فداك. قال: إنّ تلك المجالس أُحبّها فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا. يا فضيل، من ذكرنا - أو ذُكرنا عنده - فخرج من عينه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر**))(١).

وعن أبي هارون المكفوف قال: ((**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: أنشدني، فأنشدته فقال: لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره، فأنشدته:**

امرر على جدث الحسين ... فقل لأعظمه الزكية

قال: فلما بكى أمسكت أنا، فقال: مرّ فمررت، قال: ثم قال: زدني. قال: فأنشدته:

يا مريم قومي واندبي مولاك ... وعلى الحسين فأسعدي ببكاك

---

(١) قرب الإسناد: ٣٦، ح١١٧.

قال: فبكى وتهايج النساء. قال: فلما أنْ سكتن قال لي: يا أبا هارون، من أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنّة، ثم جعل ينتقص واحداً واحداً حتى بلغ الواحد فقال: من أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنة. ثم قال: من ذكره فبكى فله الجنّة))[1].

فلسفة البكاء

ويفسر لنا هذه الأهمية في البكاء إذا لاحظنا الآثار التالية المترتّبة عليه:

أوّلاً: أنّ البكاء له بُعد سياسي؛ لأنه طريقة فضلى إنسانية واجتماعية - سليمة وهادئة - لاستنكار الظلم والتعبير عن عمق المأساة والمظلومية التي تعرض لها الإمام الحسين عليه السلام وأهدافه النبيلة.

وتظهر أهمية هذا الأُسلوب في هذا البُعد السياسي في ظروف المحنة والقمع والإرهاب، عندما تعجز بقية الأساليب عن التعبير عن ذلك.

وقد كان شيعة أهل البيت يعيشون في مختلف الأدوار ظروفاً صعبة وقاسية، فيصبح هذا الأُسلوب أفضل أسلوب للتعبير عن موقفهم السياسي وبقائهم مشدودين إلى هذا الموقف.

بهذا يمكن أنْ نفهم واضحاً اهتمام الإمام زين العابدين بهذا الأُسلوب بالذات، بالإضافة إلى الواقع النفسي الذي كان يعيشه بسبب حضوره في كربلاء.

وهذا يؤكد حقيقة مهمة في تخطيط أهل البيت عليهم السلام تجاه القضية السياسية، وهي: أنّ الإنسان المؤمن لابدّ أنْ يقرن إيمانه السياسي بالقضية بموقف عملي تجاهها مهما كانت الظروف، ولو كان هذا الموقف العملي هو أضعف الإيمان، ولا يصح له بأي حال من الأحوال أنْ يقف موقف اللامبالاة تجاه

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٧، ح٢٥، عن كامل الزيارات.

الفكر السياسي أو العقيدة السياسية.

وهذا ما تؤكده الروايات التي وردت في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من وجوب إنكار المنكر ولو بالقلب إنْ لم تكن المراتب الأعلى مقدورة أو كانت محظورة، ولذا عبّر عنها بأنها أضعف الإيمان.

ثانياً: أنّ البكاء يجسد في نفس الوقت تفاعلاً ذاتياً أخلاقياً مع مأساة كربلاء، ولكن بالحد الأدنى من التفاعل، ويشد عواطف الإنسان المسلم بالقضية وأهدافها ورجالها، ويبعده وينفّره طبيعياً عن أعدائها وأخلاقهم ومقاصدهم.

وهذا البُعد الأخلاقي في البكاء كان أحد الأسباب الطبيعية التي تمكَن أهل البيت(عليهم السلام) من خلالها أنْ يحفظوا في الجماعة الصالحة أخلاقية الانضمام والوقوف إلى جانب الحق والمواجهة للظلم، بالرغم من الضغوط التي كانوا يواجهونها سواء على المستوى الاجتماعي أم الفردي، وسواء على المستوى الخارجي كالضغوط التي يمارسها الطغاة ضدهم، أم على المستوى الداخلي كضغوط الشهوات والرغبات.

ثالثاً: أنّ البكاء يمثل منهجاً في تزكية النفس وتطهيرها من الأدران، ويرفع درجة الإحساس في الإنسان بآلام الإنسانية، والانحرافات الاجتماعية، والوعي لقضايا الظلم والعدل؛ ذلك لأنه يؤثر في رقَة القلب ويقظة الضمير ووعي الوجدان.

وقضية قسوة القلب ورقّته وخشوعه من أهم القضايا التي تؤثر في مسيرة الإنسان الذاتية؛ ولذا عالجها القرآن الكريم في مواطن كثيرة، وانتقد بشدة قسوة القلب، كما كان يمجّد رقة القلب وخشوعه.

ومن الآيات الواردة في ذم قسوة القلب ومدح رقته قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[١]. وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[٢].

قوله تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**[٣]. وقال متحدثاً عن اليهود: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾**[٤]. وقال: **﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾**[٥]. وقال: **﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾**[٦].

وقضية رين القلب والطبع والختم عليه التي يتحدث عنها القرآن الكريم، إنّما تنطلق من قسوة القلب، وفي مقابل ذلك طهارة القلب وخشوعه ووجله ولينه واطمئنانه.

ولاشك أنّ البكاء يمثل أفضل وسيلة لغسل درن القلب، وتهيئة الأرضية الصالحة فيه للتفاعل والتأثر. ومن هنا جاء الحث الشديد من الشارع المقدّس على البكاء من خشية الله تعالى، وأصبحت العين الباكية من خشية الله في صف العين التي تكف عن محارم الله أو تسهر في سبيل الله، كما

---

(١) البقرة:٧٤.

(٢) الحديد:١٦.

(٣) محمد:٢٤.

(٤) البقرة:٨٨.

(٥) الزمر:٢٢.

(٦) الزمر:٢٣.

ورد في الحديث[1].

وبهذا يكون للبكاء بعد روحي ووجداني مضافاً إلى بعده السياسي والأخلاقي.

مضافاً إلى ذلك يمكن أنْ نتصور في البكاء بُعداً ثقافياً يرتبط بموضوع العدل والظلم، حيث إنّ دوافع البكاء التي تثير في الإنسان هذا الإحساس العاطفي والوجداني لاشك أنّ لها تأثيراً في ثقافة الإنسان وفهمه للحياة وتفاعله مع قضاياه. وعندما يتم التركيز على الإثارة تجاه المظلومية والتعرض للعدوان، ويتفاعل الإنسان مع هذه الإثارة فلاشك أنّ الإنسان سوف يكوّن تصوراً عن أسباب الظلم ورفضها، وعن مقاييس العدل والالتزام بها حيث يتم شرح ذلك عادة وتفصيله في مثل هذه الإثارات.

ب) الزيارة وأهميتها

زيارة الإمام الحسين عليه السلام كانت في الأساس حضوراً إلى جانب قبره عليه السلام، ثم أخذت بُعداً أوسع في تعظيم أهل البيت، حيث أصبحت مطلوبة في مختلف الأوقات ولو كانت من مكان بعيد، وأصبحت بعد ذلك منطلقاً لزيارة مشاهد قبور الأئمة الأطهار جميعاً والصالحين من أولادهم وأتباعهم.

ولعل أول من قام بزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام هو الإمام زين العابدين في يوم الأربعين من شهادته على ما تذكر بعض النصوص، وذلك عند رجوعه من الشام في طريقه إلى المدينة المنورة[2].

---

(١) راجع: بحار الأنوار٩٣: ٣٢٩.

(٢) وتشير بعض النصوص إلى أنّ أول زائر له في أربعينيته هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، راجع مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٣٦٠ وما بعدها.

ثم ندب أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد ذلك إلى زيارة قبر الحسين عليه السلام، ونصّت بعض الروايات الآتية على أنها فريضة على من يؤمن بإمامته من شيعة أهل البيت عليهم السلام، كما تحدثت النصوص الصحيحة التي وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام عن الثواب والأجر العظيم، الذي يترتب على هذا العمل العبادي الشريف وأفضليته على العمرة والحج المندوبين.

فقد روى الشيخ الطوسي رحمه الله في المصباح زيارة أُخرى غير الزيارة المعروفة في يوم عاشوراء، كما رواها بطريق معتبر صاحب المزار الكبير عن عبد الله بن سنان قال: ((**دخلت على سيدي أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام في يوم عاشوراء فألفيته كاسف اللون ظاهر الحزن ودموعه تنحدر من عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: يا بن رسول الله، ممّ بكاؤك لا أبكى الله عينيك؟ فقال لي: أوَ في غفلة أنت؟ أما علمت أنّ الحسين بن علي عليهما السلام أُصيب في مثل هذا اليوم؟!**

قلت: يا سيدي فما قولك في صومه؟ فقال لي: صمه من غير تبييت وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كملاً، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء، فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلّت الهيجاء عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وانكشفت الملحمة عنهم، وفي الأرض منهم ثلاثون صريعاً في مواليهم، يعزّ على رسول الله صلى الله عليه وآله مصرعهم، ولو كان في الدنيا يومئذ حياً لكان صلوات الله عليه وآله هو المعزّى بهم ...

يا عبد الله بن سنان، إنّ أفضل ما تأتي به في هذا اليوم أنْ تعمد إلى ثياب طاهرة فتلبسها وتتسلّب، قال: وما التسلّب؟ قال: تحلل أزرارك وتكشف عن ذراعيك كهيئة أصحاب المصائب، ثم تخرج إلى أرض مقفرة أو مكان لا يراك به أحد أو تعمد إلى منزل لك خالٍ، أو في خلوة منذ حين

يرتفع النهار، فتصلي أربع ركعات تحسن ركوعها وسجودها وتسلّم بين كل ركعتين، تقرأ في الركعة الأولى سورة الحمد و(قل يا أيها الكافرون)، وفي الثانية الحمد و(قل هو الله أحد) ثم تصلّي ركعتين تقرأ في الركعة الأولى الحمد وسورة الأحزاب، وفي الثانية الحمد وسورة (إذا جاءك المنافقون)، أو ما تيسر من القرآن، ثم تسلّم وتحول وجهك نحو قبر الحسين عليه السلام ومضجعه فتمثل لنفسك مصرعه ومن كان معه من ولده وأهله، وتسلّم وتصلي عليه، وتلعن قاتليه فتبرأ من أفعالهم، يرفع الله عزّ وجلّ لك بذلك في الجنّة من الدّرجات ويحطُّ عنك من السيئات.

ثم تسعى من الموضع الذي أنت فيه إنْ كان صحراء أو فضاء أو أي شيء كان خطوات تقول في ذلك: إنا لله وإنا إليه راجعون، رضاً بقضائه وتسليماً لأمره، وليكن عليك في ذلك الكآبة والحزن، وأكثر من ذكر الله سبحانه والاسترجاع في ذلك.

فإذا فرغت من سعيك وفعلك هذا فقف في موضعك الذي صلّيت فيه ثم قل: اللهم عذّب الفجرة الذين شاقّوا رسولك، وحاربوا أولياءك، وعبدوا غيرك واستحلوا محارمك، والعن القادة والأتباع، ومن كان منهم فخبّ وأوضع معهم أو رضي بفعلهم لعناً كثيراً. اللهم وعجّل فرج آل محمد، واجعل صلواتك عليهم واستنقذهم من أيدي المنافقين والمضلّين، والكفرة الجاحدين، وافتح لهم فتحاً يسيراً، وأتح لهم رَوحاً وفرجاً قريباً، واجعل لهم من لدنك على عدوّك وعدوّهم سلطاناً نصيراً.

ثم ارفع يديك، واقنت بهذا الدعاء، وقل وأنت تومئ إلى أعداء آل محمد صلوات الله عليه ...))[1]، الحديث.

والبحث في المداليل السياسيّة والأخلاقيّة والاجتماعية والروحية لهذا

---

(١) البحار٩٨: ٣٠٣ - ٣٠٥، ح٢، عن مصباح الزائر للشيخ الطوسي.

الشعار العظيم يحتاج إلى حديث طويل، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار الجانب التأريخي وردود الفعل من السلطة الغاشمة تجاه هذا الشعار في مختلف الأدوار. ولكن نشير هنا إجمالاً إلى عدة أبعاد أساسية:

أبعاد شعار الزيارة

الأوّل: أنّ هذا الشعار يعبر عن مجموعة الأبعاد التي تعبّر عنها شعائر الحج في النظرية الإسلامية، ولكن في إطار خاص وهدف محدود وهو تربية الجماعة الصالحة والخط الأصيل المتمثل بأتباع أهل البيت عليهم السلام على مضمون نهضة الحسين، ويتم ذلك على مستوى الولاء لهذا المحور الإسلامي، وهو الحسين والتلبية لندائه باعتباره داعياً إلى الله ((**لبيك داعي الله، إنْ كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري، سبحان ربّنا إنْ كان وعد ربّنا لمفعولا**))[1]، أو على المستوى الثقافي لهذه الشعائر أو السياسي وحتى الاقتصادي لها.

الثاني: ربط حركة الكتلة والخط الإسلامي الأصيل بهذا المحور الإسلامي ومواقفه الشرعية، فإنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام - باعتبار اختلاف ظروفهم ومن ثم اختلاف مواقفهم السياسية المرحلية - كانوا دائماً بحاجة إلى أنْ يؤكدوا خطاً ثابتاً في مسيرتهم وموقفاً واضحاً في مذهبهم، وهو خط الرفض للطغيان والظلم الذي أعلنه الإمام الحسين عليه السلام، وتحدّث عنه في أول خطبة ألقاها على أهل الكوفة:

((**أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهده، مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله**

---

(١) زيارة الإمام الحسين عليه السلام في النصف من رجب وشعبان.

بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أنْ يدخله مدخله. ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله...))[1].

وقد اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام بترسيخ هذا الخط الثابت في موقفهم ترسيخاً واضحاً لا لبس فيه من خلال التركيز على محور زيارة الحسين عليه السلام، وتجديد البيعة له وتلبية ندائه، والولاء لأوليائه ومن تابعهم، والعداء لأعدائه ومن تابعهم وسار بسيرتهم.

الثالث: تثقيف الجماعة الصالحة على الالتزام بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية والسياسية التي تضمنتها نصوص الزيارات، التي وردت للحسين عليه السلام في الأيام المخصوصة المختلفة، حيث كانت الزيارة تكريساً لموسم خاص للتعبير عن هذا الالتزام تجاه هذه المفاهيم ذات الأبعاد المتعددة. الأمر الذي أوجد خطاً ثقافياً واعياً وثابتاً في وسط هذه الجماعة الصالحة.

الرابع: التعبير السياسي والاجتماعي عن وجود الجماعة الصالحة من ناحية، وفتح الأبواب أمام بقية المسلمين للالتحاق بحركة هذه الجماعة من ناحية أُخرى، وذلك من خلال الارتباط بحركة الإمام الحسين عليه السلام التي أصبحت حركة معترفاً بها من جميع أوساط المسلمين عموماً.

ولعلّ هذه الحقيقة تفسّر ظاهرتين بارزتين في تأريخ هذه الزيارة ووجودها:

إحداهما: الممارسات القمعية العدوانية التي كانت ترتكبها السلطات الجائرة، والطغاة المجرمون بحق أبناء المسلمين، الذين كانوا يتوافدون على

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤، باختلاف يسير، الكامل في التاريخ ٤: ٤٨.

زيارة المرقد الشريف للإمام الحسين عليه السلام، حيث كان يتعرض هؤلاء الزوّار إلى القتل أو فرض الأتاوات أو التنكيل بقطع الأيدي والمطاردة في بعض الأدوار، أو يتعرض القبر إلى الهدم المتعمد، كما حصل في زمن المتوكل العباسي، والوهابيين عند غزوهم العراق في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، أو حكومة العفالقة[1] في العراق في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري.

ثانيتهما: تأكيد أئمة أهل البيت عليهم السلام على شيعتهم ضرورة ممارسة هذا الشعار بالرغم من المخاطر التي كانت تحفّ بالزائرين، وبالرغم من نهج التقيّة الذي التزموا به وحرص الأئمة عليهم السلام على المحافظة على شيعتهم وتجنيبهم مختلف المخاطر والآلام، بحيث تكاد أنْ تتحول الزيارة في نظرهم إلى قتال في سبيل الله.

وقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام؛ فإنّ إتيانه مفترض على كلّ مؤمن يقرّ للحسين عليه السلام بالإمامة من الله عزّ وجلّ**))[2].

وكذلك قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ((**لو أنّ أحدكم حجّ دهره ثمّ لم يزر الحسين بن علي عليهما السلام لكان تاركاً حقاً من حقوق الله وحقوق رسوله صلى الله عليه وآله، لأنّ حق الحسين عليه السلام فريضة من الله عزّ وجلّ واجبة على كل مسلم**))[3].

---

(١) العفالقة: نسبة إلى ميشيل عفلق الصليبي الذي أسس حزب البعث وحكم العراق أواخر العقد التاسع من القرن الرابع عشر وحتى العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري.

(٢) كتاب المزار: ٢٧، ح١.

(٣) كتاب المزار: ٢٧، ح٢.

ج) المجالس الحسينيّة

المجالس الحسينية: هي الاجتماعات التي يعقدها أتباع أهل البيت سواء في أيّام المصيبة العظمى من شهر محرّم وصفر، أم في الأيام الأُخرى من العام، والتي يتداولون فيها حوادث هذه المأساة وغيرها من القضايا الدينيّة. وقد جاءت في البداية تعبيراً عن الحزن العميق لمصاب الإمام الحسين عليه السلام وتجسيداً لعظم المصيبة التي نزلت به وبأهل بيته، والأبعاد المأساوية التي اشتملت عليها حادثة كربلاء، وكذلك الوحشية التي اتّسمت بها الطغمة الأموية وبالخصوص الطاغية يزيد، والتي كشفت عن عمق الحقد والعداء الذي تكنّه هذه العصابة المجرمة ضدّ الإسلام ورسوله وأهل بيته الكرام.

ثمّ تطورت هذه الشعائر الحسينيّة إلى مدرسة سيّارة لأتباع أهل البيت عليهم السلام تلبّي جميع الحاجات الثقافية والسياسية والعاطفية والاجتماعية لهذه الجماعة الصالحة، وتتمكّن من التحرّك في وسطها في مختلف الظروف.

وقد بدأت هذه المجالس منذ الأيّام الأُولى للمأساة في مدينة الشام عندما بدأ يزيد بالتراجع أمام بدايات الوعي الجماهيري لأبعاد المصيبة، من خلال التوعية الشاملة التي قامت بها العقيلة زينب الكبرى والإمام زين العابدين عليهما السلام عند ورود موكب السبايا إلى الشام وحضورهم في مجلس يزيد بن معاوية، حيث تشير بعض الروايات إلى أنّ الإمام زين العابدين عقد مجلساً تأبينياً في الشام مدّة ثلاثة أيّام[1].

كما أقام أهل البيت عليهم السلام وبعض زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، كأمّ سلمة مجالس العزاء في المدينة المنوّرة عند رجوع عيالات الإمام الحسين ومعهم الإمام زين

---

(١) جلاء العيون٢: ٢٦٤.

العابدين إلى المدينة[1].

وبقي أهل البيت عليهم السلام يعقدون هذه المجالس كلّما أُتيحت لهم الفرصة وخصوصاً في أيّام عاشوراء، ويحثّون شيعتهم ومواليهم على عقدها. وقد تقدّمت الإشارة إلى بعض النصوص التي تتحدث عن هذه الممارسة لأهل البيت عليهم السلام.

والحديث عن المجالس الحسينيّة - تأريخها وأبعادها وآثارها وفلسفتها - حديث واسع، ولكن نشير هنا إجمالاً إلى بعض هذه الأبعاد.

أهمية المجالس الحسينية وأبعادها

الأوّل: المحافظة على هذا الحدث المهم الذي يمثّل أُطروحة إلهيّة لتوعية الأمّة الإسلامية لحفظ الرسالة الخاتمة من الضياع أو التشويه والتحريف.

حيث إنّ السلطة الغاشمة حاولت منذ البداية أنْ تضيّع الحقيقة حينما طرحت قضية الحسين عليه السلام على أنّها عملية خروج على السلطة الشرعية وأطلقت عليهم اسم (الخوارج)، وعلى أنّها شق لعصا المسلمين ووحدتهم، وحاولت أنْ تغطّي على شخصيّة الإمام الحسين وأهدافه وخلفية نهضته وأسبابها والظروف المحيطة بها، لأنّ كلّ ذلك هو الذي يمكنه أنْ يوضح الحقيقة الناصعة التي قامت على أساسها هذه الثورة العظيمة في تأريخ المسلمين، حتى أنّ يزيد حاول في بدايات الأمر أنْ يتنصّل من مسؤولية هذا الحدث ويلقي تبعته على ابن زياد.

ولكن التخطيط الواعي لأهل البيت عليهم السلام من خلال المجالس الحسينيّة تمكّن من حفظ معالم هذه الثورة من الضياع، وبقيت محفوظة في التأريخ

---

(١) عن طبقات ابن سعد عن أُمّ سلمة أنّه لما بلغها قتل الحسين عليه السلام قالت: ((**قد فعلوها ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً!**)) ووقعت مغشياً عليها. البداية والنهاية٨: ٢١٨.

الإسلامي وفي حياة المسلمين بجميع تفاصيلها وخصوصياتها[١].

الثاني: إبقاء الحدث حيّاً وفاعلاً ومؤثّراً في عدد من الجوانب المهمة في الحياة الإسلامية عامة وفي أوساط الجماعة الصالحة خاصة:

أ) الجانب الوجداني لضمير الإنسان المسلم، لأنّ أحد الأهداف الرئيسيّة لهذه الثورة هو هزّ هذا الضمير وإحياؤه وتحريكه عندما يتعرّض إلى الموت أو الخدر الحضاري، أو يقع تحت تأثير الضغوط النفسيّة أو أساليب الإرهاب، بحيث ينتهي بالإنسان إلى فقدان الإرادة مع إدراكه للحقيقة[٢].

وبهذا أصبحت هذه المأساة عاملاً محرّكاً ليس للجيل المعاصر لها فحسب، بل أصبحت عاملاً محرّكاً على مستوى الوجدان والضمير والإحساس على مرّ العصور والأجيال.

وقد كان للصور الرائعة التي قدّمها أهل البيت في تجسيد المأساة، وساهم في رسمها والتعبير عنها شعراء هذه المدرسة في ملاحمهم على مختلف العصور دور رائد في هذا المجال.

وبهذا يمكن أنْ نفهم معنى الروايات التي وردت في الحث على قول الشعر وإنشاده في مصيبة الإمام الحسين عليه السلام خصوصاً، وكذلك يمكن أنْ نفهم هذا الحجم الضخم من الشعر في الإمام الحسين عليه السلام، الذي لا يكاد يوجد له نظير في الأدب الإنساني.

ب) جانب الوعي الثقافي السياسي للأحداث التي تمرّ بالأمّة، خصوصاً

---

(١) من الطبيعي أنْ نجد اختلافاً في بعض التفاصيل، كما أننا لا نتبنّى كلّ ما ورد في قضيّة الحسين عليه السلام من تفاصيل. وإنّما نقصد من التفاصيل والخصوصيات المعالم الأساسية في هذه الثورة واتجاهاتها وتخطيطها ومبرّراتها وخلفياتها ومآسيها. وإنْ كانت التفاصيل قد تتفاوت في التعبير عن ذلك. منه قدس سره.

(٢) شرحنا هذا الهدف في كتابنا عن ثورة الإمام الحسين فليراجع.

في إطار الجماعة الصالحة التي تميّزت من بين جميع المذاهب الإسلامية بهذا الوعي العميق والأصيل للأحداث السياسية، والتزمت جانب المبادئ الإسلامية والأخلاق الثوريّة.

ج) جانب الرؤية الإسلامية الصحيحة للحكم الإسلامي ومقوّماته، وتشخيص الموقف تجاهه، والقدرة على التمييز بين الصحيح والخطأ في ممارسات هذا الحكم، مع القدرة على تمييز الخطوط الخضراء والحمراء التي يصحّ السكوت عنها رعاية للمصلحة الإسلامية، أو التي تشكّل تهديداً للإسلام بحيث تفرض الثورة والتصدّي له.

الثالث: المحافظة على العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين أفراد الجماعة الصالحة ومن يتفاعل معها من المسلمين، ولكن ضمن الإطار الصحيح لهذه العلاقات المتمثّل بالأهداف والأخلاق الحسينيّة.

فقد أصبحت المجالس الحسينيّة مجالاً لتأكيد هذه العلاقات وتمتين أواصر المحبّة والصلة بين أفراد الجماعة، وفرصة للتعبير عن روح التعاون والأُخوة، ومضافاً إلى ذلك أصبحت هذه المجالس في الوقت نفسه فرصة للإنفاق والبذل والعطاء، ورعاية الضعفاء والفقراء والتعرّف على أوضاعهم حيث يشارك ويساهم في هذه المجالس أكبر مساحة من الجمهور المسلم وبمختلف مستوياته الاجتماعية والدينيّة.

وقد حفظ هذا البعد في التخطيط وحدة الجماعة الصالحة في حركتها الاجتماعيّة والإنسانيّة في مسيرة التأريخ بالرغم من المصاعب والمحن والآلام.

الرابع: نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة التي كانت تواجه في بعض الأدوار التأريخيّة محاولات الحظر والإرهاب الفكري والجسدي، أو تواجه مشكلات عدم توافر الوسائل والإمكانيات البشرية أو المادية لنشر هذه الثقافة.

فقـد كانـت ثقافـة مدرسـة أهـل البيـت بمختلـف أبعادهـا العقائديّـة والأخلاقية والسلوكية والتأريخية ذات ميزات وخصائص ترتبط بالخصائص التي يتميّز بها الخط الأصيل للإسلام الذي انتهجه أهل البيت عليهم السلام، ولم تكن الفرصة مهيأة - بل كانت في بعض الأحيان محظورة - لنشر هذه الثقافة، كما إنّ المؤسسات الدينية كالمدارس والمساجد والمراكز الثقافية الأُخرى لم تكن متميّزة أو متوافرة، الأمر الذي كان يهدّد هذه الجماعة الصالحة بالذوبان أو الضياع أو الجهل والتعصّب الأعمى، فكانت المجالس الحسينيّة المدرسة الثقافية المتحركة التي تلبّي هذه الحاجات المختلفة.

فقد روى الكليني بطريق معتبر عن ميسر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: **((قال لي: أتخلون وتتحدثون وتقولون ما شئتم؟ فقلت: أي والله إنا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا. فقال: أما والله لوددت أني معكم في بعض تلك المواطن، وأما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم، وإنكم على دين الله ودين ملائكته فاعينوا بورع واجتهاد))**[1].

الأهداف الأساسيّة للشعائر الحسينيّة

ومن هذا الاستعراض للشعائر الحسينيّة وأهدافها وآثارها يمكن أنْ نعرف أنّ هذه الشعائر كلما اقتربت من تحقيق أهدافها مع وضعها في الإطار الصحيح للممارسة كانت مؤدّية لوظيفتها الحقيقيّة التي أرادها أهل البيت عليهم السلام، وبدون ذلك تصبح شكلاً بدون مضمون، وتكون نظير الصلاة التي لا يُقبل فيها الإنسان على الله تعالى.

ويمكن تلخيص هذه الأهداف - التي يجب المحافظة عليها عند أداء هذه الشعائر - بالأُمور التالية:

---

(١) الوسائل ١١: ٥٦٧، ح٥.

الأوّل: الارتباط الروحي والنفسي والعاطفي بالإمام الحسين عليه السلام وأهل البيت وأهدافهم في هذه النهضة العظيمة.

الثاني: الرؤية السياسية والدينيّة الصحيحة لقضية الحكم، والأحداث السياسية الأُخرى التي تواجهها الأمّة الإسلامية في قضايا الظلم والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحكم الإلهي.

الثالث: التربية الأخلاقية الأصيلة في الحركة السياسية والاجتماعية التي تتمثّل في التضحية والفداء والصبر والشعور بالمسؤولية تجاه قضايا المسلمين، في مقاومة الظلم والطغيان، والتزام جانب الحق والوفاء بالعهد والميثاق والإخلاص لله تعالى، والصمود والثبات على المبادئ.

الرابع: نشر الثقافة والوعي الإسلاميين في مختلف أبعادهما الإسلامية في معرفة الإسلام والتفقه فيه ورفع درجة الإحساس والشعور في النفس الإنسانيّة، وإيقاظ الوجدان والضمير.

الخامس: ترسيخ علاقات الأُخوّة والمودة والتعاون بين المؤمنين، والاهتمام بأُمورهم والنصيحة لهم وإعانة فقرائهم وضعفائهم، وإيجاد المزيد من التكافل بينهم وإظهارهم بمظهر القوة والمنعة والوحدة.

القسم الثاني: الشعائر المبتكرة

الشعائر الحسينيّة التي لم يرد النصّ فيها عن أهل البيت عليهم السلام والتي تمّ ابتكارها واختراعها من قبل أتباعهم، مثل المواكب الحسينيّة، وشعائر تشبيه وتمثيل مشاهد المأساة التي جرت على الحسين عليه السلام، أو المسيرات الشعبية، وغيرها من الشعائر التي يمارسها المسلمون من أتباع أهل البيت في الأدوار المختلفة، أو التي يمكن أنْ يتمّ اختراعها في المستقبل.

والحديث في هذا القسم يقع في نقطتين:

الأُولى: في المبرّرات الشرعية لأداء مثل هذه الشعائر التي لم يرد النصّ

فيها عن أهل البيت عليهم السلام (النصّ على مستوى القول أو الفعل أو الإقرار).

ولعلّ أفضل المبرّرات لذلك هو أنّ أيّ ممارسة أو أداء يمكن أنْ يكون تعبيراً عرفياً عن تعظيم الحسين أو إظهار الحزن عليه، خصوصاً إذا كان الأُسلوب والممارسة متداولاً في زمن الأئمة عليهم السلام، أو كان تذكيراً عرفياً للمسلمين بمصابه وأهدافه فهو أمر مشروع تصدق عليه القاعدة القرآنية، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فإنّها مِنْ تَقْوى القُلوب**﴾[1]، ذلك أنّ الحسين عليه السلام - ثار الله - شعيرة من شعائر الله تعالى، وتعظيمه تعظيم لشعائر الله تعالى، كما أنّه وردت نصوص عامة تدعو إلى إظهار الحزن على الحسين عليه السلام والتظلم له في أيام عاشوراء.

الثانية: في الحدود والإطار الذي لابدّ أنْ تمارس فيه هذه الشعائر التي يبتكرها الإنسان، بحيث تكون مصداقاً للقاعدة القرآنية التي أشرنا إليها. ذلك أنّ القسم الأوّل من الشعائر يصحّ أنْ نمارسه في جميع الأحوال، حيث ورد النصّ على شكله ومضمونه معاً عن أهل البيت عليهم السلام، وهو يمثل خطاً ثابتاً في هذه الشعائر.

وأمّا القسم الثاني فلابدّ أنْ يكون في مشروعيّته مشتملاً على المضمون والمحتوى الذي وضعه الله تعالى لها، وهو أنْ تكون تعظيماً لشعائر الله، وإلاّ فمجرّد أنْ يدّعي الإنسان أنّه يؤدّي هذا العمل من أجل الحسين لا يكفي أنْ يكون تعظيماً للحسين عليه السلام، ما لم يكن الشكل يعبر عن أُسلوب عرفي عقلائي للتعظيم، بل يجب أنْ يكون في نفس الوقت مرتبطاً بالمحتوى والمضمون الشرعي لنهضة الحسين عليه السلام الذي شرحناه سابقاً.

ويمكن أنْ يوضع هذا المضمون في خطّين أساسيين:

أحدهما: الخط الإيجابي، وهو الأهداف التي وضعت للشعائر الحسينيّة

---

(١) الحج:٣٢.

في الخطّ الثالث لها، وهي النقاط الخمس السابقة. وبمقدار ما تحققه هذه الشعائر من تلك الأهداف تصبح هذه الممارسات تعظيماً لشعائر الله تعالى.

ثانيهما: الخط السلبي، وهو أنْ لا تكون هذه الممارسات سبباً لهتك حرمة الإسلام، أو مذهب أهل البيت عليهم السلام، أو تشويه الرؤية له كأن تكون ذات شكل لا ينسجم مع الأهداف الحقيقيّة لأهل البيت، حيث يمكن أنْ نشاهد ذلك في بعض الممارسات التي لا نجد لها مثيلاً في أي لون من ألوان العبادات والسلوك، الذي أقرّه الشارع المقدّس في مقام التعبير عن الارتباط بالله تعالى والحب له، أو التعظيم والتمجيد لذاته المقدّسة، أو عرفها العقلاء من الناس في حياتهم الاجتماعية.

وكذلك الممارسات التي يتنفّر منها الوجدان الصافي والذوق الإنساني السليم، أو التي لا يجد لها تفسيراً منطقياً ينسجم مع العقل والفطرة الإنسانيّة السليمة، بل هي تعبّر عن انفعالات صاخبة وعواطف هوجاء وتصوّرات لا تستند إلى أيّ مستند شرعي؛ إذ لا يوجد لها أيّ نظير في الممارسات الشرعية، ولذلك تمارس في الأوساط التي تتسم بالسذاجة وقلّة المعرفة بالثقافة الإسلامية، ولا يمارسها الفقهاء أو العلماء الربانيون.



الجانب الروحي والمعنوي

يعتبر الجانب الروحي والمعنوي - الذي يرتبط بقضيّة المشاعر والعواطف والإحساسات الروحية والمعنوية - جانباً مهمّاً في النظرية الإسلامية، ولعلّه يأتي في المرتبة الرابعة من حيث الأهميّة بعد العقيدة والأخلاق والثقافة؛ ذلك أنّ سلوك الإنسان الذي هو نتاج طبيعي لإرادته وعزمه، يتأثّر بشكل مباشر بهذا الجانب. وتمثل الجوانب الأُخرى السابقة الأساس والخلفية والقاعدة التي يمكن أنْ ترتكز عليها هذه العواطف والمشاعر، أو تنطلق منها أو توجهها الوجهة التي تنسجم معها؛ لأنّ المشاعر والعواطف والأحاسيس تمثل الطاقة المحرّكة التي تمد السلوك الإنساني بالحركة والفاعليّة والنشاط، بالرغم من أنّ هذا السلوك يخضع لإرادته ومعلول لها.

ومن هنا نجد هذه العلاقة والتناسب والموازنة بين مشاعر الإنسان وأحاسيسه، وحركته ونشاطه، فكلما كان الانسجام قائماً بين هذه المشاعر والأحاسيس من ناحية ومنطلقاته العقلية والأخلاقية والثقافية من ناحية أُخرى، كان عزمه وصموده وإرادته أقوى وأشدّ، وكلّما كان العزم والإرادة والصمود أقوى، كان اندفاعه وحركته ونشاطه أقوى وأقدر على الاستمرار والبقاء.

ومن هذا المنطلق اهتمّ أهل البيت عليهم السلام في بناء (الجماعة الصالحة) بالجانب الروحي والمعنوي وتوجيهه الوجهة الصحيحة التي تنسجم مع عموم الأهداف من ناحية، والمنطلقات العقائدية والأخلاقية والثقافية من ناحية أُخرى.

ويمكن أنْ نلاحظ في هذا المجال مجموعة من النقاط ترسم لنا الخطوط الرئيسيّة التي وضعها أهل البيت لبناء هذا الجانب الروحي والمعنوي، نجدها فيما وصلنا من آثارهم وتوجيهاتهم لأتباعهم ومعالجتهم لقضاياهم:

الأولى: روح التقوى ومزج الإيمان بالعمل

تصعيد روح التقوى والتأكيد على قضية الارتباط بالله تعالى، وذلك من خلال ثلاثة خطوط رئيسيّة:

أولها: منهج الصلاة والدعاء والمناجاة، حيث يلاحظ هذا الاهتمام العظيم في مدرسة أهل البيت بقضيّة الدعاء، وهذه الثروة الغنية والكنوز الثمينة من الأدعية الشريفة، سواء في أعقاب الصلوات أم في تفاصيل اليوم والليلة، أم في الأيّام المختلفة من السنة، أم المواسم الدينيّة الإسلامية كشهر رمضان وشعبان ورجب وذي الحجة، والأيّام الشريفة مثل الأعياد الإسلامية أو المناسبات الإسلامية الأُخرى، أم الصلوات المختلفة ذات المناسبات أو الأبعاد، بحيث نجد في تراثهم كتباً واسعة معروفة ومتداولة في جميع العصور.

مضافاً إلى الأدعية الواسعة والكبيرة ذات الطبيعة التربويّة والثقافية أمثال: دعاء الإمام علي عليه السلام الذي يرويه كميل بن زياد النخعي، ودعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، ودعاء الإمام زين العابدين الذي يرويه أبو حمزة الثمالي، ودعاء الجوشن وأدعية الصحيفة السجادية وغيرها كثير.

وهذه الأدعية والصلوات مضافاً إلى جانبها الثقافي الذي أشرنا إليه، تمثل بُعداً روحياً عظيماً في بناء قاعدة الارتباط بالله تعالى والتقوى والخوف والرجاء في نفس الإنسان المتعبّد.

ثانيها: نهج الوصية والموعظة الحسنة المدونة أو الملقاة بشكل محدد، والذي ذكرنا سابقاً أنّه يمثل خطاً تربوياً ليس في الجانب الثقافي فحسب، بل في الجانب الروحي والتربوي أيضاً.

وقد ورد عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: ((**قال**

رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يحسن الوصية عند موته كان نقصاً في عقله ومروءته. قالوا: يا رسول الله، وكيف الوصية؟ قال: إذا حضرته الوفاة واجتمع الناس إليه قال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، إني أعهد إليك أني أشهد أنْ لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمداً عبدك ورسولك، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنك تبعث من في القبور، وأنّ الحساب حقّ، وأنّ الجنّة حقّ، وما وعد الله فيها من النعيم ومن المأكل والمشرب والنكاح حقّ، وأنّ النار حقّ، وأنّ الإيمان حقّ وأنّ الدين كما وصفت، وأنّ الإسلام كما شرّعت، وأنّ القول كما قلت، وأنّ القرآن كما أنزلت، وأنك أنت الله الحقّ المبين.

وإني أعهد إليك في دار الدنيا أني رضيت بك رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله نبياً وبعليّ إماماً، وبالقرآن كتاباً، وأنّ أهل بيت نبيك عليه وعليهم السلام أئمتي.

اللهم أنت ثقتي عند شدتي، ورجائي عند كربتي، وعدتي عند الأُمور التي تنزل بي وأنت وليّي في نعمتي، وإلهي وإله آبائي، صلّ على محمد وآله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، وآنس في قبري وحشتي واجعل لي عندك عهداً يوم ألقاك منشوراً.

فهذا عهد الميت يوم يوصي بحاجته والوصية حق على كل مسلم))[1].

ثالثها: ربط الإيمان بالعمل الذي يمثل - مضافاً إلى جانبه العقائدي في فهم حقيقة الإيمان والكفر - جانباً روحياً ومعنوياً في بناء روح التقوى والارتباط بالله تعالى، حيث لا يكمل هذا الإيمان إلاّ بالعمل والسلوك والالتزام.

---

(١) البحار ١٠٠: ١٩٣، ح١، عن فلاح السائل.

وسوف يأتي تأكيد الروايات أنّ الشيعة هم أهل الورع والاجتهاد والصبر على المحنة والبلاء، وهم أهل العبادة والزهد.

الثانية: أنصار الحقّ الحقيقيين

الربط العاطفي والوجداني بالجماعة، وتأكيد الانتماء إلى الكتلة الصالحة من خلال إضفاء صفات الأصالة والحقيقة عليها، وإعطائها الجذر التأريخي العميق وتصعيد درجة الإيمان بالخط والمذهب إلى مستوىً عالٍ، وتطوير العقيدة التي يؤمن بها الإنسان الصالح من خلال الموازين والبراهين والأدلّة المنطقيّة من مجرد حالة عقلية إلى التزامات روحية ونفسية ومشاعر إيمانية، وذلك عن طريق تأكيد أنّ عقيدتهم ومذهبهم هو المذهب الحقّ الذي لا تشوبه شائبة من الشكّ أو الشبهة، وأنّ جماعتهم هي خير الفرق والجماعات، وأنهم من أهل البيت عليهم السلام لأنهم أولى الناس بهم، وأنهم الأوفياء بالميثاق الإلهي، وأنّ حبهم وولاءهم هو الذي ينفعهم دون الآخرين في يوم القيامة، وأنّ مفزعهم إلى رسول الله يوم القيامة ولهم البشارة بذلك إلى غير ذلك من الأساليب.

فقد ورد عن عدد من الأئمّة عليهم السلام تأكيد هذه الحقائق - من أجل تصعيد هذه الدرجة الإيمانية - بنصوص كثيرة في أزمنة مختلفة وبصيغ وأساليب متعددة، الأمر الذي يدل على وجود قصد وهدف معين كان يهتمّ به الأئمّة ويسعون لتحقيقه، وهو رفع درجة الزخم العاطفي والوجداني، وتعميق الالتزام والثقة بالمنهج والطريق الذي يؤمن به شيعتهم.

ونشير إلى نماذج منها توضيحاً لهذا الأمر:

١. عمران بن ميثم، عن حبابة الوالبية، قال: ((**دخلت عليها فقالت: من أنت؟ قلت: ابن أخيك ميثم، فقالت: أخي والله، لأحدّثنك بحديث سمعته**

من مولاك الحسين بن علي عليه السلام، إنّي سمعته يقول: والذي جعل أحمس خير بجيلة، وعبد القيس خير ربيعة، وهمدان خير اليمن، إنّكم خير الفرق، ثمّ قال: ما على ملّة إبراهيم إلاّ نحن وشيعتنا وسائر الناس منها براء))[١].

٢. عمر بن يزيد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((أنتم والله من آل محمد، فقلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: نعم والله من أنفسهم - ثلاثاً - ثمّ نظر إلّي ونظرت إليه، فقال: يا عمر، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾))[٢].

٣. عن أبي ذرّ قال: ((والله ما صدق أحد ممن أخذ الله ميثاقه فوفى بعهد الله غير أهل بيت نبيّهم وعصابة قليلة من شيعتهم، وذلك قول الله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾))[٣].

٤. يونس بن عبد الرحمن عن كليب الأسدي قال: ((سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أما والله إنّكم لعلى دين الله وملائكته فأعينونا على ذلك بورع واجتهاد، عليكم بالصلاة والعبادة، عليكم بالورع))[٤].

٥. عن أبي الطفيل قال: قام أمير المؤمنين علي عليه السلام على المنبر فقال: ((إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالنبوة، واصطفاه بالرسالة فإياك والناس وإياك، وعندنا أهل البيت مفاتيح العلم وأبواب الحكمة وضياء الأمر وفصل الخطاب، ومن يحبنا أهل البيت ينفعه إيمانه ويتقبل منه عمله، ومن لا يحبنا

---

(١) المحاسن١: ١٤٧، ح٥٥

(٢) تفسير القمي١: ١٠٥، بسند معتبر.

(٣) تفسير العياشي٢: ٢٣، ح٥٩.

(٤) بشارة المصطفى: ٨٤ - ٨٥، ح١٥، و٢٢٥، ح٥٠.

أهـل البيـت لا ينفعـه إيمانـه ولا يتقبـل عملـه وإنْ أدأب الليـل والنهـار لم يزل))[١].

٦. بريـد العجلـي وزرارة بـن أعـين ومحمـد بـن مـسلم (والخـبر صـحيح) قالوا: ((**قال لنا أبو جعفر الباقر عليه السلام: ما الذي تبغون؟ أما أنه لو كانت فزعة من السماء لفزع كلّ قوم إلى مأمنهم ولفزعنا نحن إلى نبيّنا وفزعتم إلينا، فأبشروا ثمّ أبشروا ثمّ أبشروا، ألا والله لا يسوّيكم الله وغيركم ولا كرامة لهم))**[٢].

الثالثة: الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام

التأكيد على جانب المشاعر والعواطف في علاقـة الجماعـة الـصالحة بهـم، وعـدم الاكتفـاء بالارتبـاط العقلـي والمنطقـي، فقـد سـلك أهـل البيـت عليهم السلام في ترسيخ الإيمان والعقيدة والالتزام بالمذهب الـصحيح عـلى مـستوى الجانـب الروحي والمعنوي منهج تصعيد درجة الحبّ والـولاء لهـم، وتعميـق جـذوره وأُصوله وربطه بالكثير من المعاني والقيم والمُثل من ناحية، وبالنتائج والآثـار في مستقبل حياة أبناء الجماعة من ناحية أُخرى، ولـم يقتـصروا في ذلـك عـلى الأدلّة والـبراهين والبيِّنـات الـصحيحة، بـل اسـتخدموا المـشاعر والعاطفـة في ترسيخ ذلك.

وقد كان لهذا الحبّ دور عظيم في صمود أتباع أهـل البيـت في مواجهـة الضغوط والآلام التي كانوا يتعرّضون لهـا، حتّـى إنّهـم كـانوا عـلى اسـتعداد لأنْ يتنازلوا عن حياتهم وكـلّ أمـوالهم ويتعرّضـوا لألـوان المحـن والآلام مـن أجل هذا الحبّ والودّ الذي كانوا يحملونه لأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) المحاسن ١: ١٩٩، ح٣١.

(٢) المحاسن ١: ١٦١، ح١٠٤.

وقد كان لهذه التربية - التي بدأها القرآن الكريم - أثر عظيم ليس على شيعتهم وأتباعهم فحسب، بل في أوساط المسلمين عامة، بحيث أصبحت قضيّة الحبّ لأهل البيت ميزاناً يتميّز به الإنسان المسلم المتّزن في سلوكه وعواطفه عن الإنسان الذي يدّعي الإسلام ويتظاهر به، ولكنّه يفقد المشاعر الإنسانيّة والإسلاميّة الصحيحة، حيث يُبتلى بالنصب والحقد على أهل البيت عليهم السلام والعداء لهم.

ولما كان هذا الحبّ والمودّة في القربى ذات أصل إلهي، حيث أكّدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَودّةَ فِي القُرْبى**﴾[1]، وأكدتها السنّة النبويّة الشّريفة المتواترة نصّاً ومعنى، وجاءت الصلاة عليهم - اللهم صلّ على محمد وآل محمد - جزءاً من الصلاة الواجبة، كان من الطبيعي أنْ يكون لهذا الحبّ هذا الأثر في أوساط المسلمين، وأخذ يشكل ظاهرة عامّة فيهم. وسوف يأتي في بحث العبادات في موضوع الذكر والصلاة على محمد وآله عن رسول صلى الله عليه وآله بيان فضل هذه الصلاة وآثارها وثوابها.

وقد عُرف عن الشافعي أبيات تعبّر عن وجود هذا الأثر العام، وتشير إلى بعض الصّراعات السياسيّة التي كانت تحارب هذا الحبّ لأهداف سياسيّة لا دينيّة:

يا آل بيت رسول الله حبّكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنّكم ... من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

وقوله أيضاً:

---

(١) الشورى:٢٣.

إنْ كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنّي رافضي[1]

وهذا الحبّ له دور معنوي عظيم، وله دور ثقافي وسياسي أيضاً، حيث كان دوره الثقافي هو أنّه كان يفتح القلوب إلى الهدى والصلاح والتأثّر بثقافة أهل البيت وتعاليمهم.

وكان دوره السياسي هو إيجاد المزيد من الحماية لأهل البيت وأتباعهم، وتهيئة الفرص المناسبة للإيمان بولايتهم ودورهم في التأريخ الإسلامي.

ولذلك كانت الحرب السياسيّة الّتي مارسها الأعداء السياسيّون لأهل البيت تحاول إطفاء شعلة هذا الحب والولاء وطرح البدائل والولاءات الأُخرى، أو توهين ذلك الولاء لأهل البيت عليهم السلام ومحاربة قضية الحبّ والمودّة. ولذلك كان التعصّب والنصب والحقد صفة لأولئك الأعداء السياسيين، الذين كانوا على استعداد لارتكاب كلّ الجرائم الوحشية ضدّ أهل البيت وأتباعهم.

مع أنّ قضية الحبّ والمودّة كانت واضحة على جميع المستويات، على مستوى النّصوص الإسلاميّة الشرعيّة، وعلى مستوى الوقائع التأريخيّة، وعلى مستوى الممارسة في عصر النبي والصحابة والتابعين وبقية المسلمين الصالحين.

وهناك المئات من النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت تكرّس قضية حبّ أهل البيت، باعتباره هدفاً أساسياً ووسيلة للوصول إلى ثواب الله تعالى ورضوانه ومغفرته.

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **((الإسلام عريان، فلباسه الحياء، وزينته الوفاء، ومروّته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكل شيء أساس،**

(١) راجع الصواعق المحرقة: ١٣٣، نور الأبصار للشبلنجي: ١٠٤.

وأساس الإسلام حبّنا أهل البيت))[١].

وقال الإمام علي عليه السلام: ((**عليكم بحبّ آل نبيّكم، فإنه حقّ الله عليكم، والموجب على الله حقّكم، ألا ترون إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى؟﴾**))[٢].

وفي المحاسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام: ذكرنا أهل البيت شفاء من الوعك والأسقام، ووسواس الريب، وحبّنا رضا الرب تبارك وتعالى**))[٣].

وكذلك ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا شافع يوم القيامة لأربعة أصناف ولو جاءوا بذنوب أهل الدنيا: رجل نصر ذريتي، ورجل بذل ماله لذريتي عند الضيق، ورجل أحب ذريتي باللسان والقلب، ورجل سعى في حوائج ذريتي إذا طردوا أو شردوا**))[٤].

وروى حنان بن سدير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**ما ثبّت الله حبّ علي عليه السلام في قلب أحد فزلّت له قدم إلاّ ثبتت له قدم أُخرى**))[٥].

وكذلك روى الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام قال: ((**قال أبو جعفر عليه السلام حبنا إيمان وبغضنا كفر**))[٦].

---

(١) وسائل الشيعة١١: ١٤١، ح٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: في ما ورد عن أمير المؤمنين في حرف العين بلفظ عليكم برقم: ٦٢٤٤.

(٣) المحاسن١: ٦٢، ح١٠٧.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٥٥٦، ح٢.

(٥) أمالي الطوسي: ١٣٢ - ١٣٣، ح٢٥.

(٦) المحاسن١: ١٥٠، ح٦٨.

الرابعة: التضحية والفداء

ترسيخ روح التضحية والفداء، والاستعداد للتنازل عن الدنيا وشهواتها من أجل العقيدة والمبدأ، وإشاعة روح الجهاد والكفاح من أجل المبادئ السامية والأهداف النبيلة.

وقد استخدم الأئمّة عليهم السلام من أجل تحقيق ذلك مختلف الأساليب، تبدأ بتحملهم الآلام والمحن وكذلك تضحيتهم بالجانب المعنوي الشخصي لهم في سبيل المصالح الإسلامية العامة، أو استعدادهم للبذل والعطاء بأعلى الدرجات، من قتل النفس والأهل والأصحاب إلى سبي العيال والعدوان على المال والجاه، بحيث كانوا هم الهدف الذي يتعرّض لسهام الأعداء ومؤامراتهم. وأصبحت قضية الإمام الحسين عليه السلام القمّة في هذه التضحية والعنوان البارز لها، وكذلك الإمام علي والإمام الحسن عليهما السلام من قبله وبعده الأئمّة الأطهار وفي جميع المجالات.

وإلى جانب التضحية المباشرة التي كانت تعتبر الأُسوة لدى شيعتهم يقوم أئمة أهل البيت بالتربية على روح التضحية والفداء، من خلال التأكيد لملحمة الإمام الحسين عليه السلام، ليس من أجل كشف المظلومية وإزالة القناع عن الوجه القبيح للعهد الأموي فحسب، بل من أجل جعل التضحية مناراً يقتدي به السائرون في طريق الجهاد أيضاً.

الأبعاد المعنوية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

ويحسن بنا هنا أنْ نتناول الأبعاد المعنوية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام بشيء من التحليل، فقد تناولنا في الجانب الثقافي، وفي موضوع الشعائر قضية الإمام الحسين عليه السلام من خلال الأبعاد الثقافيّة والأخلاقيّة والعقائديّة، ولكن يمكن أنْ نرى فيها على مستوى الجانب الروحي والمعنوي - مضافاً

إلى الخصوصيات السابقة - الأبعاد التالية:

١. الصراع بين الحق والباطل

إنّ قضية الإمام الحسين عليه السلام تمثّل قضيّة الصراع بين الحقّ والباطل والإيمان والكفر، ولكن ليس على مستوى الإسلام والكفر الصريح كما كان يحصل في حركة الأنبياء، بل تمثّل الصراع بينهما على مستوى الانحرافات الحادّة التي تنتهي إلى الكفر وإفراغ النظرية الإسلامية من محتواها الحقيقي في داخل المجتمع الإسلامي، وهي إلى جانب ذلك تمثّل موقف الحقّ الذي لا شبهة فيه مطلقاً، في الوقت الذي يتعرّض فيه الحقّ إلى هذا القدر من الظلم والاستهتار والهوان.

وعلى هذا الأساس نجد أنّ موقف الإمام الحسين وهذه الرؤية تكاد تكون مسلّمة ومقبولة لدى جميع المسلمين بدون استثناء، ويتفاعل معها المسلمون في كلّ زمان بالرغم من المحاولات السياسيّة والثقافية التي بذلها الأمويون وأتباعهم لتشويه هذه القضيّة وإضفاء الشرعية على موقف يزيد والأمويين، أو في محاولة تركيز ثقافة السكوت والاستسلام للظالم والقبول بولايته وشرعيّتها بعد فرض السيطرة والهيمنة على الأوضاع العامة على ما أشرنا إلى ذلك في بعض الأبحاث.

وبقيت قضية الإمام الحسين عليه السلام مناراً يهتدي به الضالون والتّائهون في ظلمات التزوير والخداع، كما يستمد منه المجاهدون والثائرون والمناضلون الرؤية والقوّة والعزيمة.

٢. القيم الأخلاقية

القيم الأخلاقيّة الإنسانيّة الّتي تجسّدها هذه الملحمة التأريخية، حيث تمثل مدرسةً في هذا الجانب الإنساني العظيم.

ولعلَ سرَ استمرار بقاء هذه الملحمة في قدرتها على التأثير والتفاعل هو هذا المضمون الأخلاقي الرائع لها، الذي ينسجم مع أوليّات الفطرة الإنسانية. حيث تجسّد في تفاصيل مجراها معاني العزّة والكرامة والإباء والشجاعة والإيثار والرأفة حتى بالأعداء، والشعور بالمسؤولية تجاه الإسلام والمسلمين، والثبات على المبادئ، والصبر على النوائب والآلام والمصاعب، وبذل الجهد وإفراغ الوسع في هداية الناس وإنقاذهم، وكذلك العلاقات الإنسانيّة الرفيعة في دائرة الأرحام والأصدقاء والأولياء، والقيادة والأمّة، ومع أبناء الشعوب والقوميات المختلفة الذين كانوا مع الإمام الحسين عليه السلام.

إنّ هذه القيم والمثل عندما تُجسَّد عملياً في ساعات المحنة وتُرسم معالمها بالدماء والتضحيات يكون لها مدلول يختلف في عمقه ودرجته ومستواه عن مداليلها عندما تطرح شعاراً أو ثقافة عامّة عند الأمّة.

٣. حجم التضحية الكبير

الدّرجة العالية والحجم الكبير في التضحية والفداء من أجل الإسلام ومصالح الأمّة الإسلاميّة.

فإنّ القضية الحسينيّة تتميّز بهذه الميزة التضحوية العظيمة، حيث لم تكن التضحية بالنفس والمال والولد والأُخوة والأصحاب وحدها، بل كان إلى جانب ذلك كلّه التضحية بالأهل، وتعريض النساء إلى محنة الأسر والعدوان، وقد شملتهم العناية الإلهيّة فأنقذتهم من آثارها ونتائجها المأساويّة الأُخرى.

كما كانت - أيضاً - تضحية عظيمة بالجاه والاعتبار وبالنخبة الصالحة وبالعلماء والأفاضل الّذين كانوا إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام، والذين كان من الممكن أنْ يتحوّل كلّ واحد منهم إلى مدرسة عظيمة في المعرفة والأخلاق، وإلى هادٍ ومرشد في الأُمة.

إنَّ الإنسان عندما يواجه مثل هذه الأخطار في صراعه مع الكفر والانحراف، قد يقف متردِّداً، وقد يختار السكوت والاستسلام باعتبار حجم التضحية الكبير، كما يفعل الكثير من الناس في التأريخ، أُولئك الّذين يحملون المشاعر الطيبة والأفكار الصحيحة والرؤية الواضحة، ولكنّهم يقفون أو يتردّدون أو يسقطون بسبب حجم الضغط المعادي.

وقد وجدنا هذه الحقيقة ماثلة في موقف بعض الصّالحين في عصر الإمام الحسين عليه السلام، فضلاً عن العصور الأُخرى، حيث نصحه بعضهم بعدم الخروج إلى العراق انطلاقاً من هذه الحقيقة، أمثال محمد بن الحنفيّة، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عباس، الذين يمثّلون أقرب الناس إلى الإمام الحسين عليه السلام، وكانوا يمتلكون نفس الرؤية الّتي يمتلكها الإمام الحسين عليه السلام في النظام الحاكم، ولكنّهم لم يكونوا يملكون هذا الفهم للتضحية والفداء.

٤. الوضوح في طلب الحق

الوضوح في الحق والمظلوميّة في جانب الإمام الحسين وفي الباطل والعدوان في جانب يزيد، هذا الشيء الذي يهزّ المشاعر ويفتح الطريق أمام تفاعل الأُمة واندماجها بالمأساة وأهدافها، وقد كان هذا الوضوح ضمن أهداف التخطيط لهذه النهضة، حيث إنّ الإمام الحسين تمكّن أنْ يمهّد الطريق لنهضته من خلال العمل الإعلامي الجيّد، والخطاب السياسي القوي، والتحرّك على الأُمّة، والتجاوب مع متطلّبات المرحلة وحاجاتها، بحيث أدّى ذلك كلّه إلى أنْ تطلب منه الأُمّة بنفسها التصدّي لقيادة المسيرة، والقيام لمواجهة الظالمين، فأصبحت القاعدة الشعبيّة مهيّأة ومتجاوبة - ثقافياً وروحياً - مع هذه النهضة، وتؤمن بأهدافها ومنطلقاتها، وإنْ كانت الأُمّة لم ترتفع إلى مستوى الإرادة الشجاعة والعزيمة القوية للوقوف إلى جانب

الإمام الحسين عليه السلام في هذه النهضة.

ولاشكّ بأنّ اقتران قضيّة الإمام الحسين عليه السلام بهذا العامل، وكذلك ما واجهه من خذلان وغدر بعد دعوته من قبل الأُمة للقيام والنهوض، كان له تأثير كبير في تأجيج الروح المعنوية لدى هذه الجماعة الصالحة التي كانت تشعر بالأسى والألم والندم، وتحرص دائماً أنْ لا تتكرر في أوساطها هذه التجربة المؤلمة.

وليس من الضروري أنْ يتفاعل مع هذا الجانب خصوص أولئك الذين ارتكبوا الذنب ليحصل عندهم الشعور بالندم، بل يمكن أنْ يتفاعل مع هذا الجانب جميع أولئك الذين يشاهدون هذه التجربة أو يعقلونها في حياتهم ليشعروا بالأسى والندم على ما فاتهم من المساهمة في هذه النهضة، أو السماح للأوضاع السياسية أنْ تنتهي إلى هذه الدرجة من الانحطاط والتردي. وكذلك حذراً من الوقوع في نفس المستنقع الّذي وقع فيه الآخرون أو الانتهاء إلى نفس مصيرهم.

٥. المأساة المتعددة الأبعاد

المأساة المتعدّدة الأبعاد والجوانب، فإنّ مأساة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن ذات بُعد واحد، بل فيها أبعاد متعدّدة يكاد الإنسان يجد في معالمها جميع الأبعاد المأساويّة التي يواجهها في حياته الشخصيّة أو الاجتماعيّة.

فقتل الأبناء والأُخوة والأرحام والأطفال والشباب والشيوخ والنساء، والأصدقاء والأولياء والضعفاء، والقادة والسادة والعلماء، والنهب والسلب والأسر، والتمثيل والتعذيب النفسي والجسدي، والعدوان المادّي والمعنوي بمختلف أشكاله، إلى غير ذلك من المعالم كلّها نجدها في هذه المأساة المروّعة، ويعطي هذا الجانب زخماً روحياً ومعنوياً آخر لهذه القضيّة العظيمة.

٦. العزم على الشهادة

العزم والتصميم على الشهادة والفداء والثبات والصمود عليها والاستعداد لها حتى لو تكررت هذه التجربة سبعين مرة، بالرغم من أنَ الظروف السياسيّة المنظورة كانت تنبّئ بهذه النتائج، وأنَ هذه الحركة ليست بقادرة على الإطاحة بنظام يزيد.

وهذا الفهم لهذه الظروف كان واضحاً من تصريحات الإمام الحسين عليه السلام، ونصائح معاصريه، والنتائج التي انتهت إليها المعركة، بالرغم من السعي الحثيث والواسع الّذي بذله الإمام الحسين للتمهيد لهذه الحركة، بهدف بقاء آثارها المعنويّة.

فشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه كانت مع التصميم على هذه الشهادة، وإرادتها عن حسن اختيار، وهذا يعطيها زخماً معنوياً عالياً؛ إذ إنَ كلَ شهادة تقترن بهذا التصميم والعزم يكون لها أثر روحي ومعنوي عظيم.

٧. ابن الرسالة والرسول

إنَ الشهيد هو ابن الرّسالة الإسلاميّة الذي تربّى في أحضانها، فهو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي كان يوليه النبي صلى الله عليه وآله عناية خاصة متعمّدة ومقصودة بهدف إيجاد التأثير لهذه الواقعة في نفوس المسلمين. وقد كان الإمام الحسين وأخوه الإمام الحسن وأُختهما السيدة زينب سلام الله عليها يمثلون الذريّة الباقية لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ لم تكن له ذريّة غيرها.

وهو في نفس الوقت ابن الإمام علي عليه السلام الذي كان له موقع خاص بين المسلمين جميعاً.

وكان إلى جانب الإمام الحسين - أيضاً - الذريّة الطاهرة لأبيه وإخوته

وأولاده وأخواته وأهل بيته. كلّ ذلك كان له تأثير كبير في إيجاد هذه الروح المعنويّة العالية. وكذلك وجود مجموعة صالحة ونخبة طيبة من الأصحاب والمخلصين المعروفين في المجتمع الإسلامي.

الخامسة: المحنة والروح المعنوية

إنّه مضافاً إلى تضحية الأئمة عليهم السلام وتأكيدهم للتضحية من خلال التأكيد على قضية الإمام الحسين عليه السلام، نجد تأكيد الأئمّة عليهم السلام - في أحاديثهم ومخاطباتهم لشيعتهم - ما يستلزمه الانتماء لهم والارتباط بهم من التعرّض إلى مختلف أنواع البلاء والمحن.

فقد نقل السيد الرضي في نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام - لما توفي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مرجعه من صفين وكان أحب الناس إليه - قال: ((**لو أحبني جبل لتهافت**))، وقد فسره الرضي رضي الله عنه بأنّ المحنة تغلظ عليه فتسرع المصائب إليه، ولا يفعل ذلك إلاّ بالأتقياء الأبرار والمصطفين الأخيار، وأنّ هذا مثل قوله عليه السلام: ((**من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً**))[1].

بل إنّ البلاء والامتحان لازم ضروري للإيمان، بحيث يعبّر الامتحان والابتلاء عن مقياس لدرجة الإيمان التي يتّصف بها الإنسان المؤمن.

١. فقد روى الكليني بسند معتبر عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: ((**ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام البلاء وما يخصّ الله به المؤمن، فقال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشدّ الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال: النبيّون ثمّ الأمثل فالأمثل، ويُبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحّ إيمانه**

---

(١) نهج البلاغة٤: ٢٦، خطبة١١٢.

وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه))[١].

٢. عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**إنّ الله ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرّجل أهله بالهديّة من الغيبة، ويحميه الدّنيا كما يحمي الطبيب المريض))**[٢].

٣. عن الحسين بن علوان، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال - وعنده سدير -: ((**إنّ الله إذا أحبّ عبداً غته بالبلاء غتاً، وإنّا وإيّاكم يا سدير لنصبح به ونمسي))**[٣].

كما أنّ الأئمّة عليهم السلام بينوا لشيعتهم أنّ صفة التشيع لا يستحقّها إلاّ أولئك الأشخاص الّذين لديهم ذلك الاستعداد إلى التضحية العالية. وكانوا يختبرون إخلاصهم وصدقهم من خلال هذا الاستعداد.

وقد وصف الإمام علي عليه السلام الصالحين من أصحابه بهذه الصفة: ((**أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجُنَن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب، فوالله إني لأولى الناس بالناس))**[٤].

وفي نفس الوقت وردت عنهم أحاديث كثيرة تحثّ أتباعهم على التضحية والفداء والبذل والعطاء والجهاد في سبيل الله.

وإليك نماذج من هذه الحقائق والتعليمات والإرشادات:

١. عن أبي جميلة قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: كان في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: اعلموا أنّ القرآن هدى الليل والنهار، ونور الليل**

---

(١) وسائل الشيعة٢: ٩٠٦، ح١. وبمضمونه عدة أحاديث صحيحة في نفس الباب.

(٢) وسائل الشيعة٢: ٩٠٨، ح٩.

(٣) الكافي٢: ٢٥٣، ح٦.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١١٨.

المظلم على ما كان من جهد وفاقة، فإذا حضرت بليّة فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم، وإذا نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أنّ الهالك من هلك دينه، والحريب من حرب دينه، ألا وإنّه لا فقر بعد الجنّة، وإنّه لا غنى بعد النار، لا يُفكّ أسيرها ولا يبرأ ضريرها))[١].

٢. عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: ((**أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلّ، وشمله البلاء، ودُيّث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف))**[٢].

٣. روى الكليني في الكافي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخير كلّه في السيف، وتحت ظلّ السّيف، ولا يقيم الناس إلاّ السيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار))**[٣].

وهذا التقييم والفهم الشامل للجهاد له دلالات واسعة، ولكنّ الأئمّة لم يكتفوا بذلك، بل بيّنوا وشرحوا أحكامه وأعطوه مداليل واسعة في الحياة العملية، تشمل مجالات الكلمة الحقة والسلوك المتميز والمواقف الصالحة.

ومن خلال هذه التربية نجد أنّ أحد المعالم الأساسيّة الّتي يتّصف بها أتباع أهل البيت عليهم السلام، والتي عرفها فيهم أعداؤهم وأصدقاؤهم، هي هذه الروح العالية في الاستعداد للتضحية والفداء. ومن خلالها تمكّنوا أنْ يديموا هذا الزخم الروحي في الأُمّة الإسلاميّة في مواجهة مختلف الظروف التي

---

(١) الكافي٢: ٢١٦، ح٢.

(٢) نهج البلاغة: ٦٨، الخطبة٢٧.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٥، ح١. وهو صحيح السند. وفي أحاديث الباب ما يؤكد هذه الحقيقة.

تعرّضت لها الأمّة.

السادسة: المقاومة والصبر

لاشكّ أنّ روح المقاومة والصمود والتحمّل والصبر على المكاره والآلام والمحن من أهمّ الصفات المعنويّة التي تؤهّل الجماعة للبقاء والاستمرار من ناحية، وللقيادة والريادة للجماعات الإسلامية الأُخرى في المواجهات العامّة التي تمرّ بها الأُمّة من ناحية ثانية، وإلى تحقيق النصر والغلبة على الأعداء من ناحية ثالثة.

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكّد كثيراً أهميّة الصبر، ويقدّم النصح للنبيّ صلى الله عليه وآله في هذا المجال، ويستخلص العبرة من الأنبياء السابقين. قال تعالى: **﴿فاصْبِرْ كَما صَبَرَ أولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿قَالَ الَّذينَ يَظُنّونَ أنَّهُمْ مُلاقُوا اللّهِ كَمْ مِنْ فِئَة قَليلة غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بِإذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرين ۞ وَلَمّا بَرزوا لِجالُوتَ وَجُنودِهِ قَالُوا رَبَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافِرينَ ۞ فَهَزَموهُمْ بِإذْنِ اللّهِ﴾**[2].

وقد حاول أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنْ يعالجوا هذا الجانب ويبعثوا روح الصمود والصبر والتحمّل بأساليب متعدّدة نجدها في أحاديثهم ووصاياهم وأعمالهم، نشير إلى جوانب منها:

١. التأكيد على أهمية الصبر ودوره في تحقيق التكامل المعنوي للإنسان والنصر في الحياة الدنيا والثواب في الآخرة، وذلك من خلال لفت النظر إلى ما أكّده القرآن الكريم بهذا الصدد، أو الحديث عن الصبر تأكيداً مباشراً،

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١.

حيث وردت أحاديث كثيرة عنهم عليهم السلام في هذا المجال، وقد عُقد في كتاب (الوسائل) باب مستقل تناول هذا الموضوع، كما وردت أحاديث متفرّقة أخرى في مجالات عديدة.

ومن الواضح خلال هذه الأحاديث أنّ الأئمّة كانوا يريدون أنْ يعالجوا هذا الجانب أتباعهم.

ففي الكافي عن حفص بن غياث قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: يا حفص، إنّ مَنْ صبر صبر قليلاً، وإنّ مَنْ جزع جزع قليلاً. ثم قال: عليك بالصبر في جميع أُمورك؛ فإنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ۞ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾.**

وقال تبارك وتعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصبر رسول صلى الله عليه وآله حتى نالوه بالعظائم، ورموه بها فضاق صدره فانزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عزّ وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، فألزم النبي صلى الله عليه وآله نفسه الصبر فتعدّوا فذكروا الله تبارك وتعالى فكذبوه فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ۞ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فصبر في جميع أحواله، ثم بشر في عترته بالأئمة عليهم السلام،**

ووصفوا بالصبر فقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، فعند ذلك قال النبيﷺ: الصبر من الإيمان كالراس من الجسد، فشكر الله عزّ وجل ذلك له فأنزل الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، فقال: إنه بشرى وانتقام، فأباح الله له قتال المشركين فأنزل الله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، فقتلهم الله على يدي رسول اللهﷺ وأحبائه، وجعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له في الآخرة، فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقر الله له عينه في أعدائه مع ما يدخر له في الآخرة))[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((قال رسول اللهﷺ: سيأتي على الناس زمان لا ينال فيه الملك إلاّ بالقتل، والتجبر، ولا الغنى إلاّ بالغصب والبخل، ولا المحبة إلاّ باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدّق بي))[2].

٢. تفسير البلاء والمحنة على أنّه يمثّل قربى من الله تعالى واصطفاءً واختياراً منه تعالى لعبده الممتحن، وقدّم أهل البيت عليهم السلام أنفسهم قدوة في هذا المجال، حيث تعرّفنا على بعض الأحاديث في هذا المجال في النقطة

---

(١) الكافي٢: ٨٨ - ٨٩، ح٣.

(٢) الكافي٢: ٩١، ح١٢، وعنه وسائل الشيعة١١: ٢٠٨، ح٢، باختلاف يسير.

الخامسة ومن الفقرة السابقة أيضاً.

٣. بيان أنّ التسليم والرضا بالبلاء والامتحان يمثّلان في نفسيهما درجة عالية من الإيمان بالله تعالى لا ينالها إلاّ الخاصّة من عباده. الأمر الذي يبعث في النفس حالة الرضا والاطمئنان والصمود والمقاومة: ((**اللهم فاجعل نفسي مطمئنّة بقدرك راضية بقضائك ...صابرة على نزول بلائك**))[1].

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما أحب العبد أو كره، ولا يرضى عبد عن الله فيما أحب أو كره إلاّ كان خيراً له فيما أحب أو كره**))[2].

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: ((**الزهد عشرة أجزاء، أعلا درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا**))[3].

٤. تأكيد أنّ مصير أتباعهم هو مصيرهم، وأنّ مستقبلهم مقرون بمستقبل الأئمّة أنفسهم، كما مرت الإشارة إلى ذلك في النقطة الثانية.

٥. بيان تفاصيل الأجر والثواب العظيم الذي ينتظرهم بسبب هذا الانتماء وهذه المعاناة، وأنّ هذا الانتماء والمعاناة هي التي تكون سبباً لقبول الأعمال والنجاة في يوم القيامة.

ففي مجالس المفيد عن العلاء، عن محمد قال: ((**سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فقال عليه السلام: يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولى حسابه لا يطلع على حسابه**

---

(١) مصباح المتهجد: ٧٣٨.

(٢) الكافي٢: ٦٠، ح١.

(٣) الكافي٢: ٦٢، ح١٠.

أحداً من الناس، فيعرفه ذنوبه، حتى إذا أقرّ بسيئاته قال الله عزّ وجلّ للكتبة: بدّلوها حسنات، وأظهروها للناس، فيقول الناس حينئذ: ما كان لهذا العبد سيئة واحدة، ثم يأمر الله به إلى الجنّة فهذا تأويل الآية، فهي في المذنبين من شيعتنا خاصة))[1].

وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حبنا أهل البيت يكفر الذنوب، ويضاعف الحسنات، وإنّ الله تعالى ليتحمّل عن محبّينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد، إلاّ ما كان منهم فيها على إضرار وظلم للمؤمنين فيقول للسيئات: كوني حسنات))**[2].

وفي باب الصفح عن الشيعة من الجزء ٦٨ من البحار أحاديث عديدة وصحيحة تدل على هذا المضمون. وإذا جمعنا بينها وبين أحاديث الورع والاجتهاد يمكن أنْ نفهم أنّ الإنسان لا يكون شيعياً من الجماعة الصالحة إلاّ إذا اتصف بالورع والاجتهاد، ولكنه إذا تعرض لذنب فسوف يغفر له بسبب ولائه وتحمله الآلام لهذا الولاء.

السابعة: معالجة الضغوط النفسية

العمل لمعالجة الضغوط النفسية التي تتعرّض لها الجماعة الصالحة من أعدائهم، ومواجهة تفاصيل الحرب النفسية، والهجمة السياسية والإعلامية التي كان يتعرّض لها أتباع أهل البيت عليهم السلام.

وتلاحظ في هذا المجال - مضافاً إلى الإثارات والشكوك حول مصداقية مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي كان يقوم بها أعداء أهل البيت وشيعتهم

---

(١) أمالي المفيد: ٢٩٨ – ٢٩٩، ح٨، والأمالي للطوسي: ٧٢ - ٧٣، ح١٠٥

(٢) أمالي الطوسي: ١٦٤، ح٢٧٤.

للضغط عليهم وكذلك الحصار السياسي والاقتصادي، والمطاردة القمعية التي كان يتعرّض لها هؤلاء الأتباع - قضيّتان رئيسيتان لهما تأثير نفسي سلبي قوي على الجماعة:

الأولى: قلّة عدد الجماعة في خضمّ العدد الكبير الذي كان يكوّن مجموع الأمة الإسلامية، خصوصاً في عصور الأئمة أنفسهم، حيث كانت الجماعة الصالحة تعيش - مع قلة عددها - ضمن المجتمعات الإسلامية الواسعة، دون أنْ يكون لها كيان مستقل أو مجتمعات مستقلة، فكانوا يشعرون بالضيق الروحي والنفسي من هذه الناحية.

وهذه الظاهرة النفسية تواجهها عادة الجماعات القليلة المؤمنة كافّة عبر تأريخ الرسالات الإلهية، وقد عالجها القرآن الكريم في آيات عديدة عندما تحدّث عن القلّة والكثرة، وأكد أنّ الصلاح في جانب القلة والضلال والانحراف في جانب الكثرة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُور**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**وَما كان أَكْثَرُهُم مُؤمِنين**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**﴾[4].

الثانية: الاتهام بالرفض وشقّ عصا المسلمين والخلاف مع الجماعة، إلى غير ذلك من الاتهامات التي تحاول محاصرة الجماعة الصالحة وجعلها غريبة

---

(١) يوسف:١٠٣.

(٢) سبأ:١٣.

(٣) الشعراء:٦٧.

(٤) ص:٢٤.

وبعيدة أو معزولة عن المجتمع الإسلامي، حيث تطوّرت بعض هذه الاتهامات إلى الحكم بكفر الجماعة الصالحة وانحرافها وخروجها عن الإسلام، واستحقاقها للقتل أو النفي.

وكان أتباع أهل البيت يشعرون بالضيق النفسي الشديد بسبب هذا النوع من الاتهامات والمحاصرة.

وقد حاول الأئمة عليهم السلام معالجة هاتين القضيتين علاجاً مباشراً، تارة من خلال معالجة هذين العنوانين، وأُخرى غير مباشر، وذلك من خلال تأكيد أنّ هذا الاختيار كان من قبل الله تعالى، والإشارة إلى ما يترتب على ذلك الأذى من الأجر العظيم، أو من خلال تأكيد وحدة مصيرهم مع أتباعهم - كما سبق - أو الإشارة إلى ذكرهم في القرآن الكريم.

ونستعرض هنا بعض نماذج الروايات التي تتحدث عن ذلك:

روي في المحاسن، عن عتيبة بيّاع القصب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**والله لنعم الاسم الذي منحكم الله ما دمتم تأخذون بقولنا، ولا تكذبون علينا، قال: وقال لي أبو عبد الله عليه السلام هذا القول: إني كنت خبرّته أنّ رجلاً قال لي: إياك أنْ تكون رافضياً**))[1].

وعن أبي بصير قال: ((**قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك، اسم سُمينا به استحلّت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا. قال: وما هو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر عليه السلام: إنّ سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فرعون، فأتوا موسى عليه السلام فلم يكن في قوم موسى أحد أشد اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم، فسمّاهم قوم موسى الرافضة، فأوحى الله إلى موسى أنْ أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فإني قد نحلتهم، وذلك اسم قد نحلكموه**

(١) المحاسن ١: ١٥٧، ح٩٠.

الله))[١].

وعن علي بن عقبة بن خالد، عن أبيه قال: **((دخلت أنا ومعلّى بن خنيس على أبي عبد الله عليه السلام وليس هو في مجلسه، فخرج علينا من جانب البيت من عند نسائه وليس عليه جلباب، فلما نظر إلينا رحّب فقال: مرحباً بكما وأهلاً، ثم جلس وقال: أنتم أولو الألباب في كتاب الله. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فأبشروا أنتم على إحدى الحسنيين من الله. أما إنكم إنْ بقيتم حتى تروا ما تمدّون إليه رقابكم شفى الله صدوركم وأذهب غيظ قلوبكم، وأدالكم على عدوّكم، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، وإنْ مضيتم قبل أنْ تروا ذلك مضيتم على دين الله الذي رضيه لنبيه صلى الله عليه وآله وبعث عليه))**[٢].

وعن محمد بن إسحاق الثعلبي قال: **((سمعت جعفر بن محمد (الصادق) عليهما السلام يقول: نحن خيرة الله من خلقه، وشيعتنا خيرة الله من أمّة نبيه))**[٣].

وعن محمد بن قيس وعامر بن السمط، عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال: **((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يأتي يوم القيامة قوم عليهم ثياب من نور، على وجوههم نور، يعرفون بآثار السجود، يتخطّون صفاً بعد صفّ، حتّى يصيروا بين يدي ربّ العالمين، يغبطهم النبيّون والملائكة والشهداء والصالحون ثم قال: أولئك شيعتنا وعليٌّ إمامهم))**[٤].

وعن أبي بصير قال: **((سمعت جعفر بن محمد (الصادق) عليه السلام وهو**

(١) المحاسن١: ١٥٧، ح٢.

(٢) المحاسن١: ١٦٩، ح٣٥.

(٣) بشارة المصطفى: ٣٢، ح١٧.

(٤) فضائل الشيعة: ٣٠ – ٣١، ح٢٦.

يقول: نحن أهل بيت الرحمة، وبيت النعمة، وبيت البركة، ونحن في الأرض بنيان، وشيعتنا عُرى الإسلام، وما كانت دعوة إبراهيم إلاّ لنا ولشيعتنا، ولقد استثنى الله إلى يوم القيامة إلى إبليس فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾))[١].

عن ابن عبّاس قال: ((**لّما نزلت هذه الآية - أي ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ - قال رسول الله ﷺ: هو أنت يا علي وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين**[٢] **ويأتي عدوك غضاباً مقمحين**))[٣].

الثامنة: شعلة الأمل التي لا تنطفئ

إبقاء شعلة الأمل بالمستقبل وروح التفاؤل والنظر إلى تكامل المسيرة عبر الآلام والمحن والمعاناة، حيث إنّ ذلك من العوامل المؤثّرة في بقاء واستمرار الحركات والوصول إلى تحقيق أهدافها.

ولاشكّ أنّ أيّ حركة تريد أنْ تبقى وتستمر وتسعى إلى تحقيق أهدافها، لابدّ لها أنْ تعيش هذه الروح وتُبقي هذه الشعلة.

ولذلك نجد الرسالة الإسلامية تحث في مختلف مراحلها على استشعار الأمل، وتحرّم اليأس والقنوط مهما كانت الظروف والعقبات والآلام. قال تعالى: **﴿حتّى إذا استَيأسَ الرُسلُ وَظنّوا أنّهُمْ قَدْ كُذبوا جاءَهم نَصرُنا فَنُجّي**

---

(١) تفسير العياشي٢: ٢٤٣، ح١٨.

(٢) أي ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿...رضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ...﴾، المائدة:١١٩.

(٣) أمالي الطوسي: ٤٠٥ – ٤٠٦، ح٥٧، والدر المنثور٦: ٣٦٩.

مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأسُنا عَن القَوْمِ المجْرِمين﴾[١]. وقال تعالى: **﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنّةَ ولَمّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ خَلوا مِنْ قَبْلِكُمْ مسّتهمُ البأساءُ والضرّاءُ وزُلزلوا حتّى يقولَ الرّسولُ والّذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصرَ اللّهِ قريبٌ﴾**[٢].

وقد كان رسول الله ﷺ يتحدّث في أشدّ المحن مع أصحابه ويعدهم فتح بلاد كسرى وقيصر، كما يحدّثنا التأريخ في وقعة أحد والأحزاب.

ويحاول أعداء الإسلام والمنافقون والذين في قلوبهم مرض أنْ يثيروا الشكوك ويزرعوا اليأس والقنوط في النفوس ليحقّقوا أغراضهم - كما تتحدث عن ذلك سورة الأحزاب - لأنّه بمجرّد أنْ تنطفئ شعلة الأمل ويدبّ اليأس في النفوس ينهزم الإنسان ويستسلم أمام الضغوط ويتحوّل اليأس إلى سلاح قاتل.

وتتركّز الحرب النفسيّة دائماً على هدف رئيسي لها، وهو إطفاء روح الأمل في المشاعر الإنسانيّة.

وقد عالج أهل البيت هذا الجانب بأساليب متعدّدة يمكن أنْ نشاهد بعضها في النقاط السابقة، إلاّ أنّ أهمّ نقطة كانت في بناء الجماعة الصالحة في هذا المجال هي قضيّة الانتظار لظهور الإمام القائم، حيث لم يكتفِ الأئمّة عليهم السلام في الحديث عنه بمجرّد طرح هذه الحقيقة وطلب الإيمان بها من أتباعهم، بل كانوا يسعون دائماً إلى أنْ يجعلوا شيعتهم يعيشون حالة الانتظار الحقيقي للظهور، وللقيام في مختلف العصور حتّى في عصر الأئمّة أنفسهم، بحيث كان أتباعهم يعيشون احتمال أنْ يكون كلّ واحد من الأئمّة

---

(١) يوسف: ١١٠.

(٢) البقرة: ٢١٤.

هو الإمام القائم بالأمر. الأمر الذي أعطى الجماعة الصالحة عاملاً معنوياً حركياً وأملاً كبيراً في تحقيق النصر والأهداف، والتغلب على الأوضاع الاجتماعية الفاسدة والانحرافات العقائدية والأخلاقية.

وبالرغم من أنّ هذا الطرح كان له بعض الآثار السلبيّة في حياة الجماعة الصالحة، كما حصل في بعض عصور الأئمّة حيث اعتقد البعض بأنّه هو الإمام القائم، ومن ثم لم يكن على استعداد من الناحية النفسيّة أنْ يقتنع بموت هذا الإمام عند موته. وأحد الأمثلة على ذلك هو الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، لأن حركته السياسية كانت من القوة بحيث اعتقد بعض أصحابه أنه الإمام القائم بالأمر، وعندما قتل في السجن مسموماً لم يقتنع هؤلاء الأصحاب بموته وأدّى ذلك إلى القول بالوقف عليه بالإمامة، وظهرت مشكلة بين الجماعة الصالحة بعد وفاته؛ حيث انقسمت إلى من يؤمن بإمامة علي بن موسى الرضا عليه السلام وإلى من يقف على الإمام موسى الكاظم عليه السلام، حتى تمكن الإمام الرضا عليه السلام من التغلب عليها بعد ذلك[1].

إلاّ أنَ هذه الآثار السلبيّة سرعان ما كانت تزول ويتغلّب عليها الأئمّة عليهم السلام بسبب قدرتهم على الإقناع، ووضوح الحقّ إلى جانبهم. ويبقى الأثر الإيجابي هو السائد في أوساط الجماعة.

وعلى هذا الأساس أصبح الانتظار عبادة - التي هي من أفضل العبادات كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله - يمارسها أبناء الجماعة الصالحة، ويتحرّكون على أساسها، وأصبح من ثم التمهيد للظهور أحد معالم هذا الانتظار، وأحد العوامل المؤثّرة في التحرّك من أجل إقامة حكومة العدل المطلق في تأريخ هذه الجماعة.

---

(١) سوف نشرح هذه الظروف عند الحديث عن مواقف كل واحد من الأئمة الاثني عشر عليهم السلام في أحد كتب هذه الموسوعة إنْ شاء الله. منه قدس سره.

ولعلّ لقضيّة الإمام المهدي(عج) بعد ذلك، والتأكيد لخصوصيّة وصفة الانتظار في الغيبة الصغرى، والكبرى الأثر الكبير في هذا الجانب المعنوي الذي تميّزت به هذه الجماعة. وهذا الأثر مما لا نشاهده ولا نعرفه في بقيّة الجماعات الإسلاميّة، لا لأنّها لا تؤمن بفكرة الإمام المهدي(عج) - لأنّ هذه القضيّة من القضايا الّتي يُجمع عليها المسلمون ولا يختلف فيها أحد منهم - وإنّما بسبب أنّ التأكيد والممارسة والربط بهذه القضيّة، وكذلك الاعتقاد بوجود وحياة الإمام المهدي(عج) ليس موجوداً بهذا المستوى، وهذا الشكل في الحياة الإسلاميّة للجماعات الأُخرى.

ويحسن بنا أنْ نشير بهذا الصدد بصورة إجمالية إلى قضية الإمام المهدي(عج) وآثارها الروحية والمعنوية.

قضية الإمام المهدي(عج)

إنّ قضية الإمام المهدي كقضية الإمام الحسين(ع) لها أبعاد كثيرة - في بناء الجماعة الصالحة - عقائدية وأخلاقية وثقافية ومعنوية. والحديث فيها واسع[1]، حيث إنها تمثّل تفسيراً للتأريخ يتطابق مع النظرية القرآنية التي

---

(١) تحتاج قضية الإمام المهدي إلى دراسة من جوانب عديدة:

منها الجانب العقائدي، ومعرفة التصوّر والدليل على وجوده، وتفسير هذه الظاهرة الفريدة في الحياة الإنسانية.

ومنها الجانب الثقافي الذي يرتبط بثقافة فكرة الإمامة وتكاملها وانسجامها النظري مع فكرة الإمامة المعصومة واستمرارها والالتزام بأوامرها وتوجيهاتها، وتدخل بذلك في صميم المؤسسات والمناهج الثقافية.

ومنها الجانب التأريخي الذي يرتبط بحياته وظروفه السياسية وعلامات الظهور ومستقبل المسيرة البشرية على يده.

←

ترى وراثة الأرض للصالحين من عباد الله.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذكرِ أنّ الأرْضَ يَرِثُها عباديَ الصّالِحُون**﴾[(١)].

وقال: ﴿**وَعَدَ اللّهُ الّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحات لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ في الأرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُم دِينَهُمُ الّذي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمْناً يَعْبُدونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً**﴾[(٢)].

والذي يعنينا في هذا المقطع من الحديث هو الإشارة إلى الجانب المعنوي والروحي فيها، بالقدر الذي يساهم في فهم منهج الأئمة عليهم السلام في بناء الجانب المعنوي للجماعة الصالحة من خلال قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

فإنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف من وجهة نظر أتباع أهل البيت وشيعتهم تمثّل تجنسيداً حيّاً للحقيقة التأريخية السالفة الذكر، ليس على مستوى المستقبل غير المنظور فحسب، بل على مستوى الحاضر المعاش الذي بدأ يجسّد هذا المستقبل من خلال وجوده الشريف وحياته الفعلية؛ لأنهم يعتقدون بحياته وبولادته، وأنه يعيش الآن جميع ظروف الحاضر الصعبة التي يواجهها المسلمون، ويشاهد كل التجارب الإنسانية والاجتماعية التي تمر بها البشرية ويتفاعل معها، ليحقق حكومة العدل الإلهي المطلق في

ومنها الجانب الأخلاقي الذي يرتبط بأخلاقية الانتظار. ومنها الجانب المعنوي الذي نحاول أنْ نتناوله هنا مع العلم أنه قد يتداخل مع الجانب الأخلاقي.

وهناك المئات من المؤلّفات التي تناولت موضوع الإمام المهدي بالبحث يمكن مراجعتها، ومنها الرسالة الصغيرة الفريدة التي كتبها سيدنا الأُستاذ الشهيد آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر قدس سره (بحث حول المهدي عجل الله فرجه الشريف).

(١) الأنبياء:١٠٥.

(٢) النور:٥٥.

مستقبل مسيرتها.

ويعطي هذا الاعتقاد وضوحاً في الرؤية للتأريخ الإنساني، وفهماً للسنن الإلهية في التأريخ التي تحدّث عنها القرآن الكريم.

فإنّ الإنسان المؤمن الذي يمرّ بالآلام والمعاناة والمحن قد يصيبه شيء من الشكّ، أو الغموض والإبهام في مصداقية الحقائق والسنن التأريخية التي تحدّث عنها القرآن الكريم مثل: سنّة الغلبة للصالحين، أو سنّة غلبة الحق على الباطل. قال تعالى: **﴿وَقُلْ جاءَ الحَقّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالّذينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدّنْيا ويَوْمَ يَقُومُ الأشْهادُ﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿هُو الّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كُلّه﴾**[3].

ومثل سنّة الاستبدال في الجماعات الإنسانية. قال تعالى: **﴿يا أيّها الّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأتي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبّهُم وَيُحِبّونَهُ أذلّة على المُؤمنينَ أعزّة على الكافِرينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللّهِ ولا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِم ذَلكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿وَإنْ تَتَوَلّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمّ لا يَكُونوا أمْثالَكُم﴾**[5].

ومثل سنّة الارتباط بين مجتمع التقوى ونزول الخيرات والبركات، قال تعالى: **﴿ولَوْ أنّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا واتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السّمَاءِ**

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) التوبة: ٣٣.

(٤) المائدة: ٥٤.

(٥) محمّد: ٣٨.

وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

ومثل سنّة اتجاه الفطرة الإنسانية نحو التكامل والإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

ومثل حقيقة خلافة الإنسان لله تعالى، وتفضيله على الملائكة في الخلافة. قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾[٣].

كل هذه السنن والحقائق قد تواجه هذا السؤال الكبير في ذهن الإنسان المؤمن، عندما يرى الآلام والمحن والفساد قد عمّت الأرض، وأنَّ الحق والمعروف لا يعمل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه.

ولكن عندما يضع أمام عينيه حقيقة وجود الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وأنه سوف يحقق كل هذه الآمال ويجسّد مصداقية كلّ هذه الحقائق والسنن، تصبح الرؤية لديه واضحة بيّنة.

وإلى جانب ذلك كلّه يمكن أنْ نجد الأُمور المعنوية التالية في هذه القضية المركزية في بناء الجماعة الصالحة:

أ) الوضوح في التكليف

الوضوح في الإحساس بالواجب الإلهي والتكليف الشرعي عند القيام بمختلف النشاطات الإسلامية والدينية، حيث يشعر الإنسان المؤمن بالإمام

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٠.

المهـدي(عج) ووجـوده، وأنـه يـؤدّي أعمالـه وخدماتـه، ويمـارس جهـاده وتضحياته تحت رايته الشريفة ورعايته الخاصة.

ويعطي هذا الوضوح زخماً معنوياً كبيراً للتحرّك والعمل، يشبه الزخم المعنوي الذي كان يحصل عليه أولئك المجاهدون الذين كانوا يقاتلون تحت راية الأنبياء والمرسلين، والذين تمكّنوا أنْ يحققوا الانتصارات الكبرى، وعملية التغيير الواسعة في المجتمع الإنساني، إذ كلّما ازداد الشعور بالقرب من الحقيقة الربانية والرعاية الإلهية والقوة الحقيقية المتمثلة بالله تعالى، كان شعور الإنسان بتحقيق النصر وأداء الواجب أكبر، ولاشكّ أنّ الإحساس برعاية الإمام المعصوم والانتساب إليه في الحركة والنشاط يجعل الإنسان يشعر بالقرب من الله ورعايته وامتثال أوامره شعوراً أفضل.

ب) الاحتفاظ بالقيم الربانية

الاحتفاظ بالمبادئ والقيم والمثل الربانية في المسيرة، والسعي الدائم إلى تحقيق الكمال الإنساني بعيداً عن مفاهيم الربح والخسارة الدنيوية والكسب المادّي، أو الوصول إلى القدرة والتسلط والهيمنة.

فإنّ المسيرة التي تنتسب إلى الله تعالى والرسالة الإلهية - وهما من عالم الغيب - وإلى الإمام المهدي(عج) - وهو من عالم الشهود - الذي يقوم بهذا الدور العظيم في التأريخ الإنساني - وهو إقامة حكومة العدل الإلهي المطلق - سوف تستوحي منه ومن أهدافه - التي لابدّ أنْ تتحقق - كلّ هذه المعاني. ولابدّ أنْ يكون الإحساس والشعور بهذه المعاني أكثر رسوخاً وعمقاً. وبذلك يحتفظ الإنسان في مسيرته بهذه الروح المبدئية العالية، التي تتحرّك على أساس القيم والمثل الإنسانية الرفيعة.

ج) روح الصبر والثبات

روح الصبر والثبات والتكامل من خلال هذا الصبر والثبات، والقدوة في تحمل المعاناة والامتحان، لأنّ الإمام المهدي - بوجوده الشريف - يمثّل القدوة الرائعة العظيمة في الصبر والثبات، حيث إنه يشاهد كلّ هذه الآلام والمحن ويتعرّض لها في حياته، ويتحسسها ويتفاعل معها بطبيعة الحال، ومع ذلك فهو صابر ممتحن في ذات الله من أجل الأهداف العظيمة، وينتظر الفرصة للقيام بدوره العظيم. هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرى، فإنّ جانباً من تفسير طول الغيبة بعد وجوده الشريف هو أنْ يتكامل ذاتياً بسبب المحنة والبلاء، وتتكامل المسيرة من خلال التجارب والمعاناة التي يمرّ بها، بحيث يصبح قادراً على القيام بهذا الدور الفريد في التأريخ الإنساني، وتصبح الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية والنفسية للبشرية مؤهّلة لقيام مثل هذه الحكومة، بسبب هذه المعاناة والتجارب.

وكلّ ذلك يُعطي زخماً عظيماً وروحاً معنوية عالية في الصبر والثبات، والاستفادة منها في مسيرة التكامل الإنساني.

د) المساهمة في العدل

شعور الإنسان المؤمن بفكرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف بأنّ مجمل أعماله ونشاطاته هي مساهمة في الدور التأريخي وأداء له في التمهيد لقيام حكومة العدل الإلهي المطلق، التي يحققها الإمام المهدي عليه السلام.

فبدلاً من أنْ ينظر الإنسان المؤمن إلى تقويم دوره وأعماله ونشاطاته من خلال الأهداف المنظورة في حياته الشخصية القصيرة، أو من خلال ما يمكن أنْ يحققه أو يتحقق من إصلاحات في المجتمع الإنساني الذي يعاصره،

وعندئذ قد يرى كلّ تلك الأعمال والنشاطات محدودة التأثير والأهداف فيزهد فيها، نرى أنّ الإنسان المؤمن بفكرة الإمام المهدي إنما يقوم بدوره الخاص في سلسلة المراحل والأهداف والأعمال، التي تنتهي مجتمعة إلى إقامة ذلك المجتمع الإنساني الفاضل في المستقبل.

وهذا بطبيعة الحال يمنح الإنسان مستوىً عالياً من الروح المعنوية في التعامل مع نشاطاته وأعماله وتضحياته، حيث يصبح الهدف كبيراً وعظيماً يغطّي كلّ هذه النشاطات والأعمال والجهود والتضحيات مهما كانت كبيرة وصعبة أو صغيرة ومحدودة.

هـ) الأمل الكبير

الأمل الكبير الذي لا يتوقف ولا ينطفئ في تحقيق الانتصار مهما طال الأمد، والشعور بأنّ الشوط سوف يصل إلى نهايته، والتطلّع إلى المستقبل تطلعاً مستمراً ودائماً.

ولاشكّ أنّ روح الأمل هي من أعظم المعنويات التي تمدّ الإنسان بالقدرة على الاستمرار في الحركة والثبات والصبر والتضحية.

فالجندي الذي يشعر بأنّ مسيرته سوف يكملها جنود آخرون يحققون النصر والفتح من بعده، يكون على استعداد للتضحية والفداء أكثر بكثير من ذلك الجندي الذي يشعر أنه عندما يسقط تتوقف المسيرة وتكون المعركة خاسرة.

وكذلك الجندي الذي يخوض المعركة ويشعر أنّ معارك أُخرى يمكن أنْ يخوضها بنفسه لتحقيق النصر، لا يتوقف عندما يخسر المعركة الأُولى، بل يستمر في الحركة. وهذا لا يتوفر إلاّ في أولئك الذين يؤمنون بفكرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف الذي يقود المعركة، وسوف يستمر في قيادتها حتى الوصول إلى نهايتها. وهذا مما يجعل الأمل حيّاً ومتوقّداً يدفع الإنسان إلى الحركة

والنشاط في كلّ الظروف.

و) الانتقام للمظلومين

الشعور والإحساس بأنّ جميع المظالم والآلام التي يتعرّض لها المؤمنون سوف يتمكّنون في النهاية من أخذ الثأر لها، والانتقام من أولئك المجرمين الذين ارتكبوا كلّ هذه الجرائم والجنايات بحق البشرية.

ومع قطع النظر عن الدور الشخصي في عملية الثأر والانتقام هذه - حيث إنّ ذلك يرتبط بفكرة (الرجعة)[1] ومدلولها السياسي والاجتماعي - فإنّ هذا الثأر والانتقام يتحقق بالنسبة إلى أولئك السائرين على خطّ أسلافهم من المجرمين، حيث يكوّن جميع هؤلاء أمة واحدة في التفكير والسلوك والأهداف والمصير، ويكون الانتقام من آخرهم انتقاماً من الأوائل أيضاً.

وفكرة الانتقام والثأر - بالمعنى السليم لها الذي يعني الثأر للقيم والمبادئ والحق والعدل - هي فكرة صحيحة وإسلامية تحدّث عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع، مثل قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**﴾[2].

كما تحدّثت النصوص عن ذلك عندما وصفت الإمام الحسين عليه السلام بأنه

---

(١) الرجعة: فكرة جاءت في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام يفهم منها ظاهراً رجوع الأخيار والأشرار والصالحين والكافرين والمنافقين إلى هذا العالم، ليشهدوا انتصار الحق على الباطل وينتقم المظلوم من الظالم. وسوف نتناول هذا الموضوع في أحد كتب هذه الموسوعة إنْ شاء الله. وقد بحثه علماء الإمامية في كتبهم العقائدية. منه قدس سره.

(٢) التوبة: ١٤.

«ثار الله»[١]، وأنّ الإمام المهدي يثأر للحسين عليه السلام، ويكون أحد شعاراته هو «يا لثارات الحسين»[٢]، وكذلك ما ورد في زيارته الشريفة من قوله: «واقرن ثأرنا بثأره»[٣].

وهذا الإحساس والشعور يمثّل قوة معنوية كبيرة في داخل الإنسان؛ لأنَّ الله تعالى أودع في الإنسان هذا اللون من الإحساس، ولذلك ينزع إليه الإنسان بشكل طبيعي في حياته، ويمثّل أحد الدوافع لمسيرته وحركته ونشاطه.

وقد اهتمّ الإسلام بتوجيه هذا الدافع والإحساس، لكي لا ينحرف فيتحول إلى مجرّد تعبير عن الغريزة دون أنْ يصب في مسيرة الكمال الإنساني، فوضع الثأر والانتقام والتشفّي في طريق القيم والمبادئ - لا لمجرّد التعبير عن الإحساس النفسي والنزعة الشهوية - شأنه في ذلك شأن بقية الأحاسيس والغرائز التي اهتم بها الإسلام عاملاً محركاً باتجاه الكمال.

ومن الواضح أنّ مسألة الثأر والانتقام في قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ليست انتقاماً وثأراً من الأشخاص، بل هي انتقام وثأر من الواقع الفاسد الذي كان يعيشه الإنسان، وذلك بتغييره وتحويله إلى واقع العدل والحق والخير.

---

(١) مصباح المتهجد: ٧٢٠، زيارة وارث، وفيها: **((السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره...))**.

(٢) عيون اخبار الرضا٢: ٢٦٨ – ٢٦٩، ح٥٨، أمالي الصدوق: ١٩٢ – ١٩٣، ح٢٠٢، وعنهما بحار ٤٤: ٢٨٦، ح٢٣.

(٣) كتاب المزار: ٤١٠ – ٤١١.

الباب الثالث

النظام العام للجماعة الصالحة

الفصل الأوّل:

المرجعية الدينية

الفصل الثاني:

الهوية وأبعادها

الفصل الثالث:

العلاقات الداخلية والخارجية

الفصل الرابع:

الخطوط الثابتة والمنطلقات

تمهيد

لابدّ في البداية من توضيح المقصود من عنوان هذا الباب (النظام العام للجماعة الصالحة). فقد اهتم أهل البيت عليهم السلام من أجل تحقيق الأهداف التي أشرنا إليها في الباب الأوّل أنْ يضعوا للجماعة الصالحة مجموعة من الأنظمة والخطوط العملية العامة والتفصيلة الثابتة والمتحركة؛ وذلك من أجل المحافظة على شخصية الجماعة وهويتها ووحدتها من ناحية، والقيام بتلبية حاجاتها وأداء واجباتها ومسؤولياتها من ناحية أُخرى. وتحدد لها علاقاتها المختلفة الداخلية والخارجية من ناحية ثالثة، والسير بها في طريق النمو والتكامل من ناحية رابعة، وإيجاد الحماية لها ضد الأخطار الخارجية والداخلية وضد عمليات القمع والعدوان من ناحية خامسة.

وبهذا الصدد نجد أنّ أهل البيت قاموا بخطوتين متكاملتين:

الأُولى: وضع التصور العام لنظام الجماعة والذي يشتمل على الأبعاد التالية:

١. الهيكل العام لنظام الجماعة والمسؤوليات والواجبات العامة التي يقوم بها لتلبية حاجاتها.

٢. الهوية ودورها ومشخصاتها.

٣. طبيعة العلاقات العامة، سواء بين القيادة الشرعية وأفراد الجماعة الصالحة من ناحية، والعلاقات العامة الداخلية بين أبناء الجماعة الصالحة أنفسهم من ناحية أُخرى، أم العلاقات الخارجية مع الجماعات الأُخرى من ناحية ثالثة.

٤. المنطلقات والخطوط السياسية والاجتماعية الثابتة التي تلتزم الجماعة الصالحة بالسير على منهاجها في حركتها التكاملية.

الثانية: وضع الأنظمة التفصيلة للمجالات المختلفة ذات العلاقة بالجماعة

الصالحة.

وفي هذا الباب سوف نتناول الخطوة الأُولى بأبعادها الأربعة المذكورة أعلاه في فصول سبعة. ونترك الحديث في الخطوة الثانية إلى الأبواب التالية من هذا الكتاب.

وقد أخذ أهل البيت عليهم السلام - منذ البداية بنظر الاعتبار - أنْ يكون هذا النظام العام قادراً على التحرّك ضمن النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية في المجتمع العام للمسلمين ويتكيف بظروفها.



المرجعية الدينية

١. المرجعية الدينية امتداد للإمامة

٢. المواصفات والشروط

٣. المهمات والمسؤوليات

١. المرجعية الدينية امتداد للإمامة

ينطلق تصور الهيكل العام لنظام الجماعة من نظرية الإمامة التي تؤمن بها الجماعة الصالحة، هذه النظرية التي تؤمن بأنَ ولاية أمر المسلمين وإمامتهم بعد النبيﷺ هي للأئمة الاثني عشر من أهل البيتعليهم السلام[1]، وأن هذه الإمامة هي امتداد لحركة الأنبياء والمرسلين، سواء في تشخيص طبيعة هذا الحق والمنصب من حيث إنّه منصب إلهي يستحقه الإنسان من خلال التعيين المباشر له من قبل الله تعالى، كما هو الحال في الأنبياء والمرسلين، أو بالواسطة، كما هو الحال في الأئمة والأوصياء، حيث أوصى النبيﷺ لعليعليه السلام بأمر من الله تعالى أنْ يكون إماماً من بعده، وهكذا بالنسبة إلى بقية الأئمةعليهم السلام.

أم في خصائص الشخص ومميزاته، حيث تشترط في النبي والإمام المنصوب الدرجة العالية من الكمالات التي يعبّر عنها (بالعصمة).

أم في طبيعة المسؤوليات والواجبات والحقوق تجاه الأُمة أو الحقوق التي

---

(١) الأئمة الاثناعشر هم: علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين ابنا علي بن أبي طالب وسبطا رسول اللهﷺ، وعلي بن الحسين زين العابدين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق، وموسى بن جعفر الكاظم، وعلي بن موسى الرضا، ومحمد بن علي الجواد، وعلي بن محمد الهادي، والحسن بن علي العسكري، والإمام المهدي (الحجة بن الحسن العسكري)، واسمه هو اسم رسول الله كما أخبر به جده رسول اللهﷺ.

وقد بحثنا هذه النظرية وتفسيرها وضرورتها والاستدلال عليها في كتاب (الإمامة)، كما أنّ علماء الإسلام من الإمامية قد تناولوا هذا الموضوع في مؤلفات وأدلة كثيرة. منهقدس سره.

تجب على الأُمة، حيث تجب له الطاعة، وله حق ولاية الأمر، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وعليه أنْ يتحمل مسؤولية إبلاغ الرسالة، وتزكية المؤمنين وتربيتهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة، ورعاية شؤونهم والمواساة لهم في حياتهم. ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[1].

إنّ النظام الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام لتنظيم الجماعة يرتكز على هذه القاعدة النظرية، فإنّ الإمام في زمن حضوره وشهوده، وإنْ لم تكن بيده السلطة، ولا يكون مبسوط اليد في القدرة، إلاّ أنه مع ذلك كله لابدّ فيه من توفّر هذه الخصوصيات، ويتحمل أيضاً هذه المسؤوليات والواجبات وله هذه الحقوق، ولكن بالقدر الذي تسمح به الظروف المعاشة له وللجماعة الصالحة التي يتولى شؤونها، وتتناسب الواجبات والحقوق في السعة والضيق مع هذه الظروف المتاحة.

وأمّا في عصر الغيبة فإنّ المجتهد الجامع للشرائط هو الذي يقوم بهذا الدور باعتباره الوريث الطبيعي للأنبياء والأئمة عليهم السلام، لأنهم لم يورّثوا ذهباً ولا فضة ولا درهماً ولا ديناراً وإنما ورّثوا شيئاً من العلم والحكمة.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء، وورثتي وورثة الأنبياء**))[2].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإنّ**

---

(١) الجمعة:٢.

(٢) ميزان الحكمة٣: ٢٠٦٧، ح٢٨٣٨.

فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين))[١].

وهذا التسلسل الطبيعي في الخلافة، والمنصب الإلهي الذي ذكرناه هو الذي تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**إِنّا أَنزَلْنا التّوراةَ فيها هُدىً وَنورٌ يَحْكُمُ بِها النّبِيُّونَ الّذينَ أَسْلَمُوا لِلّذينَ هادُوا وَالرّبانِيّونَ وَالأَحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللّهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآياتي ثَمَناً قَليلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنزَلَ اللّهُ فَأولئِكَ هُمُ الكافِرُونَ**﴾[٢].

عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام: **((إنّ مما استحقت به الإمامة التطهير والطهارة من الذنوب والمعاصي الموبقة التي توجب النار، ثم العلم المكنون بجميع ما يحتاج إليه الأُمّة من حلالها وحرامها، والعلم بكتابها خاصه وعامه، والمحكم والمتشابه ودقائق علمه وغرائب تأويله وناسخه ومنسوخه.**

قلت: وما الحجة بأنّ الإمام لا يكون إلاّ عالماً بهذه الأشياء التي ذكرت؟

قال: قول الله فيمن أذن الله لهم بالحكومة وجعلهم أهلها: ﴿إِنّا أَنزَلْنَا التّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النّبِيُّونَ الّذِينَ أَسْلَمُوا لِلّذِينَ هَادُوا وَالرّبّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ فهؤلاء الأئمة دون الأنبياء الذين يرثون الناس بعلمهم، وأمّا الأحبار فهم العلماء دون الربانيين، ثم أخبر فقال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ ولم يقل بما حملوا منه))[٣].

---

(١) أُصول الكافي١: ٣٢، ح٢.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) نور الثقلين١: ٦٣٤، ح٢٠٦.

فالمجتهد الذي يمثل (الأحبار) في هذه الآية الكريمة لابدّ أنْ يتصف بالخصائص المطلوبة في الأئمة (الربانيين)، ولكن بالقدر الذي يتناسب معه ومع مسؤولياته وحقوقه، وهي: العلم بالشريعة، والعدالة العالية، والصفات الشخصية المناسبة من الخبرة بالظروف السياسية والاجتماعية، والخبرة بالمصالح والمفاسد التي ترتبط بحركة الجماعة وتكاملها، والشجاعة في اتخاذ القرارات الصعبة المطلوبة، والتصدي وقيادة المسيرة، والمواساة للمؤمنين والقدوة في السلوك، وكذلك تثبت له الحقوق والواجبات نفسها، ولكن بالمقدار المناسب لهذا المستوى من الولاية.

إنَّ هذا المنطلق في فهم ورؤية النظام العام للجماعة الصالحة هو أمر مهم فيما يتفرع عنه من مسؤوليات وعلاقات وسياسات وأنظمة ومناهج، ومواقف تنسجم مع الفهم النظري لحركة الأنبياء ودورها في التأريخ الإنساني، والسنن المؤثرة في هذا التأريخ.

نظام المرجعية الدينية

وعلى أساس هذه القاعدة النظرية وضع الأئمة عليهم السلام نظام المرجعية الدينية أو (ولاية الفقيه)، فإنّ هذا النظام يتلخص في تنصيب المجتهد[1] من علماء مذهب أهل البيت عليهم السلام، الجامع للشرائط التي أشرنا إليها آنفاً (مرجعاً) لأتباعهم، وذلك للقيام بالوظائف الأساسية للإمامة، وهي (الولاية) لشؤون المسلمين و(الإفتاء)، لبيان مفاهيم الرسالة الإلهية وتشخيص معالم الدين وإبلاغها والتبشير والإنذار بها، و(القضاء) في

(١) المجتهد: هو الإنسان الذي يملك قدرة استنباط الحكم الشرعي، أو تشخيص الموقف العملي عن طريق استخدام الأدلة والموازين الشرعية، التي وضعها الشارع للوصول إلى الحقائق والأحكام والمواقف الشرعية، أو أقرّ استخدامها لهذا الغرض.

موارد النزاع والتداعي والفصل للخصومات.

ويبدو من خلال مراجعة تأريخ أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا في الوقت الذي يمارسون فيه هذا الدور للإمامة - ممارسة محدودة في أوساط الجماعة الصالحة - بدأوا بتأسيس هذا (النظام) عندما أخذت الجماعة الصالحة تنمو وتكبر، وتتسع دائرة أعمالها ونشاطاتها ووجودها، حتى أصبح هذا النظام هو نظام الجماعة العام بعد الأئمة.

فقد قام أئمة أهل البيت عليهم السلام بتأسيس هذا النظام للجماعة الصالحة في زمان حضورهم وشهودهم - كما سوف نلاحظ - ليكون له دوره النسبي في تكوين الجماعة الصالحة، وإدارة بعض شؤونها في عصرهم، وليصبح نظاماً متكاملاً وفاعلاً يمكن الاعتماد عليه، والاكتفاء به بعد غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ولعلّ الدور المهم والأساس لأئمة أهل البيت الثلاثة «الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام» هو إرساء وترسيخ دعائم هذا النظام، على ما سوف نعرف ذلك إنْ شاء الله عند استعراض الأدوار الخاصة التي قام بها الأئمة عليهم السلام في كل عصر.

ومن أجل إكمال وتوضيح صورة (المرجعية الدينية) يحسن بنا أنْ نتحدث قليلاً عن المواصفات التي لابدّ أنْ يتصف بها (المرجع)، وكذلك المهمات التي يتحمل مسؤولية القيام بها، والخطوات التي قام بها أهل البيت عليهم السلام من أجل تنظيم هذه الحالة[1].

---

(١) سوف نتناول هذا الموضوع بصورة تفصيلية أكثر في بحثنا حول المرجعية الصالحة الذي هو أحد كتب هذه الموسوعة إنْ شاء الله.

٢. المواصفات والشروط

أمّا المواصفات المهمة التي لابدّ أنْ يتصف بها (المرجع)، فهي ثلاث صفات رئيسية - مضافاً إلى الصفات الأساسية كالعقل والحرية والإيمان - وهي:

أ) الاجتهاد: وهو أنْ يعرف المرجع الأحكام الشرعية من الحلال والحرام والمفاهيم الإسلامية، بحيث يكون قادراً على معرفتها من الأدلة الشرعية كالقرآن الكريم، والسنة النبوية المروية عن النبيﷺ وأهل البيتعليهم السلام وغيرهما من الأدلة، واستخدام القواعد والأُصول العملية التي وضعها الشارع المقدس لتحديد الموقف الشرعي العملي.

وهذه الصفة هي التي تشير إليها الآية الكريمة السابقة من سورة المائدة بعنوان ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾.

كما أنه ورد التأكيد على هذه المعرفة في روايات أهل البيتعليهم السلام، مثل ما ورد في باب اختيار القاضي في المتخاصمين في حديث معتبر عن الإمام الصادقعليه السلام ((**ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً**))[1].

وكذلك ما ورد عن الإمام الباقرعليه السلام، عن عليعليه السلام قال: ((**قال رسول الله**ﷺ: **اللهم ارحم خلفائي - ثلاثاً - قيل: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي**))[2].

وكذلك ما ورد عن الإمام صاحب الزمانعليه السلام في التوقيع المعروف ((**وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ٩٩، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠١، ح٧.

عليكم، وأنا حجة الله))[١].

وكذلك الروايات التي تنص على إرجاع شيعتهم إلى المجتهدين من أصحابهم، أو التي تطلب من المجتهدين من أصحابهم أنْ يتصدوا إلى الفتوى، كما سوف نشير إلى بعضها قريباً.

ب) العدالة: وهي كما عرّفها الفقهاء «بأنها عبارة عن الاستقامة في جادة الشريعة المقدسة، وعدم الانحراف عنها يميناً أو شمالاً، بأنْ لا يرتكب معصية بترك واجب أو فعل حرام من دون عذر شرعي، ولا فرق في المعاصي من هذه الجهة بين الصغيرة أو الكبيرة»[٢]، أو «الاستقامة على خط الإسلام بنحو لا يرتكب كبيرة أو صغيرة، على شرط أنْ تكون هذه الاستقامة طبعاً له وعادة»[٣]، أو «عبارة عن الملكة المانعة غالباً عن الوقوع في المعاصي الكبيرة التي وعد الله سبحانه عليها النار، فلا يقدح في وجودها حصول الندم بمجرد سكون الشهوة أو الغضب مع الالتفات إلى وقوع المعصية»[٤].

وقريب من هذا الرأي ما ذكره الإمام الخميني في تحرير الوسيلة[٥].

ويبدو من الإمام الحكيم‏قدس‌سره أنه يرى أنّ المرتكز في أذهان المتشرعة - وهم المؤمنون المتدينون - بأنّ العدالة التي يجب توفرها في المرجع هي مرتبة عالية لا تزاحم ولا تُغلب بالشهوات أو الغضب على نحو لا يجدي عندهم التوبة

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠١، ح٩.

(٢) منهاج الصالحين للإمام الخوئي١: ١٠، ط ٢٨.

(٣) منهاج الصالحين للإمام الحكيم١: ١٢، تعليقة الشهيد الصدر ط٢.

(٤) منهاج الصالحين للإمام الحكيم١: ١٢ و١٥، طبعة دار التعارف بيروت والتي عليها تعليقة الشهيد الصدر.

(٥) تحرير الوسيلة١: ١٠.

فيها والندم، ثم قال: «والإنصاف أنه يصعب جداً بقاء العدالة للمرجع العام في الفتوى - كما يتفق ذلك في كل عصر لواحد أو جماعة - إذا لم تكن بمرتبة قوية عالية ذات مراقبة ومحاسبة، فإنّ ذلك مزلة الأقدام ومخطرة الرجال العظام ومنه سبحانه نستمد الاعتصام»[1].

وقد جاء التأكيد على العدالة في الشهود، وفي إمام الجماعة، وفي الإمام الذي يتولى الجهاد في سبيل الله، وفي الإمامة، وغيرها من الموارد، بحيث إنّ العلماء فهموا من ذلك أنها شرط في (المرجع العام) فاجمعوا على هذا الشرط فيه.

وإنّ السيرة العقلائية التي أمضاها الشارع المقدس تقر هذا الشرط أيضاً. وهو مما أكده علماء الفريقين السنة والشيعة[2].

فقد ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تصلح الإمامة إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم))**[3].

كما روى الكليني بسند صحيح عن محمد بن مسلم قال: **((سمعت أبا جعفر (الباقر عليه السلام) يقول: ...والله يا محمد من أصبح من هذه الأُمة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهر عادل أصبح ضالاً تائهاً، وإنْ مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق. واعلم يا محمد إنّ أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا وأضلوا ...))**[4].

---

(١) مستمسك العروة١: ٤٣.

(٢) راجع كلمات العلماء في ذلك. ولاية الفقيه للشيخ المنتظري١: ٢٦١ – ٢٧٣.

(٣) الكافي١: ٤٠٧، ح٨.

(٤) الكافي١: ١٨٣ – ١٨٤، ح٨.

ج) **الكفاءة:** وهي القوة والتمكن والقدرة على إدارة الأمر المفوض إليه، فتشمل: العقل الوافي، والتدبير، والشجاعة، وحسن السياسة، والإدارة، والرعاية، وغير ذلك من المواصفات الشخصية التي تعتمد عليها الكفاءة.

وقد أكّد العلماء في فتاواهم على هذا الشرط.

فقد ذكر العلامة الحلي في (تذكرة الفقهاء) شرط الكفاية على أنه من الشروط المسلّمة لدى الفقهاء، فقال: «يشترط في الإمام أُمور فذكر الشرط السابع: أنْ يكون شجاعاً، والثامن: أنْ يكون ذا رأي وكفاية، مضافاً إلى أنْ يكون صحيح السمع والبصر والنطق، كما اشترط فيه أنْ يكون أفضل أهل زمانه»[١].

وقد ورد التأكيد على ذلك في عدة روايات، فقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: ((**أيها الناس، إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإنْ شَغب شَاغِب استعتِب، فَإنْ أبى قُوتل**))[٢].

والمراد بالقوة القدرة على إدارة الأمر المفوض إليه.

وعن أمير المؤمنين - أيضاً - أنه قال: ((**والثاني: أنْ يكون أعلم الناس بحلال الله وحرامه وضروبه وأحكامه وأمره ونهيه وجميع ما يحتاج إليه الناس، فيحتاج إليه الناس ويستغني عنهم**))[٣].

وفي صحيحة العيص بن القاسم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**وانظروا لأنفسكم، فوالله إنّ الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً أعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم**

---

(١) ولاية الفقيه للشيخ المنتظري١: ٢٦٥ عن تذكرة الفقهاء ١٠: ٤٥٢.

(٢) نهج البلاغة – ابن عبده٢: ٨٦، الخطبة ١٧٣.

(٣) بحار الأنوار٩٠: ٦٤، ح٣٢.

بغنمه من الذي كان فيها))[١].

وقد مرّ في الصفة السابقة في حديث رسول الله ﷺ أنه يشترط في الإمام حسن الولاية وهو عنوان ينسجم مع الكفاية ...

وما ورد في أصول الكافي عن الرضا عليه السلام أنه قال: ((**والإمام عالم لا يجهل، وراعٍ لا ينكل ...نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله، ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله**))[٢].

٣. المهمات والمسؤوليات

يمكن تلخيص المهمات والمسؤوليات لنظام المرجعية للجماعة الصالحة في المجالات الثلاثة التالية: الإفتاء، والقضاء، والولاية، وهي مسؤوليات تتطابق - بصورة عامة - مع مسؤوليات الإمامة، خصوصاً إذا أخذنا الإفتاء بمعناه الواسع، وهو بيان وإبلاغ الشريعة الإسلامية بأحكامها ومفاهيمها وعقائدها ونظرتها إلى الكون والحياة والتأريخ والسنن والأخلاق.

أ) الإفتاء

ففي مجال (الإفتاء) و(بيان معالم الدين) و(البلاغ) قام الأئمة عليهم السلام بعدة خطوات لتنظيم هذه الحالة:

الأولى: تربية المجتهدين والعلماء والمحدثين، من خلال رعاية خاصة كانوا يولونها لبعض الأشخاص الذين يتوسمون فيهم الاهتمام بطلب العلم، والقدرة الفعلية على التلقّي، والمواهب العلمية المناسبة، حتى أصبح هؤلاء

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٣٥، ح١.

(٢) أُصول الكافي١: ٢٠٢.

من المتميزين في خصائصهم ومميزاتهم العلمية والأخلاقية، مضافاً إلى عدد كبير من المتفقهين والمتعلمين والحفّاظ في مختلف المناطق التي تعيش فيها الجماعة الصالحة، خصوصاً المناطق التي يتكاثف وجودهم فيها.

ونجد هذا واضحاً في أشخاص مثل: أبان بن تغلب، وزرارة بن أعين، وأبي بصير، ومحمد بن مسلم، وبريد العجلي، ويونس بن عبد الرحمن، وعثمان بن سعيد، وابنه محمد بن عثمان، وغيرهم.

عن أبي العباس الفضل بن عبد الملك قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً أربعة: بريد بن معاوية العجلي، وزرارة، ومحمد بن مسلم، والأحول، وهم أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً**))[1].

وعن إبراهيم بن عبد الحميد وغيره قالوا: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي عليه السلام**))[2].

وعن سليمان بن خالد قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما أجد أحداً أحيى ذكرنا وأحاديث أبي عليه السلام إلاّ زرارة، وأبو بصير ليث المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا. هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا، والسابقون إلينا في الآخرة**))[3].

وعن أبي عبيدة الحذّاء قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: زرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم، وبريد، من الذين قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠٤، ح١٨.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠٤، ح٢٠.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ١٠٤، ح٢١.

السَّابِقُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾))[١].

وعن عبد الله بن أبي يعفور قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنه ليس كل ساعة ألقاك، ولا يمكن القدوم، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني وليس عندي كل ما يسألني عنه، فقال: ما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي، فإنه سمع من أبي وكان عنده وجيهاً**))[٢].

وعن يونس بن يعقوب قال: ((**كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: أما لكم من مفزع؟ أما لكم من مستراح تستريحون إليه؟ ما يمنعكم من الحارث بن المغيرة النضري؟**))[٣].

وعن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام، في حديث أنه ذم رجلاً فقال: ((**لا قدّس الله روحه، ولا قدّس مثله؛ إنه ذكر أقواماً كان أبي عليه السلام ائتمنهم على حلال الله وحرامه، وكانوا عيبة علمه، وكذلك اليوم هم عندي مستودع سرّي وأصحاب أبي حقاً، إذا أراد الله بأهل الأرض سوءاً صرف بهم عنهم السوء، هم نجوم شيعتي أحياءً وأمواتاً، هم الذين أحيوا ذكر أبي عليه السلام، بهم يكشف الله كل بدعة، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين وتأويل الغالين، ثم بكى، فقلت: من هم؟ فقال: من عليهم صلوات الله، وعليهم رحمته أحياءً وأمواتاً: بريد العجلي، وأبو بصير، وزرارة، ومحمد بن مسلم**))[٤].

وعن داود بن سرحان قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إني لأحدّث الرجل بالحديث، وأنهاه عن الجدال والمراء في دين الله، وأنهاه عن**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠٥، ح٢٢.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠٤، ح٢١.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ١٠٥، ح٢٤.

(٤) وسائل الشيعة١٨: ١٠٥، ح٢٥.

القياس، فيخرج من عندي فيتأول حديثي على غير تأويله، ...إلى أنْ قال: إنّ أصحاب أبي كانوا زيناً أحياءً وأمواتاً، أعني زرارة، ومحمد بن مسلم، ومنهم ليث المرادي، وبريد العجلي، هؤلاء القائلون بالقسط، هؤلاء القوّامون بالقسط، هؤلاء السابقون السابقون، أولئك المقربون))[١].

الثانية: التصدي للإفتاء، وذلك بإصدار التوجيهات للخاصة من أصحابهم المتميّزين بالعلم والفضيلة بالتصدي للإفتاء، ونقل الحديث عنهم إلى أبناء الجماعة الصالحة. وكانوا أحياناً يطلبون منهم التصدّي للإفتاء بين المسلمين عامة حسب مذاهبهم المختلفة من أجل أنْ يأخذ هؤلاء الأشخاص دورهم الطبيعي في المجتمع الإسلامي، في نفس الوقت الذي يؤدون فيه خدمة خاصة في المحافظة على الجماعة وخصوصياتها.

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لمعاذ بن مسلم النحوي: ((**بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس، قلت: نعم، وأردت أنْ أسألك عن ذلك قبل أنْ أخرج. إني أقعد في المسجد فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، ويجيء الرجل أعرفه بمودّتكم وحبّكم فأخبره بما جاء عنكم، ويجيء الرجل لا أعرفه ولا أدري من هو، فأقول: جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأدخل قولكم فيما بين ذلك، فقال لي: اصنع كذا، فإني كذا أصنع))**[٢].

وعنه عليه السلام: ((**اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا، فإنا لا نعدّ الفقيه منهم فقيهاً حتى يكون محدّثاً، فقيل له: أوَ يكون المؤمن محدّثاً؟ قال: يكون مفهّماً، والمفهّم المحدّث))**[٣].

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠٦، ح٢٦.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠٨، ح٣٦.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ١٠٨، ح٣٨.

الثالثة: الإرجاع إلى المجتهدين، وذلك بتوجيه عموم المؤمنين إلى الرجوع في الفتيا والدين إلى هؤلاء الأشخاص المتميِّزين، بحيث تتكامل الصورة وتصبح منسجمة في أبعادها، فيرجع أبناء الجماعة الصالحة إلى هؤلاء العلماء، وينتظم بذلك هذا الأمر الديني المهم في وسط الجماعة.

عن أحمد بن إسحاق قال: ((**سألت أبا الحسن عليه السلام وقلت: من أعامل؟ وعمّن آخذ؟ وقول من أقبل؟ فقال: العمري ثقتي، فما أدّى إليك عنّي فعنّي يؤدي، وما قال لك عنّي فعنّي يقول، فاسمع له وأطع فإنه الثقة المأمون. قال: وسألت أبا محمد عليه السلام عن مثل ذلك، فقال: العمري وابنه ثقتان، فما أدّيا إليك عنّي فعنّي يؤدّيان، وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما وأطعهما، فإنهما الثقتان المأمونان**)) الحديث.

وفيه أنه سأل العمري عن مسألة فقال: ((**محرّم عليكم أنْ تسألوا عن ذلك، ولا أقول هذا من عندي، فليس لي أنْ أحلّل ولا أحرّم**))[1].

وعن إسماعيل بن الفضل الهاشمي قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المتعة، فقال: القَ عبد الملك بن جريح فسله عنها، فإنّ عنده منها علماً، فلقيته فأملى عليّ شيئاً كثيراً في استحلالها، وكان فيما روى فيها ابن جريح أنه ليس لها وقت ولا عدد**)) إلى أنْ قال: ((**فأتيت بالكتاب أبا عبد الله عليه السلام فقال: صدق، وأقرّ به**))[2].

وعن المفضل بن عمر أنّ أبا عبد الله عليه السلام قال للفيض بن المختار في حديث: ((**فإذا أردت حديثنا فعليك بهذا الجالس، وأومى إلى رجل من أصحابه، فسألت أصحابنا عنه، فقالوا: زرارة بن أعين**))[3].

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠٠، ح٤.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠٠، ح٥.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ١٠٤، ح١٩.

وعن علي بن المسيَّب الهمداني قال: ((**قلت للرضا عليه السلام: شقَّتي بعيدة، ولست أصل إليك في كل وقت، فممّن آخذ معالم ديني؟ قال: من زكريا بن آدم القمّي، المأمون على الدين والدنيا. قال علي بن المسيّب: فلما انصرفت قدمنا على زكريا بن آدم فسألته عما احتجت إليه**))[١].

وعن عبد العزيز بن المهتدي والحسن بن علي بن يقطين قال: ((**قلت للرضا عليه السلام: لا أكاد أصل إليك أسألك عن كلّ ما احتاج إليه من معالم ديني، أفيونس بن عبد الرحمن ثقة آخذ عنه ما أحتاج إليه من معالم ديني؟ فقال: نعم**))[٢].

عن الفضل بن شاذان، عن عبد العزيز المهتدي - وكان خير قمّي رأيته، وكان وكيل الرضا عليه السلام وخاصّته - قال: ((**سألت الرضا عليه السلام فقلت: إني لا ألقاك في كل وقت، فممّن آخذ معالم ديني؟ فقال: خذ عن يونس بن عبد الرحمن**))[٣].

ب) القضاء

يمثل القضاء قضية من أهم القضايا في التنظيم العام للمجتمع الإسلامي عموماً، وللجماعة الصالحة بشكل خاص. ذلك أنّ القضاء من الموضوعات الأساسية التي نزلت من أجلها الكتب السماوية، وجاءت بها الرسالات الإلهية، لأنّ موضوع القضاء يرتبط بموضوع النزاع والاختلاف بين الناس، الذي بدأ منذ بداية تكوّن المجتمع الإنساني، وبقي هذا الموضوع يكتسب أهمية خاصة في جميع الأدوار، حتى يكاد يتصور الإنسان أنّ موضوع

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ١٠٦، ح٢٧.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠٧، ح٣٣.

(٣) وسائل الشيعة١٨: ١٠٧، ح٣٤.

الحكم والدولة إنما هو أمر مرتبط بهذا الموضوع بالأصل، ثم تطور بعد ذلك إلى النظام الاجتماعي.

ثم إنّ موضوع القضاء يبدو معقّداً بعض الشيء، لأنه يرتبط - كما قلنا - بالنزاع والاختلاف، الذي يرى فيه كل من الطرفين أو الأطراف المتخاصمة - في بعض الأحيان - أنّ الحق إلى جانبه، بل قد تكون نتيجة القضاء - أحياناً - على خلاف الحق الواقعي، فتزداد الأُمور تعقيداً، حيث يراد من صاحب الحق أنْ يتخلّى عن حقّه ويسكت، بسبب الحكم الذي توصل إليه القاضي.

ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم يربط بين الإيمان والقبول والتسليم للقضاء الذي يصدر من الرسول، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾[1].

كما نجد الرسول - وهو المعصوم المرتبط بالوحي الإلهي - يحتاط لنفسه ولمنصبه بين المسلمين عندما يقول: ((**إنما أقضي بينكم بالبينات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فإنما قطعت له به قطعة من النار ...**))[2].

وليس القضاء هنا بعلم الغيب الإلهي، لأنّ القضاء قد لا يكون متطابقاً مع الحق الواقعي، حيث لا يجد المدّعي البيّنة، فيحلف المنكر كذباً ويقضى له، أو يردّ اليمين على المدّعي فيمتنع عن أدائها تعظيماً لله تعالى وتنازلاً عن حقّه فيقضى للمنكر أيضاً، أو يأتي المدّعي بالشهود الزور ويكون ظاهرهم

---

(١) النساء:٦٥.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٦٩، ح١.

الصلاح، فيرتب عليهم القاضي الأثر فيقضي له بغير حقه الواقعي.

ومن هنا نجد أنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد واجهوا مشكلة حقيقية في أوساط الجماعة الصالحة عندما أرادوا ملء هذا الفراغ المهم في النظام العام للجماعة، واحتاجت هذه المشكلة إلى حلٍّ واقعي وعملي من قِبلهم.

وهذه المشكلة لها أبعاد عديدة، بعضها يرتبط بالسلطة الحاكمة حيث كان القضاء من المناصب الحكومية التي يحتاج التصدّي لها إلى قرار من جهاز السلطة والخلافة وإذن منها. وبذلك يختلف القضاء عن الإفتاء الذي كان يمارسه عامة العلماء والمحدثين والمتفقهين بدون حاجة إلى إذن.

وبعض هذه الأبعاد يرتبط بالقوة الإجرائية التنفيذية، حيث إنَّ القاضي يفصل الخصومة بحكمه، ولكن المنفّذ للحكم إنما هو الأجهزة التنفيذية، كالشرطة وغيرهم الذين ينفّذون الحكم بالقوّة عند امتناع أحد الطرفين. ولم تكن لدى أئمة أهل البيت هذه القوّة الإجرائية.

وبعضها يرتبط بالأُمّة، سواء من ناحية وجود العناصر المؤهلة للقيام بهذا العمل الدقيق والحساس، أم من ناحية استجابة الأُمّة للالتزام بهذا القرار الصادر من الأئمة عليهم السلام.

ومع كل هذا التعقيد في المشكلة تمكّن الأئمة عليهم السلام أنْ يوجدوا نظاماً للقضاء فعّالاً ومؤثّراً في زمان حضورهم، واستمرّ بعد ذلك في الأزمنة الأُخرى. وقدّموا من أجل تحقيق ذلك صيغة تتّسم بالدقّة والمرونة والوضوح، يمكن أنْ نلاحظها فيما ورد عنهم في هذا الموضوع.

القضاء الصحيح

ويمكن أنْ نشير إلى بعض الأبعاد والخطوات لإيجاد هذه الصيغة في النقاط التالية:

أ) الإنكار الشديد على أولئك الأفراد الذين يتحاكمون إلى قضاة الجور

المنصوبين من قبل أئمة الجور والظلم. وهذا الإنكار لا ينطلق من مسألة احتمال الاستناد في القضاء إلى حكم غير شرعي فحسب، بل ينطلق من مسألتين أساسيتين:

إحداهما: أنّ القضاء منصب إلهي لا يحق للإنسان أنْ يتولاّه إلاّ إذا كان مؤهّلاً لذلك، وبدون هذا التأهيل - الذي هو روحي وعلمي - يكون القضاء باطلاً حتى لو كان قد أصاب الواقع، وأنّ هؤلاء القضاة غير مؤهلين لهذا المنصب الإلهي.

عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**اتّقوا الحكومة، فإنّ الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء، العادل في المسلمين لنبيّ أو وصي نبي...**))[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**القضاة أربعة: ثلاثة في النار وواحد في الجنة: رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة**))[2].

وعن أبي بصير قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله ولا سنّة، فننظر فيها؟ فقال: لا، أما إنك إنْ أصبت لم تؤجر، وإنْ أخطأت كذبت على الله**))[3].

ثانيتهما: أنّ الرجوع إلى قضاة أئمة الجور إنما هو اعتراف وقبول بإمامتهم، مع أنهم طواغيت، والرجوع إليهم إنما هو تحاكم للطاغوت، فيكون مصداقاً للآية الشريفة: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما**

---

(١) وسائل الشيعة١٨: ٧، ح٣.

(٢) الكافي٧: ٤٠٧، ح١.

(٣) المحاسن١: ٢١٣، ح٩٠.

أَنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾[1].

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال في رجل كان بينه وبين أخ له مماراة في حق فدعاه إلى رجل من إخوانه ليحكم بينهما، فأبى إلاّ أنْ يرافعه إلى هؤلاء: ((**كان بمنزلة الّذين قال الله عزّ وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾**))[2].

وعن عمر بن حنظلة قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة، أيحلّ ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى طاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإنْ كان حقه ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أنْ يُكفر به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾**))[3].

ب) وقد شدّد أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا الموضوع بدرجة عالية، وفي مناسبات مختلفة، من أجل أنْ يحققوا هدفاً عملياً، وهو إيجاد الوازع الذاتي القوي الذي يعوّض عن القوة التنفيذية التي يملكها القضاة، حيث استفاد أئمة أهل البيت من عوامل الرفض للفساد والانحراف والاعتداء على الحقوق في أجهزة الدولة عامة، وفي جهاز القضاء خاصة.

ج) إتّباع أُسلوب يتّسم بالمرونة من ناحية، وقوة التنفيذ نسبياً من ناحية

---

(١) النساء: ٦٠.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ٣، ح٢.

(٣) الكافي١: ٦٧، ح١٠.

أخـرى في تـشخيص القاضـي، حيـث كـانوا يطلبـون مـن المتنـازعين والمتخاصمين أنْ يختاروا بأنفسهم ويتراضوا على تشخيص القاضي، كما ورد ذلك في مقبولة عمر بن حنظلة وموثقة أبي بصير.

حتى إنّ بعض الفقهاء قد ذهب إلى أنّ هذه الروايات لا تعيّن القاضي بالمعنى المعروف، وإنما هي تبيّن قاضي الحكم والصلح، لأنّها تشترط رضا الطرفين فيه[1]، مع أنّ ذيل الرواية ظاهر في التعيين للقاضي.

د) إعطاء خصائص عامة وميسّرة وواضحة للمؤهّلات التي يجب أنْ يتمتّع بها هذا القاضي، وكذلك الصفات التي تشخص القاضي الذي يكون لقوله الفصل عندما يختلف القضاة فيما بينهم.

عن عمر بن حنظلة قال: **((سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة، أيحلّ ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإنْ كان حقاً ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أنْ يُكفر به. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.**

قلت: فكيف يصنعان؟

قال: ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخفّ بحكم الله وعلينا ردّ، والرادّ علينا كالرادّ على الله، وهو على حد الشرك بالله))[2].

---

(١) آية الله السيد الخوئي قدس سره، منهاج الصالحين١: ٤.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ٩٩، ح١.

ج) الولاية

لاشكَ أنَ الولاية والإمامة هي أهم منصب إلهي في النظام الإسلامي كما صرّح القرآن الكريم بذلك، وكذلك النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام حسب ما أشرنا إليه في بعض المواضع السابقة.

ويمكن أنْ تدخل المهمة الأُولى (البلاغ وبيان معالم الدين) والمهمة الثانية (القضاء) في ضمن هذا المنصب الإلهي الخطير.

ولعلّ جلالة هذا المنصب وقدسيته من ناحية، وكثرة المدّعين له من الطغاة والظالمين وأئمة الجور من ناحية أُخرى، هي التي جعلت أئمة أهل البيت عليهم السلام ينكرون على الآخرين ادّعاءهم له من ناحية، وتأكيدهم لاختصاص هذا المنصب بهم وحدهم من ناحية أُخرى.

وهذا يفسّر لنا - أيضاً - قلَة أو غموض النصوص التي وردت في بيان أنَ المجتهد العادل والعالم بالأحكام الشرعية له حق الولاية العامة بعد أهل البيت عليهم السلام، لأنَ أهل البيت عليهم السلام كانوا بصدد تأكيد اختصاص الولاية بهم بالأصل، لئلاً يفتح ثغرة نفسية أو ذهنية تفسح المجال لتصوّر آخر، وهو أنَ للآخرين الأدعياء مثل هذا الحق، أو تصور أنَ هذا الحق إنما هو في موازاة حقهم في الولاية.

كما أنّ الملاحظ في نصوص القضاء عموماً هذا الاتجاه وهو حصر القضاء بهم، عدا بعض النصوص التي حاول بعض الفقهاء - كما أشرنا - تفسيرها بتعيين قاضي الصلح وحكم التراضي.

ومن هنا نجد - أيضاً - أنَ جماعة من الفقهاء يذهبون إلى عدم وجود النص على تعيين المجتهد (خصوصاً) لهذا المنصب الإلهي، لكنهم أقروا بأنَ هذا المنصب الإلهي لا يمكن أنْ يُترك خالياً من المسؤولية، وأنَ الفرد الذي يمثل (القدر المتيقن) من المسلمين الذين يتحملون هذه المسؤولية هو المجتهد

الجامع للشرائط. وبذلك ينتهون إلى نفس النتيجة الكلية في تشخيص أنَ المجتهد هو الذي يتولى هذا المنصب، ولكن بطريق آخر وهو (دليل الحسبة)[1].

وعلى أي حال فهناك مجموعة من النصوص تشير أو يفهم منها - ظاهراً أو صريحاً - هذه الولاية. ومع قطع النظر عن المناقشات التفصيلية لكل واحد من هذه النصوص، إلاّ أنه يمكن أنْ يفهم منها إجمالاً هذا الاتجاه النظري في رؤية أهل البيت عليهم السلام لنظام الجماعة الصالحة، وهي أنْ يتولّى الفقيه المجتهد هذه الشؤون.

بل يمكن أنْ نقول: إنّ هذه الولاية هي حقيقة قائمة في وسط أتباع أهل البيت عليهم السلام كان يمارسها المجتهدون، ويفتي بها العلماء، مع قطع النظر عن طريقة الاستدلال عليها.

ولعلّ من أفضل النصوص التي يمكن الاستدلال بها على هذا الحكم هو الآية الكريمة الرابعة والأربعين من سورة المائدة السابقة، وكذلك التوقيع المعتبر المروي عن الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في قوله: ((**وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله**))[2]، حيث يفهم من الحديث أنّ المراد من الحوادث هو الموضوعات الخارجية التي يواجهها الإنسان في حركته اليومية، والتي تحتاج إلى موقف شرعي،

---

(١) لقد تناول الفقهاء هذا الموضوع في بحث الولاية العامة، وذهب بعضهم إلى ولاية الفقيه بالنص، وبعضهم إلى ولايته بدليل الحسبة، أو بأدلّة أُخرى. وقد تناولناه تناولاً مركزاً وميسراً في كتابنا (الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق). ولا نريد هنا أنْ نتناول هذا الموضوع من هذا الجانب، بل نريد أنْ نتناوله من خلال الأساس الكلّي النظري.

(٢) وسائل الشيعة١٨: ١٠١، ح٩.

مضافاً إلى اقتران حجيّة الرواة مع حجيّة الإمام على الناس في الحديث، وهي شاملة وعامة. كما يمكن أنْ يُفهم هذا المعنى أيضاً من أحاديث القضاء الذي يعتبر من أهم مناصب الولاية وأخطرها، كما أشرنا إلى ذلك.

وبهذه المفردة تكتمل صورة النظرية في نظام الجماعة، وهي نظرية الإمامة، ويصبح (المجتهد) هو المرجع للمؤمنين من أبناء الجماعة الصالحة الذي يقوم بدور الإمام.

ويتعيّن هذا الإمام ويتشخّص من بين المجتهدين المتعددين، إما باختيار الأُمة له اختياراً طبيعياً وتدريجياً، من خلال وجوب الفحص عن خصائصه الذاتية المطلوبة، من العلم والعدالة والخبرة والكفاءة وغيرها، والتي يشهد بها أهل الخبرة حيث يجب تقليده عندئذ والارتباط به، أو باختيار الأُمَة له بانتخابها عن طريق الاقتراع (المباشر)، أو غير المباشر، بأنْ تقوم الأُمة بانتخاب الخبراء ويقوم الخبراء وأهل الحلّ والعقد بانتخابه، وذلك عندما تملك الأُمَة إرادتها وحريّتها في هذا الانتخاب، ويمكنها أنْ تعبّر عنه تعبيراً واضحاً، كما اختار ذلك بعض الفقهاء، والتزم به دستور الجمهورية الإسلامية[1].

---

(١) تحدثنا عن ذلك في كتابنا: الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق ص١٩٣. نص المادة الخامسة من دستور الجمهورية الإسلامية في إيران.



الهوية وأبعادها

١. الهوية ودورها

٢. أبعاد الهوية

٣. مشخصات الهوية

١. الهوية ودورها

هوية الجماعة: هي تلك الخصائص والميزات العامة التي تميز الجماعة عن غيرها، كالاسم، والأصل، والصفات الشخصية، والانتماء، والدرجة.

وقد اهتم أهل البيت عليهم السلام في موضوع تشخيص هوية الجماعة الصالحة وتحديد معالمها اهتماماً بالغاً، لما يشتمل على ذلك من آثار ونتائج مهمة تنعكس على السلوك العام للجماعة، وتوضح الأهداف لها ولمسيرتها وتضبط وتنظم محتوى ومضمون شعائرها.

فأوّلاً: نجد أنّ تشخيص الهوية يساهم إلى حدٍّ كبير في بناء شخصية الفرد في الجماعة الصالحة على أساس معالم الهوية، لأنّ الإنسان يهتم بالتعبير عن هويته ويسعى دائماً إلى تأكيدها؛ لأنها جزء من شخصيته ووجوده.

وثانياً: أنّ تحديد الهوية يوضح طبيعة الانتماء والتوجه الفكري والسياسي، ويرسم الخط الذي يسير عليه أبناء الجماعة في الحياة الاجتماعية.

وثالثاً: إيجاد القاعدة الواحدة لبناء الجماعة الصالحة، كما يؤكد العلاقات والارتباط بينها ويوجد وسيلة التفاهم والتعاون بين أبنائها.

ورابعاً: يمنح الجماعة الصالحة القوة والمنعة وأسباب الجذب والتأثير في الآخرين عندما تكون عناصر الهوية ومقوماتها قوية وعالية، حيث تكون الهوية هي عنوان الجماعة ووجها المضيء الذي يؤتى من خلاله إلى الجماعة.

٢. أبعاد الهوية

وقد اهتم أهل البيت عليهم السلام في تحديد معالم هوية الجماعة الصالحة بعدة أبعاد رئيسة تمثل المضمون العام للرسالة الإسلامية، ونجد هذه الأبعاد

واضحة في الروايات التي وردت عنهم وهم يتحدثون فيها مع أتباعهم وشيعتهم عن هويتهم، ويرسمون فيها معالمها ويحددون لهم شخصيتهم.

البعد الأوّل: الإسلام والرسالة الإسلامية في مضمونها وأهدافها، حيث نلاحظ الاهتمام بذكر المفاهيم والمصطلحات القرآنية، ووضع الأهداف الرسالية الإسلامية والمضامين الروحية والمعنوية في صلب هذه المعالم؛ لأنَّ أهل البيت عليهم السلام أرادوا للجماعة الصالحة أنْ يعيشوا في ضمن الأُمة الإسلامية وكجزء منها يتحملون مسؤوليتها ويؤثّرون فيها، ويعملون من أجل تحقيق أهدافها، بل أرادوا لهم أنْ يكونوا القدوة والأُسوة الصالحة لها.

البعد الثاني: الجذر التأريخي والرسالات الإلهية السابقة، وإنَّ وجود الجماعة الصالحة ليس حدثاً طارئاً في التأريخ الإسلامي أفرزته الظروف السياسية الاستثنائية، التي أدت إلى إبعاد أهل البيت عن قيادة التجربة الإسلامية، بل هي جماعة تمثل في جذورها امتداداً للرسالات الإلهية السابقة وهدفاً لها، شأنها في ذلك شأن الإسلام نفسه، الذي حرص على تأكيد هذا الجذر التأريخي له من خلال تأكيد تصديقه للرسالات السماوية وارتباطه بدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

البعد الثالث: الولاء لأهل البيت عليهم السلام بمعناه العميق والشامل من الحب والنصرة والعهد والميثاق معهم والانتماء إليهم سياسياً وفكرياً وسلوكياً، وتحمل مسؤولية هذا الانتماء وآلامه ومصاعبه.

حيث يمثل أهل البيت عليهم السلام الامتداد الطبيعي للنبوة الخاتمة والاستمرار للإمامة الربانية والخلافة الإلهية.

كما أنهم يمثلون الخط الإسلامي الأصيل في فهم الإسلام ومعارفه ومواضع تنزيله وتأويله.

البعد الرابع: الفطرة الإنسانية والعزة والكرامة والشرف الاجتماعي،

حيث يكون الانسجام مع الفطرة الإنسانية والسلوك العالي وتقوى الله هو ميزان الكرامة والفوز والسبق والأفضلية، سواء في الدار الدنيا أم في الدرجات العالية والفضل عند الله تعالى.

وهذا البعد في الهوية له أهمية خاصة في منح الشخصية خصوصية قادرة على التكيف والتعايش مع المجتمع الإنساني، والقدرة على مقاومة الحصار والعزلة التي تفرضها الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية.

٣. مشخصات الهوية

ويمكن أنْ نلاحظ هذه الأبعاد عندما نراجع عناوين مشخصات الهوية التي طرحها أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم.

١. الاسم

طرح أهل البيت عليهم السلام على مستوى الاسم - كما ستلاحظ ذلك في عموم الروايات الآتية - كلمة (شيعة) ومصطلح (مؤمن) وعنوان (موالي) كأسماء لأبناء الجماعة يعرفون بها.

فعن أبي بصير، عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال: ((**ليهنئكم الاسم، قلت: ما هو جعلت فداك؟ قال: الشيعة، قيل: إنَّ الناس يعيروننا بذلك، قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾، وقوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فليهنئكم الاسم**))[1].

حيث نلاحظ في هذا الحديث أنه يربط هذا الاسم الشريف بالجذر التأريخي له وهو إبراهيم عليه السلام الذي كان شيعة لنوح عليه السلام، وفي الوقت نفسه يستنبط الاسم من القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القمي٢: ٢٢٣، وعنه بحار الأنوار٦٨: ١٢، ح١٣، باختلاف في الألفاظ.

ويؤكد ذلك ما ورد في حديث آخر عن أبي بصير قال: ((**سمعت جعفر بن محمد عليه السلام وهو يقول: نحن أهل بيت الرحمة، وبيت النعمة، وبيت البركة، ونحن في الأرض بنيان، وشعيتنا عرى الإسلام، وما كانت دعوة إبراهيم إلاّ لنا وشيعتنا، ولقد استثنى الله إلى يوم القيامة إلى إبليس فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾**))(١).

وقد عرفنا سابقاً كيف عالج أهل البيت الاسم الذي كان يطلقه أعداؤهم على أتباعهم، وهو اسم (رافضي) ببيان الجذر التأريخي له، وهو رفض صالحي أتباع موسى لعبادة العجل عندما عبده بنو إسرائيل وتخلفوا عن هارون.

٢. الأصل

وعلى مستوى (الأصل) و(الطينة) فالشيعة هم من الأُصول الشريفة والأنساب العالية والمعادن النقية، وهم من (الطينة) التي ينتسب إليها أهل البيت عليهم السلام.

عن أبي ذر الغفاري قال: ((**رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد ضرب كتف علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، وقال: يا علي، من أحبنا فهو (العربي)، ومن أبغضنا فهو العلج، شيعتنا أهل البيوتات والمعادن والشرف، ومن كان مولده صحيحاً، وما على ملّة إبراهيم عليه السلام إلاّ نحن وشيعتنا، وسائر الناس منها براء، وإنّ لله ملائكة يهدمون سيئات شيعتنا كما يهدم القوم البنيان**))(٢).

---

(١) تفسير العياشي٢: ٢٤٣، ح١٨، وعنه بحار الأنوار٦٨: ٣٥ – ٣٦، ح٧٥.

(٢) أمالي المفيد: ١٦٩، ح٤، وفيه: (يهدم القدوم البنيان)، الأمالي للطوسي: ١٩٠ – ١٩١، ح٣٢٢، وعنهما البحار٦٨: ٢٣، ح٤١.

وعن الحارث عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ((**مثلي مثل شجرة أنا أصلها وعلي فرعها، والحسن والحسين ثمرتها، والشيعة ورقها، فأبى أنْ يخرج من الطيب إلاّ الطيب**))[١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: ((**يا علي، شيعتك هم الفائزون يوم القيامة، فمن أهان واحداً منهم فقد أهانك، ومن أهانك فقد أهانني، ومن أهانني أدخله الله نار جهنم خالداً فيها وبئس المصير. يا علي، أنت مني وأنا منك، روحك من روحي، وطينتك من طينتي، وشيعتك خلقوا من فضل طينتنا، فمن أحبهم فقد أحبنا، ومن أبغضهم فقد أبغضنا، ومن عاداهم فقد عادانا، ومن ودّهم فقد ودّنا ...**))[٢] الحديث.

وهذه الأُصول ذات بعد إنساني واجتماعي وإسلامي في الوقت نفسه، لأنّ المهم في نقاء الأصل وشرفه هو طهارة المولد ونظافة المعتقد وحسن المصير.

٣. الصفات

وعلى مستوى الصفات نجد أهل البيت عليهم السلام يطلقون على أتباعهم صفات قرآنية مثل (الصالحون)، (أولو الألباب) و(أولياء الله) و(المصلين) و(أصحاب اليمين) و(خير البرية) وغيرها.

عن أبي بصير قال: ((...**قال الإمام الصادق عليه السلام: وقد ذكركم الله تعالى بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الموضع النبيون، ونحن الصدّيقون والشهداء، وأنتم الصالحون، وأنتم والله شيعتنا ...**

---

(١) أمالي الطوسي: ٣٥٣، ح٧٣١.

(٢) أمالي الصدوق: ٦٦، ح٣٢، بشارة المصطفى: ٤٢، ح٣١.

وقال: لقد ذكركم الله في كتابه حيث قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ فنحن الذين نعلم، وأعداؤنا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب))[١].

وعن بعض الفقهاء قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ثم قال: تدرون من أولياء الله؟ قالوا: من هم يا أمير المؤمنين؟ فقال: هم نحن وأتباعنا، فمن تبعنا من بعدنا، طوبى لنا، طوبى لنا، وطوبى لهم، وطوباهم أفضل من طوبنا، قيل: ما شأن طوباهم أفضل من طوبانا؟ ألسنا نحن وهم على أمر؟ قال: لا، لأنهم حملوا ما لم تحملوا عليه، وأطاقوا ما لم تطيقوا**))[٢].

وعن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قوله عزَ وجل: **﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾**، قال: ((**أولئك والله أصحاب الخمسين من شيعتنا، قال: قلت: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قال: أولئك أصحاب الخمس صلوات من شيعتنا، قال: قلت: (وأصحاب اليمين) قال: هم والله من شيعتنا**))[٣].

وعن عنبسة العابد عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزَ وجل: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾**، قال: ((**هم شيعتنا أهل البيت**))[٤].

وعن يعقوب بن ميثم، أنه وجد في كتاب أبيه أنَ علياً عليه السلام قال:

---

(١) بحار الأنوار٢٧: ١٢٣ – ١٢٥، ح١١١، عن كتاب فرج الكرب.

(٢) تفسير العياشي٢: ١٢٤، ح٣٠.

(٣) تأويل الآيات الظاهرة ٢: ٧٢٤، ح٤.

(٤) المحاسن١: ١٧١، ح١٣٩.

((سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، ثم التفت إليّ، فقال: هم، أنت يا علي وشيعتك، وميعادك وميعادهم الحوض يأتون غراً محجّلين متوّجين))[1].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾** قال: **((هم شيعتنا أهل البيت))**[2].

ولاشك أنّ انتزاع هذه الصفات من القرآن الكريم أو تطبيقها عليهم يحقق للجماعة عدة أبعاد للهوية، كالبعد الإسلامي الأوّل والإنساني الأخلاقي الرابع والتأريخي الثاني.

كما يحدد لهم بذلك المسار الذي لابدّ للجماعة أنْ تلتزمه، ويبني فيها المعاني والمضامين العالية التي توحي بها هذه الصفات.

فقد وردت في وصف سلوك الشيعة والتزامهم أحاديث كثيرة أشرنا إلى بعضها سابقاً في بحث الأهداف والخصائص.

ومن الأحاديث الجامعة لذلك ما ورد عن أبي بصير قال: **((قال الصادق عليه السلام: شيعتنا أهل الورع، وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكون أموالهم، ويحجون البيت، ويجتنبون كل محرم))**[3].

---

(١) بحار الأنوار٦٥: ٥٣ - ٥٤، ح٩٦، عن كنز جامع الفوائد، وراجع تفسير ابن جرير الطبري٣٠: ١٧١، والدر المنثور٨: ٥٨٩، طبعة دار الفكر، والصواعق المحرقة: ١٦١.

(٢) المحاسن١: ٢٧٥، ح٥٣٧، وعنه البحار٦٨: ٣٠، ح٥٩.

(٣) صفات الشيعة: ٢، وعنه بحار الأنوار٧٩: ٢٩١، ح١٩، باختلاف يسير.

٤. الانتماء

وعلى مستوى الانتماء يؤكد أهل البيت عليهم السلام أنّ الجماعة تنتمي إلى الله سبحانه وتعالى والإسلام والنبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ أبناء الجماعة هم من أهل البيت عليهم السلام انتماءً وانتساباً، وأهل البيت هم أولى بالله تعالى وبالنبي والإسلام على أساس القاعدة القرآنية ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1]. وما ورد متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لسلمان الفارسي: ((**سلمان منا أهل البيت**)).

وقد جاءت روايات عديدة تؤكد هذا المعنى في أتباع أهل البيت وشيعتهم كما سبق:

عن عمر بن يزيد قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: يا بن يزيد، أنت والله منّا أهل البيت، قلت: جعلت فداك، من آل محمد؟ قال: إي والله من أنفسهم يا عمر، أما تقرأ كتاب الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ؟﴾ أو ما تقرأ قول الله عز اسمه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ؟﴾**))[2].

وعن سدير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((**أنتم آل محمد، أنتم آل محمد**))[3].

وهذا كقول الرسول صلى الله عليه وآله: ((**سلمان منّا أهل البيت**))[4].

---

(١) آل عمران:٦٨.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٥، ح٢٢، وعنه بحار الأنوار٦٥: ٢٠، ح٣٢.

(٣) المحاسن١: ١٤٣، ح٤٠.

(٤) مجمع البيان٢: ٤٢٧ – ٤٢٨، وعنه البحار٢٠: ١٨٩، وتاريخ الطبري٢: ٢٣٥، وكنز العمال١١: ١٩٠، برقم: ٣٣٣٤٠.

وقد روى العياشي في تفسيره عن الصادق عليه السلام أنه قال: ((**من تولى آل محمد وقدّمهم على جميع الناس بما قدمهم من قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله فهو من آل محمد لتوليه آل محمد، لا أنه من القوم بأعيانهم، وإنما هو منهم بتوليه إليهم وإتباعه إياهم، وكذلك حكم الله في كتابه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقول إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1].

٥. الدرجة

وعلى مستوى الدرجة والفضل والأجر والثواب والمنزلة عند الله والرتبة المعنوية التي يستحقها أتباع أهل البيت عليهم السلام، يؤكد أهل البيت أنّ لهؤلاء الشيعة الفضل والثواب العظيم والأجر الجزيل.

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ((**يخرج أهل ولايتنا يوم القيامة من قبورهم مشرقة وجوههم، مستورة عوراتهم، آمنة روعاتهم، قد فرجت عنهم الشدائد، وسهلت لهم الموارد، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون، وقد أُعطوا الأمن والأمان، وانقطعت عنهم الأحزان، حتى يحملوا على نوق بيض لها أجنحة، عليهم نعال من ذهب شركها النور، حتى يقعدون في ظل عرش الرحمن على منابر من نور، بين أيديهم مائدة يأكلون عليها حتى يفرغ الناس من الحساب**))[2].

قال سلمان الفارسي: ((**كنت ذات يوم جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: يا علي، ألا أبشّرك؟ قال: بلى يا**

(١) تفسير العياشي٢: ٢٣١، ح٣٤.

(٢) قرب الإسناد: ١٠١ – ١٠٢، ح٣٤١.

رسول الله، قال: هذا حبيبي جبرئيل يخبرني عن الله جل جلاله أنه قد أعطى محبّيك وشيعتك سبع خصال: الرفق عند الموت، والأنس عند الوحشة، والنور عند الظلمة، والأمن عند الفزع، والقسط عند الميزان، والجواز على الصراط، ودخول الجنة قبل سائر الناس من الأُمم بثمانين عاماً))[1].

وعن زيد بن علي، عن آبائه، عن عليعليه السلام قال: ((**شكوت إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله حسد من يحسدني، فقال: يا علي، أما ترضى أنْ أول أربعة يدخلون الجنة؟ أنا وأنت وذرارينا خلف ظهورنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا**))[2].

وأخرج الدارقطني عن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: ((**يا أبا الحسن، أما إنّك وشيعتك في الجنة**))[3].

وعن أبي سعيد الخدري، عن أم سلمة قالت: ((**كانت ليلتي من رسول اللهصلى الله عليه وآله فأتته فاطمة عليها السلام فسبقها عليٌّعليه السلام فقال له النبيصلى الله عليه وآله: يا علي أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة ...**))[4] الحديث.

أخرج المغازلي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: ((**يدخل من أُمتي الجنة سبعون ألفا لا حساب عليهم، ثمّ التفت إلى عليعليه السلام وقال: هم شيعتك وأنت إمامهم**))[5].

---

(١) أمالي الصدوق: ٤١٦، ح٥٤٨.

(٢) الخصال، كنز العمال١٢: ١٠٥، ح٣٤٢٠٥، وابن عساكر٢: ٣٢٩، ح٨٣٥، الصواعق: ١٦١، ولكن باختلاف يسير في بعض الألفاظ.

(٣) تاريخ بغداد١٢: ٢٨٩.

(٤) المعجم الأوسط٦: ٣٥٥.

(٥) الإرشاد١: ٤٢، مناقب ابن المغازلي: ٣٩٣، ح٣٣٥، لسان الميزان ٤: ٣٥٩ –

←

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**إنّ الله عزّ وجل أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا والدين، والفُلج[١] في الآخرة، والمهابة في صدور العالمين**))[٢].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ المؤمن يعرف في السماء كما يعرف الرجل أهله وولده، وإنه لأكرم على الله من ملك مقرّب**))[٣].

مضافاً إلى ذلك نلاحظ الدرجات العالية التي يحصل عليها أتباع أهل البيت عليهم السلام في الدار الآخرة.

عن أبي بصير قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: والله ما بعدنا غيركم، وإنكم معنا في السنام الأعلى، فتنافسوا في الدرجات**))[٤].

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام يطبقون عليهم الدرجات (القرآنية) التي يخص بها المؤمنون الخالصون مثل: (السابقون) و(الفائزون).

عن ابن عباس قال: ((**سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فقال: قال لي جبرئيل عليه السلام: ذاك علي وشيعته هم السابقون إلى الجنة، المقربون إلى الله تعالى بكرامته لهم**))[٥].

وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**شيعة علي هم**

٣٦٠، ح١٠٥٢، لابن حجر، المناقب للخوارزمي: ٣٢٨، ح٣٤٣.

(١) والفلج بالضم: النصر والفوز وفي بعض النسخ الفَلَح بالحاء المهملة.

(٢) الخصال: ١٣٩، ح١٥٧.

(٣) عيون اخبار الرضا١: ٣٧، ح٦٢.

(٤) المحاسن١: ١٤٢، ح٣٨.

(٥) أمالي المفيد: ٢٩٨، ح٧.

الفائزون يوم القيامة))[١].

وعن جابر بن يزيد، عن محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال: ((**سئلت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله عن علي بن أبي طالب عليه السلام قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ علياً وشيعته هم الفائزون))**[٢].

ومن الواضح أنّ هذه الدرجات تعبّر عن الأبعاد الأربعة في الهوية، سواء في بعدها الإسلامي أم التأريخي أم السياسي أم الإنساني.

وبهذه المعالم والمشخصّات تتحدد هوية المؤمن الشيعي الموالي لله عزّ وجلّ وللرسول ولأهل البيت عليهم الصلاة والسلام كجزء من النظام العام الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام للجماعة الصالحة.

---

(١) عيون اخبار الرضا١: ٥٧، ح٢٠١.

(٢) الإرشاد١: ٤١.



العلاقات

١. العلاقة بين الجماعة الصالحة والمرجع

٢. العلاقة الداخلية للجماعة الصالحة

٣. العلاقة الخارجية مع الجماعات الأُخرى

١. العلاقة بين الجماعة الصالحة والمرجع

تمثل العلاقة بين الجماعة والمرجع الرابطة التنظيمية الأساسية التي تنظّم أمور الجماعة الصالحة، حيث يمثل المرجع المحور المركزي لهذا النظام، والأُمّة تمثل القاعدة التي يرتكز عليها هذا النظام.

ويمكن تلخيص أبعاد هذه العلاقة بين الجماعة والمرجع الديني بالنقاط التالية:

أ) إنّ طرف الولاء الديني والسياسي الذي يمثل مضمون العلاقة في نظام الجماعة الصالحة هو الإنسان الصالح بمواصفاته العامة الكمالية لا الشخصية، التي تتمثل - مضافاً إلى الخصائص الأساسية كالعقل وغيره - بالعدالة والاجتهاد والخبرة، والصفات الشخصية كالشجاعة وغيرها، كما عرفنا في الفصل الأوّل.

وبذلك يفترق المرجع عن النبي والإمام، حيث إنّ النبي والإمام منصوب بالشخص للنبوة والإمامة، أمّا المرجع فهو منصوب بالعنوان والمواصفات.

وهذا الولاء يتخذ أبعاداً ومضامين متعددة على مستوى العواطف والمشاعر كالحب والودّ والتقديس، أو على مستوى السلوك والأدب الاجتماعي العام كالاحترام والتعظيم، أو على مستوى الالتزام والتعهّد كالبيعة والميثاق، أو على مستوى الأداء والتنفيذ والسيرة العملية، كالطاعة والامتثال والنصرة وأخذ الشريعة منه أو القبول والتسليم لحكمه.

وبهذا الصدد لابدّ أنْ نشير إلى أنّ المرجع قد يكون مرجعاً في (الفتيا) وأخذ معالم الدين منه، وقد يكون مرجعاً في (القضاء) وقبول فصل الخصام والخلاف بحكمه، وقد يكون مرجعاً في (الولاية) والأُمور السياسية والاجتماعية والطاعة له في أوامره والالتزام بإدارته لهذه الأُمور.

وقد تجتمع في المرجع كل هذه الأُمور والمسؤوليات عندما يكون مؤهلاً لها ومتصدياً للقيام بها، وقد يتعدد المرجع لتعدد الكفاءات والاختلاف في مستوياتها، أو لعدم تصديه لها جميعاً بشكل عام أو في منطقة معينة، ولابدَ من الرجوع - عندئذ - فيها إلى الأعلم في المجال الخاص: (الفتيا) أو (القضاء) أو (الولاية) أو في المنطقة الخاصة عند التعدد والاختلاف ووجود الحاجة إلى الفصل وتشخيص الموقف السياسي أو العملي أو الحقوقي. وبذلك تكون المرجعية تخصيصية حسب قابليات المرجع ومؤهلاته وممارساته.

ب) المقاييس في درجة العلاقة التنظيمية مع المرجع والقيادة ومستواها، وتحقق الامتيازات والتفاضل بين أبناء الجماعة تجاه المرجع يكون من خلال الضوابط والخصائص الأصيلة في الإسلام التي وضعها للتفاضل والامتياز، حيث تكون هذه الخصائص هي الدرجة التنظيمية للجماعة، وذلك مثل: الإيمان بالله والرسالة والإمامة، والتقوى والجهاد والعلم، والسبق للتضحية والفداء.

ج) طبيعة هذه العلاقة بين المرجع وأبناء الجماعة الصالحة هي علاقة إلزامية تتَصف بالوجوب - بشكل عام - وذات مسؤولية وحقوق وواجبات ترتبط بالتكاليف الشرعية لكل من المرجع والإنسان المؤمن من أبناء الجماعة الصالحة[1]، ولا يوجد فيها خيار لأحدهما تجاه الآخر.

د) وتتحقق وتوجد هذه الرابطة من خلال حركتين متلاقيتين:

إحداهما: يقوم بها المرجع، حيث يتحمل مسؤولية التصدّي للقيام بالمسؤوليات والواجبات الإلهية من البلاغ والتزكية والتعليم.

---

(١) تناولنا هذا الموضوع في بحث خاص تحت عنوان: العلاقة بين القيادة الإسلامية والأمة من منظور نهج البلاغة. وقد طبع في كراس مستقل.

وثانيتهما: يقوم بها الإنسان المؤمن، حيث يتحمل مسؤولية الفحص للوصول إلى الحقيقة، واختيار المرجع والارتباط بالمحور الصالح (المجتهد العادل)؛ وبعد الوصول إلى هذه الحقيقة يجب الالتزام بمضمون هذا الارتباط أخلاقياً ودينياً، كما أشرنا في الفصل الأوّل.

قال الإمام علي عليه السلام: ((**أيها الناس إنّ لي عليكم حقاً، ولكم عليّ حق: فأمّا حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأمّا حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم**))[١].

فالمرجع يتصدّى لدوره الديني السياسي والاجتماعي والحقوقي، والإنسان المؤمن لابدّ له أنْ يفحص عن هذا المرجع، وعن توفر الشروط والمواصفات المطلوبة، ليعرف الحقيقة والموقف الصحيح انطلاقاً من الحديث المتضافر: ((**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**))[٢]. وكذلك الحديث: ((**فانظروا علمكم هذا عمن تأخذوه**))[٣].

ونرى - من الجانب الآخر - أنّ أبناء الجماعة الصالحة - على مستوى هذه العلاقة - يعرفون المرجع والقيادة الإسلامية لهم دائماً، بحيث أصبح ذلك من الثقافة العامة التي يختص بها أتباع أهل البيت عليهم السلام، والمعروفة بينهم بـ (التقليد)، ويلتزمون بواجباتهم تجاهها. ولكن - من الجانب الآخر - ليس

---

(١) نهج البلاغة١: ٨٤، خطبة ٣٤.

(٢) مسند أحمد٤: ٩٦. المعجم الكبير١٩: ٣٨٨. الملل والنحل١: ١٩٢. شرح نهج البلاغة٩: ١٥٥. كنز العمال١: ٢٠٧ و٢٠٨. ينابيع المودة٣: ٣٧٢. وغيرها من المصادر كثير.

(٣) الكافي١: ٣٢، ح٢.

من الضروري أنْ يعرف المرجعُ والقيادة جميعَ أبناء الجماعة، بل يمكن أنْ تقوم القيادة بواجباتها العامة تجاه أبناء الجماعة بدون معرفتها بجميع الأفراد.

وبهذه الأبعاد يمكن أنْ نميّز تمييزاً واضحاً الفروق الأساسية بين نظام الجماعة الصالحة والتنظيمات (الحزبية) المعروفة، حيث يكون الولاء في التنظيمات الحزبية عادة للتنظيم لا للشخص الصالح، وتكون مقاييس التفاضل فيها هي النشاط التنظيمي لا المقاييس الواقعية، ويكون التحرّك لإيجاد العلاقة بالأصل من خلال حركة القيادة الحزبية لكسب الأفراد، لا حركة الأفراد المؤمنين من أجل معرفة القيادة.

وكذلك يجب في التنظيمات الحزبية أنْ تعرف القيادة الأفراد جميعاً، وقد تكون القيادة سرية تجاههم. أمّا في الجماعة الصالحة فلابدّ أنْ تكون القيادة معروفة لأفراد الجماعة. وبهذا نعرف أنّ الصورة التنظيمية في الأحزاب، إذا أُريد لها صياغة عموم الجماعة من خلالها، هي على العكس من صورة التنظيم في الجماعة الصالحة التي وضعها أهل البيت عليهم السلام، وهي نظام المرجعية والولاية، وأمّا إذا أُريد للحزب أنْ يكون مؤسسة في نظام الجماعة، فهذا يدخل ضمن مفردة المؤسسات.

الاتصال المباشر ونظام الوكلاء

إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد أنْ شخصوا حدود ومضمون العلاقة بين القيادة والأُمّة، وأكدوا على دورهم القيادي والديني في أوساط الجماعة وأهمية ولايتهم وإمامتهم، وأصبح هذا الموضوع واضحاً في الأوساط العامة لأتباعهم، بدأوا ينظّمون هؤلاء الأتباع عن طريق توضيح وتشخيص شكل هذه العلاقة بينهم وبين أتباعهم.

فقد طرح أهل البيت عليهم السلام شكلين من العلاقة تم تأكيدهما بشكل متوازي

ومتوازن؛ باعتبار أنهما مطلوبان معاً ويتكامل احدهما مع الآخر.

الأوّل: الاتصال المباشر

الاتصال المباشر مع أئمة أهل البيت عليهم السلام والقيادة الدينية من خلال لقائهم وزيارتهم والأخذ المباشر عنهم والاستماع إلى توجيهاتهم وإرشاداتهم، وتحمل أعباء السفر أو المراسلة لهم، أو استثمار الفرص المواتية للاجتماع بهم كالحج.

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا من جانبهم يحرصون في الوقت ذاته على هذا الاتصال، فيبعثون الرسائل والأشخاص والوصايا التوجيهية العامة لشيعتهم وأتباعهم.

ونجد عدداً كبيراً من النصوص والروايات التي تنص على هذا المنهج وهذا الشكل والأسلوب في تجسيد العلاقة. كما نجد في مطاوي روايات أُخرى ما ينبئ ويشير إلى ممارسة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم لهذا الشكل والأسلوب للعلاقة والحرص عليه.

فقد وردت نصوص عديدة تفيد أنّ كمال الحج هو لقاء الأئمة عليهم السلام وزيارتهم.

روى الكليني بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**إنما أمر الناس أنْ يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم**))[1].

كما روي أيضاً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**تمام الحج لقاء الإمام**))[2].

---

(١) الكافي٤: ٥٤٩، ح١.

(٢) الكافي٤: ٥٤٩ ح٢.

وعن يحيى بن يسار قال: ((**حججنا فمررنا بأبي عبد الله عليه السلام فقال: حاجّ بيت الله وزوار قبر نبيه صلى الله عليه وآله وشيعة آل محمد! هنيئاً لكم**))(١).

وعن ذريح المحاربي قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ الله أمرني في كتابه بأمر فأُحب أنْ أعمله، قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لقاء الإمام ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك، قال عبد الله بن سنان: فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك، قال: قلت: جعلت فداك إنّ ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت له: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لقاء الإمام ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك، فقال: صدق ذريح وصدقت، إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟!**))(٢).

وعن الصادق عليه السلام قال: ((**إذا حج أحدكم فليختم حجه بزيارتنا؛ لأنّ ذلك من تمام الحج**))(٣).

ومضافاً إلى ذلك نلاحظ روايات متظافرة تحث على زيارة الأئمة عليهم السلام في حياتهم وكذلك بعد مماتهم.

عن محمد بن سنان، عن محمد بن علي رفعه قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، من زارني في حياتي أو بعد موتي أو زارك في حياتك أو بعد موتك أو زار ابنيك في حياتهما أو بعد موتهما ضمنت له يوم القيامة أنْ أُخلصه**

---

(١) الكافي٤: ٥٤٩، ح٣.

(٢) الكافي٤: ٥٤٩، ح٤.

(٣) علل الشرائع٢: ٤٥٩، ح١.

من أهوالها وشدائدها حتى أصيرّه معي في درجتي))[١].

وكـذلك مـا ورد مـن حـديث عـنهم يؤكـد انتظـارهم وتـرقبهم لزيـارة شيعتهم.

عن علي بن عبد العزيز قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم ورؤيتكم وزيارتكم، وإني لعلى ديـن الله وديـن ملائكته، فأعينوا على ذلك بورع، أنا في المدينة بمنزلة الشعرة، أتقلقل حتى أرى الرجل منكم، فأستريح إليه))**[٢].

وكذلك يؤكد هذا المنهج ما ورد عنهم من الأمر بالانتظار للرجوع إلـيهم عند لقائهم، وذلك عندما يقع الشك لدى شيعتهم فيما ينقل عنهم أو ينسب إليهم إذا اختلف الحديث في ذلك.

فقد ورد في آخر الرواية المعروفة - مقبولـة عمر بـن حنظلـة -: ((**إذا كـان ذلـك فأرجئـه حتـى تلقـى إمامـك، فـإنّ الوقـوف عنـد الـشبهات خير مـن الاقتحام في الهلكات))**[٣].

وهذا الـشكل والمنهج مما يتميز بـه النظـام الـذي وضـعه أهـل البيـت عليهم السلام للجماعـة الـصالحة عـن النظـام الحزبـي أو العـسكري أو الأنظمـة الباطنيـة، الذي يعتمد على سلسلة المراتب، أو تختفـي فيـه القيـادة الـسياسية والمرجعيـة الدينيـة وراء الواجهـات أو الـستار أو الأبـواب، بـل لابـدّ فيـه مـن اللقـاء والاتصال المباشر بدرجة مناسبة ومفتوحة بالقـدر الـذي تـسمح بـه الظـروف الأمنية أو الإمكانيات الفعلية، ما لم تكن حالة استثنائية كالـسجن والحـصار والغيبة.

---

(١) الكافي٤: ٥٧٩، ح٢.

(٢) المحاسن١: ١٦٣، ح١١٣.

(٣) الكافي١: ٦٨، ح١٠.

الثاني: نظام الوكلاء

تعيين الوكلاء والمعتمدين لهم في المناطق المختلفة التي يتواجد فيها أتباعهم وإرجاع أتباعهم إليهم، خصوصاً بعد أنْ توسعت رقعة المساحة التي كان يتواجد فيها هؤلاء الأتباع.

وقد كان هؤلاء الوكلاء يقومون بأدوار مختلفة، مثل: بيان الأحكام الشرعية، والمواقف السياسية والاجتماعية، والتوجيهات والنصائح الأخلاقية، أو استلام الأموال والحقوق الشرعية، أو فصل الخلافات والنزاعات، أو القيام ببعض الأعمال والوظائف المرتبطة بالإمامة، كتولي الأوقاف، والقاصرين الذين لا ولي لهم. حيث كان بعضهم يقوم بمجمل هذه الأعمال، كما أنّ بعضهم الآخر كان يختص ببعض هذه الأعمال.

ويبدو أنّ هذا النظام كان موجوداً بشكل محدود في مختلف أزمنة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولكنه بدا واضحاً في زمن الإمام الصادق عليه السلام من خلال الرجال المعروفين الذين كان يرشحهم عليه السلام للقيام بمختلف الفعاليات الفقهية وغيرها، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأوّل في فقرة (الإفتاء)، وتوسع في زمن الإمام الكاظم عليه السلام، كما يدل على ذلك تطورات وضع جماعة الواقفة[1] من وكلائه الذين استأثروا بالأموال.

---

(١) الواقفة: هم الذين وقفوا على الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ولم يؤمنوا بامتداد الإمامة إلى الأئمة عليهم السلام من بعده، وربما تطلق الواقفة على الذين وقفوا على غير الإمام موسى الكاظم عليه السلام، ولكن الإطلاق يختص بالذين وقفوا عليه.

وهناك عدة أسباب يمكن أن تفسّر هذا الموقف نشير إلى ثلاثة منها:

أ) الطمع في الأموال والمكاسب التي حصل عليها بعض الوكلاء الذين كانت علاقتهم بالإمام تتمّ بشيء من السرية بطبيعة الحال، خصوصاً وأنّ الخمس أصبح يدفع من قبل الشيعة بشكل واسع في زمن الإمام الكاظم عليه السلام، كما سوف نشير إلى ←

وأصبح نظام الوكلاء نظاماً ثابتاً في زمن الأئمة من بعده، بحيث أصبح هذا الوصف معرفاً بالنسبة إلى بعض الأشخاص، حتى أخذ صيغته الكاملة في الغيبة الصغرى، حيث تحمّل النواب الأربعة[١] لدور أكبر من الوكالة، وهو دور النيابة العامة عن الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه في غيبته الصغرى.

ويلاحظ من خلال دراسة شخصية النواب الأربعة أنّ العنصر الأساس في الوكالة كان هو الوثاقة العالية، والقدرة على تحمّل المسؤولية والصبر عليها، مع قطع النظر عن أنْ يكون الأوّل في المستوى العلمي والاجتماعي، حيث كان بعض الأشخاص في زمانهم معروفين بالعلم والفضل بلا منازع، كما دل على ذلك ما أثر عنهم من معارف، مثل: الشيخ محمد بن يعقوب

ذلك في النظام الاقتصادي.

ب) إنّ الحركة السياسية الواسعة للإمام الكاظم عليه السلام والتحولات السياسية في الدولة العباسية زمن هارون الرشيد جعلت الكثير من أبناء الجماعة الصالحة يعتقدون أنّ الإمام الكاظم عليه السلام هو الإمام الذي يقوم بالأمر، وكانوا ينتظرون ويتوقعون ذلك، فعندما قتل الإمام الكاظم عليه السلام في السجن بصورة غامضة ومعتّم عليها كانت هناك أرضية نفسية لقبول مثل هذا الادعاء.

ج) إنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام لم يكن لديه ولد ذكر في البداية يخلفه، وفكرة الشيعة حول الأئمة أنّ أولادهم هم الذين يخلفونهم إلى الإمام الثاني عشر، وحينئذ استغل هؤلاء المدّعون للوقف هذه النقطة ليصرفوا عنه الأمر، حيث كانت ولادة الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام بعد مضي فترة طويلة نسبياً من إمامة الرضا عليه السلام؛ ولذا نلاحظ أنّ الإمام الرضا عليه السلام تمكن من خلال نشاطه – وبالخصوص بعد ولادة الإمام الجواد عليه السلام – أنْ يقضي على وجود هذه الفرقة تقريباً. منه قدس سره.

(١) النواب الأربعة هم: عثمان بن سعيد العمري، وولده أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد، وأبو القاسم الحسين بن روح النوبختي، وأبو الحسن علي بن محمد السمري.

الكليني الذي كان يعد من المجددين على رأس المائة الثالثة، وبعض الأشخاص الآخرين الذين كان لهم موقع خاص من ثقة النواب به، بحيث كان يتوقع أنْ تكون لهم الوكالة، ومع ذلك كله يتم اختيار شخص آخر لها، لوجود هذه المواصفات فيه بشكل أكمل.

ويشير إلى ذلك ما رواه الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عن علي بن بلال بن معاوية المهلبي قال: ((**قال مشايخنا: كنا لا نشك أنه إنْ كانت كائنة من أبي جعفر محمد بن عثمان العمري لا يقوم مقامه إلاّ جعفر بن أحمد بن متيل، أو أبوه، لما رأينا من الخصوصية به، وكثرة كينونته في منزله، حتى بلغ أنه كان في آخر عمره لا يأكل طعاما إلاّ ما أُصلح في منزل جعفر بن أحمد بن متيل وأبيه، لسبب وقع له، وكان طعامه الذي يأكله في منزل جعفر وأبيه، وكان أصحابنا لا يشكّون إنْ كانت حادثة لم تكن الوصية إلاّ إليه من الخصوصية به، فلما كان عند ذلك، ووقع الاختيار على أبي القاسم الحسين بن روح سلّموا ولم ينكروا، وكانوا معه وبين يديه، كما كانوا مع أبي جعفر رضي الله عنه، ولم يزل جعفر بن أحمد بن متيل في جملة أبي القاسم رضي الله عنه، وبين يديه كتصرفه بين يدي أبي جعفر العمري إلى أنْ مات رضي الله عنه**))[1].

(١) الغيبة للطوسي: ٣٦٩، ترجمة الحسين بن روح. معجم رجال الحديث٥: ١٩، فإنّ هذا الحديث يشير إلى هذه الحقيقة، كما يدل في نفس الوقت على المستوى العالي من الإخلاص والتقوى الذي كان يتصف به جعفر بن أحمد بن متيل وأبوه أحمد بن متيل.

٢. العلاقات الداخلية للجماعة الصالحة[١]

يأتي تنظيم العلاقات الداخلية للجماعة الصالحة، في الدرجة الثانية من حيث الأهمية؛ ولذلك سعى أهل البيت عليهم السلام إلى إرساء أُسسها على قواعد ثابتة وواضحة، وبيان مسؤولية هذه العلاقات، وطبيعة شكلها وآثارها ونتائجها المترتبة عليها.

وهذا الجانب يمثل بعداً مهماً في الإطار التنظيمي لكل جماعة وللمجتمع بشكل عام، حيث إنّه من خلال تشخيص طبيعة هذه العلاقات ومسؤولياتها وواجباتها ونتائجها وآثارها وشكلها يمكن إحكام بناء الجماعة الصالحة، وإقامته على أُسس واضحة قادرة على الاستمرار ومواجهة مختلف الظروف والتكيف معها.

وبهذا الصدد نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام شخصوا مضمون وحقوق وشكل هذه العلاقات التي نراها في النقاط التالية:

أ) مضمون العلاقة

فقد شخص أهل البيت عليهم السلام أنّ مضمون العلاقة بين أبناء الجماعة الصالحة هي علاقة الإيمان بالله تعالى والرسالة، والالتزام بالولاية لأهل البيت عليهم السلام. فهي علاقة المؤمن بالمؤمن الآخر ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾. ولكن الإيمان هنا لابدّ أنْ يكون إيماناً كاملاً، وبذلك تتميز هذه الجماعة عن غيرها. ويكمل هذا الإيمان من خلال الاعتقاد بولاية أهل البيت عليهم السلام كما أشرنا سابقاً.

---

(١) سوف نتحدث بشكل أكثر تفصيلاً عن نظام العلاقات بين المسلمين والمؤمنين في أُسسه وقواعده وضوابطه وقوانينه وتفاصيل البناء الفوقي له في الباب السادس، وهنا نشير إلى الخطوط العامة لهذا النظام.

كما أنّ هذه العلاقة في مضمونها ليست مجرد الالتزام الاعتقادي والقلبي، بل هي علاقة تمتد إلى المشاعر والأحاسيس الوجدانية في نفس الإنسان، حيث تتسم بطابع الود والحب للمؤمن الآخر، حيث يكون حبّاً في الله سبحانه وتعالى، ولكنه في نفس الوقت هو حبّ للمؤمن الآخر:

عن أبي عبيدة الحذّاء، في حديث معتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من أحبّ لله وأبغض لله وأعطى لله، فهو ممن كمل إيمانه**))[1].

وعن سعيد الأعرج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من أوثق عرى الإيمان أنْ تحبّ في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله**))[2].

وهذا الحب هو ليس مجرد إحساس عاطفي، بل هو دين يتدين به الإنسان لله تعالى فهو من أوثق عرى الإيمان، وبه يكمل إيمان المؤمن.

بل قد ورد في الصحيح من الحديث أنّ الإيمان والدين في حقيقته هو هذا الحب.

فقد روى البرقي في المحاسن بطريق صحيح عن فضيل بن يسار قال: ((**سألت الإمام الصادق أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ قال: وهل الإيمان إلاّ الحب والبغض؟ ثم تلا هذه الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾**))[3].

وفي حديث صحيح آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**يا زياد، ويحك وهل الدين إلاّ الحب؟ ألا ترى إلى قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤٣١، ح١.

(٢) الكافي ٢: ١٢٥، ح٢.

(٣) المحاسن ١: ٢٦٢، ح٣٢٦.

يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؟﴾ أوَ لا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ؟﴾ وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ فقال: الدين هو الحبّ، والحب هو الدين))[1].

فهذا الحب يقوم على أساس الإيمان بالله تعالى ورسوله وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام وعلى حبهم ومودتهم.

ب) حقوق العلاقة

كما أنّ هذه العلاقة هي علاقة حقوق ومسؤوليات وواجبات والتزامات بين المؤمنين خصوصاً، والمسلمين عموماً، تتلخص في:

التناصر: عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام، عن آبائه قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم**))[2].

والتكافل الاجتماعي: حيث يجب على المسلم أنْ يستر عورة أخيه، ويسد جوعته، ويعينه في حياته المعيشية (كما سوف نعرف ذلك في النظام الاقتصادي):

عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**...ولئن أعول أهل بيت من المسلمين، أشبع جوعتهم، وأكسو عورتهم، وأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أنْ أحجّ حجّة وحجّة، حتى انتهى إلى عشر وعشر، ومثلها ومثلها، حتى انتهى إلى سبعين**))[3].

وعن الخطاب الكوفي، ومصعب بن عبد الله الكوفي قالا: ((**دخل سدير الصيرفي على أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من أصحابه، فقال له: يا**

---

(١) المحاسن١: ٢٦٣، ح٣٢٧.

(٢) الكافي٢: ١٦٤، ح٥.

(٣) وسائل الشيعة٦: ٢٥٩ – ٢٦٠، ح١.

سدير، لا تزال شيعتنا مرعيين محفوظين مستورين معصومين ما أحسنوا النظر لأنفسهم فيما بينهم وبين خالقهم، وصحّت نياتهم لأئمتهم، وبرّوا إخوانهم، فعطفوا على ضعيفهم، وتصدقوا على ذوي الفاقة منهم، إنّا لا نأمر بظلم ولكنا نأمركم بالورع، الورع الورع، والمواساة المواساة لإخوانكم، فإنّ أولياء الله لم يزالوا مستضعفين قليلين منذ خلق الله آدم عليه السلام))[1].

وكذلك العلاقات الاجتماعية المتميزة: حيث يجب عليه أنْ يحفظه في غيبته، وغير ذلك، كما سوف نعرض ذلك في بحث (نظام العلاقات). ومما ورد يجمع ذلك.

عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**حقّ المسلم على المسلم أنْ لا يشبع ويجوع أخوه، ولا يروى ويعطش أخوه، ولا يكتسي ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم؟! وقال: أحبَّ لأخيك المسلم ما تحبّ لنفسك، وإذا احتجت فسله، وإنْ سألك فأعطه، لا تمله خيراً ويمله لك**[2]**، كن له ظهراً فإنّه لك ظهر، إذا غاب فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره وأجلّه وأكرمه، فإنّه منك وأنت منه، فإنْ كان عليك عاتباً فلا تفارقه حتى تسأل سميحته، وإنْ أصابه خير فاحمد الله، وإنْ ابتُلي فاعضده، وإنْ تمحّل له فأعنه، وإذا قال الرجل لأخيه: اف انقطع ما بينهما من الولاية، وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما، فإذا اتهمه انماث الإيمان في قلبه، كما ينماث الملح في الماء...))**[3].

---

(١) المحاسن١: ١٥٨، ح٩٦.

(٢) الظاهر أنه من أمليته بمعنى تركته وأخّرته.

(٣) الكافي٢: ١٧٠، ح٥.

ج) شكل العلاقة

ولابدّ لهذه العلاقات أنْ تأخذ شكلاً معيناً في الحركة الاجتماعية والسياسية، لذلك نجد أهل البيت عليهم السلام يطرحون صيغة معينة طبيعية لهذه العلاقات، وهي الاجتماعات الخاصة بين أبناء الجماعة، ويطلبون من أتباعهم أنْ تعقد اللقاءات والاجتماعات بين المؤمنين، يتناولون فيها مختلف شؤونهم العامة والخاصة، وقضاياهم العقائدية والثقافية والاجتماعية:

عن محمد بن علي بن الحسين، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**تجلسون وتحدّثون؟ قلت: نعم، قال: تلك المجالس أُحبّها، فأحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا، يا فضيل، من ذكرنا أو ذكرنا عنده فخرج عن عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر**))[١].

وعن ميسر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**قال لي: أتخلون وتحدّثون وتقولون ما شئتم؟ فقلت: إي والله إنا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا، فقال: أما والله لوددت أني معكم في بعض تلك المواطن...**))[٢].

وعن خيثمة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**أبلغ موالينا السلام وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأنْ يعود غنيّهم على فقيرهم، وقويّهم على ضعيفهم، وأنْ يشهد أحياؤهم جنائز موتاهم، وأنْ يتلاقوا في بيوتهم، فإنّ في لقياهم حياة لأمرنا، ثم قال: رحم الله من أحيا أمرنا**))[٣].

وعن شعيب العقرقوفي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأصحابه: ((**اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله، متواصلين متراحمين،**

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ٢٠، ح١.

(٢) الكافي٢: ١٨٧، ح٥.

(٣) قرب الإسناد: ٣٢، ح١٠٥.

تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه))[١].

ثم نلاحظ بعد ذلك أنّ هذه الاجتماعات تطورت بشكل واسع حتى أصبحت مؤسسة ثقافية - كما عرفنا ذلك في بحث سابق - وإلى شعائر معينة، كما سوف نعرف ذلك في بحث الشعائر.

٣. العلاقات الخارجية مع الجماعات الأُخرى

إنّ من القضايا المهمة في العلاقات هو: تشخيص نوع وطبيعة العلاقة بين أبناء الجماعة والجماعات الأُخرى التي هي خارج إطار الجماعة، مثل جمهور المسلمين من الناس، أو مثل النواصب وأعداء أهل البيت عليهم السلام أو أعداء أتباعهم، أو مثل الحكام الظالمين والجائرين، أو مثل أعداء الإسلام من المشركين، وكفار أهل الكتاب من المحاربين، أو الذميين. وقد حدد أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم نوع العلاقة مع كل صنف من هذه الأصناف.

فالمطلوب هو التعايش والانسجام مع عموم المسلمين والتعاون والتناصر والتكامل في الأُمور المشتركة ذات العلاقة بمصلحة الأُمة كلها والعقيدة الإسلامية، والتبرّي من أعداء الله والإسلام وأهل البيت ومعادات أعدائهم، ولكن في الوقت نفسه، اتقاء شرهم وعدوانهم وعدم الدخول معهم في مواجهات حادة، كما سوف نعرف ذلك في نظام أمن الجماعة.

وكذلك مقاطعة الحكام الظالمين، وعدم التعاون معهم، وكذلك مقاطعة أهل البدع والأشرار أو السيّئين من الناس، بل مقاومتهم ومجاهدتهم في بعض الأحيان والظروف.

فعلى مستوى جمهور المسلمين نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكدون مبدأ التعايش معهم، بل الانفتاح عليهم في العلاقات وإقامتها على أُسس متينة.

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ٢٢ ح٨.

فقد روى الكليني في (الصحيح)، عن معاوية بن وهب قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف ينبغي لنا أنْ نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال: تؤدون الأمانة إليهم، وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم**))[1].

وفي (الصحيح) عن عبد الله بن سنان قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أوصيكم بتقوى الله، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إنّ الله عزّ وجل يقول في كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ ثم قال: عودوا مرضاهم، واحضروا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا في مساجدهم حتى يكون التمييز، وتكون المباينة منكم ومنهم**))[2].

وعن معاوية بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ((**وطّن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت، في حسن خلقك، وكفّ لسانك، واكظم غيظك، وأقلّ لغوك، وتفرش عفوك، وتسخو نفسك**))[3].

وعلى مستوى العلاقة مع أئمة الجور وأعوانهم، فقد ورد عنهم عليهم السلام تأكيد عدم الرضا بأفعالهم، وعدم التعاون معهم، بل مقاطعتهم ومقاومتهم إذا بلغوا مستوى عالٍ من الجور.

فقد روى الكليني باسناده عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم**))[4].

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه، فإنْ دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله**

---

(١) الكافي٢: ٦٣٥، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ٧، ح٦.

(٣) الكافي٤: ٢٨٦، ح٣.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٣٤٤، ح١.

على ظلامته))[١].

وعنه عليه السلام قال: **((إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشباه الظلمة، حتى من برى لهم قلماً، ولاق لهم دواة؟ قال: فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنّم))**[٢].

وعلى مستوى العلاقة مع النواصب وأعداء أهل البيت عن إصرار أو جهل، فقد أمر أهل البيت عليهم السلام بالبراءة منهم في القلب ومجاملتهم في العلاقة اتقاء لشرهم وتخلصاً من أذاهم وعدوانهم.

ويمكن أنْ يعرف ذلك من الروايات التي وردت في موضوع (التقية)، كما سوف نشير إليه في البحث الآتي (نظام أمن الجماعة) ونشير هنا إلى روايتين:

الأولى: ما رواه البرقي في المحاسن بسند صحيح عن ابن مسكان قال: **((قال لي أبو عبد الله عليه السلام: إني لاحسبك إذا شتم عليٌ بين يديك لو تستطيع أنْ تأكل أنف شاتمه لفعلت. قلت: أي والله جعلت فداك إني لهكذا وأهل بيتي، فقال لي: فلا تفعل، فوالله لربما سمعت من يشتم علياً وما بيني وبينه إلاّ إسطوانة فاستتر، بها فإذا فرغت من صلاتي فأمر به فاسلم عليه وأُصافحه))**[٣].

الثانية: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **((اتقوا على دينكم، واحجبوه بالتقية فإنّه لا إيمان لمن لا تقية له، إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير، ولو أنّ الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلاّ أكلته، ولو أنّ الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبونا أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم، ولنحلوكم في**

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٧٤.

(٢) وسائل الشيعة١٧: ١٨٢، ح١٦.

(٣) المحاسن١: ٢٥٩، ح٣١٣.

السر والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا))[١].

وعلى مستوى العلاقة مع أصحاب البدع والفاسقين وأشباههم ممن يعرفون بين الناس بذلك، فقد ورد التأكيد على مقاطعتهم ومقاومتهم، وفي حكمهم الكفار والمشركون والمحاربون من أهل الكتاب.

ففي الصحيح عن أبي حمزة (الثمالي)، عن علي بن الحسين عليه السلام - في حديث طويل - قال: ((**إياكم وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين، ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم، وتباعدوا من ساحتهم))**[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا من سبّهم، والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم كي لا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس، ولا يتعلمون من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة))**[٣].

وكذلك ورد تأكيد المرابطة في الثغور الإسلامية لمقاومة غزو المشركين المحاربين:

عن محمد بن مسلم وزرارة، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: ((**الرباط ثلاثة أيام، وأكثره أربعون يوماً، فإذا جاوز ذلك فهو جهاد))**[٤].

ولكن أهل البيت عليهم السلام مع هذا الموقف منحوا أتباعهم الفرصة عند الضرورة للاستفادة من وجود المشركين في اتخاذ مناطقهم محلاً للَجوء، والتخلّص من المطاردة والاضطهاد إذا كانت مناطقهم آمنة لا يتعرضون فيها

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٦١، ح٧.

(٢) تحف العقول: ٢٥٤.

(٣) الكافي٢: ٣٧٥، ح٤.

(٤) تهذيب الأحكام٦: ١٢٥، ح١.

إلى الاضطهاد، وكانت مناطق المسلمين غير آمنة لشيعتهم:

عن حمّاد السمندي قال: ((**قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام: إني أدخل بلاد الشرك وإنّ مَنْ عندنا يقولون: إنْ متّ ثَمّ حشرت معهم، قال: فقال لي: يا حماد، إذا كنت ثَمّ تذكر أمرنا وتدعو إليه؟ قال: قلت: نعم، قال: فإذا كنت في هذه المدن، مدن الإسلام تذكر أمرنا وتدعو إليه؟ قال: قلت: لا، فقال لي: إنك إنْ متّ ثَمّ تحشر أُمة وحدك ويسعى نورك بين يديك**))[1].

والعلاقة على مستوى معاملة أهل الذمة نرى تأكيد معاملتهم بالمودة والرحمة والعدل الإسلامي:

عن محمد بن أبي حمزة، عن رجل بلغ به أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((**مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نصراني، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه، أنفقوا عليه من بيت المال**))[2].

وقد أشرنا إلى تفاصيل بعض هذه القضايا في السياسات العامة، وسوف نشير إلى بعضها الآخر في أبحاث نظام أمن الجماعة ونظام العلاقات.

ونخلص من هذا البحث أنّ الموقف من العلاقة مع الجماعات الأُخرى له ثلاث صيغ:

الأُولى: التعايش والانفتاح والتعاون، وهو الموقف مع عامة المسلمين وجمهورهم وأهل الذمة، مع الحذر من ردود الفعل السلبية.

الثانية: البراءة مع التقية، وهو الموقف من أعداء أهل البيت أو أعداء الجماعة الصالحة عن إصرار ومعرفة، وذلك للمحافظة على أبناء الجماعة

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٧٦، ح٦.

(٢) تهذيب الأحكام٦: ٢٩٣، ح١٨.

من ناحية ووحدة المجتمع الإسلامي من ناحية أُخرى.

الثالثة: المقاطعة والمقاومة، وهو الموقف من الكفار وأئمة الجور وأهل البدع والضلال.

وسوف يأتي مزيد من التوضيح في الفصل الآتي إنْ شاء الله.



الاتجاه السياسي والمنطلقات

١. تمهيد

٢. الاتجاهات السياسية في عصر الأئمة

٣. المنطلقات والخطوط السياسية

١. تمهيد

الخطـوط الثابتـة والمنطلقـات، هـي: الخطـوط والمبـادئ السـياسية والاجتماعية التي تكوّن الإطار السياسي والاجتماعي الذي تتحرّك فيه الجماعة الصالحة، وتنطلق منها رؤاها للأحداث والمواقف.

ذلك أنْ كل جماعة تريد أنْ تتحرك تحركاً صحيحاً - ينسجم مع عقيدتها وشعاراتها - وهادفاً يحقق لها أغراضها وتكاملها، لابدّ لها أنْ تتبنى خطوطاً عامة ثابتة يلتزم بها تحركها، وترسم من خلالها مسيرتها، ومنطلقات ومبادئ تهديها إلى غاياتها وأهدافها، بحيث تكون مقياساً تقيس به الصحيح من الخطأ، والحق من الباطل في المواقف التفصيلية لحركتها. كما أنها في نفس الوقت تميز هذه الجماعة عن غيرها من الجماعات الأُخرى.

ولاشك أنّ الإسلام الحنيف بمبادئه الأساسية التي هي الإيمان بالله والالتزام بتوحيده، والإقرار للنبي محمدﷺ بالرسالة والإبلاغ عن الله تعالى، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وما يترتّب فيه من حساب وثواب وعقاب، كل ذلك يكوّن الأساس العام العقائدي والفكري والأخلاقي للإنسان المسلم، الذي ينطلق منه في تحركه، ومن ثم يكوّن ذلك جانباً من الإطار العام لحركة الإنسان المسلم.

ولكن توجد على مستوى حركة الواقع السياسي والاجتماعي المرحلي تفاصيل في المواقف تحتاج إلى تحديد وتمييز أكثر وأوضح، حيث تختلط المصالح والمفاسد، وتتعدّد أو تتباين الاجتهادات والمصاديق، وتتداخل الشعارات، فتصبح الحاجة ماسّة إلى تشخيص الإطار السياسي والاجتماعي الذي يمكن من خلاله تشخيص الموقف الصحيح، وتمييز الصحيح عن الخطأ من الاجتهادات، والحق من الباطل من الشعارات

والادعاءات، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار وجود خطوط ومنطلقات سياسية متعددة في المجتمع الإسلامي تدّعي الإسلام وترفع شعار التمسك به، وتحاول أنْ تبرر التزاماتها وحركتها على أساس النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والمصالح الإسلامية العليا.

وهنا يبرز الدور المهم للمرجعية السياسية الدينية التي يجب عليها أنْ تشخص هذه الخطوط السياسية والمواقف التفصيلية للأُمّة والجماعة، وهي تحتاج إلى اجتهاد فقهي وسياسي، وتقوى وورع، وخبرة بالظروف السياسية والاجتماعية.

٢. الاتجاهات السياسية العامة في عصر الأئمة

وبهذا الصدد نشير إلى وجود عدد من الاتجاهات السياسية المختلفة في عصر الأئمة، التي كانت تحتاج إلى تميز وموقف واضح تجاهها:

الأوّل: الاتجاه السلطوي

وهو الاتجاه الذي كان هدفه الوصول إلى السلطة من أجل تحقيق الأغراض والمنافع الذاتية والجاه والنفوذ والمزيد من الأموال، أو إشباع نزعة الإنسان إلى الهيمنة والتسلّط أو الشهوات.

ويمكن أنْ نشاهد مصاديق واضحة لهذا الاتجاه في حركة طلحة والزبير وعائشة في البصرة زمن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك في الحركة الأموية والعباسية بشكل عام، وكذلك بعض الصراعات الداخلية ضدها، مثل حركة عبد الله بن الزبير[1]، أو عبد الرحمن بن الأشعث[1]، أو غيرهما.

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، كنيته أبو بكر، وهي كنية جده لأمه أسماء بنت أبي بكر، هاجرت وهي حامل به وولدته بالمدينة.

←

غزا افريقيا مع عبد الله بن أبي سرح، وقتل جرجيس قائد جيش الروم. في سنة ٦٤هـ أعلن ثورته في مكة بعد أنْ استفاد من النقمة التي نجمت عن مقتل الحسين عليه السلام، وواقعة الحرة، وانظم إليه بعض الخوارج والفارّون من المدينة وسواهم، إلاّ أنّ الأمويين بادروا إلى محاصرته في مكة المكرمة بقيادة الحصين بن نمير السكوني وضربوا الكعبة بالمنجنيق وأحرقوها، مما أثار حفيظة المسلمين، فحظي ابن الزبير منهم بمزيد من الالتفاف والتأييد.

وفي الوقت الذي كان فيه الموقف يبلغ ذروة التأزّم، أعلن البيت الأموي هلاك يزيد بن معاوية فخف الضغط عن عبد الله بن الزبير مما جعله يدعي لنفسه الخلافة، فبايعه أهل مصر والحجاز واليمن والعراق وخراسان، عدا أهل الشام الذين بايعوا مروان بن الحكم. وجعل المدينة قاعدة ملكه، وظل خليفة حتى تولى الخلافة الأموية عبد الملك بن مروان.

وفي سنة ٧٢هـ وجه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إليه جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فانتقل ابن الزبير إلى مكة، فتبعه الحجاج ونشبت الحرب بينهما ببطن مكة، وقد استمرت ستة أشهر وسبع عشرة ليلة، وانتهت بمقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ بعد أنْ تفرق عنه أصحابه وخذله من معه خذلاناً شديداً، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نحو عشرة آلاف، وممن فارقه وخرج إلى الحجاج إبناه حمزة وحبيب، وبذلك دخلت الحجاز مرّة أُخرى في خلافة بني أمية. تاريخ الطبري٣: ٣٦٠ – ٥٣٨، أحداث التأريخ الإسلامي١: ٥٤٢، أحداث سنة ٧٣هـ .

(١) هو عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندي، من نسل ملوك كندة، سيره الحجاج أمير العراق لغزو (رُتبيل) ملك الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها وأخذ حصوناً واستولى على غنائم، وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك وأنه لا يرغب في التوغل في بلاد رُتْبيل إلى أنْ يختبر مداخلها ومخارجها، فاتهمه الحجاج بالضعف والعجز وأمره بمتابعة التوغل، فاستشار ابن الأشعث مَنْ معه فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته وبايعوا عبد الرحمن على خلع الحجاج وإخراجه من أرض العراق.

←

وأصحاب هذا الاتجاه وإنْ كانوا يختلفون في مستوى اندفاعهم ودرجة تأثرهم بأهدافه إلاّ أنّ قضية السلطة هي القضية الأولى، التي كانت تحركهم وتحسم المواقف لديهم، وإنْ كانت الأمور الأُخرى لها بعض التأثير على سلوكهم، أو سلوك من ناصرهم أو في تهيئة الفرص المناسبة لحركتهم.

الثاني: الاتجاه الفوضوي

وهو الاتجاه الذي كان رافضاً للأوضاع السياسية القائمة، متأثراً بمواقف للسلطة مرفوضة من قبل هذه الجماعة أو تلك، لأسباب مختلفة يأتي في

وقال بعضهم: إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك بن مروان فقد خلعنا عبد الملك، فخلعوا عبد الملك أيضاً.

وفي سنة ٨١هـ دخل عبد الرحمن بن الأشعث البصرة، وبايعه على خلع الحجاج وعبد الملك جميع أهلها من قرائها وكهولها، فلما بلغ الحجاج ذلك كتب إلى عبد الملك يخبره خبر عبد الرحمن بن الأشعث ويسأله أنْ يعجل بعثه الجنود إليه لقتاله.

وفي المحرم من سنة ٨٢هـ التقوا بالزاوية فاشتد قتالهم وكانت الغلبة لابن الأشعث، حتى انهزمت عامة قريش وثقيف وانتهوا إلى الحجاج، ثم إنهم تزاحفوا في آخر محرم وكانت الغلبة للحجاج، بعدها أقبل عبد الرحمن نحو الكوفة، واتبعه الحجاج، وكانت وقعة دير الجماجم قرب الكوفة في هذه السنة بين الحجاج وابن الأشعث، وكانت الغلبة للحجاج أيضاً، مما جعل ابن الأشعث ينصرف نحو البصرة، وكان ذلك سنه ٨٣هـ، فاتبعه الحجاج وكانت الوقعة بمسْكن وكانت الهزيمة لابن الأشعث بعدما انهزم من دير الجماجم، مما جعله يمضي ومن معه من المنهزمين نحو سجستان ثم انصرف هو منها إلى رُتبيل.

وفي سنة ٨٥هـ كتب الحجاج إلى رُتبيل في عبد الرحمن بن الأشعث مهدداً ومتوعداً، فأمسكه رُتبيل وأرسله إلى الحجاج، وحين وصل ابن الأشعث إلى الحجاج قتله وأرسل رأسه إلى عبد الملك بن مروان. تاريخ الطبري٣: ٦٢٤ – ٦٥٢، أحداث التأريخ الإسلامي١: ٥٩٧، أحداث سنة ٨٥هـ .

مقدمتها الوازع الديني أو الوازع الإنساني، عندما تتعرض الجماعة إلى الظلم والاضطهاد أو تخرج السلطة عن الموازين والحدود الشرعية بنظرهم. كما أنّ للمصالح الذاتية وللجهل والسذاجة دوراً في وجود حالة الرفض في بعض الأحيان، ولكن الطابع العام لهذا الاتجاه هو عدم وجود برنامج تغييري واضح المعالم، حيث يتخذ الرفض أساساً لحركته السياسية، ويفتش دائماً عن نقاط الضعف لإثارتها في وجه السلطة أو التيارات السياسية الأُخرى.

ولعل أبرز من كان يمثل هذا الاتجاه هم (الخوارج) الذين كانوا يجدون دائما الفرصة للتحرك خصوصاً عندما تزداد الأوضاع السياسية سوءاً، حيث تزداد القاعدة الرافضة بطبيعة الحال.

فقد كان الخوارج مثلاً يطرحون شعار: (الحكم لله) في وجه الإمام علي عليه السلام، كما طرحوه في وجه السلطة الأموية والعباسية بعد ذلك.

وقد ذكر الإمام علي عليه السلام تقويماً عاماً لحركتهم واتجاههم السياسي عندما قال عنهم وعن شعارهم: ((**كلمة حق يراد بها باطل. نعم، إنه لا حكم إلاّ لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلاّ لله. وإنه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر...**))[1].

كما أنّه نهى شيعته وأتباعه عن مقاتلتهم لصالح الأمويين عندما قال: ((**لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه**))[2].

وقد توقع لهم الإمام علي عليه السلام أنْ يتحولوا إلى «لصوص سلاّبين»[3].

---

(١) نهج البلاغة ١: ٩١، الخطبة ٤٠.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٠٨، الخطبة ٦١.

(٣) نهج البلاغة ١: ١٠٧، الخطبة ٦٠.

كما أنه يمكن أنْ نلاحظ مصاديق أُخرى لهذا الاتجاه في حركة القرامطة أو الزنج التي تختلط هذه الحركات بمصالح ذاتية أحياناً لهذا الشخص أو ذاك، فيحاول أنْ يستفيد من حالة الرفض العامة لتحقيقها.

الثالث: الاتجاه النفاقي

وهو الاتجاه الذي كان يتظاهر بالإسلام، أو الحرص على المصالح الإسلامية العليا، أو التطور الفكري والثقافي والاجتماعي، مع أنَّ الواقع الروحي والنفسي لأصحابه كان بعيداً عن ذلك، حيث لا دين ولا إيمان ولا إخلاص، بل الهدف هو الوقيعة بالإسلام والمسلمين، وتخريب البنية التحتية للمجتمع الإسلامي.

ويمكن أنْ نلاحظ مصاديق هذا الاتجاه في حركات الزندقة أو بعض حركات الغلوّ أو بعض حركات نصب العداء لأهل البيت عليهم السلام، أو بعض الحركات الباطنية المشبوهة، أو بعض علماء السوء الذين كانوا يكيدون للإسلام من خلال ارتباطهم بهذا الاتجاه السياسي أو ذلك، أو تسلّلهم في بعض مواقع السلطة والحكم.

وهذا الاتجاه - بالرغم من الأضرار البالغة والتخريب الواسع الذي ألحقه بالحكم الإسلامي والأُمّة الإسلامية - لم يكن اتجاهاً ذا قيمة حقيقية في حركته ووجوده، لو لم تقدم له مواقع السلطة والصراعات النفعية والأوضاع السياسية السيئة خدمة كبيرة للتغلغل والتأثير؛ لأنَّ هذا الاتجاه كان يعيش على هامش حركة الاتجاهات الأُخرى، ويستفيد من ضعفها وأخطائها، خصوصاً في عصر الأمويين.

ولذلك نجد أنَّ هذا الاتجاه لم يتمكّن من الصمود ضمن مفرداته ومصاديقه، بل بقي يتخذ أشكالاً مختلفة ومتلونة حسب الظروف والتطورات السياسية والفكرية.

الرابع: الاتجاه الإصلاحي

وهو الاتجاه الذي كان يتحرك على أساس رد الفعل ضد مظاهر الفساد والانحراف، التي كان يشهدها العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية والسلطات الحاكمة، فيحاول مقاومة هذا الانحراف، أو إصلاح هذا الفساد، أو الإعلان عن إدانته، إمّا بالدعوة إلى الله تعالى والإسلام من خلال أُسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وإمّا من خلال التضحية والفداء والنهضة. وقد كان هذا الاتجاه هو أقرب الاتجاهات لحركة أئمة أهل البيت عليهم السلام. وقد ينطلق من بعض الاجتهادات الخاطئة أحياناً.

ويمكن أنْ نجد بعض مصاديق هذا الاتجاه في حركات بعض الطالبيين والعلويين، مثل حركة زيد بن علي، وولده يحيى بن زيد، والحسين صاحب فخ، وكذلك حركة أحمد بن حنبل إمام الحنابلة وكثيرين غيرهم.

ونلاحظ في حركة أبناء هذا الاتجاه أنّ مواقفهم كانت تحظى أحيانا بتأييد الأئمة عليهم السلام أو التعبير عن رضاهم أو على الأقل بالثناء على منطلقاتهم. مع أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا يساهمون شخصياً في هذا التحرك على المستوى العام أو يطلبون من شيعتهم الاستجابة له بشكل عام، بل كانوا أحيانا لا يأذنون لهم بذلك.

وهذا قد يعني أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يرون صحة هذه المنطلقات، بل مشروعية هذه الحركة في إطارها الخاص المحدود، لما لها من تأثيرات إيجابية على عموم الحالة الإسلامية، ولكنها لما لم تكن حركة تغييرية شاملة تتصف بالتخطيط أو المبادرة أو تحقق الشروط والمستلزمات الضرورية لنجاحها، فليس من الضروري مساهمة كل أبناء الأُمة فيها.

الخامس: الاتجاه التغييري

وهو الاتجاه الذي يقوم على أساس الموازنة في حساب المصالح الإسلامية العليا والمفاسد والأضرار المضادة بين الأهم والمهم، وتقديم الأهم من المصالح على المهم، والموازنة بين الفاسد والأفسد، والصبر على الفاسد أو التحرك ضده تجنباً للأكثر فساداً.

فليست الحركة السياسية هي مجرد شعارات حقة، ولا هي عملية مطلقة ومجرّدة عن ظروفها وملابساتها ونتائجها، كما أنها ليست مجرّد انفعال عاطفي أصيل شريف، أو تعبير عن المشاعر الإنسانية الصالحة في نفس الإنسان، بل الحركة السياسية الإسلامية هي حساب للتغيير الاجتماعي نحو الأصلح المعنوي والمادي، تنطلق من الإيمان بالله تعالى والمبادئ والعقائد الحقة والأصيلة، وتعتمد على دراسة الواقع الموضوعي، والتوكل على الله تعالى في الحصول على الإمداد الغيبي والنصر الإلهي والقدرة على استشراف المستقبل والنتائج والآثار.

٣. المنطلقات والخطوط السياسية

وقد وضع أهل البيت عليهم السلام عدة منطلقات للحركة السياسية التي تصب في تحقيق هذا الاتجاه والهدف التغيري العام، ويمكن أنْ يرتكز ويقوم عليها الموقف التفصيلي ومجموعة من الخطوط الثابتة، التي يمكنها أنْ توجه الحركة وتشكل إطاراً لها:

الأوّل: الولاء لأهل البيت

الإيمان المطلق بولاية أهل البيت، وقيادتهم الدينية والسياسية، سواء في تشخيص الحكم الشرعي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، أم في تشخيص الموقف

العملي تجاه الأحداث المستجدة أو المستقبلية، أو في تمييز الصحيح من الخطأ. وتتفرّع عن هذه الولاية قضية (الولاء) لأهل البيت، والحب العميق والمودّة لهم، بحيث يعتبر هذا الحب عاملاً مهماً من أسباب الهداية والنجاة في الدنيا والآخرة، حيث يترتب على هذا الحب - بطبيعة الحال - الارتباط الروحي والوجداني بهم أيضاً، والاقتداء بسلوكهم وسيرتهم في الالتزام بأوامر الله تعالى، والتقوى والورع عن محارم الله بدرجة عالية. ومن هنا يمكن أنْ نفهم:

أوّلاً: التأكيد الشديد من أهل البيت عليهم السلام لدور الولاية في بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة العدل والصلاح، كما ورد ذلك في كثير من النصوص التي وردت عنهم، حيث أشرنا إلى بعضها، ومنها أيضاً ما روي عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**...الإمام دليل للقاصدين، ومنار للمهتدين، وسبيل السالكين، وشمس مشرقة في قلوب العارفين، ولايته سبب للنجاة، وطاعته مفترضة في الحياة، وعدة بعد الممات، وعزّ المؤمنين، وشفاعة المذنبين، ونجاة المحبين، وفوز التابعين، لأنها رأس الإسلام، وكمال الإيمان، ومعرفة الحدود والأحكام، وتبيين الحلال من الحرام، فهي مرتبة لا ينالها إلاّ من اختاره الله وقدّمه وولاّه وحكّمه، فالولاية هي حفظ الثغور، وتدبير الأُمور، وتعديد الأيام والشهور...**))[1] الحديث.

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**بُني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم ينادَ بشيء كما نودي بالولاية**))[2].

---

(١) بحار الأنوار ٢٥: ١٦٩ - ١٧٠، ح٣٨، عن مشارق الأنوار.

(٢) الكافي ٢: ١٨، ح١.

وفي الصحيح عن زرارة، عن أبي جعفرعليه السلام قال: ((**بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية. قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن...**))[1].

وفي الصحيح عن زيد الشحام قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا زيد، حبنا إيمان وبغضنا كفر**))[2].

ثانياً: التأكيد - أيضاً - لدور حب أهل البيت في الخلاص والنجاة في يوم القيامة، وأنّ محبّ أهل البيت لابدّ أنْ يتوب ويرجع إلى الله تعالى، أو يلاقي المذنب منهم عقابه في الدنيا أو في البرزخ أو في الآخرة مخففاً، الأمر الذي يمكن أنْ نفهم منه أنّ هذا الحب هو عامل أساسي من عوامل الهداية لما يتفرع عنه من آثار ويترتب عليه من نتائج.

عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ((**من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة، فلا يشكنّ أحد أنه في الجنة، فإنّ في حب أهل بيتي عشرين خصلة: عشر في الدنيا، وعشر في الآخرة.**

أمّا في الدنيا: فالزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة، والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس مما في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه عزّ وجل، والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء.

وأمّا في الآخرة: فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان، ويُعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويبيض وجهه، ويُكسى من حلل الجنة، ويشفع في مائة من أهل بيته، وينظر الله عز وجل إليه بالرحمة، ويتوج من

---

(١) الكافي٢: ١٨، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة٢٨: ٣٤٦، ح٢٤.

تيجان الجنة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب، فطوبى لمحبّ أهل بيتي))[١].

وقال أمير المؤمنينعليه السلام للحارث الأعور: ((**لينفعنّك حبّنا عند ثلاث: عند نزول ملك الموت، وعند مساءلتك في قبرك، وعند موقفك بين يدي الله**))[٢].

وعن الحسن بن محمد بن الفضل الهاشمي، عن أبيه قال: قال أبو عبد الله الصادقعليه السلام: ((**إنّ حبّنا أهل البيت لينتفع به في سبع مواطن: عند الله وعند الموت وعند القبر ويوم الحشر وعند الحوض وعند الميزان وعند الصراط**))[٣].

ثالثاً: التأكيد منهم على أنّ التشيّع الحقيقي لهمعليهم السلام إنما هو بالالتزام بنهجهم، والأخذ بطريق الورع والتقوى، والاجتهاد في تطبيق الحكم الشرعي (جهاد النفس) ، وأنّ التعبير عن حبهم وولائهم الحقيقي إنما هو بالمتابعة لهم في السلوك والعمل.

عن الإمام الباقرعليه السلام أنه قال: ((**ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلاّ بالتواضع والتخشّع وأداء الأمانة وكثرة ذكر الله...**))[٤].

وعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: ((**شيعتنا أهل الورع والاجتهاد، وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكّون**

---

(١) الخصال: ٥١٥، ح١.

(٢) بحار الأنوار٢٧: ١٦٤، ح١٩.

(٣) المحاسن١: ١٥٢، ح٧٥.

(٤) الكافي٢: ٧٤، ح٣.

أموالهم، ويحجّون البيت، ويجتنبون كل محرّم))[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**شيعتنا المتباذلون في ولايتنا، المتحابون في مودّتنا، المتزاورون في إحياء أمرنا، الذين إنْ غضبوا لم يظلموا، وإنْ رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاوروا، سلم لمن خالطوا))**[2].

رابعاً: إنَ حب أهل البيت عليهم السلام وولاءهم يمثل أحد المحاور الرئيسة التي يتفق عليها المسلمون جميعاً، بعد الإيمان بالله، والرسالة، واليوم الآخر، والقرآن، والكعبة المشرفة، لما أكده القرآن الكريم من طهارتهم ولزوم مودّتهم وصلتهم ﴿...**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...**﴾[3]، فهي أحد عوامل الوحدة المهمة للأُمّة الإسلامية، والرابط المتين بين الجماعة الصالحة وبقية أبناء الأُمة.

ومن أجل اهتمام أهل البيت وعملهم الدائب في إرساء هذا الخط نجد أنّ الأُمة الإسلامية تجمع الآن على حبهم عليهم السلام بالرغم من كثرة المحاولات التي بذلت - تأريخياً - لمحاربتهم، والعمل على أبعاد المسلمين عنهم والضغط على أتباعهم للانفصال عنهم.

الثاني: البراءة من أعداء الله وأهل البيت عليهم السلام

التبرّؤ من أعداء الله وأعداء أهل البيت، حيث يعتبر هذا الأمر الوجه الآخر من العملية السياسية، فلا يكفي الولاء لأهل البيت عليهم السلام وحبّهم والإيمان بولايتهم لتشخيص المسار السياسي، بل لابدّ أنْ ينضمّ إلى ذلك الالتزام بمنهج وسياسة التبرّؤ والمعاداة لأعداء الله وأعداء الإسلام وأعداء

---

(١) صفات الشيعة: ٢.

(٢) الكافي٢: ٢٣٦ – ٢٣٧، ح٢٤.

(٣) الشورى:٢٣.

أهل البيت عليهم السلام .

ومن هذا المنطلق يأتي الموقف الذي عرف عن أهل البيت في معاداة الظالمين وحرمة معاونتهم، وضرورة مقاومتهم بشتّى الطرق والوسائل، بعيداً عن المنافع الخاصة والمصالح الضيقة.

ويشخص هذا الخط السياسي في نفس الوقت طبيعة علاقات الجماعة الصالحة مع أنظمة الحكم الظالمة والمنحرفة، حيث تتمثل في خطين رئيسيين:

أحدهما: خط المقاومة السلبية والمدنية، الذي يعبر عن الحد الأدنى من الموقف السياسي تجاه هذه الأنظمة.

ثانيهما: خط المقاومة الجهادية، الذي يعني القيام بمختلف النشاطات والأعمال السياسية والإعلامية والعسكرية المسلحة ذات المضمون التضحوي.

ويتحدّد أحد هذين الخطين في ضوء تشخيص ظروف الجماعة وقدراتها وإمكانياتها من ناحية، وكذلك في ضوء تشخيص مستوى الانحراف والظلم الذي يمارسه الحكم تجاه الناس والإسلام من ناحية أُخرى، وكذلك مدى التأثير والتغيير الذي يمكن أنْ يتركه هذا النشاط على واقع الأُمة من ناحية ثالثة.

وينطلق الموقف السياسي في البراءة من أعداء أهل البيت من مبدأ أنَّ بغضهم وعداءهم هو الكفر بعينه، لأنه خلاف صريح القرآن. وقد ورد في عدة روايات أنّ بغضهم كفر.

الثالث: الموازنة في المصالح والأولويات

أنْ يكون التحرّك السياسي قائماً على أساس موازنة تقدم المصالح العليا للإسلام والأُمّة الإسلامية على المصالح الخاصة للجماعة الصالحة في ترتيب

خاص للأولويات[1]؛ لأنّ مصلحة الأُمة الإسلامية والعقيدة الإسلامية مقدمة على المصالح والمنافع الخاصة للجماعة، بل هي أهم هذه المصالح الخاصة على الإطلاق.

وهذا الفهم لهذا الخط السياسي يمثل أحد أبعاد مبدأ (التقية) عند أهل البيت، الذي يعني التقيد والالتزام بالتنازل عن الممارسات والمواقف الخاصة لهم بالقدر الذي يحفظ المصالح العامة للمسلمين ووحدتهم، بحيث تكون تلك الممارسات والمواقف مقيدة ومؤطرة بإطار هذه المصالح، مضافاً إلى سبب الخوف من القمع والضرر، كما سنوضح ذلك في بحث (نظام أمن الجماعة) عندما نتناول موضوع التقية.

وكان هذا النوع من السلوك ظاهرة فريدة في تأريخ هذه الجماعة الصالحة منذ الصدر الأوّل للإسلام، كما عرفناه في موقف الإمام علي عليه السلام من الخلفاء الراشدين، حيث كان يعتقد - على أقل تقدير - أنه أحق بالخلافة منهم، كما صرح بذلك في خطبته المعروفة بالشقشقية وغيرها من الموارد.

ولكن مع ذلك التزم بالخط السياسي الذي تحدث عنه في مثل قوله: **((والله لأُسلّمنّ ما سَلمَت أمور المسلِمين، ولَم يكُن فيها جور إلاّ عليّ خاصة))**[2].

مضافاً إلى ذلك نجد أنّ الإمام علياً عليه السلام ينسجم مع حركة الخلفاء السياسية العامة، ويقدم النصح والمشورة والتأييد لهم من أجل المصالح الإسلامية العامة.

وكذا موقف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح والهدنة مع معاوية، حفاظاً

---

(١) تحدثنا عن هذه الأولويات في الباب الثاني من هذا الكتاب، وفي كتابنا الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٢٤، خطبة ٧٤.

على قوة الدولة الإسلامية، وحفظاً لدماء المسلمين ولاسيما الصالحين منهم، مضافاً إلى المحافظة على وجود الجماعة الصالحة، بالرغم من أنَّ تربيته الشخصية وأخلاقه من الإباء والإحساس بالكرامة الإنسانية، وإلحاح الكثير من خيرة أصحابه، كانت تدعوه إلى الدخول في مواجهة استشهادية مع معاوية، كما صنع أخوه الإمام الحسين عليه السلام مع يزيد.

وهكذا يمكن أنْ نشاهد أثر هذا الخط السياسي الثالث في سلوك بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام، أمثال الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام الذين واتتهم فرص كبيرة للقيام بعمل سياسي ثوري واسع ضد الحكام المنحرفين، ولكنهم لم يكونوا يقدمون على هذا النوع الخاص من النشاطات بسبب هذا الالتزام والفهم للواقع السياسي.

وكذلك الأمر في مواقف أتباعهم من علماء الإسلام وخاصة في هذا العصر، كما هو الحال في موقف علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام من الدولة العثمانية عندما تعرّضت إلى الهجوم الصليبي الغربي، وفي موقفهم من قضايا العالم الإسلامي المعاصرة، حيث وقف العلماء من أتباع أهل البيت جميعاً للدفاع عن الدولة العثمانية الظالمة لهم، والمنحرفة في الكثير من ممارساتها والتزاماتها، لمجرّد أنها ترفع شعار الإسلام، وتمثل المسلمين في مواجهة الكافرين.

الرابع: وحدة المجتمع الإسلامي

الحفاظ على بنية المجتمع الإسلامي والروابط الاجتماعية القوية التي يجب أنْ تنمو بين المسلمين، مثل علاقات الحب والود والاحترام المتبادل مع بقية المسلمين، بالشكل الذي يحفظ وحدة المجتمع الإسلامي، ويحقق الوحدة والتلاحم بين أبناء الأُمة الإسلامية.

ويمكن أنْ نجد معالم هذا الخط السياسي الثابت في الروايات التي وردت

عن أهل البيت عليهم السلام، والتي تؤكد على أتباعهم الاهتمام بهذا الجانب في عموم حركتهم السياسية والاجتماعية، ويمكن أنْ نحدد النقاط التي تؤشر بهذا الاتجاه في الأُمور التالية:

١. إنَ الجماعة الصالحة يجب عليها أنْ تتعايش وتندمج مع بقية أجزاء الأُمة الإسلامية في وحدة عامة متكاملة، ولا يجوز لها أنْ تعيش العزلة عن بقية المجتمع الإسلامي، لأنها بحاجة دائمة إلى الناس، وتبادل الخدمات بينهم.

فقد ورد في الصحيح عن مرازم قال: ((**قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ...إنه لابدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض**))[1].

وعن حذيفة بن منصور قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ((**من كفّ يده عن الناس فإنما يكفّ عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدياً كثيرة**))[2].

ولذا نلاحظ أنّ أحد الأعمال الأساسية التي يقوم بها الأعداء لمحاربة هذه الجماعة الصالحة هو محاولة عزلها عن المجتمع الإسلامي، كما عرفنا ذلك في الموضوع السابق (معالجة الضغوط النفسية).

٢. قضية الالتزام بآداب العِشْرَة والعلاقات الاجتماعية الإسلامية العامة، التي سعى الإسلام من خلالها إلى ترسيخ دعائم المجتمع وتقوية الأواصر بين أطرافه، مثل عيادة المرضى وحضور الجنائز، والاهتمام بالجوانب العاطفية والوجدانية.

عن هشام الكندي قال: ((**سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إياكم**

---

(١) الكافي٢: ٦٣٥، ح١.

(٢) الخصال: ١٧، ح٦٠.

أنْ تعملوا عملاً نعيّر به، فإنّ ولد السوء يعيّر والده بعمله. كونوا لمن انقطعتم إليه زيناً، ولا تكونوا عليه شيناً، صلّوا في عشائرهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير، فأنتم أولى به منهم. والله ما عبد الله بشيء أحبّ إليه من الخبء، قلت: وما الخبء؟ قال: التقية))(١).

٣. الالتزام بالعهود والمواثيق والعقود التجارية تجاه بقية أطراف المجتمع، حيث تكوّن هذه الالتزامات القاعدة الأخلاقية والقانونية القوية التي ترتكز عليها هذه العلاقات وتضع لها قواعدها وضوابطها.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**إنّ العهود قلائد في الأعناق إلى يوم القيامة، فمن وصلها وصله الله، ومن نقضها خذله الله، ومن استخفّ بها خاصمته إلى الذي أكّدها، وأخذ خلقه بحفظها**))(٢).

وعنه عليه السلام: ((**لا تغدرنّ بعهدك، ولا تخفرنّ ذمتك، ولا تختلْ عدوّك، فقد جعل الله سبحانه عهده وذمته أمناً له**))(٣).

وعنه عليه السلام: ((**غشّ الصديق، والغدرُ بالمواثيق، من خيانة العهد**))(٤).

٤. الالتزام بالسلوك العالي الفردي والاجتماعي بين الناس، بحيث يكون قدوة لهم، ويكون له دور التأثير عليهم في الهداية والانسجام.

ففي الصحيح عن أبي أسامة زيد الشحام، قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: اقرأ على من ترى أنّه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ، والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٧١، ح٢.

(٢) ميزان الحكمة٣: ٢١٤٦.

(٣) عيون الحكم والمواعظ: ٥٢٦.

(٤) غرر الحكم: الفصل٥٧، ٣٧.

الحديث وأداء الأمانة، وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمّدﷺ. أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإنّ رسول اللهﷺ كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره وقيل: هذا أدب جعفر، فوالله لحدثني أبيعليه السلام أنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة عليعليه السلام فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تُسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان إنّه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث))[1].

وعن حبيب الخثعمي قال: ((**سمعت أبا عبد الله الصادقعليه السلام يقول: عليكم بالورع والاجتهاد، واشهدوا الجنائز وعودوا المرضى، واحضروا مع قومكم مساجدكم، وأحبوا للناس ما تحبّون لأنفسكم، أمّا يستحي الرجل منكم أنْ يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره؟))**[2].

وبهذا نعرف أنّ سياسة الوحدة الإسلامية تمثل مبدأً رئيساً ثابتاً في العقيدة السياسية لدى أبناء الجماعة الصالحة.

الخامس: دور الأُمة في التغيير والسياسة

تأكيد دور الأُمة في عملية التغيير والأوضاع السياسية، سواء على مستوى الفعل والمساهمة في إيجاد عملية التغيير العام، أم في ممارسة دور

---

(١) الكافي٢: ٦٣٦، ح٥.

(٢) الكافي٢: ٦٣٥، ح٣.

النظارة والرقابة على سير هذه العملية وتحقق آثارها ونتائجها، انطلاقاً من رؤية أهل البيت عليهم السلام الثابتة للأُمّة ودورها في الحياة السياسية.

وتتلخص هذه الرؤية في أنّ الأُمة هي أداة عملية التغيير، فلابدّ من تعبئتها وتغييرها نفسياً وروحياً لتكون قادرة على ذلك. كما أنّ الأُمّة في الوقت نفسه هي موضوع عملية التغيير وهدفها، وأنّ هدايتها إلى الله تعالى والصراط المستقيم، المؤدي إلى الكمالات الإلهية هو الهدف المقصود من هذه العملية.

ويمكن أنْ نفهم هذه الرؤية بوضوح إذا لاحظنا النقاط التالية:

أ) بالرغم من أنّ نظرية أئمة أهل البيت عليهم السلام في إمامة المسلمين تقوم على أساس أنّ الإمامة منصب إلهي، حيث يتم تعيين الإمام بالنص عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام الذي قبله، ولكن نجد في الوقت ذاته - أنه بعد إبعاد أهل البيت عن هذا المنصب الإلهي بسبب الظروف السياسية التي عاشها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله - أنّ الممارسة الواقعية لأهل البيت عليهم السلام كانت تؤكد هذا الدور للأُمّة تأكيداً واضحاً. حيث نجد أنّ مجيء الإمام علي عليه السلام للخلافة كان بانتخاب مباشر من عامة المسلمين الموجودين في المدينة المنورة، مع أنّ خلافة أبي بكر - على أفضل تقدير - كانت بانتخاب المجتمعين في سقيفة بني ساعدة، وخلافة عمر كانت بتعيين أبي بكر وسكوت بقية المسلمين، وخلافة عثمان كانت بانتخاب أربعة من الستّة الذين عيّنهم عمر لانتخاب الخليفة دون أنْ يُؤخذ رأي بقية المسلمين في ذلك[1].

---

(١) لا نريد هنا أنْ نتناول موضوع صحة هذه الانتخابات من عدمها، ولكن نريد أنْ نشير إلى أنّ الإمام علياً عليه السلام لم يقبل بالخلافة إلاّ بعد هذا الإجماع المباشر من الأُمّة، الذي يصفه في الخطبة الشقشقية بقوله: ((**فما راعني إلاّ والناس إليّ ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وُطئ الحسنان، وشُقّ عطفاي، مجتمعين حولي**

←

وهكذا الحال في بقية الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية، حيث حرمت فيهما الأُمة حرماناً واضحاً من دورها في الانتخاب المباشر، أو حتى المشورة.

وهذا كله على رغم الشعار الذي يرفعه أصحاب مدرسة (الشورى) في مقابل (النص)، وكأنَّ هذا الشعار رُفع من أجل الإطاحة بالنص على عليٍّ وولده عليهم السلام دون أنْ يكون له حقيقة خارجية.

ونلاحظ - أيضاً - أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام في مواقفهم السياسية العامة كانوا يأخذون رأي الأُمة وموقفها بنظر الاعتبار، ومن أمثلة ذلك موقف الإمام علي عليه السلام من قضية التحكيم بعد حرب صفين، بالرغم من عدم إيمانه بصحة هذا الموقف أساساً، ولكنه استند فيه إلى الموقف العام لأفراد جيشه، كما يشير إلى ذلك في حديثه مع الخوارج[1].

وكذلك موقف الإمام الحسن من الصلح مع معاوية، وكذلك قبول الإمام الحسين التصدّي للثورة على يزيد، بعد تأكده من إجماع الأُمة في العراق على ذلك، وغيرها من المواقف.

ب) الانفتاح في (الموقف السياسي) على التعددية السياسية والرأي الآخر المخالف، حتى لو كان باطلاً وبدون مبررات شرعية أو واقعية. وهذه السياسة كانت واضحة في الموقف العام للإمام علي عليه السلام، حيث لم يتخذ أي إجراءات قهرية تجاه معارضيه السياسيين ما داموا لم يستخدموا السلاح أو القوة في المواجهة السياسية، حيث نلاحظ ذلك واضحاً في الموقف تجاه

كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وقسط آخرون...)). نهج البلاغة١: ٣٦، الخطبة٣.

(١) نهج البلاغة٢: ٩، الخطبة ١٢٧. قوله عليه السلام: **((إنما اجتمع رأي ملتكم على اختيار رجلين))** إلى آخر الخطبة.

حركة طلحة والزبير وحركة الخوارج بعد التحكيم، حيث اعتزلوا المجتمع وأخذوا لا يستجيبون للواجبات العامة فيه، وأيضاً تجاه الكثير من الأشخاص الذين كانوا يعترضون أو يمارسون ألواناً من النشاط السياسي المضاد.

ج) الطريقة التي شخصها أهل البيت لانتخاب القاضي والمرجع في الفتيا - كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأوّل من هذا البحث - حيث تطورت بعد ذلك إلى نظام المرجعية التي يتم فيها انتخاب المرجع عن طريق الأُمّة انتخاباً طبيعياً ومباشراً، ومن خلال الإيمان بوجود الخصائص المطلوبة فيه، والتي تنمو فيها عملية الانتخاب له والمعرفة به في الأُمة نمواً تدريجياً حتى يصبح مرجعاً عاماً لها.

وكذلك طريقة انتخاب الوكيل للمرجع التي تتم عن طريق القبول التدريجي للناس به، ومعرفتهم به ورضاهم عنه.

د) الاهتمام الخاص بجمهور المسلمين من الضعفاء والفقراء والمساكين والطبقة السفلى من المجتمع الإسلامي، كالموالي والعبيد وغيرهم الذين أصبحوا يمثلون الأكثرية الساحقة للمجتمع الإسلامي، حيث عرف عن أهل البيت هذا الاهتمام الخاص بهذه الأوساط واعتمادهم عليهم، حتى شكى بعض القرشيين من سلوك الإمام عليّ عليه السلام تجاه الأعاجم والموالي في العراق، الذين كانوا يسمونهم الحمراء، وقالوا له: غلبتنا الحمراء عليك، حيث كانوا يمثلون غالبية المسلمين، وأنتج ذلك الحب والمودة التي كانت تكنّها هذه الأوساط لهم.

ونجد ذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ((**...الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل**

لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقّه؛ فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تُعذَرُ بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك...))[1].

دور الأُمة في نظام الجماعة الصالحة

ويمكن أنْ نذكر الأُمور التالية، التي تلخص دور الأُمة في النظام العام للجماعة الصالحة:

الأوّل: انتخاب وتشخيص القيادة الإسلامية في عصر الغيبة، وأمّا في عصر النبوة والإمامة الظاهرة فانَّ ذلك يتم بالتعيين الإلهي؛ وذلك لأنَّ القيادة الإسلامية في عصر الغيبة - وهي المرجع - يتم تعيينها من قبل الله بالعنوان العام والمواصفات العامة، وقد عرِّف بها أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولكنّ الأُمّة تقوم بعملية التشخيص والتطبيق لتلك العناوين الكلية على الفرد والمصداق الخارجي[2].

الثاني: انتخاب الإدارة المدنية للمجتمع الإسلامي، حيث يوجد جانبان في الحركة الاجتماعية:

أ) جانب يرتبط بتطبيق الأحكام الإسلامية على حركة الأُمّة والجماعة والوصول بها إلى درجة التكامل، من خلال ملأ هذا الجانب بالقوانين والتشريعات التي يمارسها ولي الأمر، كما ذكرناه سابقاً.

---

(١) نهج البلاغة٣: ١٠٠، كتاب ٥٣.

(٢) لقد تناولنا شرح هذا لجانب من دور الأمة في كتابنا الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق.

ب) جانب يرتبط بإدارة الشؤون الدنيوية الخاصة التي ترتبط بشؤون حياة الناس، والتي تُرك فيها الخيار إلى الناس أنفسهم، وهي مساحات الجواز بمعناه العام الشامل لموارد (الاستحباب والكراهة والإباحة)، فإنَّ هذه المساحة تُركت للإنسان نفسه؛ ليختار ما يناسبه.

وقد يحتاج هذا الجواز إلى تنظيم اجتماعي لمنع تعارض الإرادات فيه، أو لاستيفاء المصالح والرغبات والميول، وهنا يترك للناس أنفسهم إدارة ذلك بما ينسجم مع رغباتهم ومصالحهم، ويُعمل فيها الإنسان تجاربه الخاصة.

ولما كانت الإدارة لا يمكن أنْ تكون لكلِّ فرد، فيمكن أنْ تختار الجماعة هذه الإدارة التي تقوم بذلك عندما تكون ذات طابع جماعي.

وهذا هو الذي يعبر عنه في المصطلحات الدستورية: بهيئات الدولة، أو بالمجالس البلدية، وذلك حسب مستوى الإدارة والمسؤوليات.

وقد أشرنا إلى هذا الدور عند الحديث عن سلطة ولي الأمر في الجانب التشريعي.

وتتحقق مشروعية هذه الإدارة، إمّا من ناحية إمضاء ولي الأمر العام لهذا العمل، أو من ناحية أنّ انتخاب الأكثرية لهذه الإدارة يحقق موضوع رأي وموقف جماعة المسلمين، ويجب اللزوم لجماعتهم حينئذ، وعدم الخروج عنها، كما دلت النصوص المعتبرة على ذلك، ومنها قوله ﷺ في خطبة حجة الوداع: ((**...ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلب أمرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم...**))[1].

الثالث: تقديم المشورة للقيادة الإسلامية، وهذه المشورة تمثل مصلحة حقيقية للقيادة الإسلامية وللأُمّة معاً، سواء كانت هناك حاجة إلى المشورة من أجل الاقتراب من الواقع، كما هو الحال في القيادة غير المعصومة، التي

---

(١) الكافي ١: ٤٠٣ – ٤٠٤، ح١.

تحتاج إلى هذه المشورة، أم لم تكن هناك حاجة إلى هذه المشورة لغرض معرفة الواقع، كما في القيادة المعصومة التي تعرف الواقع.

وتتجسد هذه المصلحة المشتركة من طرف القيادة في إنّها تكون سبباً لتأكيد وتوثيق العلاقة بين القيادة والأُمّة، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[1]. فالرسول وإنْ لم يكن بحاجة إلى المشورة لمعرفة الموقف الصحيح، ولكن المشورة لها تأثير كبير في تأكيد العلاقة والارتباط النفسي والروحي بين الأُمّة والقيادة نفسها.

كما تتجسد هذه المصلحة من طرف الأُمّة في تربيتها على تحمل المسؤولية والمشاركة في قضاياها، واقترابها من الواقع، وسعيها إلى معرفة الحقيقة والموقف الصحيح.

وفي حالة القيادة غير المعصومة، فإنّ مشورة الأُمّة يكون لها دور حقيقي في المساهمة للوصول إلى الحقيقة والموقف الصحيح. ولذا أكدت النصوص الشرعية من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**...وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...**﴾[2]، إلى نصوص السنة الشريفة على أهمية دور المشورة والاستشارة في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد تناولنا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا الحكم الإسلامي بين النظرية والتطبيق[3].

الرابع: الرقابة على حسن الإجراء لما تقوم به القيادة أو الإدارة المنتخبة، وهي رقابة ذات بُعدين:

---

(١) آل عمران:١٥٩.

(٢) الشورى:٣٨.

(٣) راجع فصل نظام الشورى نظام أصيل.

أحدهما: الرقابة على بقاء اتصاف القيادة أو الإدارة بالمواصفات المطلوبة، من العلم والتقوى وحسن الإدارة، ومدى انسجام سلوكها مع هذه المواصفات.

ثانيهما: الرقابة على حسن الإجراء والانسجام مع الأحكام الشرعية الكلية الواضحة في حالة القيادة، وكذلك الانسجام مع ما تريده الأُمّة من الإدارة في تحقيق رغباتها ومصالحها في حالة الإدارة.

وقد وردت الأدلة على هذا الدور الخاص للأُمّة - كما أشرنا - من خلال نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام فيما رواه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**...من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أنْ يدخله مدخله...**))[1].

ويمكن أنْ تمارس الأُمّة هذه الرقابة بصورة مباشرة، أو عن طريق المؤسسات الدستورية، أو من خلال مؤسسات المجتمع المدني كالصحافة والأحزاب وغيرها، التي تمنح الأُمّة حرية التعبير عن آرائها ووجهات نظرها.

الخامس: الالتزام بالدعم والإسناد والإخلاص في العمل والطاعة للقيادة، ويمكن أنْ نفهم هذا الجانب من دور الأُمّة من النصوص التي وردت في وجوب الطاعة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

---

(١) تحف العقول: ٥٠٥.

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1]، وكذلك النصوص التي وردت في وجوب البيعة ومعرفة الإمام: ((**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**))، أو ((**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**))[2]، أو النصوص التي وردت في وجوب النصيحة لأئمة المسلمين، كالنص السابق المعتبر الذي ورد بشأن خطبة النبيﷺ في حجة الوداع: ((...**ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلب أمرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم**...)).

السادس: الالتزام بالضوابط والمقاييس

التأكيد للمقاييس والضوابط الإسلامية في عملية البناء والتغيير التي من خلالها يمكن مراقبة معالم التغيير ومدى تقدم هذه العملية، حيث أكّد القرآن الكريم مجموعة من المميزات والصفات الكمالية الحقيقية ووضعها مقياساً للتفاضل.

ويمكن تلخيص هذه الميزات - مضافاً إلى الإيمان بالله والهدى، الذي يمثل الأساس في كل هذه الميزات، إذ بدون الإيمان لا يمكن أنْ يحسب شيء من الأعمال أو الصفات: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**[3] - بالأمور التالية:

أ) التقوى والورع عن محارم الله تعالى، حيث أكّد القرآن دورها في عملية التغيير كما أشرنا إلى ذلك في موارد سابقة، كما أكّد دورها في

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) تقدم فيما سبق تثبيت المصدر.

(٣) النور: ٣٩.

التفاضل والتميز: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**﴾[١].

ب) العلم والمعرفة بالله تعالى وبالحقائق الكونية والدين والوحي الإلهي والشريعة الإسلامية والحدود الإلهية، حيث وجدنا أنّ موضوع العلم يحظى باهتمام خاص في مدرسة أهل البيت وأتباعهم، كما عرفنا ذلك في الجانب الثقافي.

كل ذلك انطلاقاً من الأهمية التي أعطاها القرآن الكريم للعلم، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الّذين يَعْلَمُونَ وَالّذينَ لا يَعْلَمُون**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللّهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذينَ اوتُوا العِلْمَ دَرجات**﴾[٣].

ج) الجهاد والتضحية والبذل والإنفاق والإحسان في سبيل الله تعالى، حيث لا يمكن للمجتمع الإنساني أنْ يتكامل ويصل إلى أهدافه إلاّ من خلال الآلام والمعاناة والبأساء والضرّاء والبذل والعطاء. كما أكّد القرآن الكريم ذلك: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنّةَ وَلَمّا يأتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسّتْهُم البأساءُ وَالضرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرّسولُ وَالّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله ألا إنّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيب**﴾[٤].

كما أنّ القرآن الكريم جعل الجهاد أحد صفات التفاضل بين الناس باعتباره صفة حقيقية ثابتة وباقية في آثارها ومداليلها: ﴿**وَفَضّلَ اللّهُ**

---

(١) الحجرات:١٣.

(٢) الزمر:٩.

(٣) المجادلة:١١.

(٤) البقرة:٢١٤.

الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

د) الحرية الحقيقية المتمثلة بالإرادة والاستقلال في الاختيار بعيداً عن المؤثرات الداخلية كالشهوات والميول والرغبات، أو الخارجية كالخوف من الطغاة والأوهام والخرافات، بحيث يكون الإنسان حراً في اختيار الطريق الصحيح الذي يدركه بعقله ومعرفته.

إنّ هذه الحرية الحقيقية تمثل إحدى الصفات الحقيقية في الإنسان وفي المجتمع الإنساني الذي يتفاضل بها على غيره:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ على شيء وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

هـ) نظرة المساواة والعدل بين الناس جميعاً، وأنهم من أصل واحد يتساوون فيه، وفي حقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم بدون تمييز بينهم في الجنس أو اللون أو الدم أو العشيرة أو القرابة، وإنّ الامتيازات إنما تحصل بين الناس من خلال العمل والنشاط والالتزام، كما أُشير إلى ذلك في النقاط السابقة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[3].

إنّ هذه الأُمور تكوّن أبعاد الإطار والرؤية التي تستند إليها نظرة أهل البيت عليهم السلام في عملية التغيير الاجتماعي، وتمثل خطاً ثابتاً في سياستهم تجاه المجتمع الإنساني، وفي سعيهم لبناء الجماعة الصالحة والمقياس في تقدمها

---

(١) النساء: ٩٥.

(٢) النحل: ٧٥.

(٣) الحجرات: ١٣.

وتطورها الحقيقي.

أمّا التقدم العلمي في العلوم الطبيعية، وكذلك التقدم المدني في وسائل وأساليب الحياة وتيسيرها فهو أمر مهم في نظر أهل البيت بالقدر الذي يساهم في تحقيق هذه الموازين أو يساهم في تأثيرها، كما أنه - أحياناً - يكون مرهوناً بها ومديناً لها في وجوده وتطوره.

الباب الرابع

نظام أمن الجماعة

تمهيد : أهمية النظام الأمني

الفصل الأوّل :

الخطوط العامة للنظام الأمني

الفصل الثاني :

السياسات الأمنية العامة

يقع الحديث في موضوع نظام أمن الجماعة في تمهيد وفصلين.

التمهيد: في أهمية وضرورة هذا النظام في بناء الجماعة الصالحة.

الفصل الأوّل: في الخطوط العامة التي وضعها أئمة أهل البيت عليهم السلام لتطبيق هذا النظام.

الفصل الثاني: في السياسات العامة التي اتّبعها أئمة أهل البيت عليهم السلام لدعم هذا النظام.

تمهيد

يكتسب نظام أمن الجماعة في نظرية أهل البيت عليهم السلام وفي ممارستهم وبنائهم للجماعة الصالحة أهمية خاصة لعوامل وأسباب عديدة، منها العوامل التالية:

العامل الأوّل: الظروف السياسية وأسبابها

يرتبط هذا العمل بالظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعيشها الجماعة الصالحة، حيث مرّ أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم بظروف سياسية واجتماعية قاسية، اتّسمت في غالبيتها العامة بالقتل والتشريد والمطاردة والقمع والتفتيش على العقائد لمعرفة طبيعة الانتماء السياسي، وكذلك بالاتهامات الباطلة بالكفر والارتداد والزندقة والابتداع وشقّ عصا المسلمين.

ويمكن أنْ نلخّص الأسباب في وجود هذه الظروف القاسية التي أحاطت بهم بالأُمور التالية:

أ) الحالة السياسية العامة التي شهدها الحكم الإسلامي في الغالبية العظمى من أدواره، والتي كانت تبرّر القمع والإرهاب السياسي بسبب اختلاف العقائد والآراء والشعائر المذهبية، ولم تكن الحالة السياسية الحاكمة في أوساط المسلمين - في كثير من الأحيان - تسمح بالتعددية العقائدية والفكرية والمذهبية، فضلاً عن التعددية السياسية، باستثناء ما شهدته مدة حكم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام[1].

(١) لقد عالجنا هذا الموضوع في كتابنا الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين، وكذلك أشرنا إليه في الباب الثالث في فصل الخطوط السياسية.

ب) الموقف السياسي العام الذي كان يختص به أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، والذي كان يلقي بظلاله الثقيلة والمؤلمة على الأوضاع العامة لأهل البيت عليهم السلام والجماعة الصالحة من أتباعهم، ويمكن أنْ يتلخَص هذا الموقف بتحمّلهم للأعباء والمسؤوليات العامة في الدفاع عن الإسلام والأُمّة الإسلامية، ومقاومة الانحراف على مستوى العقيدة والحكم الإسلامي والأُمّة، مضافاً إلى تحمّل مسؤولية مواجهة الظلم والجور والطغيان في الحكم وفي المجتمعات الإسلامية، والأخطار الخارجية التي كانت تهدد الأُمّة.

ولعلّ أهم أسباب القمع الذي واجهه أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم كان هو هذا الموقف السياسي. ثم تطوّر الأمر، فتحولت عمليات القمع والمطاردة والاتهام من السياسة إلى العقائد والشعائر، وأصبح الصراع ذا طابع ديني ومذهبي، باعتبار أنّ هذه العقائد والشعائر علامة ودليل إثبات على الهوية السياسية والارتباط بأهل البيت عليهم السلام.

فالدوافع الأصلية للقمع هي الهوية السياسية والولاء السياسي الذي يمثّل الأصل في الشخصية الدينية المتحركة، وكانت الاختلافات المذهبية تعبّر - بطبيعة الحال - عن هذه الهوية السياسية وتشير إليها، فأصبحت هي مثار الاتهام والقمع والمطاردة؛ لأنّ الشأن السياسي كان مختلطاً بالشأن الديني لدى عامة الناس وجمهور المسلمين، ولابدّ من تبرير العمل السياسي بالإطارات والشعارات الدينية، بل إنّ الشأن والقضية الدينية كانت قضية سياسية، لأنّ المجتمع بكل تفاصيله كان قائماً على أساس الدين والتمذهب.

وبذلك واجه أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم محنة قاسية في ممارستهم لشعائرهم وعباداتهم، أو في التعبير عن معتقداتهم، لا لأنهم يختلفون مع

الحكّام أو بقية المسلمين في المذهب فحسب، بل لأنَّ هذه الشعائر كانت تدلَّ على هويتهم السياسية أيضاً، وهي هوية (مطاردة) من الحكام.

وكان على الحكام أنْ يبرّروا هذه المطاردة لدى جمهور المسلمين، ولا يصح هذا التبرير ما لم يُتّخذ طابع الدين والقداسة، ولا يكفي فيه - في كثير من الأحيان - مجرّد مخالفة الحكّام ورفض الظلم والجور، أو الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّ هذه الأُمور أصبحت معروفة ومقبولة لدى المسلمين، غاية الأمر أنّ الكثير من المسلمين قد لا يملك أخلاقية الالتزام والعمل بها وتحمل المسؤولية تجاهها. فكانت المبرّرات التي يطرحها الحكام لأجل ذلك هي الاتهامات الباطلة في الدين والعقائد[1].

---

(١) في نظرة فاحصة لهذه الظاهرة السياسية الاجتماعية يمكن أنْ نتبيّن بوضوح الفرق بين ما كان يلاقيه أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم من قسوة تجاه قضية الاختلاف المذهبي، وما كان يلاقيه أحياناً أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية من عنت وأذىً على يد الفرق والمذاهب الأُخرى، مع أنّ الاختلافات بين بعض الفرق والمذاهب الإسلامية وبعضها الآخر ليست بأقلّ - إنْ لم تكن أكثر - من الاختلافات العقائدية أو الفقهية بين هذه المذاهب ومذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، إذا استثنينا القضية السياسية.

ومع هذا، لا نجد عمليات القمع والمطاردة بين هذه المذاهب بعضها مع البعض الآخر، أو من قبل الحكام عندما يلتزمون واحداً من هذه المذاهب بمستوى الشدّة والقسوة والإصرار والاستمرار الذي واجهه أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ولاشكّ في أنّ السبب الحقيقي لتفسير ذلك هو (الهوية السياسية) لأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام وموقفهم السياسي الرافض للظلم والطغيان، وتصبح حينئذ الممارسات الدينية المذهبية علامة تؤشر على الأشخاص الملتزمين بهذا المذهب السياسي.

ولذلك نجد أنّ هذه الالتزامات العقائدية والممارسات المذهبية للشعائر يكون لها هذا المردود القاسي نفسه - أحياناً - في أوساط المذاهب الإسلامية نفسها، عندما ←

ج) وجود الثورات والاضطرابات السياسية والدينية في المجتمع الإسلامي طيلة التأريخ الإسلامي تقريباً، حيث كانت تنسحب الآثار الجانبية لهذه الحركات الرافضة والاضطرابات المضرّة على الجماعة الصالحة وأتباع أهل البيت عليهم السلام، فإنّ أهل البيت أو الجماعة الصالحة وإنْ لم يكونوا وراء هذه الثورات أحياناً، كما أنهم يرفضون منهج الاضطرابات - كما عرفنا في عرض الاتجاهات السياسية - ولكنهم كانوا يكتوون بنارها، ويتحملون آثارها وتبعاتها بسبب اختلاط الرؤى أو الوشايات والشبهات والأغراض الشخصية الفاسدة، أو بسبب أنّ الكثير من هذه الثورات والنهضات كانت تحمل شعارات مشابهة لشعارات أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وتجذب أعداداً من أتباعهم، أو تتحرك في أوساط محبّيهم أو المحسوبين عليهم في التصنيف السياسي العام.

وعلى أي حال كانت هذه الظروف القاسية قضية واضحة واجهها أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم في عامة تأريخهم، وكان على أئمة أهل البيت عليهم السلام أنْ

تتحول إلى مؤشر وعلامة على انتماء سياسي (مطارد) من قبل السلطة، كما حصل في بعض أدوار الصراع بين المعتزلة والأشاعرة، أو في بعض أدوار الصراع بين المذاهب الإسلامية الأُخرى أنفسها، أو كما نشاهده في عصرنا الحاضر من المطاردة للحجاب أو بعض الالتزامات الدينية باعتبارها تؤشر على الهوية السياسية لأصحابها.

وقد تتعمق وتتجذّر الحالة السياسية ذات الطابع المذهبي في أوساط الأُمّة إلى حدّ تتحول فيه إلى حالة اجتماعية ثابتة غير سياسية، ولكنها مستهدفة بالذات كحالة مذهبية، وذلك بسبب تصاعد الأحقاد والتعصّب الأعمى والتخلّف الفكري والاجتماعي لدى الأُمّة، كما نشاهده في بعض الأزمنة التأريخية بين المذاهب الإسلامية عموماً وبشكل دائم تجاه أهل البيت وأتباعهم، لوجود التراكم التأريخي والثبات في الموقف والهوية السياسية لهم. منه قدس سره.

يضعوا الخطط والمناهج والأنظمة التي تحفظ أمن الجماعة ويتخذوا الإجراءات المناسبة القاسية[1] التي تحمي الجماعة من عمليات القمع والمطاردة، أو الاستئصال في بعض الأحيان.

العامل الثاني: ضرورات الحكم الشرعي

الضرورات التي كانت تنبع من التزام الجماعة بالحكم الشرعي الإسلامي، وضرورة وجود كيان للجماعة الصالحة يحقق تكاملها الذاتي، ويكون قادراً على استيفاء حاجاتها المختلفة، مثل: معرفة الأحكام الشرعية الصحيحة، أو القضاء وفصل الخصومات بين أبنائها، أو ممارسة الولاية والإدارة للأعمال والأموال العامة أو الخاصة التي ليس لها ولي خاص.

كل ذلك انطلاقاً من معرفة عقائدية وسياسية وعملية ذات أبعاد مختلفة، تتمثل في معرفة أئمة أهل البيت عليهم السلام لانحراف أجهزة الحكم الإسلامي وطغيانها من ناحية، وضرورة الوفاء بالتزاماتهم في الدفاع عن الكيان السياسي الإسلامي العام من ناحية أُخرى، ومحافظتهم على وحدة الأُمّة الإسلامية من ناحية ثالثة، مع وفاء الجماعة الصالحة بالتزاماتها من ناحية رابعة.

وهذا الموقف السياسي والاجتماعي الدقيق والمعقد يحتاج - بطبيعة الحال - إلى نظام أمن خاص للجماعة يحقق لها التكامل، ويسهّل لها فاعليتها ونشاطها، ويمنحها المرونة في الحركة والتكيّف.

---

(١) مثل الإجراء الذي اتخذه الإمام الحسن عليه السلام في الصلح مع معاوية للمحافظة على وجود الجماعة وعدم استئصالها. منه قدس سره.

العامل الثالث: الحد من عمليات التخريب

حماية الجماعة الصالحة من عمليات التخريب والتسلّل في داخلها في محاولة للإضرار بها أو تشويه سمعتها، أو تحقيق المكاسب والمنافع الذاتية أو الرخيصة من قبل بعض العناصر على حساب مصالح الجماعة العامة، مستفيدين من ظروف المحاصرة التي كان يعيشها أئمة أهل البيت عليهم السلام في الأدوار الأخيرة لهم، أو محاصرة قادة الجماعة الصالحة، وعلمائها الربّانيين في مختلف الأدوار.

ذلك أننا إذا درسنا مدلولات وأهداف نظام أمن الجماعة بدقة، فسوف نرى أنها لا تنحصر في حماية الجماعة من القمع الخارجي، أو تحقيق المرونة في الحركة والنشاط لها، بل له أبعاد أُخرى تشمل هذا الجانب أيضاً مضافاً إلى الجوانب الأُخرى التي أشرنا إليها في العامل الثاني، كالوقوف أمام حركة الغلاة أو الانتهازيين ممن يدعي التشيع زوراً وبهتاناً لأغراض ومصالح خاصة. وسوف نتعرف على هذه الحقائق عند دراستنا للفصل الأوّل إنْ شاء الله.



الخطوط العامة للنظام الأمني

١. التقية

٢. كتمان الأسرار

٣. الحضور في الجهاز الحاكم

٤. الهجرة

يمكن تلخيص الخطوط العامة للنظام الأمني بالخطوط الأربعة التالية:

الأوّل: التقية.

الثاني: كتمان الأسرار.

الثالث: الحضور في الجهاز الحاكم.

الرابع: الهجرة.

الخط الأوّل: التقية

أبعاد بحث التقية

التقية في نظر أهل البيت عليهم السلام لها أهمية خاصة، حيث وردت فيها عشرات الأحاديث والروايات، وفيها روايات عديدة، بل مستفيضة صحيحة السند، وهي ذات مضامين متعددة وتتناول مختلف أبعاد هذا الموضوع المهم، ولعلّ خط التقية هو أهم الخطوط الأمنية على الإطلاق، وقد يطلق ويراد منه جميع الخطوط الأمنية الآتية.

والبحث في التقية له جوانب عديدة:

الجانب الأوّل: يرتبط بالجانب العقائدي والأدلّة على صحّتها من القرآن الكريم والسنّة النبوية.

الجانب الثاني: يرتبط بأهميتها وموقعها من الدين والالتزامات والمواثيق الإلهية، حيث ورد عنهم عليهم السلام أنّ ((**التقية ديني ودين آبائي**))[1]، وأنّ ((**من لا تقية له لا إيمان له**))[2]، وأنه ((**ما عُبد الله بشيء أفضل من التقية**))[3].

الجانب الثالث: يرتبط بالأحكام والتكاليف الشرعية المتعلقة بالتقية من الوجوب والاستحباب، وحتى الحرمة وحدودها والآثار الوضعية والتكليفية لها، وهو الجانب الفقهي من التقية.

الجانب الرابع: يرتبط بالأبعاد السياسية والاجتماعية والأمنية للتقية، وهذا الجانب هو الذي يهمّنا تناوله في هذا البحث من الموضوع.

---

(١) دعائم الإسلام٢: ١٣٢، ح٤٦٤.

(٢) عوالي اللئالي١: ٤٣٢، ح١٣٤.

(٣) معاني الأخبار: ١٦٢، ح١.

ولابدَّ أنْ نشير في البداية إلى أنَّ (التقية) لها مدلول واسع إذا أردنا أنْ نفهمها على أساس موارد استخدام النصوص لمفهوم التقية، حيث تشمل بالإضافة إلى كتمان المعتقد أو الالتزام الفقهي المذهبي أو التظاهر بغيره ...كتمان الأسرار في الحركة السياسية والاجتماعية والثقافية، وأيضاً ألواناً من المجاملة والملاطفة في المعاشرة، حيث تناولنا هذه الأبعاد في كتابنا (الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين).

ولكن البحث هنا يركز على المورد الأوّل منها: وهو كتمان المعتقد أو كتمان بعض الالتزامات الفقهية، أو حتى التظاهر بغيرها خوفاً من القمع والأذى والضرر. حيث إنَّ أهل البيت عليهم السلام عندما واجهوا مع أتباعهم عمليات القمع والمطاردة بسبب الالتزامات العقائدية والمذهبية وضعوا منهج التقية على أساس الرخصة في ذلك، التي أشار إليها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾[1]، أو قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[2].

وألزموا أتباعهم بالتزام هذا المنهج وهو التقية، وعرّفوه على أنه من الواجبات الشرعية المهمة التي لها علاقة بالإيمان والدين والتقرّب إلى الله تعالى كما أشرنا. وشدّدوا على هذا الأمر بدرجة كبيرة، وذلك من أجل حماية الجماعة والمحافظة على أمنها واستقرارها وقدرتها على أداء وظائفها، كما ورد ذلك في رواية عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله

(١) آل عمران:٢٨.

(٢) النحل:١٠٦.

الصادق عليه السلام قال: ((**اتقوا على دينكم وأحيوه بالتقية، فإنّه لا إيمان لمن لا تقية له، إنما أنتم من الناس كالنحل في الطير، ولو أنّ الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلاّ أكلته، ولو أنّ الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبون أهل البيت عليهم السلام لأكلوكم بألسنتهم، ولنحلوكم بالسرّ والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا**))[1].

لماذا منهج التقية

والسبب في اتخاذ هذا الإجراء هو أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانت أمامهم عدّة خيارات رئيسية في مواجهة عمليات القمع والإرهاب - بل الإبادة أحياناً - لشيعتهم:

الخيار الأوّل: الانعزال عن المجتمع

الطلب من أتباعهم الانعزال عن مجتمع المسلمين والانكفاء على الذات، والهروب بالنفس والأهل إلى المناطق النائية التي لا تتمكّن السلطة من الوصول إليهم فيها، كالجبال والكهوف والغابات، وبذلك يتمكّن أتباع أهل البيت أنْ يمارسوا شعائرهم كاملة، كما هي مطلوبة منهم في الواقع،

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤٦١، ح٨ عن الكافي. وبالرغم من أنّ جميع المسلمين، بل والعقلاء يلتزمون بهذا السلوك الاجتماعي والسياسي بشكل إجمالي، بل إنّ بعض الجماعات الإسلامية حاولت إعطاء مبررات لهذا السلوك، ووضعت روايات على لسان النبي من أجل مهادنة الحاكم الظالم ومسايرته والرضوخ إليه، فحولته إلى منهج ثابت بدل أنْ يكون حالة استثنائية اضطرارية، ولكن مع ذلك عرف هذا المنهج عن أتباع أهل البيت عليهم السلام لأسباب: منها أنهم كانوا يتعرضون إلى القمع باستمرار، وأنهم بيّنوا أنّ السكوت للضرورة وليس ديناً، كما أنهم عليهم السلام ذكروا التقية كمنهج محدد المعالم والآفاق على ما سوف نعرف ذلك بشكل إجمالي. منه قدس سره.

ويظهروا معتقداتهم التي تخالف عقائد الآخرين في تفصيلاتها وخصوصياتها(١).

لأنهم حين يعيشون لوحدهم ولأنفسهم بعيداً عن أنظار الناس وقدرة السلطة يكونون قادرين - بطبيعة الحال - على تحقيق ذلك، كما يروى ذلك في أصل وجود الرهبانية المسيحية.

يذكر بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى: **﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**(٢).

عن ابن مسعود قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على حمار فقال: يابن أم عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم

---

(١) لا يوجد اختلاف بين أتباع أهل البيت عليهم السلام وعامة المسلمين في القضايا العقائدية الأساسية، وإنما يوجد الاختلاف في بعض التفاصيل، وكذلك في قضية الإمامة للمسلمين والخلافة للرسول، وأنها هل هي بالنص – كما يذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم إلى ذلك – حيث نص النبي صلى الله عليه وآله على إمامة علي والأئمة الأحد عشر من ولده عليهم السلام، أو أنّ الأمر قد تركه النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين ليضعوا لأنفسهم ويختاروا ما يشاؤون ويريدون دون تحديد من الشريعة، أو أنّ الشريعة حدّدت المنهج بالشورى التي لم يعمل بها المسلمون إلاّ في خلافة أبي بكر فقط بطريقة، وفي خلافة عثمان بطريقة ثانية، وفي خلافة علي بطريقة ثالثة. منه قدس سره.

(٢) الحديد:٢٧.

يبقَ منهم إلاّ القليل، فقالوا: إنّ ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أنْ يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام، يعنون محمداً صلى الله عليه وآله فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**...﴾ إلى آخرها[1].

ولم يقبل أهل البيت لشيعتهم وأتباعهم هذا الخيار لأسباب متعددة:

منها: أنّ الالتزام بهذا الخيار والعمل على أساسه ليس أمراً مقدوراً في جميع الأحوال، بل يكون عسيراً في أغلب الأحوال، ومن ثمّ فسوف يواجه أتباعهم طريقاً مسدوداً لا يمكن الاستمرار فيه.

ومنها: أنّ الالتزام بهذا الخيار قد يعرّض الجماعة إلى الانحراف والضلالة على طول المدة، والبعد عن مصادر الهدى والمعرفة ويفتح الطريق أمام الاجتهاد بالرأي والبدعة كما حدث للمسيحية[2].

---

(١) مجمع البيان٩: ٢٤٣. وكذلك الدر المنثور٦: ١٧٧ حيث يذكر الرواية عن ابن مسعود بتفصيل مع اختلاف جزئي في المضمون، كما يذكر روايات آخر تؤكد هذا المعنى.

(٢) عن ابن عباس، قال: كانت ملوك بعد عيسى بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشدّ علينا من شتم يشتمناه هؤلاء، إنهم يقرأون ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، هؤلاء الآيات مع ما يعيبونا به في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك فدعونا؛ قال: فقالت طائفة منهم: ابنو لنا أُسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش، فإنّ قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في ←

ومنها: أنّ أهل البيت قد وضعوا لأتباعهم في العلاقات الاجتماعية سياسة الاختلاط والتعايش والانسجام مع بقية المسلمين، وخصوصاً الأوساط العامة والواسعة التي لا تتّصف بالتعصّب والعداء لأهل البيت عليهم السلام، لأنهم كانوا يدركون أنّ أتباعهم بحاجة إلى الناس - كما أشرنا إلى ذلك - وحينئذ يكون التزام خيار العزلة نقضاً لهذه السياسة وتضييعاً للهدف منها، حيث تُحاصر الجماعة، ويضيَّق عليها وتحرم من جميع الفوائد والخدمات العامة الدينية والاجتماعية والثقافية التي يحصل عليها الإنسان المسلم من خلال المجتمع الإسلامي والجماعة المسلمة.

ومنها: أنّ (الجماعة الصالحة) تتحمل مسؤوليات تجاه سلامة الكيان الإسلامي والأُمّة الإسلامية - كما أشرنا إلى ذلك في عدّة مناسبات - ولا يمكن لها القيام بمسؤولياتها هذه إلاّ من خلال التعايش مع المسلمين

الفيافي، ونحفر الآبار، ونحترث البقول، فلا نردّ عليكم، ولا نمرّ بكم، وليس أحد من أولئك إلاّ وله حميم فيهم؛ قال: ففعلوا ذلك، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾، الآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم؛ قال: فلما بعث النبي صلى الله عليه وآله ولم يبق منهم إلاّ قليل، انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا به وصدّقوه، فقال الله جلّ ثناؤه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**﴾ قال: أجرين لإيمانهم بعيسى، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وآله وتصديقهم به؛ قال: ﴿**وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ**﴾ القرآن، واتباعهم النبي صلى الله عليه وآله؛ وقال: ﴿**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ تفسير الطبري ٢٧: ١٣٨. منه قدس سره.

والحضور في مجتمعاتهم، حتى يمكنها القيام بهذا الدور الريادي المهم، والتأثير في عموم الأوضاع الإسلامية من خلال القدوة والتوعية والمواقف الجهادية الواعية والصلبة.

فمن أجل هذه الأسباب وغيرها رفض أهل البيت عملياً هذا الخيار.

الخيار الثاني: المواجهة والصراع

الطلب من أتباعهم وشيعتهم إظهار عقائدهم، وتطبيق وإجراء شعائرهم بالكامل في مجتمع المسلمين، والدخول في مواجهة علنية وصراع مفتوح على غامة المسلمين حول تفاصيل الحياة الإسلامية، أو في القضايا الأساسية منها، كقضايا الإمامة والشعائر الإسلامية.

وهذه المواجهة ضرورة حتمية اجتماعية إذا أراد أهل البيت وأتباعهم إظهار هذه العقائد والتزام هذه الشعائر، لما ذكرناه آنفاً من أنّ الأوضاع السياسية والروحية حوّلت الاختلافات الفكرية ووجهات النظر في تفسير العقائد والآراء الفقهية إلى محاور للصراع والاصطدام، وأصبح التعصّب المقيت للرأي - إلى حدٍّ تبرير ممارسة الاضطهاد - سمة عامة من سمات الحكم أو الفئات المذهبية[1].

(١) هذه الظاهرة كانت من ظواهر المجتمعات المتخلّفة سياسياً، وقد عرفها الإنسان الأوربي في العصور الوسطى من خلال محاكم التفتيش والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، كما عرفها الإنسان الشرقي في بعض الأدوار، ولا زال الأوربيون يمارسون هذا النوع من الاضطهاد - أحياناً - كما هو في منع الفتيات المحجبات منّ الدراسة، أو طرد بعض اللاجئين من البلاد لمجرّد ممارسة الشعائر المذهبية ذات الدلالة السياسية، التي لا يتحمّلها الإنسان الأوربي. وكذلك نجد بعض الحكومات في البلاد الإسلامية تضطهد جماعات من الناس لمجرّد الممارسة المذهبية الخالصة أو التي تؤشّر على الهوية السياسية، حتى لو كانت الممارسة غير ←

ومن الطبيعي أنَّ يرفض أهل البيت عليهم السلام هذا الخيار ولا يلتزموا بهذا المنهج تجاه أتباعهم؛ لأنَّ هذا الخيار يضرُّ بسياسة التعايش مع المسلمين، ووحدة الأُمّة الإسلامية تجاه أعدائها، ويلغيها من الأساس، بل الأهم من ذلك هو أنه يترتّب على هذا الخيار أضرار أكبر من ذلك، سواء لجماعة الشيعة والأتباع أنفسهم، أم لجماعة المسلمين والمجتمع الإسلامي.

أمّا الأضرار التي تتحقق للجماعة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام فهي: أنَّ هذا الخيار قد يؤدي إلى استئصال الجماعة الصالحة والقضاء على مقومات وجودها الاجتماعي، ومن ثمّ إلغاء دورها في الحياة الإسلامية.

بل قد يكون الضرر أشدّ من ذلك، وهو وقوع البقية الباقية من أفرادها تحت طائلة الانحرافات العقائدية أو السلوكية، والتحول إلى الباطنية أو الغلوّ، أو التخلّي عن ممارسة الواجبات والشعائر الإسلامية والاكتفاء بالالتزامات النفسية والممارسات الروحية. كما أشرنا إلى ذلك في الخيار الأوّل أيضاً.

ويلاحظ ذلك - مع الأسف - في بعض الفرق الشيعية المنحرفة التي انتهت إلى هذا المصير بسبب تخلّيها عن سياسة التعايش مع المسلمين، والأخذ بمنهج العزلة أو التزامها لمنهج المواجهة العلنية في البداية، وانتهت أخيراً إلى هذه الانحرافات.

وقد ينتهي الأمر بالجماعة إلى ضرر آخر، وهو تغيير العقيدة والمذهب بسبب الضعف وعدم القدرة على الصمود والتحمّل، واجتماع تأثيرات عمليات القمع والمطاردة والإرهاب من ناحية، مع أساليب السلطة في التضليل والإغراء من ناحية أُخرى.

سياسية. منه قدس سره.

ويبدو من مجمل مضمون النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام[1] أنهم كانوا يرون - في تحليلهم للأوضاع السياسية والاجتماعية - أنّ المواجهة العلنية سوف تؤدي إلى إلحاق أحد هذه الأضرار الخطيرة بالجماعة الصالحة، وانطلاقاً من ذلك رفضوا هذا الخيار.

وتشير بعض الروايات التي وردت في تأريخ المسيحية في موضوع ابتداع الرهبانية إلى هذه الأخطار في هذين الخيارين[2].

---

(١) من جملة هذه النصوص ما أشرنا إليه قريباً من رواية عبد الله بن أبي يعفور عن الإمام الصادق عليه السلام، وكذلك الروايات التي وردت وتصف التقية بأنها **((جُنّة المؤمن))** و**((ترس المؤمن))**، مثل ما روي عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام من قوله: **((وأي شيء أقرّ لعيني من التقية، إنّ التقية جُنّة المؤمن))**. (وسائل الشيعة ١١: ٤٦٠، ح٤). والرواية الأُخرى الصحيحة عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام: **((التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له...إنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيدين الله عزّ وجلّ به فيما بينه وبينه، فيكون له عِزّاً في الدنيا، ونوراً في الآخرة، وإنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيذيعه، فيكون له ذلاً في الدنيا، وينزع الله ذلك النور منه))**.(وسائل الشيعة ١١: ٤٦٠، ح٦. وقد أخرجه في أُصول الكافي، وذيله في الهامش). منه قدس سره.

(٢) عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **((اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقةً، نجا منهم ثلاث، وهلك سائرهم: فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، ونشرتهم بالمناشير؛ وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام بين ظهراني قومهم، يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى صلوات الله عليه، فلحقوا بالبراري والجبال، فترهبوا فيها، فهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا** ←

وأمّا الأضرار التي تلحق بالمسلمين وجماعتهم من الالتزام بهذا الخيار فهي إيجاد الاضطراب وعدم الاستقرار للمجتمع الإسلامي، والتجزئة والضعف في كيانه العام، خصوصاً إذا تمكّنت الجماعة من الصمود والاستمرار في حالة من التكافؤ والتوازن في القوة، حيث يستفيد من ذلك أعداء الإسلام الخارجيون أو الانتهازيون والمصلحيون الداخليون.

وهذا ما نلاحظه في كثير من الأوضاع التي عاشها المسلمون في مختلف عصورهم[1]، كما أنّ هذا السبب وهذه الأضرار هي التي تفسّر الكثير من مواقف أئمة أهل البيت عليهم السلام لشعورهم بالمسؤولية تجاه المحافظة على الإسلام والأُمّة الإسلامية. كما عرفناه في البحوث السابقة.

الخيار الثالث: التقية والمداراة

التقية والمداراة وكتمان تفاصيل العقيدة التي تكشف عن الهوية السياسية، أو التي تثير ردود الفعل القاسية في ظروف التعصّب والقمع، وكذلك تكييف أداء الشعائر الإسلامية بالشكل الذي يحتفظ بأصل الشعائر، ويكون منسجماً بشكل عام مع المتبنيات العامة لأبناء الأُمّة تفادياً

كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ قال: ما فعلوها إلاّ ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، قال: ما رعاها الذين من بعدهم حق رعايتها (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) قال: وهم الذين آمنوا بي وصدقوني. قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال: فهم الذين جحدوني وكذبوني)). تفسير الطبري٢٧: ١٣٨ - ١٣٩.

(١) كما هو في الصراع بين الحمدانيين والأيوبيين في بلاد الشام، وكذلك بين الفاطميين والأيوبيين في بلاد مصر، والصراعات بين الأمويين والعلويين في بلاد المغرب والصراع بين بعض فرق الشيعة الإسماعيليين والعباسيين في إيران. منه قدس سره.

للقمع والإرهاب، أو الإثارة والتفسير الظالم أو الخاطئ للشعائر والسلوك.

وقد كان هذا الخيار هو الذي وقع عليه نظر أهل البيت لمواجهة مثل هذه الظروف الصعبة التي مرّوا بها وأتباعهم.

ومن الواضح أنّ هذا الاختيار من أهل البيت عليهم السلام لمنهج التقية والمداراة لم يكن بسبب الاستجابة النفسية لهذه الضغوط، كالخوف أو الجبن، أو الإحساس بالهزيمة السياسية أو الروحية، كما يشير إلى ذلك الإمام الهادي عليه السلام في زيارة الغدير، عندما يفسر موقف الإمام عليّ عليه السلام في السكوت عن حقه. وإلاّ فإنّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم هم أهل التضحية والفداء والبذل والعطاء والصبر والصمود، وقد ربّى أهل البيت عليهم السلام شيعتهم على هذه الأخلاق - كما عرفنا - وتنبأوا لهم بالبلاء والمحن[1].

وإنما كان هذا الخيار انطلاقاً من رؤية موضوعية واضحة للحياة السياسية وللصراع الاجتماعي وأسبابه، وتقييماً موضوعياً للمصالح والمفاسد العامة والأولويات الإسلامية التي تحكم المسيرة الاجتماعية، وتقديم الأهم على المهم فيها. فكان خيار التقية يمثل الخط الفكري والسياسي الذي وضعه أهل البيت لحماية الجماعة الصالحة، وفي خط تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى.

ويدلّ على هذا الفهم للتقية والتزام هذا الخيار:

أوّلاً: ما أشرنا إليه من تقويم أئمة أهل البيت عليهم السلام لمبدأ التقية من أنها هي الدين ((**ديني ودين آبائي**))، أو أنها هي الإيمان ((**من لا تقية له لا إيمان**

---

(١) عن علي عليه السلام أنه قال: ((**من أحبّنا أهل البيت فليستعدّ للفقر جلباباً**)) (نهج البلاغة قصار الحكم: ١١٢)، وأنه قال: ((**لو أحبني جبل لتهافت**)) (نهج البلاغة قصار الحكم: ١١١)، ويؤكّد ذلك ما ورد عنهم من أنّ المحن والبلاء تزيد الإنسان قربى من الله تعالى، كما شرحناه سابقاً.

له)) وأنها نور للإنسان في يوم القيامة، وغير ذلك من المضامين التي تُعطي هذا البعد والفهم لمنهج التقية.

ثانياً: إنّ التقية والحذر من الأخطار والأضرار حالة نفسية طبيعية تجرّ الإنسان إليها بفطرته البشرية. ورغم ذلك نجد أنّ أهل البيت يحذّرون شيعتهم من التساهل في الحذر، ويحثّونهم على التقية، ويهددون تاركها ويتوعدونه بالعقاب الإلهي والدنيوي، وغير ذلك مما نشاهده بشكل واضح في أخبار التقية[1].

وهذه الظاهرة في أخبار أهل البيت عليهم السلام لا تفسير لها، إلاّ أنّ أهل البيت لما كانوا قد ربّوا شيعتهم على الرفض للجور والظلم، والصبر والصمود والتضحية والفداء من أجل الحق، وتحمّل مختلف ألوان العذاب والمحن والآلام في سبيل المبدأ والعقيدة، والثبات على المواثيق والعهود، واجهوا مشكلة حقيقية في السيطرة على مدلولات هذه التربية العقائدية والمبدئية والروحية لشيعتهم، وضبط سلوكهم العملي بشكل ينسجم مع عملية البناء، وتحمّل المسؤوليات الكبرى تجاه الإسلام والكيان السياسي والأُمّة الإسلامية. فكان عليهم أنْ يوجدوا تربية عقائدية سياسية ومبدئية موازية تحقق الموازنة مع التربية الروحية والمعنوية العالية في البذل والعطاء والتضحية والفداء.

---

(١) منها ما ورد عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: **((لا خير في من لا تقية له، ولقد قال يوسف: (أيتها العير إنكم لسارقون وما سرقوا)))** (وسائل الشيعة١١: ٤٦٤.ح١٧).

ومن مسائل داود قال: قال لي علي بن محمد الهادي عليهما السلام: **((يا داود، لو قلت إنّ تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقاً))** (وسائل الشيعة١١: ٤٦٦، ح٢٦). وقد أشير إلى بعض الأحاديث سابقاً.

فالتقية خط أمني يحمي الجماعة من عمليات القمع، ولكنه في نفس الوقت له مضمون تربوي واجتماعي سياسي يحقق للجماعة الموازنة الروحية والنفسية في التعامل مع الأحداث المختلفة، ويوجد لها فرصة المساهمة في عملية البناء والتغيير الاجتماعي.

ويؤكّد ذلك أنّ أهل البيت لم يجعلوا التقية مختصة بخصوص موارد الأخطار والضرر، بل كانت التقية أشمل وأوسع من ذلك[١].

حدود التقية

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام لم يطلقوا الإذن في التقية، بل وضعوا حدوداً لها وسقفاً لاستخدامها، وهذا الحد هو أنْ لا تؤدي التقية إلى الإضرار بالمؤمنين الآخرين، أو سفك دمائهم، أو تعريضهم للأخطار.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث معتبر أنه قال: ((**إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم، فإذا بلغ الدم فليس تقية**))[٢].

وكذلك لا تصحّ التقية في مورد يؤدّي استخدامها إلى التهاون في نصرة الإسلام والمسلمين التي تفرضها موازين وأحكام الجهاد في سبيل الله، حيث تصبح التقية عندئذ غير مشروعة ولا مبرّرة.

فقد ورد في حديث معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**لم تبق الأرض إلاّ وفيها منّا عالم، فإذا بلغت التقية الدم فلا تقية، وأيم الله لو دُعيتم لتنصرونا قلتم لا نفعل إنما نتقي!! ولكانت التقية أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك، ولأقام في**

---

(١) سوف نتحدث في قسم آخر من هذه البحوث عن التقية وأبعادها المختلفة بما يوضّح هذه الفكرة.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٤٨٣، ح١.

كثير منكم من أهل النفاق حدّ الله))(١).

وفي حديث آخر يقدم الإمام من أهل البيت عليهم السلام القاعدة العامة لمضمون التقية، مما يكشف عن محتواها الأمني والأخلاقي وهو اتقاء الضرر بحيث لا يؤدي إلى فساد الدين. فيقول كما روي عنه: ((**لأنّ للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقم له، وتفسير ما يتّقى مثل أنْ يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدّي إلى الفساد في الدين فإنه جائز**))(٢).

كما أنه ورد عنهم عليهم السلام - فيما سبق - أنّ الإنسان يجب عليه أنْ يتحمَل الأضرار البالغة، ويبذل نفسه وماله دون دينه(٣).

وكل هذه الروايات تؤكَد أنّ التقية إنما هي (منهج) عملي أمني محدد ضمن إطار المصالح الإسلامية العليا، والمحافظة على الجماعة الصالحة، وليست مجرّد رخصة في الهروب من الواقع أو الفرار من الأعداء.

الخط الثاني: كتمان الأسرار

وإلى جانب خط التقية وضع أهل البيت خطاً آخر لأمن الجماعة وهو (كتمان الأسرار والمحافظة عليها)، وعدم (إذاعتها) أو (التحدّث) بها، سواء تجاه الأعداء من الطغاة والحاقدين من النواصب أم المتربصين من المنافقين والنفعيين أم الغوغاء من عامة الناس الذين ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح.

وهذا الخط قد يتداخل إلى حدٍّ كبير مع خط (التقية)، بل نلاحظ في

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٨٣، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٦٩، ح٦.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٤٥١، ح٢ وص١٣٩، ح٢.

بعض الروايات إطلاق مفهوم التقية على كتمان الأسرار، ومخالفة التقية على إذاعة الأسرار - كما ذكرنا سابقاً - ؛ ولذلك لابدَّ من تحديد (موضوع) هذا الخط الأمني الذي يكاد أنْ يلتزم به كل مجتمع إنساني يريد أنْ يحمي وجوده من الأعداء، ويحتفظ بتماسكه وقدرته على الأداء.

إنّ موضوع هذا الخط الأمني هو: (الكلام والحديث والإدلاء بالمعلومات السرية)، الذي يشكّل - عادة - أكبر الأخطار التي يمكن أنْ تواجهها أي جماعة تتعرّض لعمليات القمع والإبادة.

وقد تناولت كتب الأخلاق موضوع عثرات (اللسان) والأضرار البالغة التي تلحق الإنسان في حياته الاجتماعية، وفي علاقته بالله تعالى والناس، وما يصدر عنه من ذنوب وآثام أو مصائب وجراحات، ولكن كل ذلك جاء في صراط بيان الذنوب التي يرتكبها اللسان كجارحة من جوارح الإنسان.

أمّا هذا الخط الأمني فقد تناول موضوع (اللسان) من بُعد آخر، وهو بُعد إذاعة الأسرار وإفشائها بالشكل الذي يعرض الجماعة إلى الأخطار، حيث يكشف عن حركتها ومواقفها وحجمها وانتماء أفرادها، مما يعرّضهم لأشد الأخطار.

فقد كان أهل البيت وشيعتهم وأتباعهم يمثلون (جماعة) من المسلمين لها خصائصها ومقوماتها العقائدية والفكرية والثقافية ومواقفها السياسية، وغير ذلك من الخصائص. وكانت هذه الجماعة منتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتعيش ضمن المجتمعات الإسلامية، وتخضع للسلطة الحاكمة بشكل عام.

وقد كان الحكام الطغاة يصنّفون هذه الجماعة - دائماً بسبب خصائصها - إلى جانب القوى المعارضة، كما أنّ السلطات كانت تخافها وتقمعها بسبب قدرتها وحيويتها والتفافها حول قيادة أئمة أهل البيت، وهم

أصحاب حق في الخلافة، وموضع رضا وقبول عام من المسلمين.

تأليب العامة ضد الشيعة

ولذلك كانت هذه الجماعة تتعرض - كما ذكرنا - إلى المطاردة والقمع من ناحية، وعمليات التشويه والإساءة إلى سمعتها وعقائدها ودورها وأهدافها في الحياة الإسلامية، وذلك لعزلها ومحاصرتها ثم ممارسة الضغط عليها من خلال تأليب الأُمَة عليها من ناحية أُخرى.

والشيء الذي يعني الطغاة والحاكمين وكذلك الحاقدين والنواصب ويثير اهتمامهم وغضبهم، وإنْ كان هو الجانب السياسي من الموضوع؛ لأنه يمثل السبب الحقيقي لهذه العمليات المتعددة الجوانب، إلاَ أنَ الانتماء المذهبي للأفراد كان مهماً أيضاً بقدر ما يؤشر على الانتماء السياسي كما عرفنا.

ويبدو الأمر مختلفاً بعض الشيء في نظر الأوساط العامة للأُمَة، حيث كان يثير اهتمامها الجانب العقائدي للجماعة الصالحة، لأنّ الأوساط العامة للأُمَة بسبب فهمها الساذج للإسلام وتربيتها من قبل الحكام، وعلماء السوء على التعصّب والحقد أصبحت لا يهمها الموقف السياسي بقدر الموقف المذهبي، ولذلك أخذت ترفض بقسوة كل ما يخالف الآراء والالتزامات العقائدية التفصيلية الجاهزة التي تقدمها السلطة لها.

حيث عملت السلطات الحاكمة من خلال أجهزتها على إبقاء الأُمَة بعيدة عن إدراك الحقائق ومعرفتها، سواء فيما يتعلّق بأعمال الطغاة وتصرّف الحاكمين، أم فيما يتعلّق بالموقف السياسي للتيارات السياسية الأُخرى، أم واقع الالتزام المذهبي، بل عملوا على تأليبها وتحريضها على هذه التيارات بشتى الأساليب والوسائل.

فبدلاً من تربية الأُمَة على (البحث والمعرفة) وترسيخ دعامة (الحرية) في

الحوار العلمي والممارسة العملية له ضمن الإطار الإسلامي العام والمسلّمات العقيدية الضرورية، كانت التربية للأُمّة على (التعصّب) للرأي والمذهب، وإطلاق التهم بـ (الكفر) و(الزندقة) و(الخروج عن الإسلام)، و(شقّ عصا المسلمين) لمجرّد الاختلاف بالرأي في التفاصيل أو المطالبة بالحق، أو الوقوف في وجه الظالم والجائر ورفض ممارسات الظلم والاستئثار.

وقد عبّر الإمام الصادق عليه السلام عن هذا المنهج الذي اتبعه الطغاة في تربية الأُمّة بقوله: ((**إنّ بني أمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان، ولم يطلقوا تعليم الشرك، لكن إذا حملوهم عليه لم يعرفوه**))[1].

ومن هنا نجد أنّ أئمة أهل البيت لم يكتفوا في موضوع أمن الجماعة الصالحة وحمايتها من العدوان بمجرد (التقية)، بمعنى الطلب من أتباعهم عدم إظهار عقائدهم أو الإثارة بشعائرهم سلوكياً، فإنّ ذلك وإنْ كان مهماً في تجنّب الضغوط التي يمارسها الناس ضدّهم، ومن ثمّ عزلهم عن المجتمع ومحاصرتهم في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل اهتم أهل البيت عليهم السلام بالشيء الآخر الأهم، وهو أنْ يكفّوا عن الحديث والكلام في القضايا السياسية والدينية، أو الإدلاء بالمعلومات أو العواطف والمشاعر[2] التي تكشف حقيقة انتمائهم السياسي، أو مقدار نفوذ الجماعة

(١) الكافي٢: ٤١٥، ح١.

(٢) لقد كانت بعض الأدوار قاسية، حتى أصبح فيها ذكر علي وفاطمة عليهما السلام بخير له مدلولات سياسية، فقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام أنه قال: ((**إياكم وذكر علي وفاطمة عليهما السلام فإنّ الناس ليس شيء أبغض إليهم من ذكر علي وفاطمة عليهما السلام**)). (وسائل الشيعة١١: ٤٨٦، ح٢)، ولاشك أنّ أُولئك الناس كانوا غير هؤلاء المسلمين الذين نعرفهم الآن بحب علي وفاطمة عليهما السلام.

←

وحجمها في أوساط الأُمّة، أو طبيعة المواقف السياسية التي تلتزم بها الجماعة الصالحة تجاه الحكم، أو تجاه الحركات السياسية الأُخرى المناوئة، حيث كانت هذه الأحاديث وإذاعة هذه المعلومات تشكّل خطراً على الجماعة، وتوظَف من قبل الأعداء لمطاردتها أو القضاء عليها.

إنّ قضية كتمان الأسرار والمعلومات عن حقيقة الجماعة تعتبر من أهم القضايا الأمنية التي كانت تواجهها الجماعة في بعض الأدوار، وتحتاج إلى درجة عالية من (الوعي) و(ضبط اللسان والحديث)؛ لأنّ الحكام الطغاة كانوا على درجة عالية من الحساسية والشعور بالخطر على مصالحهم لما تتمتع به الجماعة الصالحة من أصالة وواقعية وإخلاص واستعداد للتضحية، وكذلك لوضوح المفاهيم الصحيحة التي كانوا يطرحونها للأُمّة، ومنطق الحق الذي كانوا يعتمدونه في بيانها.

صيغ للتحذير

ومن هنا نجد أنّ أئمة أهل البيت يولون هذا الخط الأمني عناية وأهمية خاصة في عشرات من صيغ التحذير والتوعية والتعليم.

فقد روى الكليني‌قدس‌سره في حديث معتبر عن أحمَد بن محمد بن أبي نصر قال: ((**سألت الرضا‌عليه‌السلام عن مسألة فأبى وأمسك، ثم قال: لو أعطيناكم**

وروى ابن حجر في ترجمة علي بن رباح ما موجزه: كان بنو أُمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه، فبلغ ذلك (أباه) رباحاً فقال: هو عُلَيّ، وكان يغضب من (اسم) علَيّ ويحرّج على من سمّاه به.

وقال ابن حجر: قال علي بن رباح: لا أجعل في حلّ من سمّاني (علَي) فإنّ اسمي عُلَيّ. (راجع ترجمته في تهذيب التهذيب٧: ٢٨٠ – ٢٨١، ط. دار الفكر).

وهذا هو ما كان يشير إليه الشافعي في أبياته الشعرية المعروفة التي سبقت الإشارة إليها. منه‌قدس‌سره.

كل ما تريدون كان شراً لكم، وأخذ برقبة صاحب هذا الأمر. قال أبو جعفر عليه السلام: ولاية الله أسرّها إلى جبرئيل عليه السلام وأسرّها جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله، وأسرّها محمد إلى علي، وأسرّها علي إلى من شاء الله، ثم أنتم تذيعون ذلك، من الذي أمسك حرفاً سمعه؟! قال أبو جعفر عليه السلام: في حكمة آل داود ينبغي للمسلم أنْ يكون مالكاً لنفسه، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، فاتّقوا الله، ولا تذيعوا حديثنا، فلولا أنّ الله يدافع عن أوليائه وينتقم لأوليائه من أعدائه، أما رأيت ما صنع الله بآل بَرمك وما انتقم الله لأبي الحسن عليه السلام؟ وقد كان بنو الأشعث على خطر عظيم، فدفع الله عنهم بولايتهم لأبي الحسن، وأنتم بالعراق ترون أعمال هؤلاء الفراعنة وما أمهل الله لهم، فعليكم بتقوى الله، ولا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا تغترّوا بمن قد أمهل قبلكم، فكأنّ الأمر قد وصل إليكم))[(١)].

وفي حديث آخر صحيح يحذّر الإمام الصادق عليه السلام بشكل واضح عن الأضرار الدنيوية التي تترتب على إذاعة الأسرار.

قال: ((**من استفتح نهاره بإذاعة سرّنا سلّط الله عليه حرّ الحديد وضيق المجالس**))[(٢)].

ويصل التحذير أحياناً إلى ضرورة الالتزام بدرجة عالية في الكتمان حتى يقول الإمام أبو الحسن عليه السلام - كما روى عثمان بن عيسى -: ((**إنْ كان في يدك هذه شيء، فإنْ استطعت أنْ لا تعلم هذه فافعل، قال: وكان عنده إنسان فتذاكروا الإذاعة، فقال: أحفظ لسانك تعز، ولا تمكّن الناس من قياد رقبتك فتذل**))[(٣)].

---

(١) الكافي٢: ٢٢٤ – ٢٢٥، ح١٠.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٩٣، ح٢.

(٣) الكافي٢: ٢٢٦، ح١٤.

ويشبّه - في حديث آخر معتبر - خطر (الإذاعة) بقتل النبيين بغير حق، كما عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فقال: ((**أما والله ما قتلوهم بأسيافهم، ولكن أذاعوا عليهم، وأفشوا سرّهم فقتلوا**))(١).

كما روى الكليني أيضاً في الكافي بسند صحيح عن سليمان بن خالد قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: يا سليمان، إنكم على دين مَنْ كتمه أعزّه الله، ومَنْ أذاعه أذلّه الله**))(٢).

وعندما كان يلاحظ أحد الأئمة ظاهرة الاندفاع في تبنّي القضايا السياسية أو الاهتمام في التحرك في الأُمّة لتوعيتها على حبّ أهل البيت عليهم السلام يقول - كما روي عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام -: ((**وددتُ أني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النزق، وقلّة الكتمان**))(٣).

وفي حديث آخر يعطي الإمام الصادق عليه السلام لموضوع الكتمان دوراً يرتبط بالإيمان والعقيدة، وبأصل الولاء لأهل البيت عليهم السلام وتحمل مسؤولية الدعوة.

فعن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ((**إنّه ليس احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته عن غير أهله. فاقرأهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلينا، حدّثوهم بما يعرفون، واستروا عنهم ما ينكرون**))(٤).

ويشتد الإمام الصادق عليه السلام - في حديث آخر - في الإنكار على أولئك الذين يذيعون الأسرار ولا يلتزمون بالتعليمات، ويعرّضون إمامهم

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٩٤، ح٧.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٨٤، ح١.

(٣) الخصال: ٤٤، ح٤٠.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٤٨٤، ح٥.

وجماعتهم للأخطار والمهالك، ويظهر غضبه عليهم ويتبرّأ منهم.

فعن القاسم شريك المفضل - وكان رجل صدق - قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: خلق في المسجد يشهروننا ويشهرون أنفسهم، أولئك ليسوا منّا ولا نحن منهم، أنطق فأواري وأستر فيه تكون ستري، هتك الله ستورهم، يقولون: إمام، والله ما أنا بإمام إلاّ من أطاعني، فأمّا من عصاني فلست له بإمام، لِمَ يتعلقون باسمي؟ ألا يكفّون اسمي من أفواههم؟ فوالله لا يجمعني الله وإيّاهم في دار**))[1].

الخط الثالث: الحضور في الجهاز الحاكم

الحضور النسبي والمحدود في الأجهزة الحاكمة الجائرة للتعرّف على مواقف السلطة الطاغية وخططها وسياساتها وإجراءاتها القمعية أو الفاسدة، للحذر منها وتجنّبها ومراقبة تحرّكها من ناحية، أو لإفشالها ودفع الأضرار التي يمكن أنْ تلحق بالجماعة الصالحة والمسلمين من ناحية أُخرى.

فقد عرفنا سابقاً أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا قد حرّموا على أتباعهم بشكل قاطع أي درجة من التعاون مع الظالمين، سواء في تقديم الخدمات العامة التي تساهم في توطيد دعائم سلطانهم، أم التي تؤدي إلى القبول به، أم تقديم العون لهم في ظلمهم وجورهم، أم استلام الأعمال ذات العلاقة بالسلطة والولاية:

فقد روى الكليني في الكافي بسند صحيح عن أبي بصير قال: ((**سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم - يقصد حكام الجور - فقال لي: يا أبا محمد، لا ولا مدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلاّ أصابوا من دينه**

---

(١) الكافي٨: ٣٧٤، ح٥٦٢.

مثله، أو حتى يصيبوا من دينه مثله))[١].

كما روى الكشي في كتاب الرجال عن صفوان بن مهران الجمّال قال: **((دخلت على أبي الحسن الأوّل عليه السلام فقال لي: يا صفوان، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً. قلت: جُعلت فداك، أي شيء هو؟ قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون، قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق، يعني طريق مكة، ولا أتولاّه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني، فقال لي: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك، قال: فقال لي: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم، قال: من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار.**

قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني فقال لي: يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك، قلت: نعم، قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير، وإنّ الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات، هيهات، إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: ما لي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك))[٢].

إلاّ أنّ أهل البيت عليهم السلام، بالرغم من كل ذلك استثنوا من هذا الإجراء العام بعض الحالات والموارد التي أذنوا فيها بمثل هذه الممارسة، وسمحوا للأفراد باستلام مثل هذه الأعمال والمهمات، ويأتي في مقدمة هذه الموارد ما إذا كان الشخص يقوم بتقديم خدمتين أساسيتين للجماعة الصالحة:

إحداهما: دفع الأضرار والأذى عن الجماعة وأفرادها.

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ١٢٩، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ١٣١، ح١٧.

ثانيتهما: تقديم الخدمات والتسهيلات، والدفاع عن حقوق الجماعة وأبنائها، أو إيصال حقوقهم المشروعة لهم.

فقد روى الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) بإسناد (صحيح) عن علي بن يقطين قال: ((**قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر** عليهما السلام**: إنّ لله تبارك وتعالى مع السلطان أولياء يدفع بهم عن أوليائه**))[1].

كما روى الكليني في الكافي بإسناده عن زياد بن أبي سلمة قال: ((**دخلت على أبي الحسن موسى** عليه السلام **فقال لي: يا زياد، إنك لتعمل عمل السلطان؟ قال: قلت: أجل، قال لي: ولمَ؟ قلت: أنا رجل لي مروّة، وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء، فقال لي: يا زياد، لئن أسقط من حالق فأتقطع قطعة قطعة أحبّ إليّ من أنْ أتولّى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلاّ لتفريج كربة عن مؤمن، أو فكّ أسره، أو قضاء دينه. يا زياد، إنّ أهون ما يصنع الله جلّ وعزّ بمن تولّى لهم عملاً أنْ يضرب عليه سرادق من نار إلى أنْ يفرغ الله من حساب الخلائق. يا زياد، فإنْ وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة**))[2].

ويبدو من خلال بعض النصوص أنَ هذا العمل لابدّ وأنْ يكون بإذن خاص من أئمة أهل البيت عليهم السلام أو من الحاكم الشرعي الذي يتولّى شؤون الجماعة، لئلاّ يصبح هذا الإذن مفتوحاً أمام الاجتهادات الخاصة والنزوات الشخصية، أو فرصة للانزلاق في هذا العمل المحظور، وتعرض أفراد الجماعة للانحراف بسبب ذلك.

---

(١) من لا يحضره الفقيه٣: ١٧٦، ح٣٦٦٤.

(٢) الكافي٥: ١١٠، ح١.

فقد روى الكليني في سند معتبر عن الحسن بن الحسين الأنباري[١]، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: **((كتبت إليه أربع عشرة سنة استأذنه في عمل السلطان، فلما كان في آخر كتاب كتبته إليه أذكر أني أخاف على خيط عنقي، وأنّ السلطان يقول لي: إنك رافضي، ولسنا نشكّ في أنك تركت العمل للسلطان للرفض، فكتب إليّ أبو الحسن عليه السلام: فهمت كتابك وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإنْ كنت تعلم أنّك إذا وليت عملك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله ثم تصيّر أعوانك وكتّابك أهل ملّتك، وإذا صار إليك شيء واسيت به فقراء المؤمنين حتى تكون واحداً منهم، كان ذا بذا، وإلاّ فلا))**[٢].

كما كان أئمة أهل البيت يقومون بتسديد هؤلاء الأشخاص في عملهم - أحياناً - ويحرصون على عدم كشف هويتهم.

عن ابن سنان قال: **((حمل الرشيد في بعض الأيام إلى عليّ بن يقطين ثياباً أكرمه بها، وكان في جملتها درّاعة خزّ سوداء من لباس الملوك مثقّلة بالذهب، فأنفذ علي بن يقطين جلّ تلك الثياب إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وأنفذ في جملتها تلك الدرّاعة، وأضاف إليها مالاً كان أعدّه له على رسم له فيما يحمله إليه من خمس ماله، فلما وصل ذلك إلى أبي الحسن قبل المال والثياب وردّ الدرّاعة على يد الرسول إلى علي بن يقطين، وكتب إليه: أنْ احتفظ بها ولا تخرجها عن يدك، فسيكون لك بها شأن تحتاج إليها معه، فارتاب عليّ بن يقطين بردّها عليه، ولم يدر ما سبب ذلك، فاحتفظ بالدرّاعة.**

فلما كان بعد أيام تغيّر علي بن يقطين على غلام كان يختص به فصرفه

---

(١) يحتمل قوياً أنْ يكون هو الحسن بن الحسين الكندي، كما جزم به الأردبيلي.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ١٤٥، ح١.

عن خدمته، وكان الغلام يعرف ميل علي بن يقطين إلى أبي الحسن عليه السلام ويقف على ما يحمله إليه في كل وقت من مال وثياب وألطاف وغير ذلك، فسعى به إلى الرشيد فقال: إنه يقول بإمامة موسى بن جعفر، ويحمل إليه خمس ماله في كل سنة، وقد حمل إليه الدرّاعة التي أكرمه بها أمير المؤمنين في وقت كذا وكذا.

فاستشاط الرشيد لذلك وغضب غضباً، وقال: لأكشفنّ عن هذه الحال، فإنْ كان الأمر كما يقول أزهقت نفسه، وأنفذ في الوقت بإحضار علي بن يقطين، فلما مثل بين يديه قال له: ما فعلت بالدرّاعة التي كسوتك بها؟ قال: هي يا أمير المؤمنين عندي في سفط مختوم فيه طيب، وقد احتفظت بها، وقلّما أصبحت إلاّ وفتحت السفط فنظرت إليها تبرّكاً بها وقبّلتها ورددتها إلى موضعها، وكلّما أمسيت صنعت مثل ذلك.

فقال: أحضرها الساعة، قال: نعم يا أمير المؤمنين، واستدعى بعض خدمه وقال له: امضِ إلى البيت الفلاني من الدار فخذ مفتاحه من خازنتي فافتحه وافتح الصندوق الفلاني، وجئني بالسفط الذي فيه بختمه، فلم يلبث الغلام أنْ جاءه بالسفط مختوماً فوضع بين يدي الرشيد، فأمر بكسر ختمه وفتحه، فلما فتح نظر إلى الدرّاعة فيه بحالها، مطوية مدفونة في الطيب، فسكن الرشيد من غضبه، ثم قال لعلي بن يقطين: اردها إلى مكانها، وانصرف راشداً فلن أُصدّق عليك بعدها ساعياً وأمر أنْ يتبع بجائزة سنيّة، وتقدّم بضرب الساعي ألف سوط، فضرب نحواً من خمسمائة سوط فمات في ذلك))[1].

---

(١) الإرشاد٢: ٢٢٥ – ٢٢٧، إعلام الورى٢: ١٩ – ٢٠، وعنهما البحار٤٨: ١٣٧ – ١٣٨، ح١٢.

الخلفية التاريخية لهذا الخط

ولعلّ هذا (الخط) من أدق الأعمال الأمنية التي رسمها الأئمة عليهم السلام للجماعة الصالحة، والذي نجد له معالم في القرآن الكريم من خلال قصة موسى عليه السلام، حيث تمكّن مؤمن آل فرعون أنْ يحمي موسى من الأخطار التي كان قد تعرّض لها في حياته، سواء قبل البعثة أم بعدها، عندما كان يقدم له المعلومات عن تآمر فرعون وملَئِه على قتل موسى، كما يحدثنا القرآن الكريم.

وقد كان علي بن يقطين مدير شرطة هارون الرشيد - الذي سبق ذكره - وكذلك والده يقطين من النماذج المعروفة في حياة الأئمة في هذا المجال، مضافاً إلى أشخاص آخرين في بعض أدوار تأريخ أئمة أهل البيت عليهم السلام، مع إمكان افتراض وجود هذا الخط الأمني في جميع أدوار الأئمة عليهم السلام، وإنْ لم تصلنا تفاصيل حياة مثل هؤلاء الأفراد.

فهذا عبد الله بن سنان يقول عنه النجاشي في كتاب الرجال: «عبد الله بن سنان بن طريف مولى بني هاشم، ويقال مولى بني أبي طالب، ويقال مولى بني العباس، كان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، كوفي ثقة من أصحابنا، جليل لا يطعن عليه في شيء، روى عن الصادق عليه السلام كما وثّقه أيضاً الشيخ الطوسي في الفهرست»[1].

كما ورد ذلك أيضاً بشأن محمد بن أبي عمير الذي كان من أعاظم الفقهاء المعترف بهم عند الخاصة والعامة[2].

وكذلك محمد بن إسماعيل بن بزيع الذي كان مولى للمنصور، وكان في

---

(١) جامع الرواة١: ٤٨٧.

(٢) الفهرست: ١٤٢، وجامع الرواة٢: ٥٠ – ٥١.

عداد الوزراء هو وابن عمه (أحمد بن حمزة) وكان من أعاظم الثقات، ومن صالحي هذه الطائفة وثقاتهم، كثير العلم، وقد قال له أبو الحسن الرضا عليه السلام: **((إنّ لله تعالى بأبواب الظالمين من نوّر الله به البرهان، ومكّن له في البلاد ليدفع بهم عن أوليائه، ويصلح الله به أُمور المسلمين، إليهم ملجأ المؤمنين من الضرّ، وإليهم يفزع ذو الحاجة من شيعتنا، بهم يؤمن الله روعة المؤمن في دار الظلم، أُولئك هم المؤمنون حقاً، أُولئك أمناء الله في أرضه، أُولئك نور الله في رعيتهم يوم القيامة، ويزهر نورهم لأهل السماوات كما تزهر الكواكب الزهرية لأهل الأرض، أُولئك نورهم نور القيامة، تضيئ منهم القيامة، خلقوا والله للجنة وخلقت الجنة لهم، فهنيئاً لهم، ما على أحدكم أنْ لو شاء لنال هذا كله؟ قلت: بماذا، جعلني الله فداك؟. قال: يكون معهم فيسرّنا بإدخال السرور على المؤمنين من شيعتنا، فكن منهم يا محمد))**[1].

وغير هؤلاء كثيرون يجدهم المتتبّع في عداد أصحاب الأئمة.

ويدلّ هذا الأمر على تخطيط بديع ودقيق قام به أئمة أهل البيت، خصوصاً في بعض الأدوار، كان له أثر عظيم في حماية الجماعة الصالحة وتكاملها ونموّها، وبالتالي تأثيرها في أوساط الأُمّة.

الخط الرابع: اللجوء والهجرة

انتخاب المثابات الآمنة في المناطق البعيدة عن متناول يد السلطة والهجرة

---

(١) جامع الرواة عن النجاشي٢: ٦٩.

ولعلّ هذا الوصف البديع لدرجتهم، باعتبار أهمية هذا العمل وخطورته ودقة تنفيذه وصعوبته، وكذلك للمعاناة التي يجدها الإنسان الصالح التقي في معاشرة ومجاورة الطغاة وهو ليس منهم. منه قدس سره.

إليها، مثل المناطق الريفية، كالعشائر والقبائل العربية التي كانت توالي أهل البيت عليهم السلام، أو المناطق الجبلية، أو المناطق المتمرّدة على السلطة المركزية، وذلك في الموارد الاضطرارية الاستثنائية، ومن أجل الحصول على الأمن ودفع الأخطار عن الحياة من ناحية، والقيام بإبلاغ الدعوة والرسالة الإسلامية، ونشر الهدى والصلاح وتعليم الأخلاق والأحكام الإلهية من ناحية أُخرى.

ونجد أنّ القرآن الكريم يحدثنا عن بعض الأمثلة والحوادث لهذه الهجرة فيما ذكره من قصة إبراهيم عليه السلام عندما تعرض لحادث الإلقاء في النار لإحراقه، فهاجر مع لوط عليه السلام **﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[1].

وكذلك هجرة موسى عليه السلام إلى مدين **﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾**[2].

ومن ذلك هجرة موسى عليه السلام وبني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة.

ولعلّ الأصل في هذا الخط في حماية الجماعة الصالحة في التأريخ الإسلامي ما عمله رسول الله صلى الله عليه وآله من حماية جماعة المسلمين عندما أمرهم بالهجرة إلى الحبشة واللجوء إلى بلادها بعد أنْ تعرّض المسلمون إلى الاضطهاد، ولم تتوفر لديهم وسائل الحماية المناسبة مع أنّ تلك البلاد لم تكن إسلامية.

---

(١) العنكبوت:٢٦.

(٢) القصص:٢٢.

وكذلك هجرتهم إلى المدينة المنورة بعد أنْ بدأ الإسلام ينتشر فيها، ولم يكن هناك موقف عدائي صارم من مشركي المدينة تجاه المسلمين قبل هجرة النبي إليها، حيث كانت السلطة بيد المشركين حينذاك.

كما يشبه هذا الإجراء ما تتخذه الحركات السياسية في العصر الحاضر من لجوء بعض أفرادها الذين يتعرضون للمطاردة بشكل استثنائي إلى بعض الدول الأُخرى التي تسمح لهم بالمكوث في بلدانها.

وتوجد مجموعة من الشواهد التي تؤكد تبنّي أهل البيت عليهم السلام لهذا الخط الأمني في تحقيق الحماية لأتباعهم وشيعتهم، نشير إلى بعضها:

شواهد تأريخية للهجرة

الأوّل: وجود هذا الانتشار الواسع لأولاد أئمة أهل البيت عليهم السلام وذريتهم وللعلماء الصالحين من شيعتهم، خصوصاً في المناطق الجبلية المنيعة أو المناطق النائية، مثل مناطق مازندران وكيلان في إيران (بلاد الترك والديلم سابقاً) ، وكذلك في إفريقيا، وشبه القارة الهندية، وبلاد القفقاز، وجزر الملاوي، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الكثير من هذه المناطق دخلت الإسلام على يد هؤلاء السادة والعلماء، أو انتشرت فيها الثقافة الإسلامية من خلال وجودهم في هذه المناطق.

الثاني: الانتشار الواسع لشيعة أهل البيت عليهم السلام في مختلف أقطار العالم الإسلامي، وبدون استثناء تقريباً، خصوصاً في عصر الأئمة أنفسهم، وامتداد هذه الحالة إلى العصور الأُخرى، مع أنّ أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم كانوا محاصرين سياسياً واقتصادياً، ويتعرّضون للقتل والمطاردة والرقابة المشددة التي لم تكن تسمح لهم بإيجاد هذه الاتصالات الواسعة، لولا هذا التوجيه الخاص في مجال هذا الخط الذي التزمه أهل البيت لشيعتهم، كما تشير إليه بعض النصوص أيضاً.

فقد جاء في الحديث الذي رواه النعماني في الغيبة وغيره، بعد أنْ يصف الإمام الصادق عليه السلام الشيعة الخلصاء بقوله: ((**...إنما شيعتنا من لا يهرّ هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل الناس بكفّه وإنْ مات جوعاً، قلت: جعلت فداك، فأين أطلب هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة؟ فقال: اطلبهم في أطراف الأرض، أولئك الخشن عيشهم، المنتقلة دارهم، الذين إنْ شهدوا لم يُعرفوا، وإنْ غابوا لم يفتقدوا...**))[1] الحديث.

الثالث: إنّ بعض الحوادث التأريخية الكبرى في التأريخ الإسلامي كان نشوؤها بسبب هذا الخط الأمني، فإنّ دولة الفاطميين في شمال إفريقيا، ودولة الحسنيين في طبرستان، ونشوء وظهور بعض الحركات العلوية، خصوصاً في العصر العباسي، كان باعتبار وجود هذه المثابات ونموّها التدريجي بحيث تحوّلت إلى قوة كبيرة تهدد الدولة المركزية أو تزعجها.

الرابع: وجود بعض النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام، والتي تسمح بالهجرة إلى البلاد غير الإسلامية بشرط وجود الفرصة للإعلان عن العقيدة والدعوة إليها، مع أنّ الهجرة إلى البلاد غير الإسلامية تعتبر من (التعرّب بعد الهجرة)[2] وهو محرم في الشريعة الإسلامية، وقد ورد تأكيد حرمته عن أهل البيت عليهم السلام في مجموعة من النصوص:

عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال: ((**ولا تعرّب بعد الهجرة**))[3].

---

(١) الغيبة للنعماني: ٢١١، ح٤، وعنه البحار٦٨: ١٦٥، ح١٦.

(٢) التعرب بعد الهجرة هو: الانتقال من بلد يكون الإسلام فيه قوياً إلى بلد يرق فيه الدين ويضعف بسبب الوضع الاجتماعي لذلك البلد، كما هو الحال في البلاد الغربية، أو ما كان عليه الحال في المناطق البدوية نسبة إلى المدينة المنورة.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٧٥، ح١.

وعن محمد بن سنان أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: ((**وحرّم الله التعرّب بعد الهجرة للرجوع عن الدين وترك المؤازرة للأنبياء والحجج عليهم السلام، وما في ذلك من الفساد وإبطال حق كل ذي حق لعلّة سكنى البدو، ولذلك لو عرف الرجل الدين كاملاً لم يجز له مساكنة أهل الجهل والخوف عليه، لأنه لا يؤمَن أنْ يقع منه ترك العلم والدخول مع أهل الجهل والتمادي في ذلك**))(١).

ولكن يبدو من بعض النصوص الأُخرى استثناء حالة واحدة من هذا الحكم الشرعي، وهي حالة وجود فرصة الإعلان عن العقيدة الصحيحة والدعوة إليها مع فرض عدم توفر فرصة الالتزام بذلك في بلد الإسلام.

عن حمّاد السمندي قال: ((**قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام: إني أدخل بلاد الشرك وإنّ مَنْ عندنا يقولون: إنْ متّ ثمّ حشرت معهم، قال: فقال لي: يا حمّاد، إذا كنت ثَمّ تذكر أمرنا وتدعو إليه؟ قال: قلت: نعم، قال: فإذا كنت في هذه المدن، مدن الإسلام تذكر أمرنا وتدعو إليه؟ قال: قلت: لا، فقال لي: إنك إنْ تمتْ ثَمّ تحشر أُمّة وحدك، ويسعى نورك بين يديك**))(٢).

(١) وسائل الشيعة١١: ٧٥ – ٧٦، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٧٦ – ٧٧، ح٦.



السياسات الأمنية العامة

١. التعايش بين المسلمين

٢. التحفظ في الدعوة إلى الحق

٣. المركزية في الموقف السياسي العام

٤. مراعاة درجة التحمل

لقد وضع أهل البيت عليهم السلام مجموعة من السياسات العامة التي كانوا يتبعونها في المجال الأمني لدعم الخطوط الأمنية العامة السابقة، ذلك أنّ الإجراءات الأمنية إنما يمكن أنْ تكون مؤثرة ومفيدة إذا نفذت في ضمن السياسات العامة في هذا المجال، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام أرادوا أنْ يحققوا هذه الحالة الأمنية على أساس بقاء الجماعة الصالحة تتحرّك، وتعيش في إطار المجتمع الإسلامي والأُمّة الإسلامية الواحدة، وتؤثر فيها وتتحمّل المسؤوليات العامة الإسلامية تجاه الإسلام والمجتمع الإسلامي.

وبالرغم من أنّ هذه السياسات لها أهداف أُخرى مهمة، ولكن الهدف الأمني لها واضح ومهم، وقد تتداخل مع الإجراءات الأمنية والخطوط العامة السابقة، وسوف نشير إلى أربعة خطوط وأبعاد سياسية عامة لها انعكاسات أمنية واضحة:

الأوّل: التعايش مع المسلمين

خط سياسة بناء العلاقات القوية والصحيحة مع جماعة المسلمين والمجتمع الإسلامي، التي تمثل القاعدة العامة التي يتحرّك فيها أتباع أهل البيت من ناحية، ولكنها في الوقت نفسه تمثل قوة ضاغطة ومؤثرة ذات حدّين من ناحية ثانية، حيث إنّ الجماعة العامة للمسلمين يمكن أنْ تتحول من أداة ضغط على الجماعة الصالحة من خلال قيام السلطة بتأليبها ضد شيعة أهل البيت عليهم السلام إلى أداة ضغط على السلطات الحاكمة لتكفّ عن مطاردة أهل البيت عليهم السلام وجماعتهم، وعن ممارسة الظلم والجور ضد المسلمين، وذلك من خلال توعية الجماعة وإيجاد العلاقات القوية معها. وهذا ما تمكن من تحقيقه أهل البيت عليهم السلام قطعاً، ونرى آثاره في المقاومة القوية الواسعة التي كان يقوم بها المسلمون ضد هؤلاء الحكام الجائرين،

مع أنّ الكثير من المسلمين لم يكن يتمذهب بمذهب أهل البيت عليهم السلام.

ولعلّ من أهم أبعاد (التقية) هو هذا الجانب أيضاً، حيث أُريد للجماعة الصالحة من سياسة التقية تحقيق التعايش مع بقية المسلمين[1].

وموضوع التعايش مع جماعة المسلمين له أبعاد أُخرى غير الجانب الأمني، وهو تحقيق تماسك المجتمع الإسلامي ووحدته - كما أشرنا - ولكن في الوقت نفسه له هذا البعد السياسي الذي يتمثّل بتحقيق الحماية للجماعة سواء تجاه ردّ فعل جماعة المسلمين ضدّ الجماعة الصالحة أم ردّ فعل النظام الحاكم تجاهها.

وبهذا الصدد اتّخذ أئمة أهل البيت عليهم السلام مجموعة من الإجراءات:

أ) الطلب من أتباعهم الحضور في المراسيم العامة والشعائر الإسلامية المهمة للمسلمين، التي أولاها الإسلام عناية خاصة باعتبارها تمثّل دعامة لبناء المجتمع الإسلامي، مثل حضور صلاة الجمعة والجماعة.

فإنه بالرغم من وجود بعض الملاحظات في هذا الحضور التي كان يراها أتباع أهل البيت، كموضوع عدالة إمام الجماعة التي هي شرط في صحة الجماعة، حيث كان أكثر أئمة الجماعة من ولاة الجور، أو من أجهزتهم الظالمة.

أو موضوع الاختلاف المذهبي في أداء هذه الصلوات من حيث الوقت أو بعض الشروط والأفعال، أو من حيث المضمون الثقافي المنحرف، أو المؤذي كسبّ الإمام عليّ عليه السلام والتحامل على شيعته في الخطب والأحاديث. ولكن مع ذلك كله نلاحظ الحث الشديد والقوي من أهل البيت عليهم السلام على هذا الحضور:

(١) تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في المواضيع السابقة، وكذلك في كتابنا الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.

عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من صلّى معهم في الصف الأوّل كان كمن صلّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله**))[١].

وعن عبد الله بن سنان قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ ثم قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم...**))[٢].

ب) حث أتباعهم على الالتزام بالعلاقات الاجتماعية العامة تجاه جمهور المسلمين عامة، خصوصاً في قبائلهم وعشائرهم، بحيث لا يصحّ أنْ يؤثّر الاختلاف المذهبي على هذا النوع من العلاقات مثل: صلة الأرحام، وحضور الجنائز أو مراسيم الزواج أو زيارة المرضى، أو غيرها من الفعاليات الاجتماعية والحقوق العامة.

عن معاوية بن وهب قال: ((**قلت له (الإمام الصادق عليه السلام): كيف ينبغي لنا أنْ نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ممّن ليسوا على أمرنا؟ فقال: تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم، فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة إليهم**))[٣].

وعن كثير بن علقمة قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أوصني، فقال: أُوصيك بتقوى الله، والورع والعبادة، وطول السجود، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وحسن الجوار، فبهذا جاءنا محمد صلى الله عليه وآله صلّوا في**

---

(١) وسائل الشيعة٥: ٣٨١، ح٤.

(٢) وسائل الشيعة٥: ٣٨٢، ح٨ .

(٣) وسائل الشيعة٨: ٣٩٩، ح٣.

عشائركم، وعودوا مرضاكم، واشهدوا جنائزكم، وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، حبّبونا إلى الناس، ولا تبغّضونا إليهم، فجرّوا إلينا كل مودة، وادفعوا عنّا كل شرّ...))[١].

ج) الاهتمام من قبل أفراد الجماعة الصالحة بتجسيد القدوة في المجتمعات الإسلامية بحيث يكونوا مركز الثقة والاعتماد، ومحل وضع الأمانة والرجوع إليهم في حلّ المشكلات وفصل الخصومات، والاهتمام بالوفاء بالعهود والالتزامات.

فقد ورد في حديث معتبر عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: ((**...والله لحدّثني أبيعليه السلام أنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة عليعليه السلام، فيكون زينها، آدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تُسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان، إنه آدّانا للأمانة وأصدقنا للحديث))**[٢].

الثاني: التحفظ في الدعوة إلى الحق

خط التحفّظ والحذر والاحتياط في الدعوة إلى الحق الذي عليه أهل البيتعليهم السلام[٣]، مثل: قضية الولاية أو مرجعيتهم الدينية، أو بعض القضايا العقائدية، أو مواصفاتهم التي يتميزون بها، أو حقوقهم على المسلمين، أو غير ذلك.

حيث نجد في روايات أهل البيتعليهم السلام أنّ سياسة الحذر هذه كان وراءها

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٠٠، ح٨ .

(٢) وسائل الشيعة٨: ٣٩٩، ح٢.

(٣) مرّت الإشارة لهذا الموضوع مع ذكر بعض النصوص في الباب الأوّل فصل خصائص الجماعة الصالحة.

هـذا الجانـب الأمـني وحمايـة الجماعـة؛ وذلـك في موازنـة بـين الواجـب والمصالح المترتبة على هذه الدعوة إلى الحق وهداية الناس إليها، وبين حرمة الإذاعة والأضرار والأخطار التي تترتب على هذه الدعوة، عندما لا تكون الظروف مهيأة لأنْ تلقى الدعوة قبولاً أو تكون سبباً لإفشاء السر، فيتَخذوا قراراً بـ (المنع) عن هذه الدعوة والتوسّع العددي، وترك الأُمور في مجرى الأحداث وتطوّرها الطبيعي.

فقد روى الصدوق في حديث (حسن) عن محمد بن عيسى قال: ((**قرأت في كتاب علي بن هلال - بلال على الظاهر - عن الرجل - يعني أبا الحسن عليه السلام - أنه روي عن آبائك أنهم نهوا عن الكلام في الدين، فتأول مواليك المتكلّمون بأنه إنما نهى من لا يُحسن أنْ يتكلّم فيه، فأمّا من يُحسن أنْ يتكلّم فلم ينهه، فهل ذلك كما تأولوا أم لا؟ فكتب عليه السلام: المحسن وغير المحسن لا يتكلّم فيه، فإنّ إثمه أكبر من نفعه**))[1].

حيث يشير الإمام إلى أنّ الدعوة وإنْ كانت فيها فائدة، إلاّ أنّ الظروف السياسية والنفسية إذا لم تكن مهيأة فسوف يكون ضررها أكبر من نفعها.

وفي حديث آخر (حسن) عن حمران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((**أسألك أصلحك الله؟ قال: نعم، فقلت: كنت على حال، وأنا اليوم على حال أُخرى، كنت أدخل الأرض فأدعو الرجل والاثنين والمرأة فينقذ الله من يشاء، وأنا اليوم لا أدعو أحداً، فقال: وما عليك أنْ تخلّي بين الناس وبين ربّهم؟ فمن أراد الله أنْ يخرجه من ظلمة إلى نور أخرجه، ثم قال: ولا عليك إذ آنست من أحد خيراً أنْ تنبذ إليه الشيء نبذاً، قلت: أخبرني عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ قال: من حرق**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٥٧، ح٢٦.

أو غرق، ثم سكت، ثم قال: تأويلها الأعظم أنْ دعاها فاستجابت له))[١].

وعن الفضيل قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام ندعو الناس إلى هذا الأمر؟ فقال: يا فضيل، إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً أمر ملكاً فأخذ بعنقه حتى أدخله في هذا الأمر طائعاً أو كارهاً**))[٢].

وعن كليب بن معاوية الصيداوي قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: إياكم والناس، إنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة فتركه وهو يجول لذلك ويطلبه، ثم قال: لو أنكم إذا كلّمتم الناس قلتم: ذهبنا حيث ذهب الله، واخترنا من اختار الله، اختار الله محمداً واخترنا آل محمد صلى الله عليه وآله**))[٣].

وعن ثابت أبي سعيد قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا ثابت، ما لكم وللناس؟ كفّوا عن الناس، ولا تدعوا أحداً إلى أمركم، فوالله لو أنّ أهل السماء وأهل الأرض اجتمعوا على أنْ يُضلّوا عبداً هداه الله ما استطاعوا، كفّوا عن الناس، ولا يقول أحدكم: أخي وابن عمي وجاري، فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً طيّب روحه، فلا يسمع بمعروف إلاّ عرفه، ولا بمنكر إلاّ أنكره، ثم يقذف الله في قلبه كلمة يجمع بها أمره**))[٤].

وعن علي بن عقبة، عن أبيه قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإنّه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء، ولا تخاصموا بدينكم، فإنّ المخاصمة ممرضة للقلب، إنّ الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٤٦ – ٤٤٧، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٤٩، ح١.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٤٤٩، ح٢.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٤٥٠، ح٣.

مَنْ يَشَاءُ﴾، وقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ذروا الناس، فإنّ الناس أخذوا عن الناس، وإنكم أخذتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، ولا سواء، وإني سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا كتب الله على عبد أنْ يدخله في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره))[1].

ولكن في موقف آخر يسمح أهل البيت عليهم السلام بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة عندما يرون أنّ الفرصة المناسبة والأرضية الجيدة لتقبّلها موجودة:

عن سليمان بن خالد قال: **((قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ لي أهل بيت وهم يسمعون منّي، أفأدعوهم إلى هذا الأمر؟ فقال: نعم، إنّ الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾))**[2].

وعن زيد بن علي، عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وآله: **((أنّ رجلاً قال له: أوصني، فقال: أوصيك أنْ لا تشرك بالله شيئاً، ولا تعصِ والديك، إلى أنْ قال: وادعُ الناس إلى الإسلام، واعلم أنّ لك بكل من أجابك عتق رقبة من ولد يعقوب))**[3].

وعن أبي بصير قال: **((قلت لأبي جعفر عليه السلام: أدعو الناس إلى ما في يدي؟ فقال: لا، قلت: إنْ استرشدني أحد أرشده؟ قال: نعم، إنْ استرشدك فارشده، فإنْ استزادك فزده، وإنْ جاحدك فجاحده))**[4].

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٥٠، ح٤.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٤٩، ح١.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٤٤٨، ح٥.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٤٥٠ – ٤٥١، ح٦.

وفي موقف ثالث نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يحثون على الدعوة بعد أنْ يشخّصوا الوسط المناسب لها، وهو وسط الأحداث والشباب الذين يتطلّعون إلى الحقيقة، وتتفتّح أذهانهم وقلوبهم - عادة - لمعرفتها:

عن إسماعيل بن عبد الخالق قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لأبي جعفر الأحول: أتيت البصرة؟ قال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ فقال: والله إنهم قليل، ولقد فعلوا وإنّ ذلك لقليل، فقال: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كلّ خير...**))[1].

ومن الواضح عند المقارنة بين هذه المواقف والنصوص ومواردها نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام قد وضعوا سياسة عامة للدعوة إلى الله وإلى الحق، تقوم على أساس المسؤولية تجاه الدائرة الخاصة - الأهل والعشيرة -، ومعرفة الشخص الذي يراد مخاطبته بالدعوة، بحيث يتوفر فيه عنصر الانفتاح في القلب وحرية التفكير من ناحية ثانية، وتهيّؤ الظروف السياسية والأمنية المحيطة بالدعوة من ناحية ثالثة. ومع كل ذلك أخذوا بنظر الاعتبار الخطوط الأمنية التي تحمي الجماعة من الأضرار التي تنشأ من الاندفاع في الدعوة إلى الحق والهدى الذي يعتقدون به، وفي ظل موازنة دقيقة ومحكمة لا تفوّت الفرصة في تحقيق المصالح العامة للأُمّة وهدايتها والتقرّب إلى الله تعالى بذلك.

الثالث: المركزية في الموقف السياسي

خط التأكيد على أتباعهم في عدم الاستجابة للنداءات التي يطلقها هنا وهناك دعاة أو أدعياء الإصلاح، أو التغيير للأوضاع السياسية والاجتماعية إلاّ بعد أنْ يأخذوا عن أهل البيت الموقف تجاه ذلك بشكل مباشر ومركزي،

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤٤٧ – ٤٤٨، ح٤.

أو أنْ يقوم بالإصلاح (القائم) الموعود من أئمة أهل البيت أنفسهم عليهم السلام بشكل خاص.

حيث كان الكثير من هؤلاء الدعاة من الأدعياء الذين يريدون الوصول إلى السلطة، أو تحقيق أغراض شخصية أو باطلة، كما هو الحال في دعاة العباسيين للثورة على الأمويين، أو بداية حركة بعض الحسنيين، مثل: محمد المعروف بذي النفس الزكية، وأخيه إبراهيم ابني عبد الله المحض بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[1].

كما أنّ بعض دعاة الإصلاح وإنْ كان مخلصاً في حركته، ولكنه قد لا يكون قادراً على تشخيص الموقف السياسي الصحيح، لعدم إحاطته بجميع الظروف والملابسات، أو يكون منطلقاً من قضايا صحيحة ولكنها محدودة بأصحابها.

فقد روى الكليني في الكافي عن المعلّى بن خنيس، قال: ((**ذهبت بكتاب عبد السلام بن نعيم، وسدير، وكتب غير واحد إلى أبي عبد الله عليه السلام حين ظهرت (المسوّدة)[2] قبل أنْ يظهر ولد العبّاس، بأنا قد قدّرنا أنْ يؤول هذا الأمر إليك، فما ترى؟ قال: فضرب بالكتب الأرض، ثم قال: أفّ أُف ما**

---

(١) يمكن أنْ نقول: إنَّ دعوة محمّد بن عبد الله وأخيه إبراهيم مرّت بمرحلتين:

الأولى: كانت تتسم بما ذكرناه في المتن، وكان موقف الأئمة عليهم السلام تجاهها هو النهي عن المشاركة والنقد لهم.

الثانية: هي مرحلة الانتفاضة على الظلم والجور الذي مارسه العباسيون في حق أهلهم وذويهم عند مطاردتهم لهم، والتي أدت بعد ذلك إلى المواجهة بينهم وبين العباسيين، واستشهادهم، وقد تظلم أئمة أهل البيت عليهم السلام لهم في هذه المرحلة. منه قدس سره.

(٢) يريد بالمسودة الدعاة من أنصار بني العباس، كأبي مسلم الخراساني، وذلك قبل أنْ يستولي بني العباس على الحكم.

أنا لهؤلاء بإمام، أما يعلمون أنه إنما يقتل السفياني))[1].

وكذلك الحديث الآخر (الصحيح) الذي رواه الكليني في الكافي عن عيص بن القاسم قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وانظروا لأنفسكم، فوالله إنّ الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها، والله لو كانت لأحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرب بها، ثم كانت الأُخرى باقية فعمل على ما قد استبان لها، ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة، فأنتم أحق أنْ تختاروا لأنفسكم.**

إنْ أتاكم آتٍ منّا فانظروا على أي شيء تخرجون، ولا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيداً كان عالماً وكان صدوقاً، ولم يدعكم إلى نفسه، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله، ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه.

فالخارج منّا اليوم إلى أي شيء يدعوكم إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله فنحن نشهدكم أنا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم وليس معه أحد، وهو إذا كانت الرايات والألوية أجدر أنْ لا يسمع منّا إلاّ من اجتمعت بنو فاطمة معه، فوالله ما صاحبكم إلاّ من اجتمعوا عليه.

إذا كان رجب فاقبلوا على اسم الله، وإنْ أحببتم أنْ تتأخّروا إلى شعبان فلا ضير، وإنْ أحببتم أنْ تصوموا في أهاليكم فلعلّ ذلك يكون أقوى لكم

---

(١) الكافي٨: ٣٣١، ح٥٠٩.

يريد الإمام عليه السلام بأنّ القائم الحق منّا – كما كانوا يتوهمونه – إنما يكون بعد مقتل السفياني ولم يحصل ذلك.

وكفاكم بالسفياني علامة))[1].

ومنه - أيضاً - ما رواه الصدوق في العلل بسند معتبر من العيص بن القاسم قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فإنّ أحق من نظر لها أنتم، لو كان لأحدكم نفسان فقدّم إحداهما وجرّب بها استقبل التوبة بالأخرى كان، ولكنها نفس واحدة إذا ذهبت فقد ذهبت والله التوبة، إنْ أتاكم منّا آتٍ يدعوكم إلى الرضا منّا فنحن نشهدكم أنّا لا نرضى إنه لا يطيعنا اليوم وهو وحده، وكيف يطيعنا إذا ارتفعت الرايات والأعلام))**[2].

وبذلك كان أهل البيت عليهم السلام يرون أنّ القرار فيما يتعلق بموضوع المشاركة في الجهاد المسلح أو القتال سواء كان جهاداً لفتح[3]، أم ضد الحكومات الإسلامية الظالمة لابدّ أنْ يكون (مركزياً)، وتحت النظر المباشر للأئمة عليهم السلام أنفسهم، لأنه - بالإضافة إلى أهميته ودقته حيث يتعرض الإنسان فيه إلى الأخطار الدينية والدنيوية الفردية - يرتبط أيضاً بأمن الجماعة كلها، ويعرض مصالحها ووجودها إلى الخطر:

---

(١) الكافي٨: ٢٦٤، ح٣٨١.

(٢) علل الشرائع٢: ٥٧٧، ح٢.

(٣) ففي حديث معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**لقي عبّاد البصري علي بن الحسين عليهما السلام في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه؟ إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ الآية فقال علي بن الحسين عليهما السلام: أتم الآية، فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...﴾ الآية، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج))**.
وسائل الشيعة١١: ٣٢ و٣٣، ح٣. وكذلك راجع حديث١ و٢ من نفس الباب.

عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث معتبر قال: **((قلت: جعلت فداك، حديث كان يرويه عبد الله بن بكير عن عبيد بن زرارة، قال: فقال عليه السلام لي: وما هو؟ قلت: روى عن عبيد بن زرارة أنه لقي أبا عبد الله عليه السلام في السنة التي خرج فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن فقال له: جعلت فداك، إنّ هذا قد ألف الكلام وسارع الناس إليه، فما الذي تأمر به؟ قال: فقال: اتقوا الله واسكنوا ما سكنت السماء والأرض، قال: وكان عبد الله بن بكير يقول: ولئن كان عبيد بن زرارة صادقاً فما من خروج وما من قائم، قال: فقال لي أبو الحسن عليه السلام: إنّ الحديث على ما رواه عبيد، وليس على ما تأوله عبد الله بن بكير، إنما عنى أبو عبد الله عليه السلام بقوله: ما سكنت السماء من النداء باسم صاحبك، وما سكنت الأرض من الخسف بالجيش))**(١).

وعن زرّ بن حبيش قال: **((خطب علي عليه السلام بالنهروان - إلى أنْ قال -: فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، حدّثنا عن الفتن، فقال: إنّ الفتنة إذا أقبلت شبهت، ثم ذكر الفتن بعده إلى أنْ قام، فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما يصنع في ذلك الزمان؟ قال: انظروا أهل بيت نبيّكم، فإنْ لبدوا فالبدوا، وإنْ استصرخوكم فانصروهم تؤجروا، ولا تستبقوهم فتصرعكم البلية، ثم ذكر حصول الفرج بخروج صاحب الأمر))**(٢).

فإنّ أهل البيت عليهم السلام في هذه النصوص كانوا يتحدثون عن قضايا خارجية وتحديد الموقف السياسي الفعلي تجاهها. وهذه القضايا هي: أنّ ادعاء بعض هؤلاء الدعاة الإمامة أو أنهم (القائم من آل محمد) - كما كان يتوهم الناس ذلك في محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية - كان ادعاءً باطلاً لا يصح

---

(١) عيون أخبار الرضا٢: ٢٧٧، ح٧٦.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤١، ح١٧.

الاستجابة له، وإنّ كل راية ترفع بهذا الادعاء فهي طاغوت يعبد من دون الله.

وبذلك يمكن أنْ نفسّر جميع النصوص التي وردت تؤكد عدم جواز الاشتراك بهذه الأعمال الإصلاحية بشكل مطلق قبل قيام القائم، أو تؤكد على انتظار قيام القائم من أهل البيت عليهم السلام؛ إذ لا فائدة من القيام والثورة قبله، بل إنها تنتهي إلى الفشل، مثل ما ورد عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: ((**والله لا يخرج أحد منّا قبل خروج القائم إلاّ كان مثله كمثل فرخ طار من وكره قبل أنْ يستوي جناحاه، فأخذه الصبيان فعبثوا به**))[1].

وعن سدير قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: يا سدير، الزم بيتك، وكن حلساً من أحلاسه، واسكن ما سكن الليل والنهار، فإذا بلغك أنّ السفياني قد خرج فارحل إلينا ولو على رجلك**))[2].

وعن أبي بصير في حديث صحيح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله عزّ وجلّ**))[3].

حيث إنّ هذا هو مقتضى الجمع والتوفيق بين هذه النصوص والنصوص التي وردت توضح هذا الأمر وتشرحه مع بيان خلفياته، وتستثني بعض هذه الحركات، وتترحم على أصحابها، وتفسّر ذلك بأنهم لم يكونوا من الدعاة إلى إمامة أنفسهم، مثل الحديث السابق الصحيح عن عيص بن القاسم الذي ورد في حركة زيد بن علي.

ويؤكده ويوضحه ما رواه الصدوق - أيضاً - في عيون الأخبار: عن ابن

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٣٦، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٣٦، ح٣.

(٣) وسائل الشيعة ١١: ٣٧، ح٦.

أبي عبدون، عن أبيه قال: ((**لما حُمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون، وقد كان خرج بالبصرة وأحرق دور ولد العباس، وهب المأمون جرمه لأخيه علي بن موسى الرضاﻹ، وقال له: يا أبا الحسن، لئن خرج أخوك وفعل ما فعل، لقد خرج قبله زيد بن علي فقتل، ولولا مكانك مني لقتلته، فليس ما أتاه بصغير، فقال الرضاﻹ: يا أمير المؤمنين، لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي، فإنّه كان من علماء آل محمد، غضب لله عزّ وجلّ، فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفرﻹ أنه يسمع أباه جعفر بن محمد بن عليﻹ يقول: رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عم إنْ رضيت أنْ تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك. فلما ولى قال جعفر بن محمد: ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه.**

فقال المأمون: يا أبا الحسن، أليس قد جاء فيمن ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء؟ فقال الرضاﻹ: إنّ زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق وأنه كان أتقى لله من ذلك، أنه قال: ادعوكم إلى الرضا من آل محمدﻹ، وإنما جاء ما جاء فيمن يدعي أنّ الله تعالى نص عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم، وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ...﴾))[1].

حيث يدل هذا الحديث بشكل واضح على أنّ ما ورد عنهم في ذم الخارجين والمدعين إنما هو في خصوص مدعي الإمامة لأنفسهم.

وكذلك ما ورد من النصوص في حركة الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالبﻹ صاحب واقعة

---

(١) عيون اخبار الرضا٢: ٢٢٥ – ٢٢٦، ح١.

(فخ) المعروفة، الذي جاء التعريف بشهادته من النبيﷺ وبعض الأئمة كالإمام الباقرعليه السلام، كما رواه أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين.

كما أنّ بيعته - كما رواها أبو الفرج أيضاً - كانت على هذه الصيغة ((**أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله، وعلى أنْ يطاع الله ولا يعصى، وأدعوكم للرضا من آل محمد**ﷺ)).

وأنّ خروجه، وكذلك خروج يحيى بن عبد الله - كما كانا يدّعيان - بعد استشارة الإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام.

كما يروي أبو الفرج أيضاً عن عدة من رجاله أنهم قالوا: ((**جاء الجند بالرؤوس إلى موسى بن عيسى العباسي، وفيها رأس الحسين بن علي، وعنده جماعة من ولد الحسن والحسين**عليهما السلام**، فلم يسأل أحداً منهم إلاّ موسى بن جعفر**عليه السلام **قال له: هذا رأس الحسين؟ فقال: نعم، إنا لله وإنا إليه راجعون، مضى والله مسلماً صالحاً صوّاماً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله، فلم يجبه بشيء**))[1].

الرابع: مراعاة درجة التحمُّل

خط الالتزام بسياسة مراعاة درجة التحمل والاستيعاب في إيداع الأسرار وتفاصيل العقائد في أبناء الجماعة الصالحة، وذلك انطلاقاً من حقيقة نفسية وروحية، وهي: انقسام الجماعة الصالحة إلى مستويات متعددة من حيث التحمّل للأعباء وللضغوط، والالتزام بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأسرار والفهم للمحتوى الفكري والعقائدي، والانضباط. ومن ثم

---

(١) تنقيح المقال١: ٣٣٧، ترجمة الحسين بن علي بن الحسن صاحب فخ، حيث يستعرض ما ورد فيه من روايات، ويقارن بينها ويصل إلى ما ذكرناه من نتائج.

لابدّ من التعامل مع الأفراد على أساس هذا التقسيم والمستويات.

فهذه الجماعة بالرغم من أنّ جميع أبنائها هم من المؤمنين ويشتركون في العقيدة والالتزامات والمواصفات العامة، ويتساوون في الحقوق والواجبات العامة، ولكن في نفس الوقت لابدّ من ملاحظة مستوى الإيمان في تحمّل هذه الواجبات والمسؤوليات، وضرورة الحذر والاحتياط في التعامل معهم في المسؤوليات والتكاليف الاجتماعية حفاظاً على روح العدل والإنصاف مع الأفراد في تحميل ما يطيقونه نفسياً وروحياً من ناحية، وكذلك على قوّة العلاقات بين أفراد الجماعة وتطوّرها ونموّها من ناحية أُخرى، وعلى (أمن الجماعة) من ناحية ثالثة.

وقد نبه أهل البيت عليهم السلام إلى هذه الحقيقة وأكدوا هذه السياسة التي يجب أنْ تتبع إزاءها في عدد من النصوص والبيانات.

منها ما ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**ذكرت التقية يوماً عند علي عليه السلام فقال: إنْ علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، وقد آخى رسول الله بينهما، فما ظنك بسائر الخلق؟**))[1].

وفي حديث آخر (صحيح) يشرح فيه الإمام الباقر عليه السلام هذه الحقيقة في أصحابه في جانبها العقائدي، فقد روى أبو عبيدة الحذاء قال: ((**سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: والله إنّ أحب أصحابي إليّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإنّ أسوأهم عندي حالاً، وأمقتهم للذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروي عنا فلم يقبله اشماز فيه وجحده وكفرَ من دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أُسند فيكون بذلك خارجاً عن ولايتنا**))[2].

---

(١) اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي١: ٧٠.

(٢) الكافي٢: ٢٢٣، ح٧.

وفي حديث آخر (صحيح) يبين فيه الإمام خطورة عدم مراعاة هذه السياسة، فقد روى الكليني بإسنادٍ معتبر عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: ((**سألت أبا الحسن الرضا عن مسألة فأبى وأمسك. ثم قال: لو أعطيناكم كلما تريدون كان شراً لكم وأخذ برقبة صاحب هذا الأمر...**))[1].

وقد أكّد أهل البيت عليهم السلام - فيما ورد عنهم - أنّ المؤمنين على منازل ودرجات ويختلفون في التحمل والقوة بهذه الدرجات.

فقد روى الكليني عن سدير قال: ((**قال لي أبو جعفر عليه السلام: إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست، ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقوَ، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقوَ، وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقوَ، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقوَ، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقوَ، وعلى هذه الدرجات**))[2].

وقد أوضح أهل البيت عليهم السلام - فيما ورد عنهم - الخصائص والمواصفات التي بها تعرف درجات المؤمنين وتكون ميزاناً ومعياراً للتحمل والثقة.

فقد روى الكليني عن عمار بن أبي الأحوص، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إنّ الله تعالى وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البرّ والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثمّ قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، وقسم لبعض الناس السهم، ولبعض السهمين، ولبعض الثلاثة، حتى انتهوا إلى السبعة، ثم قال:**

---

(١) الكافي٢: ٢٢٤، ح١٠.

(٢) الكافي٢: ٤٥، ح٣.

لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، وعلى صاحب السهمين ثلاثة فتبهظوهم، ثم قال: كذلك حتى ينتهي إلى سبعة))[١].

وفي رواية أُخرى يطالب الإمام أصحابه بالتمحيص والتثبت في مدعي التشيع.

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه بعض أصحابه فقال له: ((**جعلت فداك إنّي والله أُحبّك وأُحبّ من يحبّك، يا سيدي ما أكثر شيعتكم! فقال له: اذكرهم فقال: كثير، فقال: تحصيهم؟ فقال: هم أكثر من ذلك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما لو كملت العدّة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون، ولكن شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناؤه بدنه، ولا يمدح بنا غالياً، ولا يخاصم لنا والياً، ولا يجالس لنا عائباً، ولا يحدّث لنا ثالباً، ولا يحبّ لنا مبغضاً، ولا يبغض لنا محبّاً، فقلت: فكيف أصنع بهذه الشيعة المختلفة الذين يقولون إنهم يتشيّعون؟ فقال: فيهم التمييز وفيهم التمحيص وفيهم التبديل...**))[٢] الحديث.

وفي هذا النص نلاحظ أنّ الإمام يؤكد على أهمية التثبت من الأشخاص من خلال الامتحان الطويل من التمييز والتمحيص والتبديل.

---

(١) الكافي٢: ٤٢، ح١.

(٢) الغيبة للنعماني: ٢٠٣ – ٢٠٤، ح٤.

الباب الخامس

النظام الاقتصادي والمالي
نظرة عامة للموضوع الاقتصادي

الفصل الأوّل:

التشريعات الاقتصادية العامة.

الفصل الثاني:

التشريعات الاقتصادية الخاصة.

الفصل الثالث:

النشاط الاقتصادي.

الخلاصة الخاتمة

تمهيد

نظرة عامة للموضوع الاقتصادي

يعتبر الموضوع الاقتصادي والمالي لأي جماعة عنصراً مهماً من عناصر النظام، بحيث لا يمكن للجماعة أنْ تتكامل وتنمو وتكون قادرة على مواجهة الضغوط السياسية والاجتماعية بدون هذا العنصر المهم في وجودها.

ولذلك نجد الإسلام الحنيف - إلى جانب اهتمامه بالجوانب العقائدية والفكرية والروحية والأخلاقية - اهتم اهتماماً أساسياً بالجانب الاقتصادي والمالي، مع أنه رسالة إلهية قائمة على إيجاد أساس التكامل المعنوي والروحي للإنسان، إلاّ أنّ قضية المال وتنظيم الحياة المعيشية المادية، والنظام الاقتصادي أمور لها دور عظيم في هذا التكامل المعنوي والروحي. ويمكن أنْ نلاحظ ذلك في الأُمور التالية:

أهمية النظام الاقتصادي

أ) جاءت الزكاة مقرونة بالصلاة في القرآن الكريم في موارد عديدة، حتى تكاد أنْ لا تنفك عنها، كما جاءت مقرونة ببذل النفس في سبيل الله، وأنّ الحث على الإنفاق في سبيل الله وعلى الفقراء والمساكين والمضطرين من الغارمين وغيرهم من أهم الطاعات التي تقرّب الإنسان إلى الله تعالى.

ب) إنّ الإسلام عندما نظّم قضايا الأُسرة والمجتمع، والعلاقات مع الله تعالى، ومع الطبيعة والإنسان، وغير ذلك من مناحي الحياة، نظّم كذلك قضية الإنفاق والواجبات العامة والخاصة في هذا المجال، سواء على مستوى الأُسرة أم أفراد الجماعة، أم على مستوى المحافظة على الوجود الاجتماعي

والسياسي للجماعة والناس.

ج) إنّ القرآن الكريم يعالج قضية الأموال في مختلف أبعادها، سواء في تقييم دور المال في الحياة الإنسانية، أم تشخيص الموقف تجاه المال وكيفية استثماره لتطوير المجتمع وجعله طريقاً للتكامل، أم في نسبة المال للإنسان وأنه مستخلف من قبل الله تعالى فيه، وأنّ الله هو المالك الحقيقي له، إلى غير ذلك من الأبعاد.

د) إنّ الدعوة الإسلامية في بداية وجودها قد اعتمدت على الأموال الكبيرة التي كانت تملكها زوج النبي السيدة خديجة الكبرى عليها السلام، والتي كان لها دور عظيم في إنقاذ الدعوة في مراحلها الأولى، عندما واجهت الضغوط المختلفة من المشركين.

هـ) إنّ أعداء الرسالة كانوا يدركون أهمية الدور الذي يمكن أنْ يلعبه الجانب الاقتصادي والمالي في حياة الرسالة، حيث كانوا يعمدون إلى محاصرتها اقتصادياً ومالياً للقضاء عليها، كما فعلوا عند محاصرتهم للمسلمين في (شِعب أبي طالب) عندما قاطعوا المسلمين اقتصادياً، واستمرّوا في ممارسة هذا الضغط بأساليب مختلفة.

أهداف النظام الاقتصادي

ويمكن في هذا المجال أنْ نشير إلى الأُمور التالية التي تلخّص أهداف وأبعاد النظام الاقتصادي والمالي في الإسلام للمجتمع الإسلامي خاصة، والمجتمعات الإنسانية عامة.

الأوّل: تحقيق الرفاه والاستقرار الداخلي في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، وإيجاد الأرضية الحيوية للتكامل الروحي، حيث يتوقف ذلك إلى حدٍّ كبير على معالجة مشكلة الفقر والحاجة والتمايز الاجتماعي الفاحش في المستوى المعيشي. ولا يمكن معالجة هذه المشكلات وإيجاد هذا

الاستقرار إلاّ من خلال النظام الاقتصادي والمالي.

الثاني: استقلال الجماعة وقدرتها على التحرك بحريّة، واختيار القرار المناسب، حيث يعتمد اعتماداً رئيسياً على استقلالها الاقتصادي وإمكانياتها المالية.

الثالث: بناء المؤسسات الاجتماعية والثقافية والخدمية العامة، وتيسير الحياة الاجتماعية للجماعة بما هي كيان سياسي واجتماعي، وكذلك القيام بالنشاطات الثقافية والاجتماعية والجهادية في الدفاع عن كيان الجماعة أو تحقيق أهدافها، فإنه لا يمكن أنْ يتم كل ذلك إلاّ من خلال هذا النظام الاقتصادي والمالي.

الموضوع الاقتصادي في نظر أهل البيت عليهم السلام

وانطلاقاً من هذه الرؤية العامة للموضوع الاقتصادي نجد أنَ أهل البيت عليهم السلام يُعيرون هذا الموضوع أهمية خاصة في التصميم العام لبناء الجماعة الصالحة.

ويعتمد أهل البيت في معالجة الموضوع الاقتصادي اعتماداً أصلياً على الرؤية الأصيلة للإسلام والنظرية الإسلامية الاقتصادية الشاملة، ذلك أنَ الإسلام بكل معالمه يصوغ الإطار العام في رؤية أهل البيت لبناء الجماعة الصالحة.

ومن هنا نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون على شيعتهم ضرورة الالتزام بالواجبات المالية العامة، كما نلاحظ ذلك من نصوص الزكاة:

فقد روى الصدوق بسند صحيح عن عبد الله بن سنان قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: لما نزلت آية الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ في شهر رمضان، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس: إنّ الله**

تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة، ففرض عليكم من الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب، ونادى فيهم بذلك في شهر رمضان وعفا لهم عما سوى ذلك. قال: ثم لم يتعرّض لشيء من أموالهم حتى حال عليهم الحول من قابل فصاموا وأفطروا، فأمر ﷺ مناديه فنادى في المسلمين: أيها المسلمون زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم، قال: ثم وجّه عمّال الصدقة وعمّال الطسوق))[1].

وفي حديث آخر صحيح عن أبي بصير قال: ((**كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وإنما هو شيء ظاهر، وإنما حقن الله بها دمه، وسمّي بها مسلماً ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة**))[2].

وانطلاقاً من ذلك نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يخططون للنظام الاقتصادي للجماعة الصالحة مع تأكيد مراعاة الخطوط الاقتصادية والالتزامات العامة للدولة الإسلامية، حيث يراد لهذه الجماعة أنْ تعيش ضمن إطار الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي العام.

موضوع البحث

ولكننا لا نريد هنا أنْ نتناول النظرية الاقتصادية الإسلامية بعمومها وشمولها من خلال رؤية أهل البيت عليهم السلام، فإنّ لذلك مجالاً آخر[3]. حيث

---

(١) من لا يحضره الفقيه٢: ١٣، ح١٥٩٨، والطسوق: جمع طَسْق، وهو الوظيفة من الخراج، أو شبه الخراج له مقدار معلوم.

(٢) وسائل الشيعة٦: ٢٨، ح٣.

(٣) يمكن مراجعة كتاب (اقتصادنا)، حيث عالج الشهيد الصدر هذا الموضوع معالجة ←

نلاحظ الفهم الخاص الأصيل الذي يختص به أئمة أهل البيت عليهم السلام في فهم التفاصيل الإسلامية بشكل متميز عن بقية أئمة المذاهب الإسلامية الأخرى، وإنما نريد أنْ نتناول النقاط الخاصة بموضوع الجماعة الصالحة، حيث إنّ أهل البيت عليهم السلام قد واجهوا في هذا الموضوع - النظام الاقتصادي للجماعة الصالحة - مشكلتين رئيستين، كانتا بحاجة إلى معالجة تقوم على أساس النظرية الإسلامية العامة:

الأولى: مشكلة التوفيق بين النظام الاقتصادي العام، الذي كانت تلتزم به الدولة الإسلامية، وما يترتب عليه من تكاليف مالية، وبين الفهم الخاص الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام للنظام الاقتصادي الإسلامي ومترتباته المالية، التي قد تضيف أعباء وتكاليف مالية على أبناء الجماعة الصالحة زائداً على تكليف بقية المسلمين، فيما إذا أراد أبناء الجماعة الصالحة أنْ يجمعوا بين الواجبات والالتزامات الخاصة لأهل البيت عليهم السلام، والعامة للدولة الإسلامية.

الثانية: تأمين الموارد المالية التي يمكن من خلالها تغطية نفقات بناء الجماعة الصالحة وإدارة شؤونها، مضافاً إلى إيجاد الاستقلال الاقتصادي النسبي، فإنّ تحقيق ذلك في الظروف الخاصة التي يعيشها أهل البيت وأتباعهم يمثّل مشكلة حقيقية.

ونريد هنا أنْ نشير إلى خصوص المواقف والإجراءات التي اتخذها أهل البيت في المجال الاقتصادي لمعالجة هاتين المشكلتين، مع الإشارة إلى بعض الخصائص التي تميّز بها مذهب أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، على مستوى الفهم التشريعي للإسلام، أو على مستوى الإجراءات التي اتخذوها في المجال المالي، وعلى مستوى الاهتمامات الاقتصادية، وذلك مثل: موضوع (الخمس) أو الإلزام بالتكافل الاجتماعي، أو في تشخيص مصاديق مصرف

وافية، خصوصاً في الجزء الثاني منه.

الزكاة، أو الاهتمام بالوقف، أو الاهتمام بخطّي التجارة والزراعة في النشاط الاقتصادي العام، أو وضع الضرائب المالية الخاصة، وبما يوضّح جانب الخصائص التي يمتاز بها النظام الاقتصادي والمالي العام للجماعة الصالحة.

ويمكن أنْ نلخّص الحديث في هذا الموضوع في ثلاثة فصول:

الأوّل: في الموقف من التشريعات الاقتصادية والمالية العامة التي تلتزم بها الدولة الإسلامية.

الثاني: في التشريعات الإسلامية الاقتصادية العامة التي لا تلتزم بها الدولة.

الثالث: في النشاط الاقتصادي العام وسياسة أهل البيت تجاهه.



التشريعات الاقتصادية العامة

١. الزكاة

٢. الأراضي الموات

٣. الأراضي الخراجية

٤. الأوقاف العامة

لقد قام أئمة أهل البيت عليهم السلام بإرشاد شيعتهم إلى القبول بالتشريعات الاقتصادية والمالية العامة والانسجام معها، سواء منها ما يتعلّق بالمعاملات والعقود التجارية، أم ما يتعلّق منها بالمترتبات والالتزامات المالية. حيث لا نلاحظ شيئاً مهماً يستحق الذكر في موارد الخلاف في هذه المجالات إلاّ بقدر محدود - سوف نشير إلى بعض معالمه - يرتبط باختلاف آراء الفقهاء تجاه هذه المعاملة أو تلك، أو هذا الالتزام بهذا التشريع أو ذلك، بحيث لا يعدّ هذا الفرق ظاهرة تميّز أتباع أهل البيت عليهم السلام عن غيرهم في هذا المجال.

وهذا الموقف قد يكون أمراً طبيعياً تجاه التشريعات في مجال المعاملات والعقود، لأنّ هذه التشريعات تعتمد في قبول الشارع لها على السيرة العقلائية والتزام العقلاء بها في هذا المجال الحيوي، إلاّ ما استثناه الشارع منها، كما هو الحال في: الربا أو بعض المعاملات الأُخرى كالتجارة والتكسب بالمحرمات، فكان الاختلاف في ذلك جزئياً بين المذاهب الإسلامية.

ولكن في مجال التشريعات المالية - التي هي تشريعات ذات طبيعة شرعية وترتبط بمصالح الحكم والجماعة، حيث يعتبر أهل البيت عليهم السلام طرفاً مهماً في هذا الجانب لأنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم - فقد يبدو عدم ظهور الخلاف أمراً غريباً.

ولكن الانسجام هنا يأتي ضمن السياسات العامة لأهل البيت عليهم السلام التي كانت تؤكد أهمية الانسجام والتعايش مع الحكم الإسلامي، والجماعة المسلمة في الإطار الاجتماعي العام.

وبهذا الصدد نشير إلى أربعة موارد تعتبر من أهم التشريعات المالية والاقتصادية التي عرفها المسلمون في هذا المجال، لنتعرف على موقف أهل البيت عليهم السلام الذي عرضوه لشيعتهم وأتباعهم تجاه هذه التشريعات:

الأوّل: الزكاة

تعتبر الزكاة أهم تشريع مالي أكّده القرآن الكريم وسنّة الرسول العظيم، فقد شخّص الإسلام تشخيصاً دقيقاً مواردها من الأموال الخاصة المملوكة للمسلمين، كالنقدين: (الذهب والفضة)، والغلاّت الأربع: (الحنطة والشعير والتمر والزبيب)، والأنعام الثلاثة: (الإبل والبقر والغنم)، وجعل الولاية عليها للحاكم الإسلامي الذي يقوم بخرصها وتقديرها، أو إحصائها وجمعها من أصحاب الأموال. كما حدد القرآن الكريم مصرفها في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

ففي الزكاة أبعاد أربعة رئيسة، وهي:

أ) أهمية الزكاة في نظر أهل البيت عليهم السلام

أمّا بالنسبة إلى أصل التشريع وأهميته فنحن نلاحظ أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون المستوى العالي نفسه من تأكيد أهمية الزكاة لدى بقية المسلمين - كما أشرنا سابقاً - بالرغم من أنّ هذه الأموال كانت تذهب في الأعم إلى أيدي الحكّام الظالمين.

ففي حديث صحيح عن محمد بن مسلم وأبي بصير وبريد وفضيل، كلّهم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: ((**فرض الله الزكاة مع الصلاة**))[2].

---

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) وسائل الشيعة ٦: ٥، ح٨ .

وفي حديث صحيح آخر عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: **((ما من عبد منع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾))**[1].

كما أنّ مانع الزكاة استحلالاً وجحوداً يكون كافراً ويستحق القتل؛ لأنّ وجوب الزكاة من ضروريات الدين.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **((من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾))**[2].

وفي حديث صحيح عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **((من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إنْ شاء يهودياً أو نصرانياً))**[3].

ب) الأموال التي تتعلّق بها الزكاة

أمّا الأموال التي تتعلّق بها الزكاة، فهنا يبدو وجود اختلاف وفرق في موردين رئيسين على مستوى الحصيلة الفقهية الاجتهادية لأتباع أهل البيت عليهم السلام، والمحصلة الفقهية الاجتهادية للمذاهب الإسلامية الأُخرى، وإنْ كنا لا نجد هذا الفرق على مستوى الأخبار والروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام.

المورد الأوّل: هو أموال التجارة والبضائع التي تبقى عند التجار في متاجرهم ومخازنهم، فإنّ الرأي الفقهي العام المعروف لدى أتباع أهل

---

(١) وسائل الشيعة٦: ١١، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة٦: ١٨، ح٣.

(٣) وسائل الشيعة٦: ١٨، ح٥.

البيت عليهم السلام هو عدم تعلّق الزكاة بها، بخلاف الرأي الفقهي العام لدى المذاهب الإسلامية الأُخرى التي ترى وجوب الزكاة فيها، وإنْ كانت توجد نصوص متعددة وردت عن أهل البيت عليهم السلام يفهم منها وجوب الزكاة في هذه الأموال، وذهب إلى ذلك بعض علماء أتباع أهل البيت. ولكن هذه النصوص تحمل في نظر مشهور علمائهم على استحباب زكاة التجارة، أو صدور هذه الأخبار تقية، جمعاً بينها وبين نصوص أُخرى يفهم منها حصر الوجوب في خصوص الأموال التسعة السابقة[1].

المورد الثاني: هو الغلاّت والأنعام الأُخرى، مثل: الرز والذرة وغيرهما من الغلاّت، أو الخيل من الحيوانات، حيث نلاحظ الفرق نفسه على مستوى المحصلة الفقهية، وإنْ كانت النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال قد يُفهم منها ثبوت الزكاة فيها أيضاً، ولكنها محمولة في نظر المشهور من علماء أتباع أهل البيت على الاستحباب أو التقية أيضاً.

ويمكن أنْ نفسّر ظاهرة هذا الفرق المحدود بأحد تفسيرين - ولو على نحو الاحتمال الذي تؤيده بعض القرائن مع قطع النظر عن مدى صحّتها -:

التفسير الأوّل: أنّ واقع التشريع الإسلامي لموارد وجوب الزكاة في الأموال هو خصوص الأموال التسعة، والباقي منها مما يستحب فيه الزكاة، وقد عرف أهل البيت عليهم السلام بعلمهم الواسع، هذه الحقيقية - في التمييز بين موارد الوجوب والاستحباب - التي اختلطت على بقية المسلمين. حيث تشير بعض النصوص الصحيحة إلى هذا الاحتمال:

عن عبد الله بن سنان قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: لما نزلت آية الزكاة:**

---

(١) لا نريد هنا أنْ نتناول هذا البحث الفقهي بالتفصيل والاستدلال، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى المحصلة الفقهية وتفسيرها اقتصادياً وسياسياً على نحو الاحتمال. وهكذا الحال في المورد الثاني. منه قدس سره.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ في شهر رمضان، فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: إنّ الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة، ففرض الله عليكم من الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب، ونادى فيهم بذلك في شهر رمضان، وعفا لهم عمّا سوى ذلك...))[1].

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: ((**فرض الله عزّ وجل الزكاة مع الصلاة في الأموال، وسنّها رسول الله ﷺ في تسعة أشياء، وعفا (رسول الله ﷺ) عمّا سواهن: في الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والحنطة والشعير والتمر والزبيب، وعفا رسول الله ﷺ عما سوى ذلك**))[2].

وعن محمد (بن جعفر) الطيار قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عمّا تجب فيه الزكاة، فقال: في تسعة أشياء: الذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والزبيب والإبل والبقر والغنم، وعفا رسول الله ﷺ عمّا سوى ذلك، فقلت: أصلحك الله فإنّ عندنا حبّاً كثيراً، قال: فقال: وما هو؟ قلت: الأرز، قال: نعم ما أكثره، فقلت: أفيه الزكاة؟ فزبرني، قال: ثم قال: أقول لك: إنّ رسول الله ﷺ عفا عمّا سوى ذلك وتقول: إنّ عندنا حبّاً كثيراً أفيه الزكاة؟!**))[3].

وفي حديث صحيح عن زرارة قال: ((**كنت قاعداً عند أبي جعفر عليه السلام، وليس عنده غير ابنه جعفر عليه السلام، فقال: يا زرارة، إنّ أبا ذر وعثمان تنازعا على عهد رسول الله ﷺ فقال عثمان: كل مال من ذهب أو فضة يدار به**

---

(١) وسائل الشيعة٦: ٣٢، ح١، وقد ذكرنا تمام الحديث سابقاً.

(٢) وسائل الشيعة٦: ٣٤، ح٤.

(٣) وسائل الشيعة٦: ٣٦، ح١٢.

ويعمل به ويتّجر به ففيه الزكاة إذا حال عليه الحول، فقال أبو ذر: أمّا ما يتّجر به أو دير وعمل به فليس فيه زكاة، إنما الزكاة فيه إذا كان ركازاً أو كنزاً موضوعاً، فإذا حال عليه الحول ففيه الزكاة، فاختصما في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فقال: القول ما قال أبو ذر، فقال أبو عبد الله عليه السلام لأبيه: ما تريد إلاّ أنْ يخرج مثل هذا فيكفّ الناس أنْ يعطوا فقراءهم ومساكينهم، فقال أبوه: إليك عني لا أجد منها بدّاً))[1].

التفسير الثاني: أنّ واقع التشريع الإسلامي هو فرض الزكاة في أموال الأغنياء عامة بما يكفي الفقراء ويسعهم، وقد أوكل الله تعالى مهمة تشخيص هذه الأموال - بعد تعيين الحد الأدنى منها بالأموال التسعة - إلى ولي الأمر المنصوب من قبل الله تعالى، وهو النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام. وقد اقتصر النبي صلى الله عليه وآله في بداية التشريع على الأموال التسعة التي تمثل الأموال الأساسية التي تجب فيها الزكاة، وعفا عن بقية الأموال، باعتباره ولي أمر المسلمين، حيث كانت المصلحة الإسلامية تقتضي ذلك، وكان هذا المقدار من الزكاة يحقق الهدف من التشريع. ولكن يصحّ لولي الأمر من بعده - المعصوم وحده أو هو وغيره - أنْ يضع الزكاة على الأموال الأُخرى حسب المصلحة الإسلامية العليا، أو مراعاة لتحقيق الهدف الذي كان وراء تشريع الزكاة. وقد اختلط أصل الحكم مع التشريعات السلطانية الولائية[2] لدى الفقهاء من الفريقين، وإنْ كان الحكم

---

(١) وسائل الشيعة٦: ٤٨، ح١.

(٢) نقصد بالتشريعات السلطانية الولائية (نسبة إلى الولاية) التشريعات التي يضعها الحاكم باعتباره ولياً للمسلمين ينظّم بها حياتهم الاجتماعية حسب الصلاحيات التي يمنحها له هذا المنصب، ويطبّق من خلالها الأحكام الكلية المشرّعة في أصل الدين، أو يملأ بها منطقة الفراغ التي تركها الشارع المقدس لولي الأمر، كل ذلك ضمن ←

وتشريعاته السلطانية أمراً واضحاً لدى أئمة أهل البيت أنفسهمعليهم السلام.

وهذا التفسير قد تشير إليه بعض النصوص الصحيحة التي وردت عن أهل البيتعليهم السلام:

عن زرارة ومحمد بن مسلم، عن أبي عبد اللهعليه السلام (في حديث) قال: **((إنّ الله عزّ وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّ وجل، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقّهم لا ممّا فرض الله لهم، ولو أنّ الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير))**[1].

وعن علي بن مهزيار (في حديث): **((إنّ أبا الحسنعليه السلام كتب إلى عبد الله بن محمد: الزكاة على كل ما كيل بالصاع))** قال: وكتب عبد الله، وروى غير هذا الرجل عن أبي عبد اللهعليه السلام أنه سأله عن الحبوب فقال: **((وما هي؟ فقال: السمسم والأرز والدخن، وكل هذا غلّة كالحنطة والشعير، فقال أبو عبد اللهعليه السلام: في الحبوب كلها زكاة، وروي أيضاً عن أبي عبد اللهعليه السلام أنه قال: كل ما دخل القفيز فهو يجري مجرى الحنطة والشعير والتمر والزبيب، قال: فأخبرني جعلت فداك هل على هذا الأرز وما أشبهه من الحبوب الحمص والعدس زكاة؟ فوقّععليه السلام: صدقوا الزكاة في كل شيء كيل))**[2].

وعن زرارة قال: **((قلت لأبي عبد اللهعليه السلام: في الذرة شيء؟ فقال لي: الذرة والعدس والسلت والحبوب فيها مثل ما في الحنطة والشعير، وكل ما**

إطار الأهداف العامة للتشريع. منهقدس سره.

(١) وسائل الشيعة٦: ٣، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة٦: ٣٩، ح١.

كيل بالصاع فبلغ الأوساق التي يجب فيها الزكاة فعليه فيه الزكاة))[١].

وعن أبي بصير قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل في الأرز شيء؟ فقال: نعم، ثم قال: إنّ المدينة لم تكن يومئذ أرض أرز فيقال فيه، ولكنه قد جعل فيه، وكيف لا يكون فيه وعامة خراج العراق منه؟))**[٢].

وعن سماعة قال: ((**سألته عن الرجل يكون معه المال مضاربة هل عليه في ذلك المال زكاة إذا كان يتّجر به؟ فقال: ينبغي له أنْ يقول لأصحاب المال: زكّوه، فإنْ قالوا: إنا نزكّيه، فليس عليه غير ذلك، وإنْ هم أمروه بأنْ يزكّيه فليفعل، قلت: أرأيت لو قالوا: إنا نزكّيه والرجل يعلم أنهم لا يزكّونه، فقال: إذا هم أقرّوا بأنهم يزكّونه فليس عليه غير ذلك، وإنْ هم قالوا: إنا لا نزكّيه فلا ينبغي له أنْ يقبل ذلك المال ولا يعمل به حتى يزكّيه))**[٣].

وعن محمد بن مسلم قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل اشترى متاعاً فكسد عليه متاعه، وقد زكّى ماله قبل أنْ يشتري المتاع، متى يزكّيه؟ فقال: إنْ كان أمسك متاعه يبتغي به رأس ماله فليس عليه زكاة، وإنْ كان حبسه بعدما يجد رأس ماله فعليه الزكاة بعدما أمسكه بعد رأس المال، قال: وسألته عن الرجل توضع عنده الأموال، يعمل بها؟ فقال: إذا حال عليه الحول فليزكّها))**[٤].

---

(١) وسائل الشيعة٦: ٤١، ح١٠.

(٢) وسائل الشيعة٦: ٤١، ح١١.

(٣) وسائل الشيعة٦: ٥٠، ح١.

(٤) وسائل الشيعة٦: ٤٦، ح٣ .

ج) مصرف الزكاة

وأمّا الموارد التي يتم فيها صرف الزكاة، فقد أكّد أهل البيت عليهم السلام أنها الأُمور الثمانية التي أشارت إليها الآية الستون من سورة التوبة السابقة ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ...**﴾؛ ولكن لا يجب البسط على كل هذه الموارد، بل يصح الاقتصار في الصرف على واحد أو أكثر منها. وقد ترك هذا الأمر بالأصل للحاكم الشرعي الذي يتولّى مصرف الزكاة، وهذا الأمر يكاد يتّفق عليه المسلمون عامة مع قطع النظر عن بعض التفاصيل.

ولكننا مع ذلك نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يوجّهون شيعتهم للصرف - عندما تسمح لهم الفرصة - على أبناء الجماعة الصالحة خاصة، ويؤكّدون عليهم ذلك انطلاقاً من تشخيصهم لطبيعة الحاجات والضرورات التي تفرضها الأوضاع الاقتصادية والسياسية التي تحيط بالجماعة، باعتبارها جماعة محاصرة اقتصادياً وسياسياً، فأبناؤها أحق بهذه الزكاة؛ لأنهم - مضافاً إلى أنهم يساوون بقية المسلمين في الاستحقاق - يتعرّضون إلى الضغوط المختلفة، ويواجهون الحرمان بسبب هذه الضغوط، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ أكثر أموال الزكاة في الأعم تقع بيد الحاكم، ولا يبقى منها تحت تصرّف الأفراد إلاّ النزر اليسير الذي يمكنهم استثناؤه من عملية الجمع. ومن ثمّ فلابدّ من تعويض أبناء الجماعة عن ذلك الحرمان، بتوجيه الإنفاق والتوزيع إلى خصوص أبنائها.

ولعل هذا التصوّر هو المقصود من صحيحة زرارة ومحمد بن مسلم التي رواها المشايخ الثلاثة الكليني والصدوق والطوسي:

فعن زرارة ومحمد بن مسلم أنهما قالا لأبي عبد الله عليه السلام: ((**أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً**

مِنَ اللّهِ﴾ أكل هؤلاء يُعطى وإنْ كان لا يَعرف[١]؟ فقال: إنّ الإمام يعطي هؤلاء جميعاً لأنهم يقرّون له بالطاعة، قال زرارة: قلت: فإنْ كانوا لا يعرفون؟ فقال: يا زرارة، لو كان يُعطى من يَعرف دون من لا يَعرف لم يوجد لها موضع، وإنما يُعطى من لا يَعرف ليرغب في الدين فيثبت عليه، فأمّا اليوم فلا تعطها أنت وأصحابك إلاّ من يَعرف، فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفاً فأعطه دون الناس، ثم قال: سهم المؤلّفة قلوبهم وسهم الرقاب عام، والباقي خاص، قال: قلت: فإنْ لم يوجدوا؟

قال: لا يكون فريضة فرضها الله عزّ وجل ولا يوجد لها أهل، قال: قلت: فإنْ لم تسعهم الصدقات؟ فقال: إنّ الله فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّ وجل، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقهم، لا مما فرض الله لهم، فلو أنّ الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير))[٢].

وانطلاقاً من هذا التصوّر يضع أهل البيت عليهم السلام توجيهاً اقتصادياً مالياً يغطّي بعض احتياجات أبناء الجماعة الصالحة، حيث يلزم الأغنياء من أبناء الجماعة الصالحة بدفع الزكاة إلى خصوص أبنائها بدون استثناء، ويحدد مصرفها بذلك.

عن إسماعيل بن سعد الأشعري عن الرضا عليه السلام قال: ((**سألته عن الزكاة هل توضع فيمن لا يَعرف؟ قال: لا، ولا زكاة الفطرة**))[٣].

وعن ضريس قال: ((**سأل المدائني أبا جعفر عليه السلام قال: لنا زكاة نخرجها من أموالنا ففي مَنْ نضعها؟ فقال: في أهل ولايتك، فقال: إني في بلاد ليس**

---

(١) المقصود من يعرف إمامتهم ويقول بولايتهم.

(٢) وسائل الشيعة٦: ١٤٣، ح١.

(٣) وسائل الشيعة٦: ١٥٢، ح١.

بها أحد من أوليائك، فقال: ابعث بها إلى بلدهم تدفع إليهم، ولا تدفعها إلى قوم إذا دعوتهم غدا إلى أمرك لم يجيبوك، وكان والله الذبح))[١].

ويبدو من بعض هذه النصوص التي وردت في هذا المجال - إذا أردنا أنْ نجمع بينها وبين صحيحة زرارة ومحمد بن مسلم السابقة - أنّ هذا الإجراء المحدود الخاص إنما هو قرار وحكم (ولائي) اتخذه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام إدراكاً منهم لمصلحة الجماعة الصالحة العامة في إطار الظروف المعاشة، وليس حكماً محدوداً في أصل الشريعة - والله سبحانه أعلم - وهو في الوقت نفسه يعبر عن سياسة لابدّ من الالتزام بها في كل وقت على قاعدة (الأقربون أولى بالمعروف).

ولكن مع ذلك تجد بعض الاستثناء في بعض الحالات الخاصة، كما أُشير إليه في الحديث الآتي:

عن يعقوب بن شعيب الحداد، عن العبد الصالح عليه السلام قال: ((**قلت له: الرجل منّا يكون في أرض منقطعة كيف يصنع بزكاة ماله؟ قال: يضعها في إخوانه وأهل ولايته، قلت: فإنْ لم يحضره منهم فيها أحد؟ قال: يبعث بها إليهم، قلت: فإنْ لم يجد من يحملها إليهم؟ قال: يدفعها إلى من لا ينصب، قلت: فغيرهم؟ قال: ما لغيرهم إلاّ الحجر**))[٢].

وعن عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام (في حديث) قال: ((**قلت له: رجل عارف أدّى زكاته إلى غير أهلها زماناً، هل عليه أنْ يؤديها ثانية إلى أهلها إذا علمهم؟ قال: نعم، قال: قلت: فإنْ لم يعرف لها أهلاً فلم يؤدّها أو لم يعلم أنها عليه فعلم بعد ذلك؟ قال: يؤدّيها إلى أهلها لما مضى، قال: قلت له: فإنه لم يعلم أهلها فدفعها إلى من ليس هو لها بأهل، قد كان طلب**

---

(١) وسائل الشيعة٦: ١٥٢، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة٦: ١٥٣، ح٧.

واجتهد ثم علم بعد ذلك سوء ما صنع، قال: ليس عليه أنْ يؤدّيها مرة أخرى))[١].

وبهذا نعرف أنَّ هذا الإجراء يمثل أحد الامتيازات الواضحة في موقف أهل البيت من الزكاة، حيث يرتبط هذا الإجراء بأوضاع الجماعة الصالحة ويؤمّن مصدراً مالياً مهمّاً لهم.

د) الولاية على الزكاة

الولاية على الزكاة - بحسب الممارسة الخارجية للدولة الإسلامية - كانت للحاكم الإسلامي[٢]، ولا يبعد أنْ يكون الأمر كذلك بحسب أصل الشريعة الإسلامية، فالزكاة وإنْ كانت تمثّل شركة للفقراء في أموال الأغنياء - كما جاء ذلك في عدّة نصوص - إلاّ أنَّ ولاية هذا المال من أجل إيصاله إلى أصحابه الشركاء، أو صرفه في مصارفه المحددة شرعاً إنما هي للحاكم الإسلامي الذي يجبي الزكاة، كما كان النبيﷺ يقوم في زمنه بجبايتها، وكذلك الخلفاء من بعده.

ولكن الحكومات الإسلامية في التأريخ الإسلامي كانت في أكثر الأحيان غير شرعية، ولا تصلح للولاية بنظر أهل البيتعليهم السلام - لأسباب لا مجال

---

(١) وسائل الشيعة٦: ١٤٧، ح١.

(٢) يذكر بعض العلماء في الأحكام السلطانية وجود الفرق بين الأموال (الظاهرة)، وهي: الغلاّت والأنعام، والأموال (الباطنة) وهي: النقود وأموال التجارة وما يشبهها، فإنّ الولاية في (الظاهرة) للحاكم الإسلامي، وأمّا في (الباطنة) فهي لصاحب الزكاة. (لاحظ: الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى الفراء الحنبلي: ١١٥، وكذلك الأحكام السلطانية للماوردي: ٢١٣).

لذكرها في هذا البحث[1]- ولذا فقد واجه أتباع أهل البيت مشكلة ذات حدّين وبعدين:

أحدهما: واقعي، وهو أنّ هذه الحكومات كانت تقوم بالجباية لأموال الزكاة، ولم تكن تترك الخيار لأصحابها في الصرف.

والآخر: شرعي، وهو براءة الذمة بالدفع إلى الحكومة، أو عدم براءتها، لأنها حكومات جائرة، وفي حالة عدم براءة الذمة يترتّب على ذلك الدفعُ مرة أُخرى، وهذا يخلق ضغطاً اقتصادياً إضافياً على الجماعة الصالحة.

وفي هذا المجال نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يتّخذون إجراءً يعالج هذه المشكلة الشرعية الواقعية. حيث ينصحون أتباعهم بعدم الدفع لعمال الحكومة مهما وسعهم ذلك، انسجاماً مع الحكم الشرعي الواقعي، وفي حالة عدم التمكّن ولو بسبب الظروف السياسية والاجتماعية (التقية) يتم الدفع لعمال الحكومة. وقد تركوا تشخيص هذا الظرف إلى صاحب المال نفسه واعتبروا هذا الدفع مبرئاً للذمة، حيث إنّ هذه الحكومات وإنْ كانت غير مؤهلة للولاية إلاّ أنها حكومات إسلامية على أي حال، ويراد للجماعة أنْ تتعايش مع هذا الحكم والمجتمع الإسلامي، وبدون ذلك فسوف تقع الجماعة الصالحة تحت ضغط سياسي في حالة عدم الدفع، أو ضغط اقتصادي إضافي في حالة الدفع، وهذا ما لا يرضاه أئمة أهل البيت عليهم السلام لها.

وقد ورد الحديث عن هذا الإجراء في مجموعة من النصوص، أشار بعضها إلى تفسيره أيضاً.

ففي صحيحة يعقوب بن شعيب التي رواها الكليني في الكافي، والصدوق في من لا يحضره الفقيه ((**قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن**

---

(١) سوف نتناول هذا الموضوع في بحث الإمامة والولاية إنْ شاء الله.

العشور[1] **التي تؤخذ من الرجل، أيحتسب بها من زكاته؟ قال: نعم إنْ شاء الله))**[2].

وجاء في صحيحة العيص بن القاسم التي رواها الكليني في الكافي والشيخ الطوسي في التهذيب والاستبصار، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ((**في الزكاة قال: ما أخذوا منكم بنو أمية فاحتسبوا به ولا تعطوهم شيئاً ما استطعتم، فإنّ المال لا يبقى على هذا أنْ يزكّيه مرّتين))**[3].

وكذلك صحيحة سليمان بن خالد التي رواها الكليني في الكافي والشيخ الطوسي في التهذيب والاستبصار قال: ((**سمعت أبا عبد الله يقول: إنّ أصحاب أبي أتوه فسألوه عمّا يأخذ السلطان فرقّ لهم، وإنه ليعلم أنّ الزكاة لا تحل إلاّ لأهلها، فأمرهم أنْ يحتسبوا به، فجال فكري والله لهم، فقلت له: يا أبةِ، إنهم إنْ سمعوا إذاً لم يزكّ أحد، فقال: يا بني، حق أحبّ الله أنْ يظهره))**[4].

الثاني: الأراضي الموات[5]

الأرض الموات: هي الأرض المعطّلة عن الزراعة والسكن التي لا يُنتفع بها، إمّا لانقطاع الماء عنها، أو لاستيلائه عليها، أو لملوحتها أو استيجامها،

---

(١) العشر: هو نسبة الزكاة في الغلاّت، ويطلق على عامة الزكاة أيضاً.

(٢) الكافي٣: ٥٤٣، ح٢، من لا يحضره الفقيه٢: ٢٩، ح١٦١٢.

(٣) الكافي٣: ٥٤٣، ح٤، تهذيب الأحكام٤: ٤٠، ح١١، الاستبصار٢: ٢٧، ح٧.

(٤) الكافي٣: ٥٤٣، ح١، الاستبصار٢: ٢٧، ح٦.

(٥) ذكرت في بحث الزكاة، ونؤكد هنا أننا لا نريد أنْ نتناول هذا الموضوع من الناحية الفقهية والاستدلال على الآراء المختلفة فيه، فإنّ لذلك مجالاً آخر، وإنما نكتفي باستعراض الآراء الإجمالية الكلية من أجل تناول الموقف تجاه القضية الاقتصادية المرتبطة بأئمة أهل البيت عليهم السلام والجماعة الصالحة.

أو غير ذلك من موانع الانتفاع التي تتعلّق بالأرض وظروفها الطبيعية.

ولاشك لدى علماء الإمامية أنّ هذه الأرض هي بالأصل ملك الإمام، حيث إنها جاءت في تعداد قائمة الأنفال من الأموال التي دلّت الآية الكريمة على أنها ملك لله والرسول ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[١]، والإمام هو في موقع الرسول في الولاية والحكم بعده.

كما دلّت على ذلك الروايات المتعددة، ونصّ بعضها أنها ملك للإمام، ومن ذلك صحيحة حفص بن البختري التي رواها الكليني في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، أو قوم صالحوا أو قوم أعطوا بأيديهم، وكل أرض خربة، وبطون الأودية فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء**))[٢].

وكذلك رواية الشيخ الطوسي في التهذيب عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**سمعته يقول: الفيء والأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هراقة الدماء، وقوم صولحوا وأعطوا بأيديهم، وما كان من أرض خربة أو بطون أودية فهو كله من الفيء، فهذا لله ولرسوله، فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث شاء وهو للإمام بعد الرسول**))[٣].

وأمّا الرأي الفقهي لدى عامة فقهاء الجمهور من المسلمين في ملكيتها فهو أنّ الأرض الموات تعتبر من المباحات العامة، شأنها في ذلك شأن مياه الأنهار والبحار والأسماك والطيور أو الرمال، وغيرها من المباحات التي يمكن تملّكها عن طريق الحيازة والاستيلاء عليها.

---

(١) الأنفال: ١.

(٢) الكافي ١: ٥٣٩، ح٣.

(٣) تهذيب الأحكام ٤: ١٣٤، ح١٠.

وعلى هذا الأساس نلاحظ أنّ الجماعة الصالحة من أتباع أهل البيت عليهم السلام لا يواجهون مشكلة واقعية من ناحية الحكم القائم تجاه نشاطهم الاقتصادي في هذا المجال الحيوي المهم، فيما إذا أرادوا أنْ يقوموا بإحياء الأرض، باعتبار أنّ الحاكم الإسلامي لم يكن يمنع من عملية الإحياء واستثمار الأرض الموات؛ لأنها من المباحات العامة في نظره. ولكنهم كانوا يواجهون مشكلة شرعية في هذا النشاط ترتبط بالحكم الشرعي الواقعي الذي عبّر عنه أئمة أهل البيت عليهم السلام، حيث اعتبروا هذه الأراضي من الأنفال التي هي ملك للإمام، ومن ثمّ فهي تحتاج إلى الإذن والسماح من الإمام ليصحّ هذا النوع من النشاط والاستثمار.

ولكن الذي يهوّن الخطب في هذا الأمر هو أنّ الإذن العام للمسلمين بالإحياء قد صدر من النبي صلى الله عليه وآله، وهو إذن ولائي - حسب الظاهر - انطلاقاً من فكرة ملك الإمام للأراضي الموات، كما أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام ساروا على هذا المنهج النبوي في الإذن لشيعتهم وبقية المسلمين بالإحياء.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب بطريق صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: ((**أيما قوم أحيوا شيئاً من الأرض أو عمروها فهم أحق بها**))[1].

كما روى الكليني في الكافي، والشيخ الطوسي في التهذيب والاستبصار في حديث آخر صحيح عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام قالا: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحيا أرضاً مواتاً فهي له**))[2].

وهناك خلاف على مستوى اجتهاد علماء أتباع أهل البيت في فهم

(١) تهذيب الأحكام٧: ١٤٩، ح٨.

(٢) الكافي٥: ٢٨٠، ح٦، الاستبصار٣: ١٠٧، ح١.

محتوى ومضمون هذا الإذن بالإحياء من النبيﷺ والأئمةعليهم السلام، وأنه هل يعني هذا الإذن أنْ يكون الإحياء سبباً في ملكية الأرض أيضاً للشخص المحيي، كما هو رأي المشهور من علماء الإمامية، أم أنّ ذلك يعني أنْ يكون الإحياء سبباً في وجود حق للشخص المحيي في الأرض مع بقاء الأرض على ملكية الإمام لها، كما ذهب إلى ذلك بعض علماء الإمامية؟[1].

ولعلّ صحيحة عمر بن يزيد التي رواها الشيخ في التهذيب، والكليني في الكافي (والنص للكافي) تشير إلى الرأي الثاني، قال: ((**رأيت مسمعاً بالمدينة وقد كان حمل إلى أبي عبد الله عليه السلام مالاً في تلك السنة فردّه أبو عبد الله، فقلت له: لم ردّ عليك أبو عبد الله عليه السلام المال الذي حملته إليه؟ فقال: إني قلت له حين حملت إليه المال: إني كنت وليت البحرين الغوص فأصبت أربعمائة ألف درهم، وقد جئتك بخمسها بثمانين ألف درهم، وكرهت أن أحبسها عنك، وأن أعرض لها وهي حقك الذي جعله الله تبارك وتعالى في أموالنا، فقال: أوَ ما لنا من الأرض وما أخرج الله منها إلاّ الخمس؟ يا أبا سيّار، إنّ الأرض كلها لنا، فما أخرج الله منها من شيء فهو لنا، فقلت له: وأنا أحمل إليك المال كله؟ فقال: يا أبا سيّار، قد طيّبناه لك وأحللناك منه فضمّ إليك مالك، وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون حتى يقوم قائمنا فيجبيهم طسق ما كان في أيديهم، ويترك الأرض في أيديهم، وأما ما كان في أيدي غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا، فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صغرة**))[2].

---

(١) راجع: اقتصادنا٢: ٧٤٤، الملحق الرابع، ط. دار التعارف بيروت.

(٢) الكافي١: ٤٠٨، ح٣. وفي بعض النسخ: «ويخرجهم (صفرة)» أي صفر اليدين.

الثالث: الأراضي الخراجية

الأراضي الخراجية: هي الأراضي المعمورة التي كانت بيد المشركين أو أهل الكتاب، وتمكّن المسلمون من الاستيلاء عليها عنوة من خلال عمليات الفتح الإسلامي، أو الأراضي التي تم إحياؤها أو وقفها من قبل الدولة الإسلامية لصالح جماعة المسلمين.

وكان الحكم الإسلامي يتعامل مع هذه الأراضي على أنها ملك لجميع المسلمين وتديرها الدولة الإسلامية، ويستثمرها عادة الأشخاص الذين كانت بيدهم من أهل الكتاب أو من غيرهم ممن أسلموا بعد ذلك، ويدفعون الطسق للدولة الإسلامية، وهو مقدار معيّن من المال يسمّى بالخراج، أو نسبة مئوية من الناتج الزراعي، وتقوم الدولة بتقسيم هذه الأموال على المسلمين.

وقد عرفنا سابقاً أنه أُثيرت مشكلة في الصدر الأوّل الإسلامي حول الموقف تجاه الأراضي، وأنها هل تكون من الغنيمة التي تقسَم على المقاتلين، أم لها حكم آخر؟ وكان أنْ قرر الخليفة الثاني أنْ تكون لجميع المسلمين، كما صنع في أرض السواد (العراق) وكان للإمام علي عليه السلام دور في هذا القرار[1].

لذا نجد أنّ ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الأراضي جاء متطابقاً مع القرار الذي التزم به الحاكم الإسلامي.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب بسند صحيح عن محمد الحلبي

---

(١) أشار إلى ذلك بعض الباحثين مثل علي بن محمد الماوردي في الأحكام السلطانية: ١٧٦. لكن وإنْ كانت أقوال فقهاء جمهور أهل السنّة مضطربة في هذا الموضوع وكانوا يختلفون في تفسيره، فهم يكادون يجمعون على ثبوت هذا الحكم في أرض السواد.

قال: ((**سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السواد ما منزلته؟ فقال: هو لجميع المسلمين لمن هو اليوم ولمن يدخل في الإسلام بعد اليوم ولمن لم يخلق بعد، فقلت: الشراء من الدهاقين؟ قال: لا يصلح إلاّ أنْ يشتري منهم على أنْ يصيّرها للمسلمين، فإنْ شاء ولي الأمر أنْ يأخذها أخذها، قلنا: فإنْ أخذها منه؟ قال: يرد إليه رأس ماله وله ما أكل من غلّتها بما عمل**))[1].

وعلى هذا الأساس فلا توجد هناك مشكلة من الناحية الواقعية إلاّ بمقدار ما عرفناه في الزكاة من أنّ دفع الخراج إلى الحكام الجائرين لا يكون دفعاً للولي الشرعي. ولكن عرفنا في بحث الزكاة - ومن خلال هذه الرواية وكذلك السيرة التي كان عليها أصحاب الأئمة - أنّ هذا الدفع كان مبرئاً للذمة، ولاسيما أنّ هذه الأراضي كانت مضبوطة ومسجّلة في الدواوين، ومن ثمّ فلا يمكن التهرّب من الدفع فيها إلى الحاكم الفعلي.

الرابع: الأوقاف العامة والخاصة

يعتبر الوقف أحد الخطوط الاقتصادية المهمة في النظرية الإسلامية، التي تساهم مساهمة أساسية في توزيع الثروة وعدم تراكمها من ناحية، وتنظيم الصرف وتوجيهه نحو المصالح العامة من ناحية أُخرى. كما أنها تحقق مصدراً من مصادر الإنفاق العام للدولة الإسلامية ورعاية الفقراء والضعفاء.

وهذا الخط الاقتصادي كان من الخطوط العامة التي يلتزم بها المسلمون والدولة الإسلامية حسب أحكام الشريعة الإسلامية، وتمنح فيه الصلاحيات للواقف أنْ يضع شروطه الخاصة، ويوجه الصرف فيه بالطريقة المناسبة التي يراها.

---

(١) التهذيب٧: ١٤٧، ح١.

وقد استفاد أهل البيت عليهم السلام من هذا الخط الاقتصادي الإسلامي العام في تأمين بعض الحاجات المالية للجماعة الصالحة؛ وذلك عن طريق ممارسة الوقف للأموال ممارسة واسعة، كما روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي وفاطمة الزهراء وبقية أئمة أهل البيت عليهم السلام، بحيث لا نكاد نجد إماماً من هؤلاء الأئمة لم يذكر التأريخ له القيام بهذا النوع من العمل الصالح. وقد عرف عن الإمام علي عليه السلام وكذلك الإمام الكاظم عليه السلام القيام بنشاط واسع أيضاً في هذا المجال، ولعل ذلك باعتبار تحقق فرصة لهما أفضل من بقية أئمة أهل البيت المتأخرين.

فقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وقف الحيطان السبعة وهي: (الدلال) و(العواف) و(الحسنى) و(الصافية) و(ما لأم إبراهيم) و(المنبت) و(برقة)[1].

كما روى السيد الرضي في نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام قد وقف ماله بعد انصرافه من صفين في وصية كتبها بشأن أمواله[2].

كما روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّ فاطمة عليها السلام قد أوقفت أموالها وجعلت علياً عليه السلام ولياً عليها[3].

كما روى الشيخ الكليني والشيخ الصدوق والشيخ الطوسي وصية مفصلة في الوقف للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام[4].

كما شجّع أهل البيت عليهم السلام أتباعهم مؤكدين عليهم الاهتمام بهذا الخط

---

(١) قرب الإسناد: ٣٦٣، ح١٣٠١، وعنه البحار١٠٣: ١٨٣، ح١٠.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٤.كما رواها الكليني في فروع الكافي، والشيخ الطوسي في التهذيب بتفصيل أوسع.

(٣) مصباح الأنوار: ٢٦٢، وعنه البحار١٠٣: ١٨٤ – ١٨٥، ح١٣.

(٤) وسائل الشيعة١٣: ٣١٤، ح٥.

وحثّوهم على هذا العمل الصالح الذي يترتّب عليه ثواب عظيم؛ لما له من أهمية في عموم الأوضاع الاقتصادية للجماعة الصالحة، حيث قرن الوقف في الروايات الصحيحة بأمرين مهمّين رئيسيين في حياة الإنسان:

أحدهما: الهدى والسنّة الصالحة المتّبعة.

والآخر: الولد الصالح النافع للناس ولوالديه.

عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلاّ ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، وسنّة هدى سنّها فهي يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له**))[1].

وعن معاوية بن عمّار قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما يلحق الرجل بعد موته؟ فقال: سنّة يعمل بها بعد موته، فيكون له مثل أجر من عمل بها من غير أنْ ينقص من أجورهم شيء، والصدقة الجارية تجري من بعده، والولد الطيّب يدعو لوالديه بعد موتهما، ويحجّ ويتصدّق ويعتق عنهما، ويصلّي ويصوم عنهما، فقلت: أشركهما في حجّتي؟ قال: نعم**))[2].

ولذا نجد ظاهرة الوقف من الظواهر البارزة في عموم الحياة الاجتماعية والنظام الاقتصادي للجماعة الصالحة، ويكاد يكون النشاط في هذا المجال متميّزاً لديهم، وإنْ كان معروفاً أيضاً لدى عامة المسلمين. ومن هنا نجد هذا الموضوع قد تناولته الرسائل الواردة عن الإمام المهدي عجّل الله فرجه في غيبته الصغرى المعروفة (بالتوقيع).

فقد روى الصدوق في إكمال الدين عن أبي الحسين محمد بن جعفر

---

(١) وسائل الشيعة١٣: ٢٩٢، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١٣: ٢٩٣،ح٤.

الأسدي توقيعاً يتناول فيه موضوع الوقف في عدة فقرات كان آخرها: **((...وأمّا ما سألت عنه من أمر الرجل الذي يجعل لناحيتنا ضيعة ويسلمها من قيّم يقوم بها ويعمرها ويؤدي من دخلها وخراجها ومؤنتها، ويجعل ما يبقى من الدخل لناحيتنا، فإنّ ذلك جائز لمن جعله صاحب الضيعة قيّما عليها، إنما لا يجوز ذلك لغيره...))**[1]، الحديث.

والوقف في الشريعة الإسلامية وعند أهل البيت وفي الأوضاع الاجتماعية العامة للجماعة الصالحة على قسمين:

الأوّل: الأوقاف العامة التي يكون الهدف المنظور فيها المصالح العامة للمسلمين أو للجماعة الخاصة، كالمساجد والمدارس والحسينيات والمكتبات والأراضي والقناطر ومنازل الزوار، وغير ذلك من الموارد.

وهذه قد تكون عامة للجميع، وقد تكون لأهل بلد معين أو صنف معين من الناس. ولكن هدفها عام وإنْ كان المستفيد منها جماعة معينة لتنظيم الحالة أو لضيق دائرة الإمكانيات.

الثاني: الأوقاف الخاصة، وهي الوقف المعروف بالوقف (الذري)، أي الوقف على الذرية، بحيث تختص الاستفادة منه الذرية، ويصرف - أيضاً - في شؤونها الخاصة من سكن أو طعام أو زواج أو غير ذلك.

وقد كان للوقف - بسبب هذه المرونة في الصرف والخصوصية في الفائدة - دور مهم في بناء الجماعة ودعم إمكانياتها المالية والاقتصادية يشبه الدور الذي أداه الخمس - كما سوف نعرف قريباً - في أوضاعها الاقتصادية واعتماد المؤسسات الخاصة بالجماعة الصالحة عليه.

---

(١) كمال الدين: ٥٣٠ - ٥٣١، ح٤٩، والاحتجاج٢: ٢٩٨ - ٣٠٠، وعنهما البحار٥٣: ١٨٢ - ١٨٣، ح١١.

ومن هنا نجد هذا العدد الكبير - في الحياة الاجتماعية للجماعة الصالحة - من المساجد والمدارس والحسينيات والمكتبات وغيرها من المصالح العامة، فضلاً عن الوقف الخاص للذرية بحيث يشكل ذلك دعامة مهمة في الأوضاع الاقتصادية لها.



التشريعات الاقتصادية الخاصة

١. الخمس في أرباح المكاسب

٢. التكافل الاجتماعي الخاص

نلاحظ في هذا الفصل أنّ أهل البيت - مضافاً إلى الإجراءات والتعليمات التي وضعوها للاستفادة من الخطوط الاقتصادية العامة أو معالجة المشكلات الناتجة منها - قد اعتمدوا خطوطاً اقتصادية ومالية إسلامية أُخرى لا تلتزم بها الدولة الإسلامية، ولكنهم أكدوا أنها من الشريعة الإسلامية التي يعرفون تفاصيلها بعلمهم الواسع. أو وضعوا سياسات وواجبات وتعليمات لأبناء الجماعة خاصة لمعالجة المشكلات الطارئة لهم، أو توجيه النشاط الاقتصادي للجماعة.

وبهذا الصدد يمكن أنْ نشير إلى ثلاثة خطوط رئيسية، أحدها: يرتبط بالإمام، والنظام السياسي العام، والثاني: يرتبط بالجماعة والمسؤوليات التي يجب أنْ يتحمّلها الأفراد بعضهم تجاه البعض الآخر، والثالث: يرتبط بالنشاط الاقتصادي للجماعة.

وهذه الخطوط هي الأُمور التالية:

الأول: الخمس في أرباح المكاسب

يعتبر الخمس من أهم التشريعات الإسلامية الاقتصادية في النظرية الإسلامية، خصوصاً إذا نظرنا إليه من خلال رؤية أهل البيت عليهم السلام له، والتي تستند إلى القرآن الكريم، والنصوص الواضحة الصحيحة التي وردت في السنّة عن أصل تشريعه، وعن الأحكام ذات العلاقة به. ذلك أنَّ الخمس بنسبته المئوية العالية (٢٠٪)، وسعة دائرة الأموال التي يتعلّق بها وأهميّتها، يكوّن مورداً من أهم موارد الدولة الإسلامية.

ويكاد يتفق المسلمون في أصل تعلّق الخمس بغنائم الحرب وبالركاز، وأمّا المعادن فقد ذهب جمهور المسلمين إلى وجوب الزكاة فيها، على كلام

بينهم في تفصيل ذلك[1].

ولكن أهل البيت عليهم السلام - كما يعرف ذلك أيضاً من القرآن الكريم والسنة النبوية - يرون أنّ الخمس في أُمور سبعة هي: غنائم الحرب، والمعادن، والكنز (وهو الركاز) في مصطلح فقه الجمهور، والغوص، وهو ما يستخرج من البحر من الأموال الثمينة، كاللؤلؤ والمرجان، والمال الحلال المختلط بالحرام، والأرض التي اشتراها الذمي من المسلم، وأرباح المكاسب.

وبهذا يتبيّن الفرق الكبير بين نظرة أهل البيت إلى الحقوق المالية، ونظرة فقه الجمهور التي تحدد الخمس في مجال ضيّق، وتبقي الباب مفتوحاً في الأموال الأُخرى إلى (الزكاة)، التي تكون النسبة المئوية فيها أقل من الخمس (العشر أو نصف العشر)، مضافاً إلى القيود المشروطة في الزكاة.

وفي جانب آخر من موضوع الخمس، نرى أنّ له نحو اختصاص بأهل البيت من حيث المصرف، كما نجد هذا النوع من الاختصاص أيضاً في (الفيء) ، وهو ما جاء به القرآن الكريم في الموردين معاً؛ لأنّ أهل البيت هم ذوو القربى إجمالاً بإجماع المسلمين. قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾[3].

---

(١) راجع: الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء الحنبلي: ١١٥، ولأبي الحسن علي بن محمد الماوردي: ١١٣.

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) الحشر: ٧.

ونلاحظ أنّ النبيﷺ والخليفة الأوّل والخليفة الثاني في جزء من خلافته كانوا يدفعون سهماً من الخمس إلى ذوي القربى من آل الرسولﷺ؛ التزاماً بهذه الآية الكريمة، ولكن الخليفة الثاني عمر استكثر عليهم هذا السهم بعد ذلك، واقترح عليهم أنْ يُقتصر في الدفع على حدود الحاجات الضرورية لذوي القربى. وقد رفض أهل البيتعليهم السلام منذ البداية هذا التفسير الخاطئ للحكم الشرعي، وأبوا إلاّ أنْ يأخذوا سهمهم كاملاً فمنعهم عمر من ذلك. ثم استمرّ هذا المنع في العهود التالية بعد عمر عملاً بسنّة عمر وتفسيره في هذا المجال[1].

فقد ورد في صحيح مسلم عن يزيد بن هرمز قال: ((**كتب نجدة بن عامر الحروري الخارجي إلى ابن عباس، قال ابن هرمز: فشهدت ابن عباس حين قرأ الكتاب وحين كتب جوابه ...قال: فكتب إليه: إنك سألتني عن سهم ذي القربى الذين ذكرهم الله، من هم؟ وإنا كنا نرى أنّ قرابة رسول اللهﷺ هم نحن، فأبى ذلك علينا قومنا**))[2].

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس: ((**سهم ذي القربى لقربى رسول**

---

(١) تشير بعض النصوص إلى أنّ هذا المنع كان من الخليفة الأوّل أبي بكر، ولكن بعضها الآخر يشير إلى أنّ المنع كان من قبل عمر. قال ابن عباس: سهم ذي القربى لقربى رسول الله قسّمه لهم رسول اللهﷺ، وقد كان عمر عرض من ذلك علينا عرضاً فرأيناه دون حقّنا فرددناه عليه وأبينا أنْ نقبله. وفي رواية أُخرى قال: هو لنا أهل البيت وقد كان عمر دعانا إلى أنْ ينكح منه أيّمنا ويجدي منه عائلنا، ويقضي منه عن غارمنا فأبينا إلاّ أنْ يسلّمه لنا وأبى ذلك فتركناه عليه... وغيرها من الروايات، وقد تناول هذا الموضوع العلامة العسكري في مقدمة مرآة العقول ١: ١٥٣ - ١٥٥. منهقدس سره.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، «النساء الغازيات يرضخ لهن».

الله ﷺ قسّمه لهم رسول الله ﷺ، وقد كان عمر عرض من ذلك عرضاً فرأيناه دون حقنا، فرددناه عليه وأبينا أنْ نقبله))[١].

وفي رواية ثالثة: ((**هو لنا أهل البيت، وقد كان عمر دعانا إلى أنْ يُنكح منه أيّمنا، ويجدي منه عائلنا، ويقضي منه عن غارمنا، فأبينا إلاّ أنْ يسلّمه لنا، وأبى لنا ذلك فتركناه))**[٢].

وقد روى البيهقي في سننه عن عبد الرحمن بن أبي يعلى قال: ((**لقيت علياً عند احجار الزيت فقلت له: بأبي وأمي ما فعل أبو بكر وعمر في حقكم أهل البيت من الخمس؟ - إلى قول علي -: إنّ عمر قال: لكم حق ولا يبلغ علمي إذا كثر أنْ يكون لكم كله، فإنْ شئتم أعطيتكم منه بقدر ما أرى لكم، فأبينا عليه إلاّ كلّه فأبى أنْ يعطينا كله))**[٣].

وقد وردت الروايات الكثيرة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكّد اختصاص الخمس بهم، سواء في ذلك سهم ذوي القربى أم سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل، وإنّ هذا الاختصاص جاء تعويضاً لهم عليهم السلام عن حرمانهم من الزكاة والصدقات باعتبارها من أوساخ الناس، بخلاف الخمس، الذي هو حق جعله الله تعالى لهم في الأموال العامة أو الغنائم من الأموال، وهو منزّه عن ذلك.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن عبد الله بن بكير، عن بعض أصحابه، عن أحدهما في قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...**﴾

---

(١) راجع هذه الروايات في مقدمة مرآة العقول، حيث أسندها إلى الكتب المعروفة لدى جمهور المسلمين.

(٢) السنن الكبرى٦: ٣٤٥.

(٣) السنن الكبرى٦: ٣٤٤.

قال: ((**خمس الله للإمام، وخمس الرسول للإمام، وخمس ذوي القربى لقرابة الرسول: الإمام، واليتامى يتامى الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم، فلا يخرج منهم إلى غيرهم**))[١].

ويبدو من بعض الروايات، كما يفهم أيضاً من القرآن الكريم في آية الغنيمة، وفي آية الفيء، أنّ الخمس إنما هو للإمام من أهل البيت خاصة، وأنّ هذا التفصيل في الأصناف إنما هو بيان لموارد الصرف[٢].

فقد روى الكليني في الكافي بطريق معتبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجل: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...**﴾ قال: ((**هم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، والخمس لله وللرسول صلى الله عليه وآله ولنا**))[٣].

كما روى الكليني أيضاً في الكافي بطريق صحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**والأنفال: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، أو قوم صالحوا، أو قوم أعطوا بأيديهم، وكل أرض خربة، وبطون الأودية، فهو لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء**))[٤].

ويوجد في هذا الموضوع حديث واسع حول مالكية هذا الخمس، وهل هو ملك للأئمة عليهم السلام باعتبارهم أشخاصاً حقيقيين، ويكون منصب الإمامة فيهم قيد في هذه المالكية، ولذا لا يذهب إلى ورثتهم النسبيين؛ وذلك لأنّ هذا المنصب هو العلة والسبب لمنحهم هذا القدر الكبير من الأموال

---

(١) تهذيب الأحكام٤: ١٢٥، ح٢.

(٢) راجع: كتاب الخمس، بحوث في الفقه، للحجّة السيد محمود الهاشمي٢ : ٣٧٤ – ٣٩٧، وذلك للتوسع في هذا البحث.

(٣) الكافي١: ٥٣٩، ح٢.

(٤) الكافي١: ٥٣٩، ح٣.

والملك، أو أنّ الخمس هو ملك لمنصب الإمامة؟ ولذا فلا يختص بالأئمة عليهم السلام، بل يكون نائبهم ومن يقوم مقامهم بالإمامة له حق التصرّف فيه أيضاً[١].

ولا نريد هنا مناقشة المباني والأدلّة الفقهية لهذه الآراء، سواء على مستوى الاختلاف المذهبي بين أهل السنّة وأهل البيت عليهم السلام، أم على مستوى الاختلاف في الرأي في استنباط مذهب أهل البيت عليهم السلام، وإنما نريد هنا أنْ نعالج الجانب الذي يمتاز به فقه أهل البيت عليهم السلام فيما يتعلّق بهذه الأموال بالقدر الذي ينعكس على النظام الاقتصادي للجماعة الصالحة.

وبهذا الصدد نشير إلى الأُمور الثلاثة التالية التي تبين التصوّر العام حول هذا الموضوع:

الأوّل: موقف الأئمة عليهم السلام من الخمس في الأموال ذات العلاقة بهذه الضريبة المالية، التي تقع بيد الناس مثل: (الغنائم) و(المعادن) و(الكنز) و(الغوص) و(الأرض التي اشتراها الذمي من المسلم)، أو (الأموال المختلطة بالحرام) وكذلك (أرباح المكاسب) لدى الناس.

الثاني: موقف الأئمة عليهم السلام من خمس أرباح المكاسب وتفسير ظهور فرض هذا الخمس في وقت متأخر.

الثالث: بيان دور الخمس في مجمل الأوضاع الاقتصادية للجماعة الصالحة.

---

(١) يمكن مراجعة بحوث في الفقه (كتاب الخمس) للسيد محمود الهاشمي٢: ٣٧٤ – ٣٩٧، وكذا بحوث الخمس للشيخ المنتظري، وذلك للتوسع في هذا الموضوع. ولعل الحق من الناحية العملية – إذا أردنا الاقتصار على ما يستفاد من النصوص – إلى جانب الرأي الثاني، وإنْ كان المشهور الذي يدعى عليه الإجماع بين علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام هو الأول.

١. الموقف من خمس ما بأيدي الناس

انطلاقاً من النظرة السابقة التي يتبنّاها أهل البيت عليهم السلام لفريضة الخمس، أصبح أتباع أهل البيت يواجهون مشكلة عامة في التعامل مع الأموال التي يتداولها عامة المسلمين، سواء تلك الأموال التي يرى بقية فقهاء المسلمين فيها الخمس كغنائم الحرب والركاز (الكنز)، أم التي لا يرون فيها الخمس كالمعادن والغوص وغيرهما. خصوصاً أنَّ بعض هذه الأموال كانت ذات حساسية خاصة، مثل الإماء والجواري والعبيد الذين كانوا يؤسرون في الحرب ويتحولون إلى غنيمة يكون لأئمة أهل البيت الخمس فيها[1]، ويكون نكاحها عندئذ نكاحاً محرماً، لأنه تصرّف في المال بدون إذن صاحب الحق والشريك الحقيقي.

وهذا الحكم ثابت من دون فرق بين أنْ يكون أبناء الجماعة الصالحة من المشاركين في القتال، أو ممن يشتري من المشاركين فيه، أو يكونوا من أبناء هذه الإماء والجواري والعبيد.

وقد كانت هذه المشكلة واسعة الأطراف والابتلاء، وتصطدم بالقضية العقائدية من ناحية، والضغط الاقتصادي أو الروحي من ناحية أُخرى، ولا يمكن معالجتها - في بعض الأحيان - حتى بدفع الخمس مرة أُخرى.

وقد انتبه أهل البيت عليهم السلام منذ بداية الأمر إلى هذه المشكلة - وقبل أنْ تتنامى الجماعة الصالحة، أو تتكامل في أبعادها الاجتماعية والعددية - فعالجوها بتحليل جزء من هذا الخمس لأتباعهم وشيعتهم، بالمقدار الذي

---

(١) هذا إذا كانت الحرب مشروعة إسلامياً، ومأذون بها، وإلاّ فإنه لا يصحّ التصرّف للمقاتلين بهذه الغنائم – كما هو في بعض الحالات المنحرفة – وإنما تكون كلها من حق الإمام نفسه.

يرتبط بهذه المشكلة. وامتدّ هذا التحليل واتسع ليشمل الآباء والأمهات لأبناء هذه الجماعة. وقد فسّر أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا التحليل بأنه من أجل التخفيف عنهم اقتصادياً ونفسياً، ومن أجل أنْ تطيب مواليدهم وأُصولهم.

ومن هنا نجد أنّ هذا التحليل يأتي منذ البداية وقبل ظهور المشكلة تحسباً لها. فيصدر التحليل عن سيدة النساء فاطمة عليها السلام وعن الإمام علي عليه السلام.

فقد روى الصدوق في (العلل) والشيخ المفيد في (المقنعة)، والشيخ الطوسي في (التهذيب والاستبصار) بطريق صحيح عن الثقات الثلاثة أبي بصير وزرارة ومحمد بن مسلم كلهم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: هلك الناس في بطونهم وفروجهم لأنهم لم يؤدّوا إلينا حقّنا، ألا وإنّ شيعتنا من ذلك وآباءهم في حل**))[1].

كما روى الشيخ الطوسي في التهذيب بإسناده عن محمد بن الحسن الصفار يسنده بطريق صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ((**من وجد برد حبّنا في كبده فليحمد الله على أول النعم، قال: قلت: جعلت فداك ما أول النعم؟ قال: طيب الولادة، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة عليها السلام: أحلّي نصيبك من الفيء لآباء شيعتنا ليطيبوا، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إنا أحللنا أمهات شيعتنا لآبائهم ليطيبوا**))[2].

كما روى الشيخ في (التهذيب) وكذلك الكليني في (أُصول الكافي) بطريق معتبر عن ضريس الكناسي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال أبو عبد الله: أتدري من أين دخل على الناس الزنى؟ فقلت: لا أدري، فقال:**

---

(١) علل الشرائع٢: ٣٧٧، ح٢. الاستبصار٢: ٥٩، ح٥.

(٢) تهذيب الأحكام٤: ١٤٣، ح٢٣.

من قبل خمسنا أهل البيت، إلاّ لشيعتنا الأطيبين، فإنه محلل لهم ولميلادهم))[1].

وأيضاً روى الشيخ في التهذيب والمفيد في المقنعة عن سالم بن مكرم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رجل وأنا حاضر: حلّل لي الفروج، ففزع أبو عبد الله عليه السلام، فقال له رجل: ليس يسألك أنْ يعترض الطريق، إنما يسألك خادماً يشتريها أو امرأة يتزوجها أو ميراثاً يصيبه أو تجارة أو شيئاً أعطيه، فقال: هذا لشيعتنا حلال الشاهد منهم والغائب، والميت منهم والحي، وما يولد منهم إلى يوم القيامة فهو لهم حلال. أما والله لا يحل إلاّ لمن أحللنا له. ولا والله ما أعطينا أحداً ذمة، وما عندنا لأحد عهد، ولا لأحد عندنا ميثاق))**[2].

ويبدو من بعض هذه الروايات أنّ الأئمة كانوا قد توسّعوا في هذا التحليل - ولو كإجراء تنفيذي ولائي يرتبط بذلك العصر - ليشمل كل موارد الحاجة والعوز، وذلك لتخفيف آثار الضغط الاقتصادي الذي كان يواجهه أتباعهم من الدولة، أو الحصار الذي كانوا يواجهونه أحياناً من الناس.

فقد روى الطوسي في التهذيب والصدوق في الفقيه عن علي بن مهزيار قال: ((**قرأت في كتاب لأبي جعفر عليه السلام من رجل يسأله أنْ يجعله في حلٍّ من مأكله ومشربه من الخمس، فكتب بخطه: من أعوزه شيء من حقي فهو في حلٍّ))**[3].

وكذلك ورد في رواية يونس بن يعقوب التي رواها الشيخ الطوسي في

---

(١) تهذيب الأحكام٤: ١٣٦، ح٥.

(٢) تهذيب الأحكام٤: ١٣٧، ح٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه٢: ٤٤، ح١٦٦٠.

التهذيب والشيخ الصدوق في الفقيه والشيخ المفيد في المقنعة، قال: **((كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه رجل من القماطين فقال: جعلت فداك، تقع في أيدينا الأموال والأرباح وتجارات نعلم أنّ حقك فيها ثابت، وإنّا عن ذلك مقصّرون، فقال أبو عبد الله: ما أنصفناكم إنْ كلّفناكم ذلك اليوم))**[1].

٢. الموقف من خمس أرباح المكاسب

لا يكاد يوجد شك لدى فقهاء الإمامية في أنّ الخمس ثابت في أرباح المكاسب بعد استثناء مؤنة الإنسان في سنته[2]، ويستندون في ذلك إلى إطلاق الآية الكريمة التي تدلّ على ثبوت الخمس في كل ما يغنمه الإنسان من دون فرق بين غنائم الحرب أو غنائم الكنز والمعدن والغوص، أو غنائم التجارات والأعمال والحرف، فإنّ سبب نزول هذه الآية - وإنْ كان هو غنائم الحرب - ولكن القاعدة الأُصولية المتفق عليها، وهي: إنّ خصوص السبب لا يقيد المسبب إذا كان مطلقاً، تقتضي بقاء الحكم في الآية على إطلاقه.

فقد ورد في حديث معتبر عن علي بن مهزيار هذا المقطع الذي يتناول فيه الإمام أبو جعفر الثاني (الجواد) عليه السلام تفسير الآية: **((فأما الغنائم والفوائد فهي واجبة عليهم في كل عام، قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالغنائم والفوائد - يرحمك الله -**

---

(١) من لا يحضره الفقيه٢: ٤٤، ح١٦٥٩.

(٢) مستند العروة الوثقى، كتاب الخمس: ١٩٣ – ١٩٤.

فهي الغنيمة يغنمها المرء والفائدة يفيدها، والجائزة من الإنسان للإنسان التي لها خطر...))[١].

كما أنّ الروايات العديدة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد ذلك بشكل قاطع، وهم الثقل الآخر وعدل القرآن، وأعلم الناس بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية والشريعة الإسلامية.

فقد روى الشيخ الطوسي في التهذيب والاستبصار بطريق معتبر عن محمد بن الحسن الأشعري قال: ((**كتب بعض أصحابنا إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام: أخبرني عن الخمس، أعَلى جميع ما يستفيد الرجل من قليل وكثير من جميع الضروب وعلى الصنّاع؟ وكيف ذلك؟ فكتب بخطه: الخمس بعد المؤنة**))[٢].

وعن ابن شجاع النيسابوري أنه سأل أبا الحسن الثالث عليه السلام عن رجل أصاب من ضيعته من الحنطة مئة كرّ ما يزكى، فأخذ منه العشر عشرة أكرار، وذهب منه بسبب عمارة الضيعة ثلاثون كراً، وبقي في يده ستّون كراً، ما الذي يجب لك من ذلك؟ وهل يجب لأصحابه من ذلك عليه شيء؟ فوقّع: ((**لي منه الخمس مما يفضل من مؤنته**))[٣].

وعن علي بن مهزيار قال: ((**قال لي أبو علي بن راشد: قلتُ له: أمرتني بالقيام بأمرك وأخذ حقّك فأعلمتُ مواليك بذلك، فقال لي بعضهم: وأيّ شيء حقّه؟ فلم أدرِ ما أجيبه، فقال: يجب عليهم الخمس، فقلت: ففي أيّ شيء؟ فقال: في أمتعتهم وصنائعهم، قلت: والتاجر عليه والصانع بيده؟**

---

(١) وسائل الشيعة٦: ٣٥٠، ح٥.

(٢) الاستبصار٢: ٥٥، ح٣.

(٣) وسائل الشيعة٦: ٣٤٨، ح٢.

فقال: إذا أمكنهم بعد مؤنتهم))[١].

تفسير ظهور هذا الحكم في العصور المتأخرة

ولكن بالرغم من هذا الوضوح الفقهي بالنسبة إلى أصل تشريع هذا الخمس توجد بعض الأبعاد الغامضة التي اقترنت مع هذا التشريع تحتاج إلى شيء من التفسير والتوضيح.

الأول: الغموض الناشئ من عدم معرفة هذا الخمس على مستوى عموم المسلمين والأُمّة الإسلامية، حيث لا يوجد لهذا القسم من الخمس عين ولا أثر في صدر الإسلام إلى عهد الصادقَينعليهما السلام[٢]؛ مع أنّ أرباح المكاسب من الأُمور التي كان لها وجود منذ الصدر الأوّل للإسلام وفي زمن النبيصلى الله عليه وآله، الأمر الذي يثير التساؤل حول ثبوت الخمس في أرباح المكاسب.

الثاني: أنّ هذا الحكم الشرعي لم يكن معروفاً أيضاً - كما يبدو - حتى في أوساط الجماعة الصالحة من أتباع أهل البيتعليهم السلام مع وجود هذه الأرباح من ناحية، ووجود الارتباط بين أهل البيتعليهم السلام وأتباعهم من ناحية أُخرى.

أمّا تفسير الغموض الأوّل فيمكن أنْ نرجع فيه إلى بحثنا حول (مرجعية أهل البيت الدينية)، حيث عرفنا أنّ النبيصلى الله عليه وآله لم يبيّن جميع الأحكام الإسلامية على المستوى العام للمسلمين لأسباب موضوعية ترتبط بالنبيصلى الله عليه وآله وبالأمة نفسها، وإنما بيّن ذلك على المستوى الخاص، وهو الإمام

---

(١) وسائل الشيعة٦: ٣٤٨، ح٣.

(٢) مستند العروة الوثقى، كتاب الخمس: ١٩٦. ولكن بعد ذلك حاول أنْ يجد له بعض الأثر فيما أُثر عن رسول اللهصلى الله عليه وآله، كما ورد في صحيح البخاري، راجع: صفحة ١٩٧.

علي عليه السلام وبعض الخاصة من أصحابه، وأرجع النبي صلى الله عليه وآله الأُمّة في معرفة هذه الأُمور مستقبلاً إلى أهل البيت عليهم السلام، كما دلّت على ذلك النصوص المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله مثل حديث الثقلين وغيره، وكما اعترف بذلك الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله، ويشير إليه رجوعهم إلى الإمام علي عليه السلام في حل المعضلات الشرعية.

وهذا الأمر أدّى إلى خفاء هذا التفصيل في الحكم الشرعي على الأُمّة بسبب الظروف السياسية والثقافية التي أحاطت بأهل البيت عليهم السلام، وإبعادهم عن موقعهم السياسي. وكان الخمس أحد الموضوعات ذات العلاقة بهذا الأمر، باعتبار أنّ أهل البيت هم المرجع لهذا الخمس كما عرفنا[1].

بل قد يقال: إنّ النبي لم يبيّن هذا القسم من الخمس وإنما أخّره عن عصر التشريع، وأوكل إلى الإمام بيانه في ظرفه المناسب له حسب المصالح الوقتية[2].

مضافاً إلى أنّ الخمس في أرباح المكاسب لم يكن من الأُمور التي يمكن ضبطها من قبل الحاكم، لأنه إنما يجب بعد ظهور الربح في التجارات واستثناء المؤنة السنوية لصاحب الربح، وهذا مما لا يمكن ضبطه وتعيينه من قبل الحاكم الشرعي في ذلك، شأنه شأن الزكاة في النقدين والتجارة التي يستثنيها فقهاء الجمهور من وجوب تسليمها إلى الحاكم، باعتبارها من الأموال (الباطنة) بخلاف الأموال (الظاهرة)، كالأنعام والغلاّت التي يمكن أنْ تضبط وتخرص ويجب تسليمها إلى الحاكم[3].

---

(١) ويؤكد ذلك ما ذكرناه من موقف الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله في حرمان أهل البيت عليهم السلام من خمس غنائم الحرب.

(٢) مستند العروة الوثقى، كتاب الخمس: ١٩٦.

(٣) الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى الفراء: ١١٥، والأحكام السلطانية للماوردي: ←

أضف إلى ذلك أيضاً أنَ أرباح المكاسب في عصر النبي ﷺ كانت قليلة ومحدودة في عدد معيّن من الناس.

كما أننا نرى أنَ فقهاء الجمهور يذهبون إلى وجوب الزكاة في أموال التجارة، بخلاف الرأي السائد لدى فقهاء مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهذا يفتح أمامنا احتمال أنْ يكون تشريع الخمس في أرباح المكاسب بالأصل قد تحوّل لدى فقهاء الجمهور إلى الزكاة في أموال التجارة، بسبب عدم الضبط في تشخيص الأحكام الشرعية، أو بسبب ما تعرض له المجتمع الإسلامي والإسلام من محاولات التبديل والتحريف، بحيث أصبحت بعض الأُمور الواضحة في الشريعة الإسلامية غامضة في ذلك العصر، مثل بعض أحكام الزكاة والحج وغيرهما[1].

ولم يتصدً أئمة أهل البيت عليهم السلام لبيان هذا الحكم الشرعي وتوضيحه، لأنَ ذلك يؤدي بطبيعة الحال إلى أضرار سياسية؛ لأنه يؤدي إلى المزيد من القوة والمنعة للحكومات الظالمة والجائرة التي كانت ترى أنَ الخمس هو ملك لمنصب الخليفة، ومن ثمً سوف يتحول هذا المال إلى خزينة هذا الخليفة أو ذلك، والذي كان يتعامل معه وكأنه ملك شخصي للخليفة نفسه.

وأمّا الغموض الثاني: فيمكن تفسيره بأحد احتمالين:

١. أنَ أئمة أهل البيت لم يكونوا قد أرادوا تكليف شيعتهم - وهم قلّة في ذلك الوقت - أعباء مالية إضافية، ولم يكن الأئمة عليهم السلام يشعرون بوجود حاجة ملحّة لهذه الأموال، بسبب عدم تكوّن الجماعة الصالحة بشكلها الكامل الواسع، الأمر الذي يفرض الحاجة إلى نفقات كبيرة؛ ولذلك فهم قد أباحوا لشيعتهم هذا الخمس لأنه ملك لمنصب الإمامة، كما أباحوا لهم

.١١٣

(١) مستند العروة الوثقى، كتاب الخمس: ١٩٧ – ١٩٨.

الأخماس المتعلّقة بالأموال التي كانت بأيدي الآخرين من الناس، كما عرفنا سابقاً.

هذا كله بناء على أنّ الخمس في أرباح المكاسب ثابت في أصل الشريعة، وقد بيّنه النبي صلى الله عليه وآله إجمالاً لعامة الناس وتفصيلاً للإمام علي عليه السلام، كما هو الظاهر من إطلاق الآية وبعض نصوص الروايات.

٢. وأمّا إذا قلنا بأنّ الخمس في أرباح المكاسب لم يبيّن في أصل التشريع وإنما كان أمراً متروكاً للأئمة من أهل البيت عليهم السلام ضمن الصلاحيات الواسعة، التي أعطاها الإسلام للإمام في تشريع بعض الأحكام ذات العلاقة بالمجتمع الإسلامي عامة وفي حدود القضايا المالية، كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء[1]. فبناء على ذلك يمكن تفسير عدم معرفة عموم الشيعة لهذا الخمس إلى زمن الصادقين عليهما السلام بأنّ الأئمة لم يشرّعوا هذا الخمس إلاّ في ذلك العصر عندما ظهرت الحاجة إلى هذا المصدر المالي، بسبب نمو الجماعة وتكاملها ووجود الحاجة إلى الأموال لملء الفراغ المالي في سد حاجاتها والإنفاق عليها.

٣. دور الخمس في الأوضاع الاقتصادية للجماعة الصالحة

لقد كان الخمس في أرباح المكاسب ولا زال يمثل أهم مصدر من المصادر المالية في النظام المالي للجماعة الصالحة، حيث تعتمد عليه اعتماداً أساسياً مختلف النفقات العامة والخاصة التي تقوم بها الجماعة، خصوصاً فيما يتعلّق بالشؤون العامة منها، ولكن مضافاً إلى ذلك كله نلاحظ أبعاداً أُخرى تعطي أهمية إضافية لدور الخمس في مجمل النظام العام لهذه الجماعة

---

(١) مستند العروة الوثقى، كتاب الخمس: ١٩٦. وبحوث في الفقه، كتاب الخمس٢: ٤٣.

الصالحة.

ويمكن أنْ ندرك الصورة الإجمالية الكاملة لدور الخمس في الأوضاع الاقتصادية للجماعة الصالحة نظرياً وواقعياً، من خلال ملاحظة الأبعاد التالية التي نشير إليها إجمالاً:

الأوّل: الخمس هو الرصيد المالي الوحيد

أنّ الخمس يمثّل المورد المالي الوحيد - تقريباً - الذي يعتمد عليه النظام العام للجماعة، مضافاً إلى الأوقاف العامة الخاصة بالجماعة كما ذكرنا؛ وذلك بعد رصد أبواب الموارد المالية الأُخرى وغلقها، مثل الزكوات التي تدفع للدولة أو للفقراء مباشرة، أو أموال الخراج التي تستولي عليها الدولة أيضاً، أو الأموال العامة الأُخرى التي كانت تذهب إلى خزينة الدولة، وتجبى لها من كل البلاد الإسلامية.

ولا يمكن لأي جماعة - كما ذكرنا - أنْ تبني وجودها الاجتماعي والسياسي والثقافي بدون وجود الأموال العامة اللازمة لذلك، كما أنَ الظروف السياسية والاجتماعية لم تكن تسمح بوجود موارد أُخرى تعتمد عليها الجماعة، كالاشتراكات أو الاستثمارات العامة، حيث كانت مثل هذه النشاطات تعني تهديداً لأمن الجماعة، مضافاً إلى أنها تكوّن - أحياناً - عبئاً اقتصادياً إضافياً عليها كالاشتراكات، خصوصاً وإنّ أكثر أبناء الجماعة من الفقراء.

الثاني: المرونة في الخمس

أنّ الخمس كان ملكاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام أو حقاً للإمامة والإمارة المختصة بهم، ولهم صلاحيات واسعة في التصرّف به، وكذلك هناك سعة

في دائرة مصرفه؛ فإنّ فيه حق السادة الفقراء من ذرية الرسول ﷺ أو بني هاشم، الذي جعله الله تعالى لهم عوضاً عن الزكاة، وإنما هو باعتباره أحد المصارف الذي هو ملك أو حق للإمام، ولذلك يتحمّل الإمام النقص في نفقات السادة من بني هاشم، كما وينفقه في الشؤون العامة عند الزيادة منه، بل الحكمة في التشريع هو أنْ يكون الإنفاق عليهم من أموال الخمس التي هي أموال الإمام، لأنها أموال نظيفة طاهرة، وليست من أوساخ الناس، كما جاء التعبير بذلك على ما أشرنا.

وهذه الصلاحيات تُعطي مرونة وفرصة للاستفادة من هذا المال وتوجيهه في مختلف المجالات والمصالح العامة، التي يشخصها الإمام أو المرجع الديني النائب عنه؛ ولذلك نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكدون هذا الجانب في مصرف الخمس، ويصل الحدّ بهم أحياناً إلى إباحة الخمس - كما عرفناه في روايات التحليل - أو إرجاعه إلى صاحبه عندما يجدون المصلحة في ذلك، كما في رواية أبي سيار مسمع بن عبد الملك التي سبق ذكرها.

الثالث: الإمكانيات المالية الواسعة

أنّ الخمس يمثل نسبة مئوية عالية من مجمل الثروة العامة للمجتمع الإنساني، الأمر الذي يضع تحت يد صاحب الخمس - وهو الإمام - إمكانيات مالية كبيرة جداً، يقدم من خلالها خدمة عظيمة للإسلام والمسلمين والأهداف المقدّسة. فإنّ الخمس كما عرفنا يتعلّق بجميع الأموال الأساسية التي يغنمها الإنسان كما يعبّر عنها القرآن الكريم، مثل: المعادن، والغوص، وغنائم الحرب، وأرباح المكاسب وغيرها.

وبذلك يكون الخمس أكثر أهمية من الصدقات (الزكاة)؛ لارتفاع النسبة المئوية فيه.

وتزداد أهمية خمس أرباح المكاسب إذا عرفنا التوجّه الاقتصادي العام لأتباع أهل البيت إلى خصوص التجارة والزراعة، حيث تُعدّ التجارة موضوعاً مهمّاً في خمس أرباح المكاسب كما هو واضح. ولعلّ أحد أبعاد تأكيد أهل البيت على أتباعهم في الاهتمام بالتجارة ينطلق من هذا البعد.

الرابع: الأمن من الأعداء

أنّ خمس أرباح المكاسب لمّا كان يتعلّق بالأموال (الباطنة) - حسب التقسيم الفقهي للأموال - فإنّ دفع الخمس إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يلفت أنظار الأعداء، ولا يُعدّ خطراً أو تهديداً أمنياً ضد أئمة أهل البيت عليهم السلام، بخلاف الدفع من الأموال (الظاهرة) التي يتم إحصاؤها وخرصها من قبل السلطات عادة، كما هو في زكاة الأنعام أو الغلاّت.

كما أنّ خمس أرباح المكاسب ليس معروفاً لدى الأوساط العامة للمسلمين؛ فلا يثير الدفع إلى الأئمة عليهم السلام الشكوك في نظر هذه الأوساط حول حركتهم أو بثّهم لفكرة الإمامة في أوساط شيعتهم. وبذلك تتم المحافظة على الجانب الأمني وتجنّب الأخطار الناتجة عن عملية أخذ الخمس أو جبايته.

الخامس: البعد العقائدي والروحي

أنّ دفع (هذا الخمس) وأخذه لهما أبعاد عقائدية وروحية تزيد من أهمية الدور الذي يمكن أنْ يؤديه الخمس في حياة الجماعة الصالحة؛ ذلك أنّ الخمس هو حق أهل البيت عليهم السلام، فدفعه يستبطن التعبير عن الاعتقاد بأحقيّتهم ومظلوميتهم، كما يعبّر في الوقت نفسه عن (الولاء): عن الحب والود والوفاء بالعهد والميثاق والنصرة لهم بالمال.

إنّ الخمس هو حق الإمارة - كما ورد في الحديث - ومن ثمّ فدفعه إلى أهل البيت عليهم السلام يعني الإيمان بإمامتهم وإمارتهم؛ وهذا بعدٌ عقائدي في الخمس، فهو ليس مثل الزكاة تدفع إلى الفقراء، فيكون الدفع إليهم مثلاً ترجيحاً لهم على غيرهم من الفقراء، وإنْ كان الثابت لدى المسلمين هو منع دفع الزكاة لأهل البيت تنزيهاً لهم من أوساخ الناس وتأكيداً على علاقتهم بالخمس.

السادس: البعد التنظيمي

أنّ الخمس يعتبر بعداً تنظيمياً في الجماعة الصالحة، بما يمثله من التعبير عن ارتباط أبناء الجماعة بالولاية والمرجعية، من خلال المشاركة المالية في إدارة الجماعة وتغطيتها لمصاريفها العامة، من خلال محور الولي والمرجع، وفي هذا تعبير عن الانتماء للجماعة والعضوية فيها، فهو شبيه بحق المساهمة المالية للأعضاء في المنظمات والمؤسسات الجماعية.

السابع: البعد الواقعي

أنّ الواقع التأريخي لأئمة أهل البيت عليهم السلام وللجماعة الصالحة يؤكد أنّ الخمس كان يمثل المحور الأهم في الموارد المالية، التي كانت تعتمد عليها الجماعة الصالحة في إدارة شؤونها المختلفة.

ويمكن أنْ نشير هنا إجمالاً إلى مجموعة من العناوين والقضايا والمشاريع المهمة التي كانت تغطّى مالياً بهذا المورد المبارك:

أ) الحوزات العلمية والمدارس الثقافية في مختلف البلاد، حيث يكون التدريس فيها مجاناً، والمدرسون فيها لا يتقاضون - عادة - عوضاً عن جهودهم، وهكذا الباحثون والمحققون.

ب) نفقات علماء البلاد والمبلّغين والإرساليات التعليمية والإرشادية.

ج) نفقات طبع ونشر الكتب الدينية، مثل: كتب الفتاوى، أو التعليم الديني، أو البحوث الفقهية والأُصولية والحديثية وغيرها، أو المجلاّت والدوريات.

د) بناء وإدارة المساجد والحسينيات والمراقد لأئمة أهل البيت عليهم السلام وأولادهم الصالحين، والمدارس الدينية والأقسام الداخلية لها، وبيوت الطلبة الدينيين المتزوجين، والمكتبات العامة، وغيرها من المؤسسات الدينية.

هـ) إدارة الجمعيات الإسلامية والدينية التي تقوم بالنشاطات المختلفة في خدمة الإسلام.

و) إقامة الاحتفالات الدينية والمجالس الحسينية العامة.

ز) أعمال الإغاثة في الحوادث الاستثنائية، كالزلازل والسيول والفيضانات، وغيرها من الكوارث، وكذلك بعض الخدمات العامة مثل: الحمامات العامة، والقناطر، وبيوت الضيافة العامة للزوار وغيرها.

ح) تغطية نفقات الفقراء والضعفاء والمحتاجين المضطرين أو مساعدتهم، سواء كانوا من بني هاشم عامة أم من أبناء الرسول صلى الله عليه وآله خاصة من سهم السادة، أم كانوا من عامة الفقراء والضعفاء والمحتاجين من أبناء الجماعة الصالحة. وكل ذلك لابدّ أنْ يكون بإذن وأشراف المرجع الديني العام.

وبهذا يتبيّن لنا الدور العظيم الذي كان لهذا الواجب المالي، وخصوصاً في أرباح المكاسب، وأهميته في بناء الجماعة الصالحة.

التكافل الاجتماعي الخاص

يعتبر التكافل الاجتماعي وتحمل الفرد مسؤولية خاصة تجاه بقية المسلمين في القضايا المالية المرتبطة بحياة الأفراد ومعيشتهم من المبادئ التي دعا إليها الإسلام عامة؛ كما دلّ على ذلك الكثير من النصوص التي سوف نشير إلى بعضها قريباً.

منها ما رواه الكليني في الكافي بطريق معتبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف، والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ، رحماء بينكم متراحمين مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله**))[١].

وأمّا في مجال الجماعة الصالحة فيمكن أنْ نلاحظ أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أكّدوا هذا المفهوم والمبدأ بتأكيد خاص، واعتبروه مسؤولية خطيرة يتحملها القادرون من أبناء الجماعة لإخوانهم الآخرين.

ويمكن مشاهدة ذلك واضحاً - على مستوى النصوص والأحاديث الواردة عنهم على الأقل - في مجالين رئيسين:

المجال الأوّل: الصدقات العامة

لقد ورد في الصدقات العامة نصوص وروايات تؤكد أهميتها والآثار المترتبة عليها، والمهم في هذه الروايات بالخصوص ما ورد منها في بيان وجود واجب مالي آخر عام غير الزكاة، مثل الآية الواردة في وجوب دفع مقدار من أموال الغلاّت عند حصادها قبل خرصها، غير النسبة المئوية المرتبطة بالزكاة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ مما أدى ببعض العلماء كالشيخ الطوسي وغيره إلى الإفتاء بوجوب هذا الدفع[٢].

فقد روى الكليني في الكافي بطريق معتبر عن زرارة ومحمد بن مسلم

---

(١) الكافي٢: ١٧٤، ح١٥.

(٢) الخلاف٢: ٥. وذهب إلى ذلك أيضاً الجواد الكاظمي كما يظهر عند دفاعه عن مذهب الشيخ الطوسي. راجع: مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام٢: ٧٠.

وأبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾. قالوا جميعاً: ((**قال أبو جعفر عليه السلام: هذا من الصدقة، يُعطى المسلمون القبضة بعد القبضة، ومن الجداد الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ...**))[1].

وكذلك الروايات التي وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ والتي تؤكد أنّ هذا الحق واجب مالي غير الزكاة يتسم بالمرونة، وقد ترك تعيينه إلى صاحب المال يخرجه حسب وقت ومقدار معلومين يشخصه صاحب المال نفسه.

فقد وردت في ذلك عدة نصوص، منها ما رواه الكليني في الكافي بطريق معتبر عن القاسم بن عبد الرحمان الأنصاري قال: ((**سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ رجلاً جاء إلى أبي علي بن الحسين عليهما السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: الحق المعلوم الشيء يخرجه من ماله ليس من الزكاة، ولا من الصدقة المفروضتين. قال: فإذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال: هو الشيء يخرجه الرجل من ماله إنْ شاء أكثر وإنْ شاء أقل على قدر ما يملك، فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال: يصل به رحماً، ويقري به ضعيفاً، ويحمل به كلاًّ، أو يصل به أخاً له في الله، أو لنائبة تنوبه، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته**))[2].

ولكن الفقهاء لم يفتوا بوجوب هذين الأمرين بالرغم من دلالة

---

(١) الكافي٣: ٥٦٥، ح٢.

(٢) الكافي٣: ٥٠٠، ح١١.

الروايات الصحيحة المعتبرة على الثاني[1]؛ وذلك بافتراض وجود المعارض لها، الأمر الذي يصرفها إلى الاستحباب، أو يضاف إلى ذلك وجود الإجماع على الفتوى بعدم هذا الوجوب في جميع الأدوار، باستثناء فتوى الشيخ الطوسي بالوجوب بالنسبة إلى الأوّل في أحد أقواله.

ولذا يمكن تفسير هذه الظاهرة في النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بأحد أمرين:

الأوّل: تأكيد استحباب هذا النوع من الإنفاق لتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بالقدر الممكن الذي يتناسب مع الظروف المعاشة لكل فرد من أبناء المجتمع الإسلامي.

الثاني: أنّ هذا الوجوب، هو وجوب ولائي أكده أئمة أهل البيت عليهم السلام تشخيصاً لطبيعة الواجبات الاجتماعية التي لم يكن بدّ لأفراد المجتمع المعاصر من الالتزام بها، فهو ليس وجوباً ثابتاً في أصل الشريعة، بل وجوب يضعه ولي الأمر ضمن الصلاحيات والمسؤوليات العامة التي يتحملها تجاه المجتمع، والمصالح التي يشخصها لتحقيق الضمان الاجتماعي للفقراء[2].

وعلى كلا الاحتمالين نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام قد اهتموا في بناء الجماعة الصالحة بموضوع التكافل الاجتماعي، لكونه أحد الأسس في تحقيق الوضع الاقتصادي الأمثل.

---

(١) راجع: وسائل الشيعة٦: ٢٧ – ٣٢. باب الحقوق في المال سوى الزكاة.

(٢) يمكن أنْ تكون هذه الفكرة أساساً شرعياً لفرض بعض الضرائب المالية التي تفرضها الدولة الإسلامية حسب تشخيصها للمصالح العامة.

المجال الثاني: حقوق الإخوان

حقوق الإخوان، حيث نشاهد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكدون تأكيداً بالغاً وجود مجموعة من الحقوق والواجبات التي يتحملها الإنسان المؤمن من أعضاء الجماعة الصالحة لإخوانه المؤمنين، ومن جملة هذه الحقوق حق مساعدته مالياً والإنفاق عليه وسد حاجاته.

وقد جاء هذا التأكيد بعدة أساليب من التوجيهات:

الأوّل: بيان أنّ هذا من الواجبات الحقيقية الواقعية التي يجب أنْ يتحملها الإنسان المؤمن ضمن الواجبات والحقوق الأُخرى.

ففي حديث معتبر رواه الكليني عن سماعة قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام قلت: قوم عندهم فضول وبإخوانهم حاجة شديدة وليس تسعهم الزكاة، أيسعهم أنْ يشبعوا ويجوع إخوانهم فإنّ الزمان شديد؟ فقال عليه السلام: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحرمه، فيحق على المسلمين الاجتهاد فيه والتواصل والتعاون عليه، والمواساة لأهل الحاجة، والعطف منكم تكونون على ما أمر الله فيهم رحماء بينكم متراحمين**))[1].

وفي حديث آخر رواه الكليني أيضاً عن فرات بن أحنف، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقّة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار**))[2].

ويبدو من خلال هذين الحديثين ثبوت هذا الواجب في الدائرة الخاصة المباشرة للأشخاص الموسرين القادرين، وذلك عندما تكون الحاجة شديدة.

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٥٩٧، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٥٩٩، ح١.

ولعل هذا الإجراء الواجب إنما هو فيما إذا لم تسمح الظروف للدولة والمجتمع الإسلامي ضمان هؤلاء الفقراء المحتاجين بطريقة أُخرى.

الثاني: أنّ هذا الواجب وإنْ كان ثابتاً في نفس الأمر والواقع، إلاّ أنه من الواجبات التي يصعب التكليف بها تكليفاً عاماً وشاملاً، خوفاً من الارتداد وعدم تحملها من قبل أبناء الجماعة، الأمر الذي يعني أنها من الواجبات الخاصة التي يجب الالتزام بها عموماً لإحكام البناء التنظيمي للجماعة، وتقوية العلاقات العامة بينها، وتصعيد درجة الشعور بالمسؤولية لهذا الموضوع ولو على مستوى الاستحباب، ويكون واجباً في موارد الحاجات الشديدة كما أُشير إليه في النقطة الأُولى.

عن مفضل بن يزيد قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: انظر ما أصبت فعد به على إخوانك؛ فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة لا تطيقها هذه الأُمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد على ما يحرم، خاف الله**))[1].

الثالث: بيان أنّ القيام بهذا النوع من الواجبات يمثل صفة أخلاقية تكاملية في شخصية الإنسان المؤمن، بحيث يصبح بدونها فاقداً للخصوصيات المطلوبة في المؤمن الحقيقي الذي هو هدف بناء الجماعة الصالحة.

عن أبان بن تغلب قال: ((**كنت أطوف مع أبي عبد الله عليه السلام، فعرض لي رجل من أصحابنا كان سألني الذهاب معه في حاجته، فأشار إليّ، فرآه أبو**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤١٥، ح٤.

عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان، إياك يريد هذا؟ قلت: نعم. قال: هو على مثل ما أنت عليه؟ قلت: نعم. قال: فاذهب إليه واقطع الطواف. قلت: وإنْ كان طواف الفريضة؟. قال: نعم. قال: فذهبت معه، ثم دخلت عليه بعد فسألته عن حق المؤمن، فقال: دعه لا ترده، فلم أزل أردّ عليه. قال: يا أبان تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني فقال: يا أبان، أما تعلم أنّ الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟. قلت: بلى. قال: إذا أنت قاسمته فلم تؤثره[1]، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر))[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: قال: ((**ستّ خصال من كنّ فيه كان بين يدي الله وعن يمينه: إنّ الله يحب المرء المسلم الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ويناصحه الولاية، ويعرف فضلي ويطأ عقبي وينظر عاقبتي**))[3].

وكما ذكرنا في المجال الأوّل لم يعرف عن الفقهاء[4] أنهم أفتوا بوجوب هذا النوع من الإنفاق، بالرغم من وجود عدد مناسب من الروايات والنصوص، وإنما حملوا كل هذه النصوص على الاستحباب المؤكّد.

ولعل السبب في ذلك هو ما أشرنا إليه في تفسير الظاهرة السابقة، من وجود الاستحباب المؤكد البالغ لتحقيق مبدأ التكافل، أو أنه إجراء تنفيذي

---

(١) هكذا وردت بالفاء، والأصح «لم تؤثره»، لأنّ جواب الشرط هنا لا يقتضي الفاء.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٤٧ – ٥٤٨، ح١٦.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٥٤٩، ح٢٣.

(٤) الظاهر من العنوان الذي ذكره صاحب الوسائل في الموردين الأولين أنه يقول بالإلزام والوجوب؛ حيث ذكر باب تحريم منع المؤمن شيئاً من عنده أو من عند غيره عند ضرورته، وكذلك باب تحريم ترك معونة المؤمن عند ضرورته، كما أنّ الظاهر من كلام الشهيد الصدر في اقتصادنا أنه يقول بالوجوب في الفرض الأوّل، ولكن بالقيد الذي ذكرناه. والله هو العالم. منه قدس سره.

ولائي اتخذه أهل البيت عليهم السلام تطبيقاً لمبدأ التكافل الواجب بالأصل، حيث تركت صلاحية المصاديق والتطبيق لولي الأمر.



النشاط الاقتصادي

١. الحث على النشاط الاقتصادي

٢. المنهج العام في النشاط الاقتصادي

٣. توجيه النشاط الاقتصادي

يُعدّ النشاط الاقتصادي العام للجماعة، والقدرة المالية والدخل العام لها، من أهم القضايا التي ترتكز عليها قدرة الجماعة، وإمكانياتها في الحركة وحمايتها من الأخطار والآفات، وصمودها أمام المشكلات والضغوط، ولا يمكن لأي جماعة أنْ تتكامل وتستمر في الحياة بدون أنْ تأخذ هذا الموضوع بنظر الأهمية والاعتبار.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الإسلام قد اهتم بالجانب الاقتصادي من هذا المنطلق، وأنّ الإمكانيات المالية الكبيرة للسيدة خديجة الكبرى عليها السلام كان لها دور عظيم في تمكّن المسلمين من تجاوز المحن، ومقاومة الحصار الذي واجهوه في بداية الدعوة الإسلامية.

١. الحث على النشاط الاقتصادي

وتجسيداً لهذا الاهتمام وضع أهل البيت عليهم السلام مبدأً عاماً لأتباعهم، واهتموا بتربيتهم عليه وترسيخه في ثقافتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وهو مبدأ العمل وبذل الجهد في طلب الرزق من أجل تحقيق المستلزمات الاقتصادية للمعيشة، وعدم جواز الاتكال على الآخرين في سد الاحتياجات المالية، واعتبروا العمل في هذا السبيل من الأعمال المقدسة اللازمة والمقربة إلى الله تعالى.

فقد روى الكليني في الصحيح عن عمر بن يزيد قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل قال: لأقعدنّ في بيتي ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربي، فأمّا رزقي فسيأتيني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم**))[1].

وفي رواية أُخرى صحيحة عن عمر بن يزيد قال: ((**قال أبو عبد**

---

(١) الكافي٥: ٧٧، ح١.

الله عليه السلام: أرأيت لو أنّ رجلاً دخل بيته وأغلق بابه أكان يسقط عليه شيء من السماء؟))[١].

وعن أيوب أخي أديم بيّاع الهروي قال: ((**كنا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ أقبل العلاء بن كامل، فجلس قدّام أبي عبد الله عليه السلام فقال: ادع الله أنْ يرزقني في دعة، فقال: لا أدعو لك. اطلب كما أمرك الله عزّ وجلّ**))[٢].

وقد ارتقى هذا الجهد في طلب الرزق إلى حد الجهاد في سبيل الله، بل هو أفضل منه في بعض النصوص.

ففي الصحيح عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**))[٣].

وكذلك في الصحيح عن زكريا بن آدم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ((**الذي يطلب من فضل الله عزّ وجلّ ما يكفّ به عياله أعظم أجراً من المجاهد في سبيل الله عزّ وجلّ**))[٤].

وعن محمد بن مروان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إنّ في حكمة آل داود: ينبغي للمسلم العاقل أنْ لا يُرى ظاعناً إلاّ في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو لذّة في غير ذات محرم، وينبغي للمسلم العاقل أنْ يكون له ساعة يفضي بها إلى عمله فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، وساعة يلاقي إخوانه الذين يفاوضهم ويفاوضونه في أمر آخرته، وساعة يخلّي بين نفسه**

---

(١) الكافي٥: ٧٧، ح٢.

(٢) الكافي٥: ٧٨، ح٣.

(٣) الكافي٥: ٨٨، ح١. وفي هذا الباب والأبواب الأخرى التالية له أخبار مفيدة في توضيح هذه الرؤية.

(٤) الكافي٥: ٨٨، ح٢.

ولذّاتها في غير محرّم، فإنها عون على تلك الساعتين))[١].

كما أنهم عليهم السلام ضربوا أفضل الأمثلة في تأكيد وتوضيح هذا المبدأ ليكونوا قدوة لأتباعهم في هذا المجال:

ففي الصحيح عن عبد الرحمان بن الحجاج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **((إنّ محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أرى أنّ علي بن الحسين عليهما السلام يدع خلفاً أفضل منه، حتى رأيت ابنه محمد بن علي عليهما السلام فأردت أنْ أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة، فلقيني أبو جعفر محمد بن علي، وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متّكئ على غلامين أسودين أو موليين، فقلت في نفسي: سبحان الله! شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا؟! أما لأعظنّه، فدنوت منه فسلّمت عليه، فردّ علي السلام بنهر وهو يتصابّ عرقاً، فقلت: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا! أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال: لو جاءني أجلي وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في (طاعة من) طاعة الله عزّ وجل، أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله، فقلت: صدقت يرحمك الله. أردت أنْ أعظك فوعظتني))**[٢].

وعن محمد بن عذافر، عن أبيه قال: **((أعطى أبو عبد الله عليه السلام أبي ألفاً وسبعمائة دينار، فقال له: اتّجر بها، ثم قال: أما إنه ليس لي رغبة في ربحها**

---

(١) الكافي٥: ٨٧، ح١.

(٢) الكافي٥: ٧٣ – ٧٤، ح١. ومحمد بن المنكدر كان من كبار علماء العامة ومن ثقاتهم، مات سنة مئة وثلاثين أو إحدى وثلاثين، وفي هذا الباب مجموعة من الأحاديث تؤكد هذه القدوة.

وإنْ كان الربح مرغوباً فيه، ولكني أحببت أنْ يراني الله جلّ وعز متعرّضاً لفوائده. قال: فربحت له فيها مائة دينار، ثم لقيته فقلت له: قد ربحت لك فيها مائة دينار. قال: ففرح أبو عبد الله عليه السلام بذلك فرحاً شديداً فقال لي: أثبتها في رأس مالي. قال: فمات أبي والمال عنده، فأرسل إليّ أبو عبد الله عليه السلام فكتب: عافانا الله وإياك، إنّ لي عند أبي محمد ألفاً وثمانمائة دينار أعطيته يتّجر بها، فادفعها إلى عمر بن يزيد، قال: فنظرت في كتاب أبي فإذا فيه: لأبي موسى عندي ألف وسبعمائة دينار واتّجر له فيها مائة دينار، عبد الله بن سنان وعمر بن يزيد يعرفانه))[1].

٢. المنهج العام في النشاط الاقتصادي

وقد وضع أئمة أهل البيت عليهم السلام لأتباعهم مجموعة من الضوابط والأُصول تكون المنهج العام لديهم في هذا المجال الاقتصادي المهم:

الأوّل: التصدي لطلب الرزق وبذل الجهد والإبلاء فيه دون كسل أو ضجر؛ وذلك بتحقيق الوسيلة لذلك والتهيّؤ له.

فقد روى الكليني بسند معتبر عن سدير قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء على الرجل في طلب الرزق؟ فقال: إذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك**))[2].

وعن الطيار قال: ((**قال لي أبو جعفر عليه السلام: أي شيء تعالج؟ أي شيء تصنع؟ فقلت: ما أنا في شيء. قال: فخذ بيتاً واكنس فناه[3] ورشّه وابسط فيه بساطاً، فإذا فعلت ذلك فقد قضيت ما وجب عليك. قال: فقدمت**

---

(١) الكافي٥: ٧٦، ح١٢.

(٢) الكافي٥: ٧٩، ح١.

(٣) هكذا وردت، والصواب «فناءه» بالمد.

ففعلت فرزقت))(١).

وعن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**عدوّ العمل الكسل**))(٢).

وعن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: ((**قال أبي عليه السلام لبعض ولده: إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعانك من حظّك من الدنيا والآخرة**))(٣).

الثاني: الالتزام بأنْ يكون طلب الرزق عن طريق الحلال، حيث إنّ الله تعالى عندما أخذ على الإنسان أنْ يطلب رزقه، ضمن له رزقه بحدود معيّنة لابدّ من تحققها ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾(٤).

وقد أكد أهل البيت عليهم السلام ضرورة المحافظة على الموازنة في هذا الطلب بين وجوبه وما قدر الله تعالى له، ولذلك فلابدّ للإنسان أنْ (يجمل) في هذا الطلب ويلتزم بالضوابط الإسلامية والقواعد العامة دون تجاوز أو تعدّ.

عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: ألا إنّ الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله عزّ وجل، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنّكم استبطاء شيء من الرزق أنْ تطلبوه بشيء من معصية الله؛ فإنّ الله تبارك وتعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسّمها حراماً، فمن اتّقى الله عزّ وجلّ وصبر أتاه الله برزقه من حلّه، ومن هتك حجاب الستر وعجّل فأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة**))(٥).

---

(١) الكافي٥: ٧٩، ح٢.

(٢) الكافي٥: ٨٥، ح١.

(٣) الكافي٥: ٨٥، ح٢.

(٤) الذاريات:٢٢.

(٥) الكافي٥: ٨٠، ح١.

وعن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**ليس من نفس إلاّ وقد فرض الله عزّ وجلّ لها رزقها حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحرام من وجه آخر، فإنْ هي تناولت شيئاً من الحرام قاصّها به من الحلال الذي فرض لها، وعند الله سواهما فضل كثير، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْأَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِه﴾**))[1].

الثالث: الاهتمام بإصلاح أمواله وحفظ الموازنة في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾**[2].

وكذلك رعاية الأموال ومداراتها والمباشرة بنفسه في إدارتها، خصوصاً الأمور المهمة والكبيرة.

عن ثعلبة وغيره عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إصلاح المال من الإيمان**))[3].

وعن داود بن سرحان قال: ((**رأيت أبا عبد الله عليه السلام يكيل تمراً بيده، فقلت: جعلت فداك، لو أمرت بعض ولدك أو بعض مواليك فيكفيك، فقال: يا داود، إنه لا يصلح المرء المسلم إلاّ ثلاثة: التفقّه في الدين، والصبر على النائبة، وحسن التقدير في المعيشة**))[4].

وعن يونس، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((**باشر كبار أمورك بنفسك، وكِلْ ما شفّ إلى غيرك. قلت: ضرب أي شيء؟. قال:**

---

(١) الكافي٥: ٨٠، ح٢.

(٢) الفرقان:٦٧.

(٣) الكافي٥: ٨٧، ح٣.

(٤) الكافي٥: ٨٧، ح٤.

ضرب أشرية العقار وما أشبهها))[١].

الرابع: الالتزام بسياسة الادّخار، مثل أنْ يحرز الإنسان مؤنة سنته، وبذلك يحقق الغنى الشرعي والاستغناء عما في أيدي الناس.

عن الحسن بن الجهم قال: ((**سمعت الرضا عليه السلام يقول: إنّ الإنسان إذا أدخل طعام سنته، خفّ ظهره واستراح. وكان أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام لا يشتريان عقدة حتى يحرزا طعام سنتهما))**[٢].

وعن ابن بكير، عن أبي الحسن عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ النفس إذا أحرزت قوتها استقرت))**[٣].

الخامس: ترجيح تصدّي الإنسان للأعمال تصدياً مستقلاً، بحيث تكون فوائد عمله له لا لغيره.

عن المفضّل بن عمر قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من آجر نفسه فقد حظر على نفسه الرزق**)). وفي رواية أُخرى: ((**وكيف لا يحظره وما أصاب فيه فهو لربّه الذي آجره؟))**[٤].

وعن عمار الساباطي قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يتّجر فإنْ هو آجر نفسه أعطى ما يصيب في تجارته، فقال: لا يؤاجر نفسه ولكن يسترزق الله عزّ وجلّ ويتّجر، فإنْ آجر نفسه حظر على نفسه الرزق))**[٥].

السادس: سياسة توزيع الأموال على عدة محاور اقتصادية، وعدم جمعها في محور واحد.

---

(١) الكافي٥: ٩٠ – ٩١، ح١.

(٢) الكافي٥: ٨٩، ح١.

(٣) الكافي٥: ٨٩، ح٢.

(٤) الكافي٥: ٩٠، ح١.

(٥) الكافي٥: ٩٠، ح٣.

وفي حديث معتبر عن معمر بن خلاّد قال: ((**سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إنّ رجلاً أتى جعفراً (صلوات الله عليه) شبيهاً بالمستنصح له فقال له: يا أبا عبد الله، كيف صرت اتخذت الأموال قطعاً متفرقة، ولو كانت في موضع (واحد) كانت أيسر لمؤونتها وأعظم لمنفعتها؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: اتّخذتها متفرقة، فإنْ أصاب هذا المال شيء سلم هذا المال، والصرّة تجمع بهذا كله**))[1].

السابع: عدم ادّخار المال أو كنزه وتحويله إلى مجرّد نقود أو ذهب وفضة، بل الأفضل هو تحريك الأموال في السوق، أو تحويلها إلى عقارات سكنية أو زراعية أو تجارية.

عن زرارة قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما يخلّف الرجل شيئاً أشدّ عليه من المال الصامت. قلت: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط، يعني في البستان أو الدار**))[2].

فمن خلال هذه الضوابط والاهتمامات تتكون لدينا صورة عامة عن المنهج العام، الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام لأتباعهم في ممارسة النشاط الاقتصادي العام.

٣. توجيه النشاط الاقتصادي

ولكن أهل البيت عليهم السلام لم يكتفوا بهذا القدر من التوجيه العام، وإنما اهتموا - بالإضافة إلى ذلك - بتوجيه النشاط الاقتصادي للجماعة الصالحة، واخذوا بنظر الاعتبار مجمل الظروف الاجتماعية والسياسية، والأوضاع الاقتصادية التي يعيشها المجتمع الإسلامي عامة، والجماعة

---

(١) الكافي٥: ٩١، ح١.

(٢) الكافي٥: ٩١، ح٢.

الصالحة خاصة.

النشاطات العامة

وفي نظرة عامة لمجمل النشاط الاقتصادي الذي كان يعيشه المجتمع الإسلامي، أو الأعمال التي كانت تدرّ أموالاً على الأفراد نجد الأُمور التالية:

أ) الزراعة بمعناها العام، سواء كانت على مستوى زراعة أراضي الدولة المحياة (الأراضي الخراجية)، أم إحياء الأراضي الموات، أم الدخول في عقد المزارعة، أم توفير المياه الزراعية كحفر الآبار والقنوات.

ب) تربية الحيوانات، سواء كانت عن طريق الرعي والسوم، أم عن طريق العلف واقتنائها في البيوت.

ج) التجارة وتسهيل عملية التبادل للأموال والبضائع، أو التوزيع العام لها، سواء كان ذلك في داخل المدن، أم عن طريق نقل البضاعة إلى المناطق الأُخرى.

د) الصناعات اليدوية، كالحياكة والسراجة والحدادة والعمارة (البناء) وغيرها.

هـ) النشاط الإنتاجي في مجال حيازة الثروات الطبيعية، مثل الصيد البري والبحري، واستخراج المعادن من الأرض والغوص في البحر.

و) الحرف والمهن، مثل الخياطة والصياغة والدباغة والحجامة والطبابة وغيرها من الحرف والخدمات.

ز) الوظائف الإدارية، كالكتابة والعرافة والشرطة والجيش والجباية والعمالة والإمارة وغيرها.

ح) الأعمال الثقافية والتربوية والفنية، مثل التعليم والتأليف والخطابة والشعر وكتابة القصة وإلقائها والرسم والنحت والزخرفة والخط ...وغير

ذلك.

ط) المكاسب المحرمة في الشريعة، مثل السحر والشعبذة والكهانة وبيع الخمور والمسكرات والميتة وإدارة أماكن الدعارة والفساد وغيرها...

وتختلف هذه الأنشطة الاقتصادية من حيث أهميتها الاقتصادية ومدخولاتها المالية وموقعها الاجتماعي، بحسب الظروف والأوضاع الاجتماعية. وتعتبر جميع هذه الأنشطة - باستثناء المحرم منها - ضرورية للمجتمع الإنساني، وسبباً في تكامله، وأحياناً تكون واجبة كفائياً، أي بالمقدار الذي يحقق الكفاية وسدّ الفراغ في الحاجات الإنسانية الاجتماعية.

وقد كان أتباع أهل البيت عليهم السلام في زمانهم يمارسون مختلف هذه الأنشطة باستثناء الأنشطة المحرمة منها، كما يبدو ذلك واضحاً عند مراجعة الأخبار الواردة بشأن الأحكام الشرعية ذات العلاقة بهذه الأنشطة، حيث تتحدث هذه الأخبار عن ممارسة أتباعهم لها، وكانوا يتقدمون بالأسئلة إلى الأئمة عليهم السلام حول تفاصيل أحكامها بسبب هذه الممارسة.

النشاط المنهي عنه

ولكن أهل البيت عليهم السلام - بالرغم من ذلك كله - قاموا بتوجيه النشاط الاقتصادي لأتباعهم، فمنعوهم - لزوماً - عن ممارسة بعض هذه الأنشطة، كما هو الحال في المنع عن ممارسة القسم (ز) و(ح) من هذه الأنشطة الاقتصادية.

فقد ورد في الصحيح عن أبي بصير قال: **((سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم، فقال لي: يا أبا محمد، لا ولا مَدّة قلم، إنّ أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلاّ أصابوا من دينه مثله، أو قال: حتى يصيبوا من دينه**

مثله))[(١)].

وفي رواية صحيحة أُخرى عن ابن أبي يعفور قال: ((**كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: أصلحك الله، إنه ربما أصاب الرجل منّا الضيق أو الشدة فيُدعى إلى البناء يبنيه أو النهر يكريه أو المسنّاة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أُحب أني عقدت لهم عقدة أو وكيت لهم وكاءً وإنّ لي ما بين لابتيها، لا ولا مدّة بقلم. إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد**))[(٢)].

وكذلك الحال بالنسبة إلى بعض الأنشطة المحرّمة بعناوينها التي كانت متداولة في ذلك العصر، مثل تربية جواري الغناء واستخدامهن أو بيعهن، أو ما يشبه ذلك من المكاسب المحرّمة، كبيع الميتة أو الدم أو النجاسات أو التكسب بالغناء والسحر والشعبذة والكهانة والغش والتزوير أو بيع المسكرات أو الدعارة مما يذكره الفقهاء في رسائلهم العملية.

وفي جانب آخر من التوجيه الاقتصادي طلب أهل البيت عليهم السلام الابتعاد عن بعض الأنشطة الأُخرى - على نحو الكراهة أو الاحتياط للدين - وهي التي تحتاج إلى دقة عالية في أدائها، إذا أُريد إنجازها إنجازاً مقبولاً من

---

(١) الكافي٥: ١٠٦ - ١٠٧، ح٥.

(٢) الكافي٥: ١٠٧، ح٧. وقد أشرنا إلى ذلك في بحث نظام أمن الجماعة، مع العلم أن هذا النشاط إنما كان ممنوعاً في ظروف وجود الحكام الظلمة والجائرين. وأما إذا لم يكن الحكم كذلك فهذه الأعمال لا تكون ممنوعة، كما أن الأعمال الممنوعة فقط - كما أشرنا - إنما هي الأعمال التي تكون ممارسة للظلم، أو يكون فيها عون للظالم في الاستمرار في القدرة والهيمنة، مضافاً إلى وجود الاستثناءات في هذا المجال، كما ذكرناه آنفاً.

الناحية الشرعية، مع أنَّ الإنسان عادة قد يتسامح في ذلك، أو لأنَّ النشاط الاقتصادي مسبب وموجب للوهن والضعة عند الناس، أو لأسباب روحية أخلاقية، وذلك مثل بعض الحرف والصناعات، كالصيرفة والصياغة والقصابة والنخاسة والحياكة وغيرها.

ففي حديث معتبر عن إسحاق بن عمار قال: **((دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فخبرته أنه وُلد لي غلام فقلت: جعلت فداك. في أي الأعمال أضعه؟ قال: إذا عدلته عن خمسة أشياء فضعه حيث شئت، لا تسلّمه صيرفياً، فإنّ الصيرفي لا يسلم من الربا، ولا تسلّمه بيّاع الأكفان، فإنّ صاحب الأكفان يسرّه الوبا إذا كان، ولا تسلّمه بيّاع الطعام، فإنه لا يسلم من الاحتكار، ولا تسلّمه جزّاراً، فإنّ الجزّار تُسلب منه الرحمة، ولا تسلّمه نخّاساً، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: شرّ الناس من باع الناس))**[1].

وفي حديث آخر معتبر عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام قال: **((إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إني أعطيت خالتي غلاماً ونهيتها أنْ تجعله قصاباً أو حجّاماً أو صائغاً))**[2].

وعن إسماعيل الصيقل الرازي قال: **((دخلت على أبي عبد الله عليه السلام ومعي ثوبان، فقال لي: يا أبا إسماعيل، يجيئني من قبلكم أثواب كثيرة، وليس يجيئني مثل هذين الثوبين اللذين تحملهما أنت، فقلت: جعلت فداك، تغزلهما أم إسماعيل وأنسجهما أنا، فقال لي: حائك؟. قلت: نعم، فقال: لا تكن حائكاً. قلت: فما أكون؟ قال: كن صيقلاً. وكانت معي مائتا درهم فاشتريت بها سيوفاً ومرايا عُتقاً، وقدمت بها الري فبعتها بربح كثير))**[3].

---

(١) الكافي٥: ١١٤، ح٤.

(٢) الكافي٥: ١١٤، ح٥.

(٣) الكافي٥: ١١٥، ح٦.

ومن أجل توضيح أنّ هذه الأعمال في نفسها غير مكروهة وإنما لاقترانها ببعض الملابسات، نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يفسّرون نهيهم بالملابسات الأخلاقية أو الشرعية المقترنة بها، كما أنهم يؤكدون في موضع آخر جانب الأمانة في هذا المجال، كما روي بطريق معتبر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**إنّ الله عزّ وجلّ يحب المحترف الأمين**))[1].

الأنشطة الاقتصادية المختارة

وفي جانب ثالث أنّ نجد أهل البيت عليهم السلام يختارون لشيعتهم مجموعة من الأنشطة الاقتصادية، لتكون موضع اهتمامهم وتركيز نشاطهم. ويمكن أنْ نشير بهذا الصدد إلى ثلاثة من هذه الأنشطة، وهي: (التجارة) و(الزراعة) بمعناها العام و(العقار).

١. التجارة

تعتبر التجارة الخط الرئيسي المهم في عملية التبادل الاقتصادي، وفي تشخيص القيمة السوقية والتوازن في الأسعار في إطار قانون العرض والطلب، وكذلك في تشجيع الإنتاج، ومن ثم تساهم مساهمة أساسية في الحاجات المهمة الضرورية للمجتمع الإنساني.

ومن هذا المنطلق كانت التجارة لها أهميتها الخاصة في النظرية الإسلامية، ولها التقدم والامتياز بالنسبة إلى الأنشطة الاقتصادية الأُخرى في نظر الإسلام.

وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام الحث على التجارة - خصوصاً - بأساليب مختلفة:

---

(١) الكافي ٥: ١١٣، ح١.

منها: توضيح دورها في النشاط الاقتصادي، حيث ورد عنهم أنّ تسعة أعشار الرزق أو البركة في التجارة[1].

ومنها: أنّ في التجارة عزّ الإنسان، فقد روى الصدوق عن المعلّى بن خنيس قال: ((**رآني أبو عبد الله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق، فقال: اغدُ إلى عزّك**)).

وفي حديث آخر قال لمولىً له: ((**يا عبد الله، احفظ عِزّك. قال: وما عِزّي جعلت فداك؟. قال: غدوّك إلى سوقك وإكرامك نفسك...**))[2].

ومنها: أنّ التجارة تحفظ عقل الإنسان، ففي حديث آخر معتبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**ترك التجارة ينقص العقل**))، وكذلك حديث معاذ بيّاع الأكسية قال: ((**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا معاذ، أضعفت عن التجارة، أو زهدت فيها؟ قلت: ما ضعفت عنها ولا زهدت فيها. قال: فما لك؟ قلت: كنا ننتظر أمراً وذلك حين قتل الوليد، وعندي مال كثير، وهو في يدي وليس لأحد عليّ شيء، ولا أراني آكله حتى أموت، فقال: لا تتركها، فإنّ تركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك، وإياك أنْ يكونوا هم السعاة عليك**))[3].

وعن محمد بن مسلم وكان ختن بريد العجلي، قال بريد لمحمد: ((**سل لي أبا عبد الله عليه السلام عن شيء أُريد أنْ أصنعه. إنّ للناس في يدي ودائع وأموالاً أتقلّب فيها، وقد أردت أنْ أتخلّى من الدنيا وأدفع إلى كل ذي حق حقه. قال: فسأل محمد أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك، وخبّره بالقصة، وقال: ما ترى له؟ فقال: يا محمد، أيبدأ نفسه بالحرب؟ لا ولكن يأخذ ويعطي على**

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ٣ – ٥، ح٣ و٤ و٥ و٨ و١٢.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ٣ – ٥، ح٢ و١٠ و١٣.

(٣) وسائل الشيعة١٢: ٦، ح٤.

الله عزّ وجلّ))[١].

ومنها: أنّ التجارة فيها غنىً للجماعة عما في أيدي الناس، فقد روى الكليني عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام: تعرّضوا للتجارة فإنّ فيها غنىً لكم عما في أيدي الناس**)).

وفي رواية أُخرى: ((**من طلب التجارة استغنى عن الناس**))[٢].

وبالنظر لأهمية التجارة وفضلها نجد أنّ النبي صلى الله عليه وآله مارس التجارة، سواء كانت بأموال خديجة أم ممارسة مستقلة، وكذلك وردت الإشارة في الآية الكريمة إلى الصالحين من الناس بأنهم كانوا تجاراً في قوله تعالى: ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾[٣].

فقد روى الكليني بسند معتبر عن أسباط بن سالم قال: ((**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فسألنا عن عمر بن مسلم ما فعل، فقلت: صالح، ولكنه قد ترك التجارة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: عمل الشيطان (ثلاثاً). أما علم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى عيراً أتت من الشام فاستفضل فيها ما قضى دينه، وقسّم في قرابته؟ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (إلى آخر الآية). يقول القصّاص: إنّ القوم لم يكونوا يتّجرون. كذبوا، ولكنهم لم يكونوا يدعون الصلاة في ميقاتها، وهم أفضل ممن حضر الصلاة ولم يتّجر**))[٤].

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ٧، ح٩.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ٤، ح١١ و٨.

(٣) النور:٣٧.

(٤) وسائل الشيعة١٢: ٦، ح٥.

كما أنه روي عن الإمام الصادق عليه السلام - كما تقدم - أنه كان يتاجر بالأموال عن طريق المضاربة، بالرغم من عدم وجود حاجة له في المال[1].

ولكن أهل البيت عليهم السلام في الوقت الذي حثّوا شيعتهم على ممارسة هذا النشاط الاقتصادي - التجارة - لأهميته - كما عرفنا من الأحاديث السابقة - حذّروهم من المشكلات الأخلاقية والدينية التي قد تصاحب هذا النشاط.

عن الأصبغ بن نباتة قال: ((**سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: يا معشر التجّار، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، والله للربا في هذه الأُمّة أخفى من دبيب النمل على الصفا. شوبوا إيمانكم بالصدق. التاجر فاجر، والفاجر في النار، إلاّ من أخذ الحق وأعطى الحق**))[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من باع واشترى فليحفظ خمس خصال وإلاّ فلا يشترين ولا يبيعن: الربا والحلف وكتمان العيب والحمد إذا باع والذم إذا اشترى**))[3].

أهداف الحث على التجارة

ولعل حثّ أهل البيت عليهم السلام على هذا النشاط الاقتصادي - مضافاً إلى أهميته الخاصة - كان بلحاظ أهداف خاصة بالجماعة الصالحة، يمكن أنْ نوجزها بالأُمور التالية:

١. الجانب المعنوي والروحي في هذا النشاط الاقتصادي الذي أشارت إليه بعض الأحاديث المتقدمة، حيث كان هذا النشاط ولا زال من أهم

---

(١) وسائل الشيعة١٢: ٢٦، ح١.

(٢) الكافي٥: ١٥٠، ح١.

(٣) الكافي٥: ١٥٠ – ١٥١، ح٢.

النشاطات الاجتماعية التي يحظى أصحابها بالاحترام والتقدير، وكان يمارسه الأشراف من الناس.

٢. المرونة والحرية والحركة في النشاط التجاري، حيث تسمح طبيعة العمل التجاري بالحركة والتنقّل والعلاقات الواسعة بمختلف الأوساط الاجتماعية، وكذلك المرونة في اختيار الوقت والأموال التي يتّجر بها والأوساط التي يتم التعامل معها.

٣. المردود المالي الواسع للنشاط التجاري الذي عبّرت عنه الروايات بتسعة أعشار الرزق، حيث يحقق ذلك قدرة مالية كبيرة على مستوى الجماعة، وكذلك يؤمّن مصدراً كبيراً على مستوى نظام الجماعة من خلال الخمس.

٢. الزراعة

تعتبر الزراعة - بمعناها العام الشامل لتربية الحيوانات أيضاً - من أهم الخطوط الاقتصادية للأمم والجماعات، حيث تكون المصدر الرئيس للغذاء، كما أنها في نفس الوقت تعتبر مصدراً مهماً للمواد الأولية التي تدخل في كثير من الصناعات الأساسية أو التحويلية أو اليدوية.

ومن هذا المنطلق نجد النظرية الإسلامية في الاقتصاد تعطي الزراعة أهمية خاصة، ولعلّها تأتي في المرتبة الثانية بعد التجارة، أو أنها تحتل المرتبة الأُولى بلحاظ بعض الظروف الاقتصادية كظروف الحصار أو الأوساط الاجتماعية كالأوساط الريفية.

كما أنه لا يمكن لأي أُمّة أو جماعة أنْ تحقق استقلالها الكامل ما لم تكن مكتفية في إنتاجها الزراعي.

وتزداد الزراعة أهمية إذا أخذنا بنظر الاعتبار تقييم المال الناتج عن الزراعة وطهارته ونقائه، وبُعده عن الشبهات والإشكالات الشرعية.

فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الزراعة أحلّ وأطيب الأعمال. روى الكليني في الكافي بطريق معتبر عن سيّابة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**سأله رجل فقال له: جعلت فداك، أسمع قوماً يقولون: إنّ الزراعة مكروهة، فقال عليه السلام: ازرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحلّ ولا أطيب منه...**))[1].

وفي رواية أُخرى: ((**خير الأعمال الحرث يزرعه فيأكل منه البرّ والفاجر...**))[2].

وفي رواية ثالثة: ((**الزارعون كنوز الأنام، يزرعون طيباً أخرجه الله عزّ وجلّ، وهم يوم القيامة أحسن الناس مقاماً وأقربهم منزلة، يُدعون المباركين**))[3].

وفي حديث حسن عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((**سئل النبي صلى الله عليه وآله: أي المال خير؟ قال: زرع زرعه صاحبه وأصلحه وأدّى حقه يوم حصاده. قال: فأي المال بعد الزرع خير؟ قال: رجل في غنم له قد تبع بها مواضع القطر يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة...**))[4].

وبالنظر لهذه الأهمية والخير والصلاح في الزراعة، نجد أنّ الأنبياء والأئمة الطاهرين عليهم السلام كانوا يمارسون هذا العمل الشريف في مختلف الأدوار.

فقد ورد في الحديث الشريف، عن أبي عبد الله عليه السلام: ((**إنّ الله جعل**

---

(١) وسائل الشيعة١٣: ١٩٣، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١٣: ١٩٤، ح٦.

(٣) الكافي٥: ٢٦١، ح٧.

(٤) الكافي٥: ٢٦٠ - ٢٦١، ح٦.

رزق أنبيائه في الزرع والضرع لئلاّ يكرهوا شيئاً من قطر السماء))[١].

وفي حديث آخر: ((**...ما بعث الله نبياً إلاّ زرّاعاً إلاّ إدريس فإنه كان خياطاً**))[٢].

وقد باشر رسول الله صلى الله عليه وآله الزراعة، كما باشرها أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**كان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يضرب بالمر**[٣] **ويستخرج الأرضين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمصّ النوى بفيهِ ويغرسه فيطلع من ساعته، وإنّ أمير المؤمنين أعتق ألف مملوك من ماله وكدّ يده**))[٤].

كما روى الكليني في الكافي بسند معتبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**لقي رجل أمير المؤمنين عليه السلام وتحته وسق من نوىً فقال له: ما هذا يا أبا الحسن تحتك؟ فقال: مائة ألف عذق إنْ شاء الله، قال: فغرسه فلم يغادر منه نواة واحدة**))[٥].

كما باشر الإمام الباقر - كما سبقت الإشارة - والإمام الصادق والإمام الكاظم عليهم السلام الزراعة، كما نصّت على ذلك الروايات العديدة[٦]. ولا نشك أنّ بقية الأئمة كانوا قد مارسوا هذا العمل عندما تسنح لهم الفرصة، حيث تشير هذه الروايات إلى خط عام في هذا المجال كان يتبنّاه أئمة أهل

---

(١) الكافي٥: ٢٦٠، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١٢: ٢٥، ح٣، وفي عوالي اللئالي٣: ٢٠٤، ح٣٠، وبعض كتب الحديث بدل كلمة (زرّاعاً) زارعاً.

(٣) وهو شيء يشبه المسحاة.

(٤) الكافي٥: ٧٤، ح٢.

(٥) الكافي٥: ٧٤ – ٧٥، ح٦.

(٦) الكافي٥: ٧٣ – ٧٧، ح١ و٣ و٧ و٩ و١٠ و١١ و١٣ و١٤ و١٥.

البيت عليهم السلام.

ومن الواضح أنّ الشرط العام في هذا النشاط الاقتصادي هو التزام الإنسان بالتقوى فيه، وأداء الحقوق الشرعية من الزكاة وغيرها، كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات السابقة، وذكرت أنّ النجاح والفلاح فيه مرهونان بهذا الالتزام الشرعي.

وقد ورد في الحديث الشريف: ((**من زرع حنطة في أرض فلم يزك زرعه، أو خرج زرعه كثير الشعير فبظلم عمله في ملك رقبة الأرض، أو بظلم لمزارعه أو أكرته، لأنّ الله يقول: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾**))[1].

الأهداف الاجتماعية للزراعة

ولعلّ سبب اهتمام أهل البيت بهذا النشاط الاقتصادي - مضافاً إلى أهميته في أصل الشريعة ونظريتها الاقتصادية - هو وجود أهداف اجتماعية خاصة للجماعة الصالحة، وانسجامه مع ظروفها السياسية والاجتماعية. ويمكن أنْ نشير إلى بعض هذه الأهداف بالأُمور التالية:

١. الجانب الروحي والمعنوي في هذا النشاط الذي أشارت إليه بعض الروايات السابقة، من أنه خير الأعمال، لأنه يؤكد الارتباط الروحي للإنسان بالله تعالى، وأطيب الأموال وأحلّها وأطهرها؛ حيث كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يهتمون اهتماماً خاصاً بهذا الجانب، ولعلّه الجانب الأهم في ممارساتهم الشخصية للزراعة.

٢. تحقيق الاكتفاء الذاتي لأبناء الجماعة والاعتماد على الله تعالى

---

(١) الكافي٥: ٣٠٦، ح٩، تفسير العياشي١: ٢٨٤ - ٢٨٥، ح٣٠٤.

والنفس في إدارة شؤونهم، حيث يكون المزارع - خصوصاً في الظروف الاجتماعية السابقة - مستغنياً غنىً مطلقاً عن الآخرين، وقادراً على إدارة شؤون حياته وممارسة عباداته وأعماله مستقلاً عنهم.

٣. المثابة الآمنة لأبناء الجماعة، والابتعاد عن الاحتكاك بالسلطة الجائرة وعمالها وأزلامها، حيث يتحقق الأمن النسبي بدرجة جيدة. كما أنه تتهيأ فيه الفرصة لممارسة أعمالهم وشعائرهم الخاصة، لأنّ سيطرة السلطة ونفوذها في الأرياف والمناطق الزراعية يكون ضعيفاً نسبياً بطبيعة الحال؛ ولذلك وجدنا المناطق الريفية والعشائرية تمثل ملجأ مهماً للمطاردين من أبناء أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وأرضاً صالحة لنشر دعوتهم والهدى الذي هم عليه.

٤. المردود المالي الجيد لهذا النشاط الاقتصادي، فإنّ الزراعة هي من أفضل وسائل الإنتاج، وفي نفس الوقت من أفضل طرق الاستثمار، وتمثل مصدراً مالياً على مستوى أفراد الجماعة، وكذلك على مستوى نظام الجماعة نفسها من خلال الخمس والزكاة والصدقات العامة.

٣. العقار

يعتبر العقار من الأموال المهمة في نظر أهل البيت، حيث إنهم حثّوا شيعتهم على اتخاذ العقار والاحتفاظ به، وفضّلوه على الأموال الصامتة (النقود).

ذلك لأنّ العقار يمثل جانباً من إعمار البلاد وإحيائها، ومن ثمّ يكون وسيلة للإنتاج فيما إذا كان مزرعة أو بستاناً، وكذلك وسيلة للخدمات وسد الحاجات فيما إذا كان سكناً أو مكاناً لتقديم الخدمات الإنسانية أو التجارية أو غيرها، مثل: المنازل، والفنادق، والمستشفيات، أو الدكاكين

والمحلاّت التجارية، ومن ثم فهو يقوم بدور مهم في الحياة الإنسانية.

ونجد في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام عدة أبعاد يتم تأكيدها فيما يتعلّق بالعقار:

الأوّل: أهمية العقار في تحقيق الاستقرار المعاشي وضمانه للإنسان في العمل التجاري والحركة التبادلية، وهو بذلك أفضل من الأموال الصامتة (النقود).

فقد روى الكليني بطريق معتبر عن مرازم، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لمصادف مولاه: ((**اتخذ عقدة أو ضيعة، فإنّ الرجل إذا نزلت به النازلة أو المصيبة فذكر أنّ وراء ظهره ما يقيم عياله كان أسخى لنفسه**))[1].

وقد روى الصدوق بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يقول: ((**ما يخلّف الرجل بعده شيئاً أشدّ عليه من المال الصامت، قال: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط، يعني البستان أو الدار**))[2].

الثاني: الجانب المعنوي والروحي في الاستعداد للتضحية والفداء، حيث كان يتعرض أبناء الجماعة الصالحة إلى المطاردة والأذى، فيكون وجود العقار داعياً للاستعداد للبذل والسخاء بالنفس لإحساسه بوجود الضمان لعائلته من بعده، كما نصت على ذلك رواية (مرازم) السابقة.

الثالث: النهي عن بيع العقار إلاّ إذا كان يريد أنْ يستبدله بعقار غيره، ومن ثم الحث على الاحتفاظ به باعتبار أنّ مال العقار مبارك ومرزوق وفيه النمو، بخلاف ثمن العقار فإنه ممحوق وذاهب تالف.

وقد ورد هذا المعنى في عدة نصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: ((**ثمن**

---

(١) الكافي٥: ٩٢، ح٥، وعنه وسائل الشيعة١٢: ٤٤. ح٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه٣: ١٧٠، ح٣٦٤٢.

العقار محوق إلاّ أنْ يجعل في عقار مثله))[١]. وفي رواية أُخرى عن مسمع قال: **((قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ لي أرضاً تطلب مني ويرغبونني. فقال لي: يا أبا سيار، أما علمت أنّ من باع الماء والطين ولم يجعل ثمنه في الماء والطين ذهب ماله هباءً، قلت: جعلت فداك، إني أبيع بالثمن الكثير واشتري ما هو أوسع رقعة مما بعت قال: فلا بأس))**[٢]. في رواية أُخرى: **((مشتري العقدة مرزوق وبائعها محوق))**[٣].

الرابع: الأفضل في العقارات أنْ تكون متفرّقة لا مجتمعة، فقد تقدمت رواية الكليني بطريق معتبر عن معمر بن خلاد، عن أبي الحسن عليه السلام بشأن شراء الأموال العقارية المتفرّقة.

ومن الواضح أنّ أحد مميّزات الأموال العقارية هو أنها أموال طيبة بعيدة عن الشبهات والملابسات الشرعية والأخلاقية، التي تنشأ من الأعمال التجارية في البيع والشراء، أو الأعمال الحرفية والصناعات اليدوية، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

الخلاصة الخاتمة

ومن خلال هذا الاستعراض العام للنظام الاقتصادي والمالي يمكن أنْ نستخلص الأُسس والتصورات، التي تشكل الإطار العام لهذا النظام بالنقاط التالية:

١. العمل على الاستفادة من جميع الفرص والإمكانيات التي يوفَرها النظام الاقتصادي العام في المجتمع الإسلامي، مثل إباحة إحياء الأراضي أو

---

(١) الكافي٥: ٩٢، ح٦.

(٢) تهذيب الأحكام٦: ٣٨٨، ح٢٧٨.

(٣) العقدة: الضيعة والعقار، الكافي٥: ٩٢، ح٦، وح٨، وح٤.

النشاطات الاقتصادية العامة، كالتجارة والزراعة وتملّك العقارات والمهن والصناعات والأعمال وغيرها من الأنشطة الأُخرى، باستثناء الأنشطة المحرمة، مثل العمل مع الظالمين ومعونتهم في ظروف المواجهة، إلاّ في الحالات الاستثنائية.

٢. الموازنة في التكاليف المالية والحقوق الشرعية المفروضة على الجماعة الصالحة بين التكاليف المالية العامة والتكاليف المالية الخاصة، فأداء الزكاة إلى السلطة القائمة يبرئ الذمة.

وكذلك إباحة الخمس فيما يقع في أيدي الناس من أموال غنائم الحرب أو المعادن والغوص، وطالبوا بالخمس في أرباح المكاسب موازنة للزكاة في التجارة التي يقول بها جمهور الناس إلى غير ذلك من الموارد.

٣. توجيه النشاط الاقتصادي والمالي في المكاسب أو الإنفاق، حيث حثّوا على التجارة والزراعة وتملّك العقارات، كما أكدوا إنفاق الزكاة على خصوص أبناء الجماعة الصالحة والاهتمام بالصدقات العامة.

٤. توظيف التشريعات الإسلامية المالية العامة بما يخدم أبناء الجماعة الصالحة، وتحقيق الموازنة والاكتفاء الذاتي، كما لاحظنا ذلك في الخمس.

٥. اتخاذ الإجراءات المالية الاستثنائية، مثل جعل واجبات التكافل الاجتماعي المتمثل بحقوق الإخوان.

٦. وضع السياسات الاقتصادية وإرشاد أبناء الجماعة إلى العمل والاقتصاد، وإصلاح المال وكيفية التعامل به، والاهتمام بالجوانب الروحية والمعنوية لأبناء الجماعة في كسب الأموال، والاستغناء عمّا في أيدي الناس.

الباب السادس

نظام العلاقات الاجتماعية العامة

تمهيد

القسم الأوّل : نظام العلاقات : أبعاده وأُسسه

الفصل الأوّل :

أبعاد النظرية الإسلامية للعلاقات

الفصل الثاني :

القواعد والأُسس

القسم الثاني : البناء الفوقي لنظام العلاقات

الفصل الأوّل :

البناء الفوقي وأبعاد النظرية

الفصل الثاني :

البناء الفوقي والقواعد والأُسس

تمهيد

١. التعريف بالعلاقات الاجتماعية

يمثل نظام العلاقات الاجتماعية العامة، والواجبات والحقوق المترتبة عليها، أحد الأركان الأساسية والدعائم المهمة التي يقوم عليها المجتمع الإنساني في النظرية الإسلامية.

ونريد بنظام العلاقات الاجتماعية: مجموعة الواجبات والسنن والآداب والحقوق والالتزامات التي تنظّم العلاقات العامة بين الناس والجماعة، باعتبارهم أفراداً وأعضاء في الجماعة الإنسانية، وكذلك شكل الارتباط والسلوك الإنساني للجماعة بعضها مع البعض الآخر.

وهذا النظام هو غير النظام الذي ينظّم العلاقات التي قد تنشأ وتتولّد من عهود ومواثيق وعقود خاصة، حيث تترتّب عليها بطبيعة الحال أشكال من الحقوق والواجبات والالتزامات الأُخرى الخاصة بها، وذلك مثل: عقود الزواج، والبيع، والإجارة، والولاء وغيرها. أو الواجبات والحقوق والمسؤوليات التي يتحملها الإنسان من خلال وجوده في موقع معيّن أو عمل معيّن، كالإمامة، والولاية، أو البيعة أو الإدارة أو الضمان.

فنظام العلاقات الاجتماعية هو عبارة عن الحدود والموازين والضوابط التي يعبّر الإنسان من خلالها عن فهمه للحياة الاجتماعية الإنسانية، ومسؤوليته التضامنية تجاه الجماعة وتكاملها.

وبذلك يمثل نظام العلاقات الاجتماعية الإطار أو القاعدة الأساس التي يمكن أنْ تستقر عليها بقية الأنظمة الخاصة، التي تتولد من العقود والالتزامات الخاصة أو المسؤوليات العامة المشخّصة. ومن ثمَّ يمكن لتلك الأنظمة الخاصة أنْ تؤدي دورها المطلوب في الحياة الإنسانية وتحقيق

التكامل لها، لأنّ نظام العلاقات العامة يعالج موضوع أصل العلاقة الاجتماعية والرابطة الإنسانية.

الأُسرة ونظام العلاقات

والأساس التأريخي لنظام العلاقات الاجتماعية العامة هو علاقة الأُسرة والزواج التي تطورت - بعد ذلك - إلى علاقة العشيرة والقبائل والشعوب، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾[2].

كما أنّ الأُسرة في نفس الوقت تمثّل اللبنة الأُولى والأساس في النظرية الإسلامية في بناء المجتمع الإنساني الصالح، وكذلك هي في نظر أهل البيت عليهم السلام، حيث اهتم الإسلام بها ووضع للعلاقات فيها نظاماً دقيقاً محكماً وشاملاً ينظّم مجموع العلاقات في الأُسرة بأدق تفاصيلها ومختلف شؤونها.

كما أنّ نظرية أهل البيت عليهم السلام في الأُسرة وفي العلاقة الزوجية فيها خصوصيات وامتيازات تجعلها قادرة على مواجهة جميع المشكلات الاجتماعية، ومواكبة جميع التطورات الاجتماعية.

ولكن مع ذلك لم نتناول موضوع الأُسرة هنا في هذا البحث، لسببين:

الأوّل: أنّ هذا الموضوع - لأهميته من الناحية الاجتماعية والإنسانية

---

(١) الحجرات:١٣.

(٢) النساء:١.

وشموليته وسعته - يستحق بحثاً واسعاً مستقلاً، شأنه في ذلك شأن النظام الاقتصادي، ونظام العقود والمعاملات، ونظام العبادات، وغيرها من الأنظمة التفصيلية التي تحتاج إلى بحث خاص.

الثاني: أنّ بحثنا هنا - كما ذكرنا - هو بحث عن نظام العلاقات العامة للجماعة، لأنّ موضوعنا هو الجماعة الصالحة، فنحن نتناول الجانب العام للجماعة دون الدخول في التفاصيل ودون الحديث عن العلاقات الخاصة التي تنشأ من العقود والعهود.

ولذلك سوف نؤكد في نظام العلاقات العامة للجماعة الصالحة أنّ أحد أُسسه وقواعده المهمة، هو: الالتزام بالعهود والواجبات وأداء الحقوق.

كما أننا سوف نشير إلى وجود مبدأ المعاملة الخاصة في أبعاد نظرية العلاقات الاجتماعية العامة، الذي يعني وجود خصوصيات في المعاملة قد تنشأ بسبب الوضع الإنساني الطبيعي، كالأبوة والأخوة والشيخوخة، أو بسبب المضمون الإنساني المتميّز كالعلم والجهاد، أو بسبب العقود والالتزامات كالزواج وغيره.

ولما كانت الأُسرة في النظام الإسلامي قد أخذت صيغة متطورة، وخاصة من خلال التشريعات، فهي قد خرجت عن حالتها الأُولى الفطرية والبدائية.

ولكن مع ذلك يجب أنْ نؤكد هنا أنّ إحكام بناء الأُسرة وتقويته وجعلها أُسرة صالحة له دور كبير في إحكام وتطوّر بناء العلاقات الاجتماعية العامة.

الأخلاقية في نظام العلاقات

ثم إنّ النظام الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية بالرغم من أنه مجموعة من القوانين والتشريعات والواجبات والحقوق والنشاطات والرسوم والآداب والشعائر، فهو في الوقت نفسه يعبّر عن رؤية أخلاقية للسلوك

الاجتماعي وفهم عقائدي للكون والحياة والإنسان والمبدأ والمعاد.

ولعلَ هذا هو الذي يفسّر لنا تناول هذا الجانب من النظام في بحث الأخلاق والكتب الأخلاقية. ولكننا سوف نلاحظ أنه بحث أشمل وفيه التزامات وواجبات ترتبط بموضوعات مهمة في الشريعة الإسلامية.

٢. منهج البحث في العلاقات الاجتماعية

والبحث في هذا الموضوع بحث واسع ومهم إذا أردنا أنْ نستوعب فيه النظرية الإسلامية في العلاقات الاجتماعية، ولكن نحاول هنا أنْ نتناوله تناولاً يتناسب مع هذا الكتاب والهدف منه، حيث نتناول فيه النظرية الإسلامية في العلاقات الاجتماعية بالقدر الذي يشير إجمالاً إلى تصوّر أهل البيت عليهم السلام على مستوى أبعاد النظرية، والقواعد والأُسس العامة لها، وبعض المفردات والتطبيقات والبناء الفوقي لها.

وسوف نلاحظ من خلال هذا البحث التداخل في العرض بين الأُطر الإسلامية العامة المشتركة بين المسلمين، والخصائص التي تميّز بها أهل البيت عليهم السلام في بناء (الجماعة الصالحة) اجتماعياً. وهذا التداخل أمر طبيعي؛ لأنّ أهل البيت عليهم السلام أرادوا للجماعة الصالحة أنْ تكون الأُسوة والقدوة والمثال الصالح للجماعة المسلمة، واعتمدوا في هذا البناء على الإسلام الأصيل الكامل الذي ورثوه وعرفوه عن الكتاب الكريم وجدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

كما سوف نشير إنْ شاء الله في بعض الأحيان إلى بعض هذه الميزات والخصائص عند العرض.

وسوف نقسم البحث في هذا الموضوع إلى قسمين رئيسين:

الأوّل: النظرية الإسلامية في العلاقات بأبعادها وأُسسها.

الثاني: البناء الفوقي والتفاصيل في شكل هذه العلاقات ومفرداتها.

ويشتمل البحث في القسم الأوّل على فصلين:

الأوّل: تشخيص وتحديد أبعاد النظرية في العلاقات في محتواها وأهدافها وآفاقها.

الثاني: القواعد والأُسس العامة التي تحدد هذه العلاقات وتتحكّم في مسيرتها ونشاطاتها.

وأمّا القسم الثاني فيشتمل على الحديث عن البناء الفوقي لنظام العلاقات الاجتماعية، وهو عبارة عن التشريعات التي تتناول تفاصيل هذه العلاقات الاجتماعية، وتشخّص أنواع السلوك المختلفة، بحيث تحقق الأهداف وتجسّد القواعد والأُطر وترسم معالم الأبعاد المتعددة للنظرية، كما سوف يأتي توضيحه إنْ شاء الله.



أبعاد النظرية الإسلامية في العلاقات

١. الانفتاح

٢. تقوية البناء الاجتماعي

٣. محتوى العلاقة

٤. مستويات العلاقة

٥. المعاملة الخاصة

أبعاد النظرية

يمكن تحديد أهم أبعاد النظرية في العلاقات الاجتماعية في الأُمور التالية، علماً بأنه سبقت الإشارة إلى بعض هذه الأبعاد في بعض الفصول السابقة من البحث:

البعد الأوّل: الانفتاح في العلاقات

إنّ النظرية الإسلامية في العلاقات - في نظر أهل البيت عليهم السلام - تتّجه إلى تأكيد الفطرة الإنسانية وتوجيهها نحو الكمال في هذا المجال المهم، شأنها في ذلك شأن الأبعاد الأُخرى للنظرية في مختلف المجالات الحيوية الأُخرى.

ومن الواضح أنّ الفطرة الإنسانية تدعو الإنسان إلى هذا الاتّجاه، وهو المعاشرة مع الآخرين والارتباط والاستعانة بهم في قضاء حاجاتهم، والتعرف عليهم. ويمكن أنْ نفهم ذلك من القرآن الكريم عندما تحدّث عن خلق الأزواج للإنسان: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

والأوضح من ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم من أنّ الهدف من وراء تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل - مع أنهم من أصل واحد - هو (التعارف) وإيجاد هذه العلاقات العامة، كما أشارت إليه آية سورة الحجرات السابقة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾. وهناك العشرات من

---

(١) الروم: ٢١.

الأمثلة والموارد القرآنية التي تؤكّد هذه الحقيقة الفطرية.

ونجد هذا الاتجاه واضحاً في حديث أهل البيت وتربيتهم لشيعتهم. وقد جاء تأكيد هذا البعد والاتجاه في نظرية العلاقات الاجتماعية من قبلهم عليهم السلام في مثل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث معتبر عن مرازم: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: عليكم بالصلاة في المساجد وحسن الجوار للناس وإقامة الشهادة وحضور الجنائز. إنه لابدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض**))[1].

استفادة الإخوان

وكذلك نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكدون هذا الاتجاه في توجيه شيعتهم إلى الإكثار من الأصحاب والأصدقاء.

فعن الإمام الرضا عليه السلام أنه كان يقول: ((**من استفاد أخاً في الله استفاد بيتاً في الجنة**))[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**أكثروا من الأصدقاء في الدنيا فإنهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأمّا في الآخرة فإنّ أهل جهنّم قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾**))[3].

وقد ورد تأكيداً لذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**استكثروا من الإخوان فإنّ لكل مؤمن دعوة مستجابة**)) وقال: ((**استكثروا من الإخوان فإنّ لكلّ مؤمن شفاعة**)). وقال: ((**أكثروا من مؤاخاة المؤمنين فإنّ لهم عند**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٣٩٩، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٠٧، ح١.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٠٧، ح٥.

الله يداً يكافئهم بها يوم القيامة))[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

عليك بإخوان الصفـاء فإنهـم عمادٌ إذا استنجدتهم وظهورُ
وليس كثيراً ألفُ خلٍ وصاحب وإنّ عـدواً واحـداً لكثيـرُ

التحذير من الانقباض والشحناء

كما نجد تأكيد هذا الاتجاه في تحذيرهم من الانقباض عن الناس أو الشحناء معهم والمراء والخصومة، حيث فسروا هذا المحذور بأنه يوجد الاختلال في العلاقات الاجتماعية.

فقد روي عن الإمام المعصوم أنه قال: ((**الانقباض عن الناس مكسبة العداوة**)).

وقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام: إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان وينبت عليهما النفاق**)).

كما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان جبرئيل يأتيني إلاّ قال: يا محمد، اتّق شحناء الرجال وعداوتهم**))[٢].

وسوف يأتي مزيد من التوضيح لهذا الموضوع في الفصل الثاني: قاعدة ضبط العواطف والانفعالات.

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٠٨، ح٦.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٠٦، ح١، وص: ٥٦٧، ح٢، وص: ٥٦٩، وفي باب ١٣٥ و١٣٦ ما ينفع في المقام.

المداراة

كما نجد هذا التوجّه من العلاقات في الأمر والتوجيه لمداراة الناس، ففي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: ((**قال رسول الله**صلى الله عليه وآله**: أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بالفرائض**))[١].

وسوف يأتي مزيد من التوضيح لذلك في الفصل الثاني: قاعدة حسن الخلق والمداراة.

العزلة والرهبنة

وقد يبدو من بعض الروايات أنّ العزلة والابتعاد عن ممارسة العمل الاجتماعي والعلاقات العامة مع الناس هو المنهج الأفضل.

فقد ورد في نص عن الإمام الصادقعليه السلام رواه الكليني في روضة الكافي بسند معتبر عن حفص بن غياث أنه قال: ((**إنْ قدرت أنْ لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أنْ لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسد ولا ترائي ولا تتصنّع ولا تداهن ...ثم قال: نعم صومعة المسلم بيته، يكفّ فيه بصره ولسانه ونفسه وفرجه...**))[٢].

وورد في تفسير علي بن إبراهيم، عن أمير المؤمنينعليه السلام في حديث قال: ((**طوبى لمن لازم بيته وأكل كسرته وبكى على خطيئته، وكان من نفسه في تعب والناس منه في راحة**))[٣].

ولكن هذه الروايات يمكن تفسيرها - كما صنع صاحب الوسائل في

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٥٤٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٢٨٣، ح١.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٢٨٤، ح٥. وفي نفس الباب أحاديث أُخرى بهذا الاتجاه.

تعليقته على هذه الأحاديث - بأنها تختص بالحالات الاستثنائية التي يجد الإنسان فيها نفسه ضعيفاً أمام الضغوط والإغراءات، فيحتاط لنفسه بالعزلة حيث يشق عليه اجتناب مفاسد المعاشرة.

أو تفسيرها على أساس أنها أُسلوب من أساليب التربية والتحذير والتنبيه إلى مخاطر المعاشرة التي هي أمر ضروري للناس لا يمكن أنْ يستغنوا عنه في حياتهم، فلابدّ للإنسان أنْ يكون حذراً من عواقبها وآثارها كما تشير إليه الرواية الأُولى: ((**إنْ قدرت على أنْ لا تخرج...**))، ويؤكد هذا التفسير الرواية السابقة التي تقول: ((**إنّ أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض**))؛ وإلاّ فإنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان للامتحان والابتلاء والفتنة ليتكامل من خلال تحمّل المسؤولية واختيار الحق في مقابل الباطل، والصالح في مقابل الفاسد، كل ذلك حسب المسار الطبيعي لحركة الإنسان في الكون والمجتمع؛ والهروب من الامتحان والفتنة بالهروب من المجتمع والحياة لا يحقق هذا الهدف التكاملي.

ومع قطع النظر عن هذين الاحتمالين اللذين يمكن الجمع بهما بين هذه الروايات لا يمكن الالتزام - علمياً - بالاتجاه الذي قد يفهم من مضمون القسم الثاني من هذه الروايات على عمومه وإطلاقه، حيث إنّ القسم الأوّل من الروايات موافق للقرآن الكريم والسنّة النبوية، وهو أكثر عدداً وأوثق سنداً وأكثر اشتهاراً بين علماء الجماعة الصالحة، وعليه العمل والسيرة العامة للعلماء والصالحين.

وقد علّق العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان على هذا الموضوع بقوله: «وقد جاء في الحديث النهي عن التبتّل والانقطاع عن الناس والجماعات والنهي عن الرهبانية والسياحة»[1].

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٢٨٥، ح٧.

ويؤكده الآية الكريمة: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...**﴾[١]، حيث إنَّ الترهب بمعنى الخوف والرهبة والتخشّع منه تعالى والتعبّد له وإنْ كانت مكتوبة على هؤلاء الناس من أتباع المسيح عليه السلام ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها، فجعلوها انقطاعاً عن الناس والنساء، وتخلّفاً عن الواجبات والمسؤوليات، وحرفة ومهنة وليست مجرّد فرار من أخطار القتل أو الفتنة[٢].

البعد الثاني: تقوية البناء الاجتماعي

أنَّ الهدف من وراء العلاقات الاجتماعية - مضافاً إلى التكامل الذاتي في حركة الفرد الإنساني نحو الله تعالى - ترسيخ دعائم المجتمع الإسلامي، وتقوية البنية الاجتماعية للسير في طريق التكامل الاجتماعي، وتحقيق أسباب القوة والعدل والرفاه والاستقرار، ولمواجهة وحلّ مختلف المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية.

وهذا البعد الذي يمثّل هدفاً عاماً لنظرية العلاقات الاجتماعية في الإسلام يبدو واضحاً من خلال ملاحظة محتوى ومضمون العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس (الولاء)، كما سوف نشير إلى ذلك، وهو يبدو واضحاً أيضاً عند مراجعة تفاصيل النظرية وأحكامها في القسم الثاني من هذا الباب.

ويمكن أنْ نجد موضوع تقوية البناء الاجتماعي واضحاً في عدة مبادئ

---

(١) الحديد:٢٧.

(٢) راجع: تفسير الطبرسي في تفسير هذه الآية الكريمة، حيث يشير إلى حديث ابن مسعود الذي يذكر فيه النبي أن ((**رهبانية أُمتي: الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة**)).

أساسية أكّدتها هذه النظرية في العلاقات، نشير إلى بعضها إجمالاً:

أ) مبدأ التناصر والتعاون بين المسلمين والمؤمنين.

فقد ورد في الحديث الصحيح - كما مرّ - عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ((... **ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ رحماء بينهم متراحمين، مغتمّين لما غاب عنهم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله** صلى الله عليه وآله)).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: ((... **ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم**))[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**))[2].

ب) مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الذي هو من أعظم الواجبات الإلهية وأسمى الفرائض وأشرفها. وقد ورد في الحديث أنه ((... **سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء. فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر**...))[3].

وسوف يأتي مزيد توضيح لهذا الدور الذي يحققه الأمر بالمعروف من الاستقرار والإحكام.

ج) مبدأ التكافل الاجتماعي والحقوق المتبادلة في العلاقة، الذي سبق الحديث عنه في النظام الاقتصادي. وسوف يأتي بعض التوضيح له في

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٥٥٩، ٥٦٠، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٥٥٩، ح١.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٣٩٥، ح٦.

الحديث عن المفردات.

د) مبدأ حسن الظن بالآخرين، وحمل عمل الأخ المؤمن على أفضل وأحسن الاحتمالات، وكذلك غض النظر عن الأخطاء، وستر العيوب الذي يوجب بطبيعة الحال التماسك في البناء الاجتماعي ويمنع حدوث الخلل فيه.

عن أبي جعفر، عن أبيه، عن جده عليهم السلام قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام: ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً**))[1].

وعن أبي بصير قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: لا تفتّش الناس فتبقى بلا صديق**))[2].

وعن الضحّاك بن مخلّد قال: ((**سمعت الصادق عليه السلام يقول: ليس من الإنصاف مطالبة الإخوان بالإنصاف**))[3].

هـ) مبدأ المشورة والاستفادة من آراء وتجارب الآخرين، وكذلك ضرورة النصيحة للمسلمين في أداء الأعمال وإنجازها أو في التعامل معهم.

عن أبي هريرة قال: ((**سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وآله يقول: استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا**))[4].

وعن سليمان بن خالد قال: ((**سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: استشر العاقل من الرجال الورع فإنه لا يأمر إلاّ بخير، وإياك والخلاف فإنّ مخالفة**

---

(١) الكافي٢: ٣٦٢، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٥٨، ح٢.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٥٨، ح٣.

(٤) وسائل الشيعة٨: ٤٠٩، ح١.

الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا))[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مشاورة العاقل الناصح رشد ويمن وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك الناصح العاقل فإياك والخلاف فإنّ في ذلك العطب))**[٢].

ومن أجل أنْ تحقق المشورة أهدافها المذكورة، يشترط الشارع المقدس في المستشار عدة شروط مهمة، كالعقل، والتقوى، والكتمان، وغير ذلك من المواصفات ذات العلاقة بسلامة الشخصية.

فعن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**إنّ المشورة لا تكون إلاّ بحدودها، فمن عرفها بحدودها وإلاّ كانت مضرّتها على المستشير أكثر من منفعتها له، فأولها: أنْ يكون الذي تشاوره عاقلاً، والثانية: أنْ يكون حرّاً متديناً، والثالثة: أنْ يكون صديقاً مؤاخياً، والرابعة: أنْ تطلعه على سرّك فيكون علمه به كعلمك بنفسك، ثم يُسرّ ذلك ويكتمه، فإنه إذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته، وإذا كان حرّاً متديّناً جهد نفسه في النصيحة لك، وإذا كان صديقاً مؤاخياً كتم سرّك إذا أطلعته عليه، وإذا أطلعته على سرّك فكان علمه به كعلمك به تمت المشورة وكملت النصيحة))**[٣].

البعد الثالث: محتوى العلاقة: المساواة والأُخوّة

تقويم أساس هذه العلاقة وتشخيص مضمونها ومحتواها، الأمر الذي يجعل العلاقة الاجتماعية قائمة على أساس نظرة واقعية لحقيقة الإنسان وقيمته من ناحية، وطبيعة العلاقة الاجتماعية وتكوّن البنية الاجتماعية من

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٢٦، ح٥.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٢٦، ح٦.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٢٦ – ٤٢٧، ح٨ .

ناحية أُخرى.

وفي هذا المجال يقيم الإسلام أفضل العلاقات بين الناس على أساس أنهم (متساوون) و(متكافئون) في الأصل، وأنّ بعضهم هو نظير البعض الآخر؛ فلا يمتاز أحدهم - بالأصل - على الآخرين ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**﴾[1]، و((**كلّكم لآدم وآدم من تراب**))[2]، وإنما تنشأ الاختلافات والامتيازات لعوامل وأسباب طارئة تنشأ من حركة الإنسان والمجتمع. بعضها حقة وصحيحة مثل الامتياز بـ (التقوى) و(العلم) و(الجهاد) و(الصفات الإرادية)، التي تنشأ من التربية والممارسة، كالصبر والإحسان. وبعضها باطلة وغير واقعية، مثل الامتياز بكثرة الأموال والأولاد أو القدرة والسلطة المادية، أو تنشأ الامتيازات من مواهب إلهية لهذا الفرد أو ذاك حسب الاصطفاء.

أمّا طبيعة العلاقة الاجتماعية التي يجب أنْ يقوم عليها البناء الاجتماعي ومحتواها فهي علاقة الأُخوّة الإسلامية والإيمانية، وهي أيضاً علاقة مساواة بين أبناء المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والعقيدة الإسلامية.

فالمسلمون إخوة يتكافأون ويتساوون في قيمتهم المعنوية، كما أنه في نفس الوقت تكون أواصر العلاقة والصلة بينهم شبيهة بالأواصر والصلات التي تربط بين الناس عندما يكونون من أب وأُم واحدة. وبذلك وضع الإسلام الصلة والعلاقة في العقيدة اجتماعياً موضع الصلة والعلاقة النسبية التكوينية (الأُخوّة) وفي قيمتها وأهميتها.

فقد ورد في عدة أحاديث معتبرة تأكيد هذا المفهوم في موضوع الزواج الذي كانت العرب، وعامة المجتمعات الإنسانية تشترط فيه شروطاً مادية

---

(١) الحجرات:١٣.

(٢) تحف العقول: ٣٤.

ومعنوية لا علاقة لها بهذا المفهوم.

ومن جملة هذه الروايات المعتبرة ما رواه الكليني في الكافي من قصة زواج (جويبر) وهو رجل من أهل اليمامة أسلم فحسن إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، ومن قباح السودان، حيث أمره رسول الله ﷺ أنْ يخطب من زياد أحد رؤساء قبائل المدينة، وقال له رسول الله ﷺ: **((...يا جويبر، إنّ الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها، فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيهم وعربيهم وعجميهم من آدم، وإنّ آدم خلقه الله من طين، وإنّ أحب الناس إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم...))**.

وقد ورد فيها أيضاً: أنّ رسول الله ﷺ قال لزياد، وهو أبو البنت المخطوبة: **((يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفؤ المؤمنة والمسلم كفؤ المسلمة، فزوّجه يا زياد))**[1].

احترام الإنسان في العلاقات العامة

كما أنّ الإسلام الذي جعل الإيمان إطاراً للعلاقة الاجتماعية بين المسلمين لم يغفل في نفس الوقت الجانب الإنساني العام في هذه العلاقة - أي علاقة الإنسان بنظيره الإنسان الآخر - وأخذها بنظر الاعتبار في مجمل

---

(١) الكافي٥: ٣٣٩ – ٣٤٣.

في هذه القصة مواعظ وحكم رائعة، وكذلك في قصة زواج حبيب مثل ذلك. كما أن في هذا الباب وما بعده قضايا أخرى تؤكد هذا المفهوم يحسن الاطلاع عليها. منه قدس سره.

تصوّره النظري؛ كما يمكن أنْ يفهم ذلك من قول الإمام عليعليه السلام في عهده لمالك الأشتر المروي بطريق معتبر: ((**وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سيفاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**))(١).

وهذا أمر واضح من خلال ما ورد من الحث على المجاملة العامة وحسن الخلق مع الناس جميعاً، مما يعني أنّ الأصل هو الاحتفاظ بالعلاقة الاجتماعية على المستوى الإنساني ما لم تطرأ أوضاع استثنائية تفرض موقفاً آخر كالبراءة أو القطيعة.

عن سماعة، عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: ((**مجاملة الناس ثلث العقل**))(٢).

وعن أبي بصير، عن أبي جعفرعليه السلام قال: ((**إنّ أعرابياً من بني تميم أتى النبيصلى الله عليه وآله فقال له: أوصني، فكان مما أوصاه: تحبّب إلى الناس يحبّوك**))(٣).

ويؤكد ذلك موقف الإسلام من الكفار الذي ذكره القرآن الكريم، حيث فصّل القرآن في العلاقة العامة بين الكفار - الأعداء - الذين يتخذون موقفاً سياسياً أو عسكرياً عدوانياً ضد المسلمين، وبين الكفار العاديّين الذين لا موقف عدائي لهم. حيث نهى القرآن الكريم - كما جاء في سورة الممتحنة - عن ولاء القسم الأوّل ومودته، وأجاز البر والقسط للقسم الثاني: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ**

---

(١) نهج البلاغة٣: ٨٤، ح٥٣.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٣٤، ح١.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٣٣، ح١.

أنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

ويشير إلى ذلك أيضاً ما ورد من تأكيد أهمية الدعوة لله والحوار بالأُسلوب الذي يتّسم بالعقلانية والمحافظة على العلاقة الإنسانية الاجتماعية العامة، من خلال الحكمة والموعظة الحسنة مع الكفار أو الآخرين من غير المسلمين، أو الناس عامة بدون فرق بين المسلم وغيره.

وكذلك ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من النهي عن سب الكفار؛ وذلك من أجل تجنّب تصعيد وتشديد الموقف السلبي منهم، حيث إنهم سوف يردون السبّ بمثله بطبيعة الحال.

وعندما يضع الإسلام (الأُخوّة) بوصفها محتوىً لطبيعة العلاقة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، يريد من ذلك أنْ يضعها من حيث محتواها الإنساني إلى صف علاقة الأُخوة النسبية التي يمتزج فيها الولاء والنصرة والحقوق الاجتماعية بالحب والود والمشاعر والعواطف الإنسانية.

البعد الرابع: مستويات العلاقة

أنّ الإسلام بالرغم من نظرة المساواة في أصل العلاقة الإنسانية ومحتواها المتمثل في (الأُخوّة) بين أبناء المجتمع الإسلامي، إلاّ أنه لم يغفل في هذه النظرة (الواقع الاجتماعي) و(الحقائق الموضوعية) القائمة في أطراف العلاقة الاجتماعية؛ حيث نرى أنّ الإسلام قد لاحظ في هذه العلاقة مستويين رئيسين ينطلقان من الواقع الاجتماعي، وتطور العلاقة في ضمن هذا الواقع بسبب الوضع النفسي والروحي والفكري لأطراف العلاقة، وهما:

أحدهما: العلاقة العامة التي تفرضها طبيعة وجود الإنسان في المجتمع،

---

(١) الممتحنة:٨ – ٩.

والتي يحقق الإنسان من خلالها ارتباطه بأفراد المجتمع الذي يعيش فيه، ويكون جزءاً منه ضمن الإطار العام للعلاقات.

وفي هذا المجال يمثل الإسلام الإطار العام لهذه العلاقة، والقاسم المشترك بين أطرافها في نظرته لوحدة المجتمع التي تقوم على أساس الالتزام بالإسلام والقبول به.

وفي هذا المستوى من العلاقة تحفظ الدماء والأموال والمواثيق والعهود، وكذلك المشاركة والمساهمة في المسؤولية الاجتماعية العامة كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذلك الالتزام بالشعائر الإسلامية والآداب الاجتماعية العامة، مثل حضور صلوات الجماعة وتشييع الجنائز وعيادة المرضى، والمراسيم الاجتماعية كالزواج وغيره.

فقد ورد في الصحيح عن معاوية بن وهب قال: ((**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف ينبغي لنا أنْ نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال: تؤدون الأمانة إليهم، وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم**))[1].

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام لا يكادون يشترطون في إيجاد هذا المستوى من العلاقة إلاّ بعض الشروط العامة، مثل: اجتناب مواضع التهمة، وصحبة أهل البدع والمتجاهرين بالفسق والفجور، أو بعض المحترفين للمهن المحرمة، كما سوف يأتي شرح موارده في القسم الثاني.

فقد ورد عن الفجيع العقيلي - في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام - أنه قال فيها: ((**وإياك ومواطن التهمة، والمجلس المظنون به السوء، فإنّ قرين السوء يغرّ جليسه**))[2].

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٣٩٨، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٢٢، ح٤.

وعن عمر بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((**لا تصحبوا أهل البدع، ولا تجالسوهم فتكونوا عند الناس كواحد منهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء على دين خليله وقرينه**))[1].

وعن حماد بن عمرو، وأنس بن محمد، عن أبيه جميعاً عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام، في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قال: ((**يا علي، من لم تنتفع بدينه ولا دنياه فلا خير لك في مجالسته...**))[2].

ولا يبعد أنْ يكون النهي في بعض هذه الموارد عن (الصحبة) لا مجرد العلاقة، ولكن على فرض أنه نهي عام، فهو إمّا بسبب الخوف من تطور العلاقة الاجتماعية إلى علاقة الصحبة، ولو بالحد الأدنى لها، أو أنّ النهي إنما هو عن الوقوع في مواطن الشبهة والتهمة، كما يفهم من بعض هذه النصوص.

ثانيهما: العلاقة الخاصة التي يطلق عليها في الفهم والنظر الاجتماعيين العرفيين (الصحبة) بأنْ يتخذ الشخص الآخر صاحباً ورفيقاً.

وهذا المستوى وإنْ كان يشارك المستوى الأوّل في عموم الآثار والنتائج والالتزام، ولكن يمتاز عنه ببعض الشروط والحقوق والواجبات الإضافية - التي عرفنا بعض أبعادها سابقاً - مثل الحقوق المالية، وبعض الحقوق الثقافية، كالتفاوض في أمور الدين وتعلمها وتعليمها، أو الأُمور السياسية كتدارس الأوضاع العامة خصوصاً عندما تكون العلاقة في هذا المجال على مستوىً عالٍ، كما سوف نوضح ذلك قريباً.

فقد ورد عن خيثمة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**أبلغ موالينا السلام،**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٣٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٣١، ح١.

وأوصهم بتقوى الله والعمل الصالح، وأنْ يعود صحيحهم مريضهم، وليعُدْ غنيهم على فقيرهم، وأنْ يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأنْ يتلاقوا في بيوتهم، وأنْ يتفاوضوا علم الدين، فإنّ ذلك حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا...))[١].

وفي حديث معتبر عن ميسرة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: ((**قال لي: أتخلون وتتحدّثون وتقولون ما شئتم؟ فقلت: إي والله إنا لنخلو ونتحدث ونقول ما شئنا، فقال: أما والله لوددت أني معكم في بعض تلك المواطن، أما والله إني لأُحب ريحكم وأرواحكم وإنكم على دين الله ودين ملائكته فأعينوا بورع واجتهاد))**[٢].

الأُخوّة في الله

وقد سعى أهل البيت عليهم السلام لتطوير هذه العلاقة، روحياً ونفسياً لتصل إلى درجتها العالية، فتصبح متقدمة على الأُخوّة النسبية في مضمونها الإنساني والاجتماعي والروحي، حيث يكون الحب والود فيها خالصاً لله تعالى ومن أجله، وتتصف في آثارها ونتائجها بالمساواة للإنسان بنفسه، بل حتى إيثار أخيه المؤمن على نفسه.

وجاء حديث أهل البيت عليهم السلام معبراً عن هذا الطور التكاملي للعلاقة في العلاقات الاجتماعية والجماعة الصالحة.

فقد روى الحسن بن محمد الطوسي في مجالسه بسند معتبر عن أبي جعفر الباقر، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال: ((**إذا كان يوم القيامة... ثم ينادي منادٍ من الله عزّ وجلّ يسمع آخرهم كما يسمع أولهم**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٠٠، ح٧.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٥٦٧، ح٥.

فيقول: أين جيران الله تعالى في داره؟ فيقوم عنق من الناس، فتستقبلهم زمرة من الملائكة، فيقولون: ماذا كان عملكم في دار الدنيا، فصرتم اليوم جيران الله تعالى في داره؟ فيقولون: كنا نتحاب في الله، ونتباذل في الله، ونتوازر في الله تعالى. قال: فينادي منادٍ من عند الله تعالى: صدق عبادي خلّوا سبيلهم. لينطلقون إلى جوار الله في الجنة بغير حساب.

ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فهؤلاء جيران الله في داره، يخاف الناس ولا يخافون، ويحاسب الناس ولا يحاسبون))[1].

كما روى الكليني بطريق معتبر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ست خصال من كن فيه كان بين يدي الله عزّ وجلّ وعن يمين الله، فقال له ابن أبي يعفور: وما هن جعلت فداك؟ قال: يحب المرء المسلم لأخيه ما يحب لأعزّ أهله، ويكره المرء المسلم لأخيه ما يكره لأعزّ أهله، ويناصحه الولاية - إلى أنْ قال -: إذا كان منه بتلك المنزلة بثّه همه ففرح لفرحه إنْ هو فرح، وحزن لحزنه إنْ هو حزن، وإنْ كان عنده ما يفرج عنه فرّج عنه، وإلاّ دعا له - إلى أنْ قال -: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ لله خلقاً عن يمين العرش بين يدي الله وجوههم أبيض من الثلج، وأضوأ من الشمس الضاحية. يسأل السائل: ما هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء الذين تحابّوا في جلال الله))**[2].

ومن الملاحظ في هذه العلاقة الخاصة أنّ أهل البيت عليهم السلام افترضوا فيها الاختلاف في مستوى العلاقة، بحيث يمكن أنْ تنقسم إلى الصحبة العامة والصحبة الخاصة، ويقوم الاختلاف في مستوى العلاقة على أساس درجة

---

(١) أمالي الطوسي: ١٠٣، ح١٢.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٤٢، ح٣.

الالتزام العقائدي والمبدئي، وعمق ورسوخ القيم والمثل الدينية سلوكياً وعملياً.

وهنا يصبح للإيمان والاعتقاد بولايتهم، والانتساب إلى الجماعة الصالحة دور مهم في ترسيخ هذه العلاقة، وترتب الحقوق والواجبات عليها. ويبدو ذلك واضحاً من خلال الأحاديث السابقة.

إخوان المكاشرة وإخوان الثقة

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام في بعد آخر للاختلاف في مستوى العلاقة الاجتماعية يميزون بين صنفين من الناس هما صنف إخوان (المكاشرة)، وصنف إخوان (الثقة). حيث لابدّ للإنسان أنْ يكتفي بالشروط العامة التي أشرنا إلى بعضها سابقاً مع الصنف الأوّل منهم، وهم أولئك الناس الذين يلتقي بهم في الحركة الاجتماعية العامة فيصحبهم، ويقترن وجوده بوجودهم، ويصبحوا أخلاء له من خلال حسن المعاشرة والتودد والمعاملة بالحسنى، التي يعبر عنها أهل البيت عليهم السلام بالمكاشرة، وهي التعامل بحسن الظاهر.

وأمّا الصنف الثاني من الناس، وهم إخوان الثقة فهم أولئك الناس الذين لابدّ له أنْ يختارهم بدقة من خلال التجربة والمعرفة بصدقهم وأمانتهم وحسن أخلاقهم، فيصح له أنْ يركن إليهم، ويثق بهم حيث يكونون معه في السراء والضراء، ويعتمد عليهم في شؤونه الخاصة ويكونون موضع سره وأمانته.

عن يونس بن عبد الرحمان، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: ((**قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام رجل بالبصرة فقال: أخبرنا عن الإخوان، فقال: الإخوان صنفان: إخوان الثقة وإخوان المكاشرة، فأمّا إخوان الثقة فهم كالكف والجناح والأهل والمال، فإذا كنت من أخيك على ثقة فابذل له مالك**

ويدك، وصاف من صافاه، وعاد من عاداه، واكتم سره، وأعنه وأظهر منه الحسن، واعلم أيها السائل أنهم أعزّ من الكبريت الأحمر. وأمّا إخوان المكاشرة فإنك تصيب منهم لذتك، فلا تقطعن ذلك منهم، ولا تطلبن ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان))[١].

ويكون الإيمان أحد الشروط الأساسية في هذا الصنف (إخوان الثقة)، كما أنّ الحقوق الخاصة التي أكدها أهل البيت عليهم السلام إنما هي حقوق مترتبة لمثل هذا الصنف من الناس.

وتشير إلى هذا النوع من التصنيف والاختلاف في درجة العلاقة، والشروط العامة والخاصة فيها، مجموعة من النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام تتحدث عن شروط وخصائص أُخرى غير الإيمان لابدّ من الاهتمام بها في درجة العلاقة، سواء كانت الخصوصيات الإيجابية التي تقتضي تأكيد العلاقة وترسيخها، مثل التقوى والورع والعقل والحكمة والكرم، أو الخيار من الناس، أم الخصوصيات السلبية التي تقتضي تخفيف العلاقة أو قطعها واجتنابها، مثل الحمق والفجور والكذب والبخل[٢].

وسوف يأتي مزيد من التوضيح في القسم الثاني من هذا الباب.

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٠٤، ح١.

(٢) راجع وسائل الشيعة٨: ٤٠٩ – ٤٣٢، أبواب أحكام العشرة ٨ و٩ و١١ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨، حيث يبدو من الروايات في هذه الأبواب أن أئمة أهل البيت عليهم السلام يشترطون في العلاقة الخاصة (الصحبة) بمستوييها شروطاً معينة ترتبط بالأساس الذي أشرنا إليه آنفاً، بالإضافة إلى البحار٧٤: ١٧٣ – ٢٢٠.

البعد الخامس: المعاملة الخاصة

اختصاص بعض الفئات والأصناف من الناس بمعاملة اجتماعية خاصة.

فإنّ الإسلام في نظريته الاجتماعية وإنْ كان يؤمن بالمساواة بين الناس في الأُخوّة الإنسانية - كما أشرنا - إلاّ أننا مع ذلك نلاحظ أنّ أهل البيت عليهم السلام خصوا فئات اجتماعية بمعاملة خاصة في هذه العلاقات لأسباب موضوعية مختلفة، تقرها الفطرة الإنسانية أو المقاييس العقلية الواقعية القائمة على أساس المصالح الاجتماعية العامة.

وهذه الأسباب قد تكون إنسانية أو دينية أو سياسية ترتبط بالأبعاد المختلفة للنظرية الإسلامية عموماً، أو في العلاقات الاجتماعية بصفة خاصة، الأمر الذي يجعل الأُمور تأخذ نصابها وموقعها الطبيعي في الهيكلية العامة للمجتمع وأطراف العلاقة الاجتماعية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعاملة الخاصة في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾**[1].

الأرحام

فالأرحام مثلاً، والأقربون منهم خاصة، والأبوان بصفة أخص، لهم امتيازات في التعامل الاجتماعي، حيث يجب الاحتفاظ بأصل العلاقة الاجتماعية مع الرحم، ولا يجوز قطيعته، ويجب إكرام الأبوين، والبّر بهما

---

(١) النساء: ٣٦.

حتى لو كان ذلك بالتزام الطاعة لهما، وامتثال أوامرهما ضمن الحدود الشرعية.

فعن أبي حمزة الثمالي قال: ((**قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء، فقام إليه عبد الله بن الكواء اليشكري فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: نعم ويلك قطيعة الرحم. إنّ أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإنّ أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم أتقياء**))[١].

وعن عنبسة العابد قال: ((**جاء رجل فشكا إلى أبي عبد الله عليه السلام أقاربه فقال له: اكظم غيظك وافعل، فقال: إنهم يفعلون ويفعلون، فقال: أتريد أنْ تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم؟**))[٢].

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: ((**وأمّا حق أمك أنْ[٣] تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً[٤]، ووقتك بجميع جوارحها ولم تبال أنْ تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظللك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها. وإنك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله وتوفيقه.**

وأمّا حق أبيك فأنْ تعلم أنه أصلك، فإنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله

---

(١) الكافي٢: ٣٤٧ – ٣٤٨، ح٧.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٩٣، ح٣.

(٣) هكذا في المصدر، والذي في مكارم الأخلاق للطبرسي ((**وأمّا حق أمك فأنْ تعلم**)) وهو الصواب لوجوب الفاء في جواب أما.

(٤) في تحف العقول ((**وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً**)).

واشكره على قدر ذلك، ولا قوة إلاّ بالله.

وأمّا حق ولدك فأنْ تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عزّ وجلّ، والمعونة على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه.

وأمّا حق أخيك فأنْ تعلم أنه يدك وعزك وقوتك، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على عدوه، والنصيحة له، فإنْ أطاع الله وإلاّ فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلاّ بالله))[1].

وهذا التعامل الخاص مع الأرحام ينطلق من بعد إنساني، باعتبار الرابطة النسبية التي تعني امتداداً للإنسان في وجوده وحركته يدركها ويحس بها إحساساً فطرياً، بالإضافة إلى الجانب الأخلاقي في خصوص رعاية الأبوين والبر بهما، لأنه لون من ألوان شكر النعمة ورد الجميل، واللطف والرحمة بالكبار والضعفاء.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[2].

على أنّ موضوع المعاملة الخاصة مع الأرحام يُعدّ بعداً اجتماعياً تنظيمياً مهماً، يرتبط بنظرة الإسلام إلى الهيكلية العامة للمجتمع التي تقوم على أساس افتراض أنّ الأُسرة هي اللبنة والوحدة الاجتماعية الأولى

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٣٥، ح١.

(٢) الإسراء: ٢٣ – ٢٤.

والأساسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي، كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا البحث.

العلماء

والعلماء وأهل الفضل والمعرفة يخصهم الإسلام بمعاملة اجتماعية خاصة أيضاً، لاعتبارات أخلاقية موضوعية واجتماعية.

أمّا الاعتبار الأخلاقي الموضوعي؛ فلأنّ العلم يعتبر قيمة حقيقية في نظر الإسلام تمنح الإنسان درجة من الكمال والسمو **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾**[1].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

وأمّا الجانب الاجتماعي فإنّ للعلماء في النظرية الإسلامية من خلال رؤية أهل البيت عليهم السلام موقعاً اجتماعياً متميزاً، وهو قيادة التجربة الإسلامية، والولاية على الأُمّة.

وإنما استحق أهل البيت عليهم السلام - عند الله تعالى - هذه الولاية في الأُمّة دون غيرهم - كما أكدوا ذلك في أحاديثهم - باعتبار وجود هذه الخصوصية (العلم) فيهم بدرجة عالية ومتميزة.

كما أنّ ولي الأمر من بعدهم لابدّ أنْ يكون عالماً بالإسلام، ومجتهداً في استنباط الأحكام الشرعية، كما عرفنا ذلك آنفاً في بحث النظام السياسي العام.

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) الزمر: ٩.

فقد روى الصدوق في الخصال - في مجال خصوصية العالم في العلاقة الاجتماعية - عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((**من حق العالم ألاّ تكثر عليه السؤال، ولا تسبقه في الجواب، ولا تلح إذا أعرض، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل، ولا تشر إليه بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تساره في مجلسه، ولا تطلب عوراته، وألاّ تقول: قال فلان خلاف قولك، ولا تفشي له سراً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأنْ تحفظ له شاهداً وغائباً، وأنْ تعم القوم بالسلام وتخصه بالتحية، وتجلس بين يديه، وإنْ كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تمل من طول صحبته، فإنما هو مثل النخلة فانتظر متى تسقط عليك منه منفعته. والعالم بمنزلة الصائم القائم المجاهد في سبيل الله، وإذا مات العالم انثلم في الإسلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة، وإنْ طالب العلم ليشيعه سبعون ألف ملك من مقربي السماء**))[1].

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: ((**فحقوق أئمتك ثلاثة، أوجبها عليك حق سائسك بالسلطان، ثم حق سائسك بالعلم، ثم حق سائسك بالملك**))، إلى أنْ يقول عليه السلام: ((**وحق سائسك بالعلم التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وألاّ ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأنْ تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأنْ تستر عيوبه وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدواً، ولا تعادي له ولياً، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته، وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس**))[2].

---

(١) الخصال: ٥٠٤، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ١٣٤، ح١.

الجيران

والجيران يستحقون معاملة خاصة في العلاقات العامة، ويبدو واضحاً أنَّ البعد في هذه المعاملة الخاصة إنما هو البعد الاجتماعي؛ حيث يراد من خلال ذلك توطيد دعائم العلاقات الاجتماعية من خلال الواقع الجغرافي للمجتمع، وتحقيق التعاون في إيجاد البنية الاجتماعية المحلية السليمة والقوية.

وقد ورد تأكيد أهمية هذه المعاملة الخاصة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، حتى أنه ورد في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لأولاده عند وفاته الإشارة إلى وصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الجيران.

كما ورد في هذا المضمون حديث آخر رواه الصدوق في من لا يحضره الفقيه، وكتاب عقاب الأعمال عن الصادق، عن آبائه، عن علي عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((**من آذى جاره حرّم الله عليه ريح الجنة، ومأواه جهنم وبئس المصير، ومن ضيع حق جاره فليس منا، وما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه...**))[1].

وعن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: ((**قرأت في كتاب علي عليه السلام إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب، أنّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه**))[2].

وعنه عليه السلام أنه قال: ((**اعلموا أنه ليس منّا مَن لم يحسن مجاورة من جاوره**))[3].

---

(١) من لا يحضره الفقيه٤: ١٣.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٨٧، ح٢.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٨٩، ح٥.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع**))[1].

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قلت له: جعلت فداك، ما حدّ الجار؟ قال: أربعين داراً من كل جانب**))[2].

الضعفاء

والضعفاء من الناس لابدّ من معاملتهم معاملة خاصة أيضاً، سواء كان هذا الضعف بسبب الوضع الطبيعي للتركيبة الجسمية، مثل الأطفال والنساء والشيوخ، أم كانوا من قبيل الذين يعرض لهم الضعف، مثل المعوقين والمتخلفين؛ حيث يبدو من الواضح البعد الإنساني في هذا الجانب من التعامل.

فعن أمير المؤمنين أنه قال في حديث له: ((**...وارحموا ضعفاءكم، واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة لهم**))[3].

أم كان هذا الضعف بسبب الأوضاع الاقتصادية، مثل الفقراء والمساكين، وأبناء السبيل وغيرهم من المحتاجين.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في خطبة له: ((**...وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقّروا كباركم وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم...**))[4].

أم كان بسبب الأوضاع الاجتماعية، مثل اليتامى والمملوكين، أو العمال

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٤٩٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٩٢، ح٣.

(٣) كشف الغمة٣: ١٤٢، وعنه البحار٧٨: ٨٣، ح٨٥.

(٤) عيون اخبار الرضا٢: ٢٦٥، ح٥٣، وعنه البحار٩٦: ٣٥٦، ح٢٥.

والمستأجرين والمستخدمين من الناس، الذين تفرض عليهم ظروفهم الاجتماعية أنْ يكونوا تحت إدارة بعض الأشخاص وولايتهم.

فعن الصادق عن آبائه عليهم السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال في وصيته لعلي عليه السلام: ((**يا علي، أربع من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة: من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه، ثم قال: يا علي، من كفى يتيماً في نفقته بماله حتى يستغني وجبت له الجنة البتة. يا علي، من مسح يده على رأس يتيم ترحّماً له أعطاه الله بكل شعرة نوراً يوم القيامة**))(١).

ذرية الرسول

وهناك رعاية ومعاملة خاصة لذرية رسول الله صلى الله عليه وآله من أولاد علي وفاطمة عليهما السلام جاء تأكيدها، وذلك بسبب انتمائهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإكراماً له، وتقديراً لحقه، وتقديساً لشأنه.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**لا يقبّل رأس أحد ولا يده إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله أو من أريد به رسول الله**))(٢).

وعن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ((**النظر إلى ذريتنا عبادة، قلت: النظر إلى الأئمة منكم، أو النظر إلى ذرية النبي؟ فقال: بل النظر إلى جميع ذرية النبي صلى الله عليه وآله عبادة ما لم يفارقوا منهاجه، ولم يتلوّثوا بالمعاصي**))(٣).

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٥٦٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٦٥، ح٣.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٦٢٠، ح١.



قواعد النظرية الإسلامية في العلاقات

تمهيد

١. الأحكام الشرعية والعرفية

٢. ضبط العواطف وتوجيهها

٣. العدل والإنصاف ولو من النفس

٤. حسن الخلق والمداراة

٥. الإحسان واليد العليا

٦. القدوة والسلوك المتميز

تمهيد

الجانب الثاني من البحث في نظرية العلاقات الاجتماعية: هو البحث في القواعد والأُسس العامة التي لابدَّ أنْ تقوم عليها هذه العلاقات، وتحدد مسارها واتجاهاتها.

وتكوّن هذه القواعد والأُطر الخطوط العامة التي توجه مسيرة العلاقات الاجتماعية باتجاه التكامل الذاتي لحركة الفرد وسلوكه، والتكامل الاجتماعي لحركة الجماعة وأنشطتها.

كما أنها في نفس الوقت تعبّر عن الخلفية الأخلاقية لهذا السلوك الفردي والاجتماعي، حيث تؤكد أهمية دور الأخلاق في التكامل الإنساني الفردي والاجتماعي، وتجعل الأخلاق ذات هدف واضح على صعيد التكامل الفردي والاجتماعي.

وبدون هذه الضوابط الأخلاقية تتحول العلاقات الاجتماعية إلى قضية شكلية وآلية (ميكانيكية) شبيهة بالأعراف والتقاليد، حيث تصبح في معرض الانهيار، وخطر التفكك عندما تتعرض البنية الاجتماعية إلى الاهتزاز أو التغيّر. كما يحصل ذلك فعلاً في بعض حالات الهجرة والانتقال من مجتمع إلى مجتمع آخر، أو في حالات تعرض المجتمع إلى الغزو الثقافي والاجتماعي، أو تبدل الأنظمة السياسية، أو كما نلاحظه في المجتمعات الغربية التي تحولت فيها الأخلاق إلى مجرد قوانين وأعراف دون أنْ يكون لها مضمون يرتبط بالأخلاق أو بالنفس والروح والوجدان.

ويمكن تلخيص هذه القواعد والأُطر العامة في نظر أهل البيت عليهم السلام بالنقاط التالية:

١. الالتزام بالواجبات الشرعية والعرفية العامة.

٢. ضبط العواطف والانفعالات وتوجيهها.

٣. العدل والإنصاف بوصفهما حداً أدنى في الموازنة بين النفس والآخرين.

٤. حسن الخلق والمداراة للناس.

٥. الإحسان واليد العليا في التكامل الاجتماعي.

٦. السلوك المتميز والقدوة الحسنة في الوضع الاجتماعي العام.

وقد جاءت هذه الضوابط - كما سوف نلاحظ - منسجمة مع مجموعة الأبعاد السابقة للنظرية، سواء كان ذلك في اتجاهها العام، أم في أهدافها، أم في شكلها ومحتواها.

ونحتاج أنْ نتناول كل واحدة من هذه الضوابط بشيء من التحليل والشرح لتوضيح هذا الانسجام والارتباط بينها وبين الأبعاد السابقة.

١. الأحكام الشرعية والعرفية

أمّا القاعدة الأُولى التي تعني الالتزام بالأحكام الشرعية والعهود والعقود العقلائية التي أقرها الشارع المقدس، والآداب العرفية العامة التي أقرّها الشارع المقدس في السلوك الاجتماعي، فهي تعني في الحقيقة الالتزام الأخلاقي تجاه الله الواحد الأحد، والخالق المنعم على الإنسان؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ على الإنسان الميثاق والعهد في التوحيد له، والطاعة والامتثال لأوامره ونواهيه. قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾**[1].

---

(١) الأعراف: ١٧٢ – ١٧٣.

فهذا الالتزام بالواجب الشرعي إنما هو وفاء بالميثاق والعهد، وقبول بالدين والنظام الإسلامي الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله محمدﷺ لهداية البشرية، وإصلاح أمرها، وبناء المجتمع الإنساني الصالح ليكونوا ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ الأحكام الشرعية، والشرائع الإلهية من الأوامر والنواهي تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية، ومعبّرة عن وجودها الواقعي، سواء في حركة الإنسان الفردية أم الاجتماعية، فيكون الالتزام بها التزاماً وتحقيقاً لهذه المصالح، أو اجتناباً وابتعاداً عن هذه المفاسد والأضرار الموجودة في متعلقاتها.

وهذا مما ينسجم مع البعد الثاني - السابق - للنظرية، وهو تقوية البناء الاجتماعي من خلال تحقيق هذه المصالح، واجتناب الأضرار والمفاسد.

كما أنّ الآداب العرفية العامة تعبّر عن الالتزامات الاجتماعية المشروعة التي تواضع عليها الناس والمجتمع، ويكون الانسجام معها انسجاماً مع المجتمع والناس أنفسهم، وهذا مما ينسجم في نفس الوقت مع البعد الأوَل للنظرية.

الواجب والحرام من الالتزامات

ونجد تجسيد هذه الضابطة والإطار في مجموعة واسعة من المفردات في البناء الفوقي للعلاقات الاجتماعية، التي أكدتها النظرية الإسلامية، سواء في البعد الإيجابي منها، أم البعد السلبي.

أمّا في البعد الإيجابي فنجد ذلك في مثل: الحث على مفردة الوفاء بالعهود والمواثيق، أو أداء الأمانة، أو حضور الجنائز وصلوات الجماعة والاجتماعات العامة، أو في مثل عيادة المرضى، وغير ذلك مما سوف نشير

إليه مستقبلاً في القسم الثاني.

وأمّا في بعدها السلبي فنجد ذلك في مفردات النهي عن إيذاء الناس، أو الإضرار بهم، أو هتك حرماتهم، أو تتبع عثراتهم، أو إشاعة الفاحشة بينهم، إلى غير ذلك من الموارد التي سوف نشير إليها أيضاً.

٢. ضبط العواطف وتوجيهها

أمّا القاعدة الثانية فهي تعني الالتزام في العلاقات الاجتماعية بضبط العواطف والأحاسيس والمشاعر والانفعالات، التي تطرأ على النفس الإنسانية، بسبب التفاعل مع الأحداث ومشاهدتها، وتفاعلات آثارها ونتائجها.

وتعبّر هذه الضابطة في أحد أبعادها عن التكامل الذاتي في حركة الإنسان نحو الله تعالى.

فقد ورد في حديث أهل البيت عليهم السلام تأكيد هذه الضابطة عموماً في الوصول إلى هذا التكامل، حيث روى الصدوق في من لا يحضره الفقيه، وثواب الأعمال، بسند معتبر عن شعيب العقرقوفي، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((**من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا غضب وإذا رضي حرّم الله جسده على النار**))[1].

وفي حديث آخر رواه الكليني في الكافي بسند معتبر عن صفوان الجمال قال: ((**قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له**))[2].

---

(١) من لا يحضره الفقيه٤: ٤٠٠.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٢٨٦، ح١.

جهاد النفس وضبط العواطف

ولاشك أنّ جهاد النفس هو من أعظم الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حركته التكاملية، حيث جاء التعبير عنه في الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ بأنه (الجهاد الأكبر)[1].

وهذا الجهاد في الحقيقة إنما هو يعبر في أحد أبعاده عن ضبط العواطف، والسيطرة عليها، وتوجيهها توجيهاً صحيحاً بما ينسجم مع الحكم الشرعي، والأهداف الإلهية المقدسة.

وأهمية هذه الضابطة في جانبها الذاتي، إنما تنبع من موضوع تربية الإرادة الإنسانية، وتقويتها بحيث تكون منسجمة في فاعليتها واختيارها دائماً مع العقل وحكم الشرع؛ حيث أعطى الشارع المقدس أهمية خاصة للعقل؛ لأنّ الله تعالى جعل للعقل دوراً أساسياً في حركة الإنسان، وتوجيه إرادته نحو الصلاح، وتحقيق المصلحة النهائية للإنسان، وضبط العواطف والانفعالات له.

وقد ورد في الحديث الشريف الصحيح أنّ الله سبحانه وتعالى خلق العقل ثم قال له: ((**أقبِل فأقبل، ثم قال له: أدبِر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أحب. أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب**))[2].

وفي حديث آخر معتبر عن عبد الله بن سنان قال: ((**سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله ركب في الملائكة عقلاً بلا**

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ١٢٢، ح١.

(٢) الكافي ١: ١٠، ح١.

شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم))[1].

حسن الخلق وضبط العواطف

وأهمية هذه الضابطة في جانبها الاجتماعي هي أنّ التكامل الذاتي للفرد يؤثر - بطبيعة الحال - على التكامل الذاتي للمجتمع كله، لأنه مضافاً إلى أنّ المجتمع يتكون من هؤلاء الأفراد، فإنّ الفرد الصالح المتميز له تأثير واضح على بقية أفراد المجتمع إذا كان واقعه النفسي صالحاً، حيث ينعكس ذلك بالضرورة على سلوكه الاجتماعي في علاقاته مع الآخرين، ذلك أنّ الواقع النفسي للإنسان لا يمكن أنْ ينفك عن سلوكه الاجتماعي.

ولذلك مدح القرآن الكريم نبي الإسلام العظيم بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ تأكيداً لهذا الجانب الأخلاقي في السلوك.

٣. الإنصاف ولو من النفس

وأمّا القاعدة الثالثة، فهي تعني الالتزام في العلاقات الاجتماعية بمنهج العدل والإنصاف للناس حتى لو كان طرف هذه الموازنة هو الإنسان نفسه، فضلاً عما إذا كان طرفها الأفراد الآخرين من أبناء المجتمع.

وتعبّر هذه الضابطة، وهذا الأساس عن الخلفية الأخلاقية والعقائدية في النظرية الإسلامية، التي يجب أنْ تقوم عليها العلاقات الاجتماعية، باعتبارها أحد الجوانب المهمة في النظام الاجتماعي، إذ إنّ الإسلام أقام جميع نظامه على أساس عقيدة العدل في نظر أهل البيت عليهم السلام، سواء في

---

(١) علل الشرائع١: ٤ – ٥، ح١.

رؤيته لقيمة الإنسان، أم في علاقة الإنسان مع الله تعالى، حيث يكون العدل الركن الثاني في هذه العلاقة بعد الرحمة الإلهية، أم في إنتاج الثروة وتوزيعها، أم في نظام الحكم وفصل الخصومات بين الناس، بل وحتى في العلاقة مع نفسه.

ومن هذا المنطلق نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام يؤكدون موضوع (العدل) باعتباره قاعدة وأساساً للنظام الاجتماعي عامة، وفي العلاقات الاجتماعية خاصة. وقد جاء هذا التأكيد في عدد من الاتجاهات:

أ) العدل بين الناس

تأكيد وجوب العدل بين الناس عامة في مقام التعامل معهم.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**اتقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون**))[1].

وعنه عليه السلام قال: ((**العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك**))[2].

ب) رفض الظلم

تحريم ظلم الناس في مقام التعامل معهم، وهو نقيض العدل، حيث إنَ الظلم لا يظهر في المجتمع - عادة - إلاّ من خلال الاستئثار، واختلال الموازين الصحيحة في العلاقة الاجتماعية.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**ما من أحد يظلم مظلمة إلاّ أخذه الله**

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٢٣٣، ح١.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٢٣٣، ح٣.

بها في نفسه وماله، فأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر له))[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **((ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلاّ الله))**[2].

وعن أبي بصير قال: **((دخل رجلان على أبي عبد الله عليه السلام في مداراة بينهما ومعاملة، فلما أنْ سمع كلامهما قال: أما إنه ما ظفر بخير من ظفر بالظلم. أما إنّ المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم، ثم قال: من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فُعل به. أما إنه يحصد ابن آدم ما يزرع، وليس يحصد أحد من المر حلواً، ولا من الحلو مراً. فاصطلح الرجلان قبل أنْ يقوما))**[3].

ج) إنصاف الناس من النفس

الحث على إنصاف المرء للناس من نفسه، باعتباره أساساً لقضية العدل في العلاقات الاجتماعية، وأنه لا يتصف الإنسان المؤمن بصفة الإيمان إلاّ من خلال التعامل على أساس هذا الإنصاف.

وتبدو أهمية هذا الاتجاه باعتبار أنّ بداية الظلم في العلاقات الاجتماعية تبدأ من حالة أنْ يؤثر الإنسان حق نفسه ويقدمه على حقوق الآخرين، ثم يتطور ذلك بتقديم حقوق بعض الناس على حقوق آخرين منهم، ومن هنا فإنّ إنصاف الناس من النفس يعني تحقيق العدل بين الناس جميعاً.

ومن هنا جاء تأكيد أهل البيت عليهم السلام لهذا الأساس الأخلاقي.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سيد الأعمال إنصاف**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٣٣٨، ح٣.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٣٣٨، ح١.

(٣) الكافي٢: ٣٣٤، ح٢٢.

الناس من نفسك، ومواساة الأخ في الله، وذكر الله على كل حال))[١].

وعنه عليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من واسى الفقير من ماله، وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً**))[٢].

وعن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((**ألا أخبرك بأشد ما افترض الله على خلقه؟ إنصاف الناس من أنفسهم، ومواساة الإخوان في الله عزّ وجلّ، وذكر الله عزّ وجلّ على كل حال، فإنْ عرضت له طاعة عمل بها، وإنْ عرضت له معصية تركها**))[٣].

وفي هذا الاتجاه - مع تطوير وتصعيد الحالة الأخلاقية في العلاقات الاجتماعية - جاء التأكيد في حديث أهل البيت عليهم السلام أنْ يحب الإنسان لأخيه المسلم أو للناس ما يحب لنفسه.

جاء ذلك في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليهما السلام: ((**فأحبب لغيرك، ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها**))[٤].

وكذلك ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((**أوحى الله عزّ وجلّ إلى آدم عليه السلام: إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات. قال: يا رب وما هنّ؟ قال: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس. قال: يا رب بيّنهنّ لي حتى أعلمهنّ. قال: أمّا التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأمّا التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأمّا التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعليّ الإجابة، وأمّا التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك، وتكره لهم ما تكره**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٢٢٥، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٢٢٥، ح٥.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٢٢٦، ح١٠.

(٤) نهج البلاغة: كتاب ٣١.

لنفسك))[1].

٤. حسن الخلق والمداراة

وأمّا القاعدة الرابعة، فهي حسن الخلق ومداراة الناس، وهي تعني في العلاقات الأساس والقاعدة الأخلاقية لمنهج الانفتاح في هذه العلاقات، حيث لا يمكن أنْ يتحقق هذا الانفتاح والتوسع في العلاقات إلاّ على أساس وجود هذه القاعدة الأخلاقية في التعامل مع الآخرين.

ولابدّ أنْ نفهم هنا أنّ المضمون الأخلاقي للعلاقات الاجتماعية في النظرية الإسلامية هو عبارة عن الحب والود، فهي ليست مجرد علاقة شكلية فارغة أو آلية ذات مصالح ومنافع متبادلة، بل هي علاقة عاطفية شعورية، لأنّ العلاقات الاجتماعية لا تتكامل من خلال المصالح الشخصية أو العامة فحسب، وإنما تتكامل وتستحكم من خلال الحب والولاء والود بين أطرافها.

ولاشك أنّ حسن الخلق والتودد والمجاملة ومداراة الناس تُعدّ تعبيراً عن هذا الحب، حيث تكون الخطوة الأُولى المهمة في هذا الطريق، وتزيل الحواجز والمؤثرات السلبية التي تمنع وجود هذا الحب، والتعبير عنه عندما تتكامل مقوماته وعناصره الأُخرى التي سوف نشير إليها.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد هذا المضمون وآثاره، فقد روى الكليني بسند صحيح عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ((**إنّ أعرابياً من بني تميم أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: أوصني، فكان مما أوصاه: تحبّب إلى الناس يحبّوك**))[2].

---

(١) الكافي٢: ١٤٦، ح١٣.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٣٣، ح١.

وقد ذكر صاحب الوسائل في أحكام العشرة بابين في حسن الخلق ومداراة الناس[1]، أورد فيهما أحاديث عديدة تؤكد هذه الحقيقة أيضاً بحيث تربط تكامل الإيمان بهذا التودد، وذلك لأنه ورد أيضاً ما يشير إلى أنَ الإيمان الحقيقي هو الحب، وأنّ الدين هو الحب.

وهنا نشير إلى بعض النصوص (المعتبرة) التي تؤكد هذه الحقائق.

عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: ((**إنّ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**))[2].

وعن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: ((**إنّ الخلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد**))[3].

وعنهعليه السلام: ((**إنّ حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم**))[4].

وقالعليه السلام: ((**أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً**))[5].

وقالعليه السلام: ((**إنّ الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح**))[6].

وعنهعليه السلام قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرني ربي بمداراة الناس، كما**

---

(١) راجع الوسائل٨: ٥٠٣ – ٥٣٩، أحكام العشرة: باب١٠٤ وباب١٢١، بالإضافة إلى روايات أخرى تؤكد التودد للناس ومجاملتهم في البابين ٢٩ و٣٠ من الكتاب نفسه.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٠٣، ح١.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٥٠٤، ح٦.

(٤) وسائل الشيعة٨: ٥٠٤ ح٤.

(٥) وسائل الشيعة٨: ٥٠٤ ح٩.

(٦) وسائل الشيعة٨: ٥٠٥، ح١٥.

أمرني بأداء الفرائض))[1].

وقال عليه السلام: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وآله مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش**)) الحديث[2].

وعن سفيان بن عيينة قال: ((**قلت للزهري: لقيت علي بن الحسين عليهما السلام؟ قال: نعم لقيته، وما لقيت أحداً أفضل منه، وما علمت له صديقاً في السر ولا عدواً في العلانية، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأني لم أرَ أحداً وإنْ كان يحبه إلاّ وهو لشدة معرفته بفضله يحسده، ولا رأيت أحداً وإنْ كان يبغضه إلاّ وهو لشدة مداراته له يداريه**))[3].

وعن فضيل بن يسار قال: ((**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلاّ الحب والبغض، ثم تأول هذه الآية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾**))[4].

وعن صفوان الجمال، عن أبي عبيدة زياد الحذّاء، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث أنه قال له: ((**يا زياد، ويحك وهل الدين إلاّ الحبّ؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؟﴾ أوَ لا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ؟﴾ وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؟﴾ فقال: الدين هو الحب، والحب هو**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٥٤٠، ح١.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٥٤٠، ح٥.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٥٤٢، ح١٠.

(٤) وسائل الشيعة١١: ٤٣٥، ح١٦.

الدين))[1].

وفي هذه الروايات وإنْ كان المراد من الحب هو حب الله تعالى، فلاشك أنّ حب المسلمين والمؤمنين في الله هو شعبة من الإيمان، لأنَّ هذا الحب هو حب الله في الله أيضاً، كما ورد ذلك في النصوص.

من ذلك ما رواه سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: **((ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان. ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله، وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله))**[2].

كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: **((من أوثق عرى الإيمان أنْ تحب في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله))**[3].

٥. الإحسان واليد العليا

وأمّا القاعدة الخامسة، وهي الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم. والإحسان إلى الناس يمكن تصوره على قسمين:

الأوّل: الإحسان العام

الإحسان إلى الناس عامة دون أنْ تكون هناك علاقة خاصة بين المحسِن والمحسَن إليه، كما هو الحال في مثل الأعمال العامة التي يقوم بها المحسنون، كإصلاح الطرق، وحفر الآبار، وبناء أماكن نزول الضيوف والزوار، وإيجاد الأوقاف العامة التي تبذل في إطعام الطعام، أو مساعدة الفقراء والضعفاء،

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٤٣٥، ح١٧.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٤٣١، ح٣.

(٣) وسائل الشيعة١١: ٤٣١، ح٢.

أو بناء المدارس العلمية، والمؤسسات التعليمية والصحية والثقافية[1]، وأمثال ذلك من أمور المعروف التي تعبّر عن الاهتمام بأُمور المسلمين عامة، والتي ينطبق عليها عنوان (في سبيل الله).

فإنّ هذه الأعمال وإنْ كانت من أفضل صنائع المعروف، ومصادر الإحسان، وفيها ثواب وأجر كبير، وآثار تكاملية للفرد والجماعة، وقد حث عليها الإسلام، فإنها من مصاديق الإحسان والمعروف التي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بموضوع العلاقات الاجتماعية؛ ولذا لا نبحث عنها في هذا الجانب، وإنْ كانت ترتبط بصفة عامة بالنظام الاجتماعي، وأشرنا إليها في بعض الأبحاث السابقة.

الثاني: الإحسان في العلاقات

الإحسان إلى الفرد والناس إحساناً مباشراً في المجتمع الإسلامي، وهذا النوع من الإحسان يعبّر عن القاعدة والركن الأساس الذي تستحكم به العلاقات الاجتماعية، وتتكامل من خلاله؛ لأنه مضافاً إلى ما فيه من تعبير عن المضمون الحقيقي للعلاقات الاجتماعية، وهو الحب والود، يكون الوسيلة القوية المؤثرة في كسب ودّ الآخرين وحبهم، كما يكون أحد الوسائل لتفادي المشاكل، وامتصاص ردود الفعل السلبية في العلاقات الاجتماعية، ومعبراً عن المستوى الأخلاقي العالي للإنسان، كما يبدو ذلك واضحاً في الروايات التي تؤكد أهمية صنع المعروف للناس مطلقاً.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((**اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى من**

---

(١) يمكن أنْ نجد الحث على هذه الأعمال والثواب المترتب عليها، وآثارها من كتاب وسائل الشيعة في الأبواب التالية من الجزء الحادي عشر: ١٦ و١٨ و١٩ و٢٠ من أبواب المعروف، وكذلك في أبواب الصدقات والزراعة والوقف.

ليس من أهله، فإنْ لم يكن هو أهله فكن أنت من أهله))[١].

وعنه عليه السلام قال: ((**اصنعوا المعروف إلى كل أحد، فإنْ كان أهله وإلاّ فأنت أهله**))[٢].

الإحسان إلى النفس

ومن أجل إيجاد الموازنة في هذا المجال نجد أنّ الإسلام قد جعل من الإحسان إلى الآخرين إحساناً إلى النفس، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾. ولذا لم يكتف أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال بالتأكيد للإحسان وحده، بل طلبوا من أتباعهم أنْ تكون يدهم هي العليا في الإحسان، حيث يكون مبدأ التنازل عن الحق لدى الآخرين أو الإحسان إليهم يعبّر عن حق من الحقوق في ذمة الإنسان المسلم اجتماعياً، وتكامل للفرد في ذاته، ويحقق في الوقت نفسه التكامل في العلاقات الاجتماعية.

فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ((**من خالطت، فإنْ استطعت أنْ تكون يدك العليا عليهم فافعل**))[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ قال: ((**كان يوسع المجلس، ويستقرض للمحتاج، ويعين الضعيف**))[٤].

وقال عليه السلام: ((**إذا خالطت الناس فإنْ استطعت أنْ لا تخالط أحداً من الناس إلاّ كان يدك العليا عليه فافعل، فإنّ العبد يكون فيه بعض النقيصة**

---

(١) وسائل الشيعة١١: ٥٢٨، ح١.

(٢) وسائل الشيعة١١: ٥٢٨ ح٢.

(٣) وسائل الشيعة٨: ٤٠١، ح١.

(٤) وسائل الشيعة٨: ٤٠٥، ح١.

من العبادة، ويكون له خلق حسن، فيبلغه الله بخُلقه درجة الصائم القائم))[1].

كما نجد في أخبار أحكام العشرة تأكيد موارد هذا الإحسان في تفاصيل كثيرة سوف نشير إلى بعضها في القسم الثاني إنْ شاء الله.

٦. القدوة والسلوك المتميز

وأمّا القاعدة السادسة: وهي القدوة في السلوك الاجتماعي على مستوى العلاقات، فهي تعبّر عن الركن الأساس الآخر في استحكام العلاقات الاجتماعية وتكاملها، وإيجاد أفضل وسيلة لتعليم الآخرين السلوك الأخلاقي في هذا المجال. وقد تحدثنا عن القدوة وآثارها النفسية والروحية ودورها الاجتماعي في رسالة خاصة، لعلنا نوفق لطبعها، كما أشرنا في هذا الكتاب إلى القدوة في عدة مواضع في الأهداف والخصائص والمحتوى الروحي والأخلاقي، فلا نحتاج إلى التكرار.

وقد ورد الحديث المؤكد عن أهل البيت عليهم السلام في إرساء هذه القاعدة، وبيان أهمية دورها في العلاقات الاجتماعية، عندما أوصوا شيعتهم بالالتزام بها، باعتبارها قضية مهمة، وعلامة مميزة في بناء الجماعة الصالحة، ودورها في الأُمّة، كما نلاحظ في الأحاديث التالية:

فعن أبي عبد الله عليه السلام في وصية له لشيعته قال: ((**فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل هذا جعفري، فيسرّني ذلك، ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر. والله لحدثني أبي عليه السلام أنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة**

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٥٠٤، ح٧.

علي عليه السلام فيكون زينها آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث. إليه وصاياهم وودائعهم، تُسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان؟ إنه آدانا للأمانة، وأصدقنا للحديث))[1].

وعن كثير بن علقمة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ((**أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، والورع والعبادة، وطول السجود، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وحسن الجوار؛ فبهذا جاءنا محمد صلى الله عليه وآله. صلّوا في عشائركم، وعودوا مرضاكم، واشهدوا جنائزكم، وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شينا. حبّبونا إلى الناس، ولا تبغّضونا إليهم. فجرّوا إلينا كل مودة، وادفعوا عنا كل شرّ**))[2].

وعنه عليه السلام قال: ((**كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع**))، وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام قال: ((**...ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية**))[3].

وبهذه القواعد والأُسس تتكامل النظرية، حيث نرى أنّ أبعادها الخمسة السابقة تقوم على أساس من القواعد والأركان المحكمة. وسوف تتضح هذه الحقيقة عند مراجعة المفردات والتفاصيل في القسم الثاني من هذا الباب، وهو البناء الفوقي للنظرية. إنْ شاء الله.

---

(١) وسائل الشيعة٨: ٣٩٨، ح٢.

(٢) وسائل الشيعة٨: ٤٠٠، ح٨ .

(٣) الكافي٢: ١٠٥، ح١٠، و٧٨، ح١٤.

المحتويات

الباب الأوّل
الأهداف والخصائص

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثاني
القواعد والأسس العامة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب الثالث

النظام العام للجماعة الصالحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الباب الرابع
نظام أمن الجماعة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الخامس
النظام الاقتصادي والمالي

الفصل الأول

الباب السادس
نظام العلاقات الاجتماعية العامة

الفصل الأول

الفصل الثاني



إنَّ وجود أُطروحة أهل البيت في الرسالة الإسلامية من أهم الأُطروحات الإسلامية ذات الأبعاد المتعددة، العقائدية والفكرية والثقافية والتأريخية والاجتماعية.

فهم امتداد للنبوة في خط الإمامة، وولاة الأمر الذين أوجب الله طاعتهم وولايتهم ومودتهم. كما أنهم عِدْلُ القرآن الكريم الذي هو الثقل الأكبر، وأهل البيت الثقل الآخر الذي لن يفترق عن القرآن، بل هم علماء القرآن - أيضاً - يفسرونه ويوضحونه ويبينونه ويكشفون غرائبه ويستخرجون كنوزه.